

كولن ولسون
ما بعد الحياة
ترجمة
محمد جلال عباس
دار الآداب

ما بعد الحياة

كولن ولسن

ما بعد الحياة

ترجمة محمد جلال عباس

دار الآداب

١
أصوات في الرأس

دكتـور آدم كرابـتري Adam Crabtree طبيب نفساني يقيم ويعمـل في تـورنتـو بكندا، بدأ يمارس عمله عام ١٩٦٦؛ ومثله مثل غالبيـة الأطباء النفسيـين سرعان مـا عرضت عليه حالات مرضى يسمعون أصواتاً في رؤوسهم.

تبيّن أخيراً أن مثل هذه الحـالات ليست بالقليلة، وأصبح من المؤكد أن سماع الصوت لا يعتبر الآن نوعاً من أنواع الجنون. وبـدأ الدكتـور جوليـان جاينـز Julian Jaynes دراسة الهلوسة السمعية بعد أن خبرها بنفسه حينما كان مستلقياً عـلى مضجعه فسمع من الهواء الـذي فوق رأسـه صوتـاً يخاطبـه. كان طبيعيـاً أن يقلق على حـالته الصحية، ولكنه سرعـان ما استراح حينما اكتشف أن نحـو ١٠٪ من الناس مصـابون بنوع من أنواع الهلوسة، وأن ثلث تلك الهلوسة تقـريباً تتّخـذ شكل أطيـاف صوتيـة، فقد أخبرته ربّة بيت شابة حالتها عادية بأنها تدخل في محاورة طويلة مع جدتها الراحلة كل يوم وهي تقوم بترتيب الأسرّة.

بالطبـع كان رأي جـاينز أن تلك الحـالات هي من قبيل الهلوسـات، وظلّ آدم كرابتري يشاركه هذا الرأي زمناً إلى أن قابلته حالة أثارت فيـه شكوكـاً أساسيّـة، هي حـالة سيّـدة تسمّى سارة ورثنجتـون كانت تحت العـلاج عند زميلة لـه تسمّى جيني، وبعد علاج أوّلي نـاجع أصيبت سـارة ورثنجتون بحـالة اكتئـاب دفعتهـا إلى محـاولـة الانتحار.

والتقى ثلاثتهم في مكتب كرابتري الذي بدأ يستطلع مشـاكلها، فكـان من بين ما طرحه من أسئلة سؤال عما إذا كانت تسمع في رأسهـا أصواتـاً، فاعـترفت بذلـك. وطلب منهـا كرابـتري أن تستلقي وتسترخي وتحـاول قـدر استـطاعتهـا أن تتـذكّـر مـا يـداخلها من أحـاديث، وسرعان مـا بدأ جسـدها يـرتعش، وصاحت قـائلة: «آه..

حرارة شديدة. . . أشعر بسخونة». وبينما هي تتحدّث لاحظ الطبيب النفساني وزميلته تغيّراً في صوتها. كانت سارة فاقدة الثقة في نفسها، ولكن شخصيتها الجديدة كانت تنطق بصوت ينمّ عن اعتياد ممارسة السلطة، وحينما سألوها عما تريد أن تفعله، أجابت من فورها: «أريد أن أساعد سارة»، فكان ذلك دليلاً واضحاً على أنها لم تكن آنذاك سارة ذاتها التي تتكلّم. وسألوها عن اسمها فأجابت: «اسمي سارة جاكسون» معتبرة نفسها بذلك الجدّة سارة. وشرح كرابتري أنه هو وزميلته جيني يحاولان مساعدة سارة، ثم أخذ يسأل من خلالها الجدّة سارة إذا كانت مستعدة للمساعدة من جانبها، فأجابت نعم. وانتهت بذلك الجلسة الأولى.

أُحضرت الجدة بسرعة في الجلسة التالية واستمرّت في حديثها عن حريق، ثم وصلت أثناء حديثها إلى مرحلة تحوّل مفاجيء وسألت «أين جاسون؟» وارتشح منها أن جاسون هذا هو ابنها؛ وأن النار التي تشير إليها هي حريق حدث سنة ١٩١٠، وأن الجدّة سارة جاكسون أسرعت إلى المنزل بمجرّد علمها بالحريق الذي شبَّ في شارعها، وكانت قد تركت ابنها جاسون البالغ من العمر سبع سنوات وحده بالمنزل. وجدت الحي كله مشتعلاً. صحيح أن الجيران قد أخرجوا جاسون ولكنها لم تكتشف ذلك إلا بعد ساعة أخرى كانت خلالها تجري في الطرقات كالمجنونة، وحرارة الحريق تكاد تخنقها. فانطبعت هذه الحادثة في أعماق مشاعرها.

وبناء على ما ذكرته الجدّة استحوذت على الحفيدة سارة ورثنجتون لترعاها حين كانت تعزف على البيانو فكلتاهما تحبّان الموسيقى. وسرعان ما تبيّن، رغم رغبتها في رعاية الحفيدة، أن سارة جاكسون نفسها كانت بحاجة إلى مساعدة، فقد امتلأت نفسها بشعور الأسى بسبب خطايا حياتها خاصة فيما يتعلّق بسوء معاملتها لابنتها أليزابيت والدة سارة. فقد حوّلت أليزابيت إلى فتاة عصابية غير سعيدة فأساءت بدورها معاملة ابنتها سارة، وأصبحت علاقة سارة بوالدتها صورة غريبة من علاقة أليزابيت بأمها سارة (الجدّة)، فكان كل منهما يفضّل الابن على الابنة وكل منهما يرى أن الذكور هم كل شيء وأن الإناث لا قيمة لهن. أدركت الجدّة ذلك إدراكاً تاماً حينما ماتت، وذلك هو السبب الذي جعلها تشعر بأن من واجبها مساعدة حفيدتها. وبدلاً من أن تقدّم يد العون تسبّبت في سوء حالتها حيث أصيبت سارة بالرعب والاضطراب من الأصوات التي تسمعها في داخلها، وأصبح اليأس يغمرها.

أما الآن، وقد انتقلت الجدّة جاكسون إلى العالم المفتوح، فقد أصبحت الأمور يسر، وأمكنها أن تقدّم للطبيب النفساني معلومات قيّمة للغاية عن خلفيّتها العائلية. ورغم أن سارة دهشت في أول الأمر حينما علمت بأن جدّتها هي التي تتحدّث من خلالها (أثناء الجلسات) إلا أنها أخذت تدرك تدريجياً كيف تتقبّل ذلك، وبدأت تتعمّق أكثر في تأمّل مشكلاتها، وبذلك شفيت تماماً بعد انتهاء شهرين من العلاج. ولئن ظلّت الجدة متواجدة باستحواذها فإن سارة أصبحت تتفهم سبب ذلك، ولم تعد تخشى شيئاً، بل إن شعورها بتواجد جدّتها، ولو بصورة غائمة، في خلفية حياتها، أدّى في الحقيقة إلى إحساسها بالسكينة.

وربما يتفق معي القارىء في الانطباع الذي تعكسه هذه القصة، فحينما قرأت مخطوطة الكتاب الذي ألّفه آدم كرابتري بعنوان «الرجل المتعدّد»، رأيت حتمية وجود تفسير سيكولوجي خالص. عرفت سارة جدّتها في طفولتها، وربما سمعت حكاية الحريق منها مباشرة، وربما أدركت مدى التشابه بين مشاكلها ومشاكل أمها، وأصبح عقلها الباطني يعيد حكايتها كمحاولة لتقبّل تلك المشاكل الشخصية قبولاً عقلانياً.

ومع استمراري في قراءة كتاب كرابتري (الذي أرسله لي الناشر لأكتب مقدمته) فقد زاد إدراكي بأن الكثير من تلك التفسيرات غير مقبول. إذ أنه يواصل فيه تقديم ثماني حالات أخرى تولّى علاجها. كل حالة منها تمثل نوعاً من أنواع الاستحواذ. وبعد أن قرأت الحالة الثالثة والرابعة، أخذ التفسير عن طريق العقل الباطني يبدو أمامي تفسيراً واهياً. وهناك حالة اخصائية اجتماعية تدعى سوزان، كانت تعاني من العجز عن ممارسة أي علاقة عادية مع أي رجل، وأدركت أن ذلك يرجع إلى شعور داخلي بالامتعاض والازدراء لأبيها. كان ذلك إدراكاً صحيحاً، واستطاع كرابتري أن يخاطب أباها ـ الذي مات في حادثة سيارة من خلالها ـ كما تحدّث مع الجدّة سارة. فعلم منه أنه كانت لديه رغبة جنسية عارمة في ابنته، فلما بلغت السادسة عشرة من عمرها حدث أن دخل إلى حجرتها خلسة بعد أن نامت، وأخذ يتحسّس مواضع من جسمها فأدركت من اللاوعي ما يحدث، وعرفت رغبته الجنسية فيها، فعاملته بازدراء شديد وتصرّفت بتبجّح رغم أنها كانت تستمتع بذلك الجديد من الإحساسات التي اكتشفتها من طاقتها الجنسية، وأدّى ذلك إلى شعورها بالخجل، وامتدّ الازدراء إلى علاقاتها مع أصدقائها الشبّان حينما كانت تضاجعهم، مما كان يسبّب إثارة المشاكل

معهم. وحينها مات أبوها في حادثة السيارة اتخذ من لاوعي ابنته ملجأ. فكانت تتألم بشدة من اقتحامه لها وتدخّله في كل ممارساتها الجنسية. وتواجد الأب في داخلها ذات مرة غائماً في نعاسها، ولم تكن تتبينّ شخصيته أو وضعه الحالي، وحاول كرابتري بإصرار شديد أن يشرح لسوزان أن أباها ميّت بالفعل. وفي يوم من الأيام لم يظهر أبوها في الجلسة العلاجية، فغمر سوزان شعور بالارتياح والتحرّر.

وتحدّث عن حالة أخرى مدهشة ولكنها خدّاعة، هي حالة أستاذ جامعي يدعى آرن، كان قد فشل في زواجه الأول. وكان على وشك عقد زواجه الثاني، وأحسَّ آنذاك بشعور عميق بالزهد في هذا الزواج. وارتبط ذلك الشعور بعواطف قوية منبثقة من داخليته وتخرج عليه بأصوات تعيب عليه وتنتقده هو والكثيرين ممن يعرفهم من الناس. وأدرك بصورة غائمة أن ذلك الصوت يشبه أمه التي كانت تعيش في دترويت، وتوصّل بنفسه إلى تفسير معقول لذلك، وهو أن الصوت يمثل الجانب السلبي من ذاته، وأنه يحتوي في داخليته الكثير من أمه التي كانت شديدة الاستحواذ عليه.

اتبع كرابتري إجراءاته المعتادة، فوضع الأستاذ آرت موضوع الاسترخاء العميق وبدأ من خلاله حواراً مع أمه التي كانت تسمّى فيرونيكا. كانت فيرونيكا مستعدّة للتحدّث بكل التفاصيل عن علاقتها بابنها وعن الأسباب التي تجعلها لا تحبّذ علاقاته الكثيرة مع الأصدقاء. أظهرت فيرونيكا على حقيقتها بلا مواربة بسذاجتها كشخصية أنانية. . . وأوضحت أنها كانت ببساطة تعلّم ابنها أن الكثير ممن يثق فيهم، بمن في ذلك زوجته المقبلة، أغبياء وانتهازيون وغير جديرين بالاحترام.

وسألها كرابتري عما إذا كانت تعتقد في أن هذا التدخل لمصلحتها أو حتى لمصلحة ابنها، فاعترفت أخيراً وكانت إجابتها بالنفي. كانت حياة فيرونيكا في مدينة ديترويت مضطربة منحلّة. فأشار كرابتري عليها بأن توجّه لشؤونها الخاصة المزيد من الاهتمام، وأن تقلّل من اهتمامها بشؤون ابنها، لأن ذلك قد يساعد على تحسين أحوالها.

اكتشفت والدة آرت أثناء إحدى الجلسات أنها مصابة بورم سرطاني، وأنها تحتاج إلى عملية جراحية، ووافقت وهي تتحدّث على لسان ولدها آرت، على أن

ثُمَّ ربما يرجع إلى أنها تسلب من نفسها الحيوية باستحواذها على ابنها. عند هذه النقطة بدأ صوت آرت الداخلي يخبو تدريجياً حتى اختفى تماماً من مسمعه، ولكن حدث آنذاك تغير واضح في أمه المتواجدة في ديترويت، فبعد أن كانت تمرّ بمرحلة انهيار بطيء وابتعاد وجداني عن الحياة بدأت الحيوية تدبّ فيها من جديد، وبدأت تخرج لتكوين أصدقاء، ويبدو أنها اكتسبت الحكمة التي تقول باغتنام فرص جديدة في الحياة.

ويصرّ كرابتري على أن نظرته إلى هذه الحالات ليست نظرة من يعتقد في ما هو خارق للعادة، بل إنه مجرد مراقب يسجّل الملاحظات عن كل حالة من الحالات التي تعرض عليه على أنها حالة استحواذ. ومن الواضح أن ليس هناك ما ينقض الفكرة التي تقول بأن كلاً من سوزان وسارة وآرت كانوا يصطنعون تلك الأصوات بأنفسهم، فالعقل الباطن قادر على ما يتجاوز ذلك العمل بكثير، ولكن تبقى حقيقة هامة هي أن معظم القرّاء سوف يشعرون بأن تلك الحالات، لو أخذت جملة فسوف ينشأ عنها انطباع غامر عن وجود شيء أكثر من الخداع اللاشعوري للنفس.

رجعت إلى دكتور جوليان جاينز لأتعرّف عما يقوله بشأن تلك الأصوات الخفيّة، فوجدت أنه يلخّص نظريته في كتاب له بعنوان «أصل الوعي في حالة انهيار العقل الازدواجي (Bicameral mind)» الذي نشر عام ١٩٧٦، والعقل الازدواجي هو ببساطة انقسام العقل إلى شطرين. ويقدِّم جاينز في هذا الكتاب نظرية غير عادية تقول بأن أسلافنا القدماء كانوا يسمعون الأصوات بصفة مستمرة، والسبب في ذلك ـ حسب رأي جاينز ـ هو أن الإنسان الأول كان يفتقر إلى معرفة ذاته بالمعنى الحديث لهذه المعرفة. ويعتقد جاينز أن إنسان الكهوف من أسلافنا لم تكن لديه القدرة على تأمّل نفسه من داخلها. فهو لا يحدث نفسه قائلاً: «فلأفكّر في كذا أو كذا...» ولأن أسلافنا كانوا يفتقدون الأنا الداخلية كانت أعينهم أشبه ما تكون بمصابيح السيارة تتجه إلى الخارج مباشرة في اتجاه واحد دائم، فإذا ما صدر الأمر لأحدهم بأن يذهب ليبني سدّاً على النهر فسيصعب عليه أن يتذكّر لماذا هو سائر ذهاباً وجيئة على شط النهر هكذا.. وإنما يتأتّى شعوره بالغرض حينما يسمع صوت الزعيم وكأنه هابط على رأسه من الهواء، وقد يكرِّر الصوت التعليمات نفسها.

فمن أين إذن يأتي ذلك الصوت؟ يذكر جاينز أنه يأتي من الجانب الأيمن من

الدماغ، لأن نظرية جاينز تعتمد لدرجة كبيرة على البحوث التي تمت في علم انقسام الدماغ، التي أحرزت تقدماً كبيراً خلال الخمسينات.

ولسبب ما لا يفهمه أحد حتى الآن ينقسم الدماغ فعلاً إلى شطرين متماثلين. كما لو كانت هناك مرآة تفصل بينهما (بل إن هناك رأياً يقول بأن أحد هذين الشطرين هو بمثابة قطعة غيار للآخر). أما الجزء العلوي من الدماغ والذي يقع تحت عظمة الجمجمة مباشرة، فإنه الجزء الذي يميِّز الإنسان، وذلك هو الذي يسمى المخ (Cere-brum) أو نصف الكرة المخية (Cerebral Hemisphere). وقد مرَّ هذا الجزء بتطورات ملحوظة خلال النصف المليون سنة الأخير (وهي بمثابة طرفة عين في مجرى الزمان). وإذا أمكن كشف الجزء الأعلى من الجمجمة فإن شطري الدماغ سوف يبدوان كفصّين في الجوزة، ويتكون الجسر الموصل بينهما من شبكة من الأعصاب تسمَّى المجموع التقني (Corpus Callosum).

ولقد شاع منذ أكثر من قرن أن الجزء الأيسر من نصف الكرة المخيّة هو القسم الخاص باللغة والتفكير المنطقي، بينما يختص الجزء الأيمن بأنماط الصور والحدس. فالشطر الأيمن مثلاً هو الذي يساعدنا على ترتيب الأرقام. أما الشطر الأيسر فيساعدنا في التعرّف على وجه شخص معيّن. ويمكن القول بصفة عامة إن الشطر الأيسر علمي والشطر الأيمن فنّي. فالإنسان الذي يصاب الشطر الأيسر من دماغه بالعطل ربما يجد صعوبة في الكلام ولكنه يستطيع أن يرسم صورة أو يدندن بنغم. أما إذا تعطّل الشطر الأيمن فسيظل منطق الإنسان متكاملاً ومترابطاً ولكنه ربما لا يستطيع أن يرسم ولو شكل رجل في خطوط مبسّطة.

والشيء الغريب هو أن الجسر الذي يوصل بين الشطرين، وهو المجموع التقني إذا ما أصابه التمزّق (كما يحدث في بعض الأحيان لمنع الصرع)، فإنّ المريض يصبح من الناحية النظرية شخصيتين. حتى أن مريضاً بانفصال الدماغ قد يفكّ فتحة سرواله بإحدى يديه ويغلقها باليد الأخرى. وهناك من يحاول، في لعبة تركيب الأجزاء، أن تتولّى إحدى يديه التركيب وتتدخّل الأخرى لفكّها، فيضطر أن يضع يده الأخرى تحته ويجلس عليها. (وجدير بنا أن نضيف هنا أن الشطر الأيمن من الدماغ هو الذي يتحكّم في الجانب الأيسر من الجسم والعكس صحيح، وبذلك نكون أمام ظاهرة أخرى ما زال سببها غامضاً حتى الآن).

بيد أن أكثر الاكتشافات أهمية هو أن الشخص الذي تسمّيه (أنت) يعيش في الشطر الأيسر من الدماغ. أما الذي يعيش في الشطر الأيمن فهو آخر غريب. ولقد عرضت ذات مرة صورة عارية على فتاة مريضة بالانفسام الذهني لتنظر إليها عن طريق الشطر الأيمن من الدماغ (أي بعينها اليسرى) فاحمرّت خجلاً. ولما سئلت عن سبب شعورها بالخجل قالت: «لا أعلم».

ويعتقد جاينز أن تلك الأصوات الخفية (غير المحيّرة) تأتي من ذلك الشخص الآخر الذي يتواجد في الشطر الأيمن. والذي يحدث هو أن الصوت يتردّد في الشطر الأيسر من الدماغ وهو ذاتك أنت ـ كما لو كان آتياً من مكبّر الصوت.

وهناك اعتراض واضح على هذه النظرية، فإن جاينز نفسه ليس من المصابين بالانفصام الذهني، ومع ذلك فإنه يمر بهلوسة سمعيّة. وينطبق هذا أيضاً على مرضى الدكتور آدم كرابتري. والإجابة المذهلة على ذلك هي أن كل فرد منا مصاب بدرجة من درجات الانفصام الذهني، وليس لكل فرد اتصال من قريب أو بعيد بأعماق تلك النفس الحدسيّة. وحول ذلك ذكر موزارت يوماً أنه لاحظ النغمات تدخل في رأسه بكامل هيئتها. وواضح أنه يقصد بذلك أن النغمات تأتي من الجانب الأيسر للدماغ، وهو الأنا، منتقلة من النصف الثاني الذي يخلق النغمات والصور. وإذا كان موزارت هكذا مصاباً بالانفصام الذهني فلا بد أن بقية الناس مصابون به بالتأكيد.

وطبقاً لما ذكره جاينز، كانت الأصوات تسير بكامل هيئتها إلى الشطر الأيسر من أدمغة أسلافنا. ولقد زعموا، دون أن ينبني الزعم على فهم واضح، أنها الأصوات الإلهية، أو صوت الإله، ولذا جاء في العهد القديم وفي الإلياذة أن الناس كانوا دائماً يتلقّون خبراً ما ليفصلوه بواسطة أصوات مقدسة.

ولا يتصل هذا العنصر من نظرية جاينز بدراستنا هذه، ولكن كل ما يهمنا منه هنا هو اعتقاده بأن الأصوات تأتي أصلاً إلى الجانب الأيمن من الدماغ، وأن الإنسان يسمع مثل تلك الأصوات منذ بداية البشرية. ولو كان ذلك حقاً فلا شك في أنه يفسر لنا بوضوح صوت جدّة سارة، وصوت والد سوزان، وصوت والد آرت. وتبدو هذه الحالة الأخيرة في حقيقتها أكثر إقناعاً وقبولاً من الحالات الأخرى، وذلك لأن

هناك امرأة حية تعيش في ديترويت، وتستطيع بطريقة أو بأخرى أن تتسلّل إلى أعماق رأس ولدها الذي يعيش بعيداً عنها في تورنتو.

اتّجه جاينز إلى مناقشة الأصوات التي يسمعها المصابون بأمراض عقلية، فلاحت أمامه بعض شكوك، فأشار إلى أن معظم الحالات التي تناولها بالدراسة تتضمن نوعاً من الشيزوفرانيا أي الفصام. ويقول في ذلك: «إن المخاطبة والتهديد واللعنات والنقد والمشورة، غالباً ما تأتي في شكل جُمل قصيرة، وقد تكون استحثاثاً أو تعزية أو نحيباً أو نخيراً، وقد تتراوح بين الهمس البسيط والصياح العاصف. وغالباً ما تتخذ تلك الأصوات شكلاً معيناً يتكرّر، كالحديث البطيء أو الحديث بالمقاطع أو قد يأخذ شكل نغم أو إيقاعات، وأحياناً يكون الحديث بلغة أجنبية. وقد لا يكون الصوت واحداً في كل مرّة، وفي هذه الحالة غالباً ما تكون قليلة في تنوعاتها، ولكن قد تكون كثيرة التعدّد في حالات قليلة للغاية...».

أما عن الأصوات كما وصفها كاربتري، فإنها ليست جميعاً من قبيل الثرثرة غير المفهومة، بل إنها مخاطبات واضحة مثل كلام أي شخص عاديّ. وينطبق ذلك على ربة البيت التي طالما كانت تتحدث مع جدتها وهي ترتب الأسرّة. ولا يوجد سبب يدعو إلى القول بأن الأصوات الطيفيّة ليست كصوت الشخص العادي. ولكن يبدو حقاً أن أغلبها ليس كذلك.

يتأكد هذا في الدراسة التي قام بها عالم نفساني آخر هو دكتور ويلسون ڤان ديوسين Willson Van Dusen الذي كان يعمل في مستشفى الولاية بمدينة مندوسينو بكاليفورنيا. قضى ڤان ديوسين ستة عشر عاماً يسجّل ملاحظات عن آثار الهلوسة، وجمع نتائج تلك الملاحظات في فصل عنوانه «تواجد الأرواح في حالات الجنون» وذلك في كتابه الذي نشر بعنوان «تواجد العوالم الأخرى». وتعتبر النتائج التي توصل إليها أكثر إدهاشاً من تلك التي توصل إليها جوليان جاينز.

يوضح لنا ڤان ديوسين أن معظم المرضى الذين يهلوسون يفضلون أن يحتفظوا بخبراتهم لأنفسهم لأنهم يعلمون تمام العلم أنها قد تؤخذ كدليل على إصابتهم بالجنون. بيد أن إحدى المريضات كانت متعاونة فطلبت إلى الدكتور ڤان ديوسين أن

يتخاطب مع هلوستها، ففعل ذلك. وبالطبع لم يحصل على إجابات مباشرة على أسئلته، وكان عليه أن يطلب من المريضة أن تصف له بالتفصيل ما تسمعه وما تراه، ومع ذلك لم يكن هناك ما يمنع أو يوقف ڤان ديوسين عن مخاطبة الهلوسة مباشرة، وعلى حد قوله: «استطعت بهذه الطريقة أن أجري حواراً طويلاً مع هلوسات مرضى، وسجلت كل أسئلتي مع إجاباتها». ويتمسك ڤان ديوسين مثل آدم كاربتري بالقول: «إن منهجي هو تسجيل الظواهر، وغرضي الأوحد هو توصيف خبرات المريض بأعلى قدر من الدقة، وقد يلاحظ القارىء أنني أتعامل مع الهلوسات على أنها حقائق واقعة. كما هي في الواقع بالنسبة للمريض».

ومن النتائج الثابتة كما يذكر ڤان ديوسين، أن المرضى يشعرون كما لو أنهم على اتصال بعالم آخر أو طبقة أخرى من الكائنات. وأغلبهم كان يعتقد ان الأشخاص الغرباء أحياء، وأن جميع المرضى كانوا يعارضون تسمية ذلك هلوسة. . .

. . . تأتي الهلوسة بالنسبة لمعظم الأفراد بصورة مفاجئة، فهناك امرأة كانت تعمل في الحديقة، فسمعت صوت رجل خفيّ يخاطبها، ووصف رجل آخر أصواتاً عالية تفاجئه ويسمعها أثناء ركوبه الحافلة. كان أغلب المرضى يفزعون من الأصوات في أول الأمر. ثم يعتادون على تلك الخبرة الجديدة الصعبة. ويصف كل المرضى الأصوات بأنها لا تخرج عن كونها أصواتاً عادية. وكان كل ما يصفونه عما يحدث لهم لا يشبه بحال من الأحوال الظنون أو الخيالات، فإن ما يرونه يبدو لهم حقيقة واقعة. مثال ذلك وصف أحد المرضى حالته بأن ضباط القوات الجوية أيقظوه في إحدى الليالي لاستدعائه للخدمة الوطنية، فصحا، وبينما هو يلبس ثيابه لاحظ أن الشارات التي يحملونها لم تكن حقيقية، فأدرك أنهم من عالم الكائنات الأخرى، واستجمع قبضته ليضرب أحدهم على وجهه، فإذا يده تصدم الحائط وتجرح. وذلك يدل على أنه لم يميزهم عن الأشخاص الحقيقيين إلا حينما رأى الإشارة. . . .».

ويدرك معظم المرضى بسرعة أن ما يحدث لهم لا يشاركهم فيه غيرهم، ولهذا السبب فإنهم يحرصون على الصمت وكثير منهم يعانون من السباب والتهديدات والاعتداءات التي تستمر لسنوات من جانب أصوات يسمعونها دون أن يسمعها مَنْ حولهم.

ربما كان من أهم النتائج التي توصل إليها ڤان ديوسين علمه بأن مرضاه قد يتراءى لهم أنهم يستمعون إلى نوعين متميزين من الأصوات، ويتحدث عن هذين النوعين على أن أحدهما صوت الطبقة العليا والثاني صوت الطبقة الدنيا.

فالأصوات التي تأتي من الطبقة الدنيا تشبه ما يصيح به السكارى في الحانات بقصد الإثارة والإغاظة على سبيل التسلية، وتدعوهم تلك الأصوات إلى القيام بأعمال مشينة ثم توبّخ على مجرد التفكير في ذلك، فهي تبحث دائماً عن نقطة ضعف في الشخص. مثال ذلك: سمع رجل أصواتاً

استمرت تلومه لمدة ثلاث سنوات على استدانته ثلاث بنسات ـ كان قد سددها بالفعل. ولكنّ تلك الأصوات ظلت تنادي الشخص بكل ما يمكن أن يتصوَّره من أسماء بذيئة، وتستحثّه على فعل كل أنواع الفواحش وتسلبه ذاكرته ووعيه، وتهدده بالموت، وتتلاعب بكرامة المريض بكل الوسائل، فمثلاً تفخر بأنها ستوقع به الكوارث في الغد، وتهدده بأن لها سلطة على إحدى الصحف اليومية، وقد تدعوه إلى القيام بأفعال تافهة، كأن تأمره برفع اليد اليمنى وإبقائها مرفوعة هكذا. ثم تهزأ به وتغيظه إذا فعل ذلك، أو تهدّده إذا لم يفعل.

ويبدو بوضوح أن مثل هذه الهلوسات تأتي من «الطبقة الدنيا» وهي تشبه لحد كبير سلوك الأطفال الذين لا يجدون ما يفعلونه.

فالعبارات والأفكار التي تستخدمها كائنات الطبقة الدنيا محدودة، ولكنها تتميز بإصرارها على الهدم، وهي تقتحم كل زاوية أو ركن خفيّ من خصوصيات الفرد، وتستخدم كل نقطة ضعف فيه. وفي اعتقاداته، وتدعي لنفسها قوة خارقة، وتقدم الوعود ثم تتآمر على عقل المريض...

وقد تتكرَّر بعض تلك الأفكار القليلة بلا نهاية، فهناك صوت استمر أحد المرضى يسمعه على مدى شهور متعاقبة يقول له «هاي» وحاول المريض التعرف على القصد من كلمة «هاي» هل هي «Hey» المعنى حشائش مجففة أو «Hay» للتحية أو لفت النظر. وحينما كنت أتحدث مع مهندس.. وعجز تماماً عن القيام بأي عمليات حسابية خلال العمليات البسيطة. ويبدو أن أصوات الطبقة الدنيا لا تستطيع أن تبرر نفسها رغم ادعائها في أغلب الأحيان أنها تنتمي إلى مدينة بعيدة، ولا تستطيع أن تقدم أكثر مما يسمعه المريض منها ويراه ويتذكره، فيبدو أنها محبوسة في المستوى الأدنى من عقل المريض...

هكذا تعتبر الطبقة الدنيا «مصدر تعذيب» ولكن هناك نحو خُمس حالات الهلوسة تنتمي إلى كائنات «الطبقة العليا». ومن الواضح أن هذه تختص بمساعدة المريض، وغالباً ما تكون الطبقة العليا أكثر رمزية وتمسكاً بالدين، ومعينة وبنّاءة، وهي قادرة على الدخول مباشرة إلى أعماق ومشاعر المريض، فهي بذلك تشبه الأنماط الأصلية Orchytypes كما عند جونج، بينما أصوات كائنات الطبقة الدنيا تشبه الغير «Id» عند فرويد.

ويشير ڤان ديوسين إلى حالة عامل من عمال تركيب المواسير خبر هلوسة آتية من كائنات الطبقة العليا وهي امرأة جميلة تعرض عليه آلاف الرموز. ويذكر ڤان ديوسين «أن رؤية ذلك الرجل للمرأة تبينت فيها معرفة واسعة بالدين والأساطير بدرجة تتجاوز كثيراً حدود وتفهُّم «ذلك الرجل». وبعد أن أجرى ڤان ديوسين الحوار مع هذه الهلوسة الآتية من طبقة عليا استفسر منه عامل الأنابيب عن أحد الموضوعات التي كانت موضوع حديث وكأنه يستفسر عن لغز غامض.

ويقرر ڤان ديوسين أنه عَلِمَ من كائنات الطبقة العليا أن غرض كائنات الطبقة السفلى هو أن تهيىء للشخص نقاط الضعف فيه، بينما غرض الطبقة العليا أو أحد أغراضها كما يبدو هو حماية الناس من الطبقة الدنيا.

ويمكن تصوير التفاوت بخبرات رجل كان يسمع الطبقة الدنيا تجادل بعض الوقت في كيفية قتله. وأتى لنفس الرجل ضوءٌ في خلال الليل مثل الشمس، فعلم أنه من طبقة أخرى من الكائنات لأن الضوء كان يحترم حريته فيتراجع إذا ما شعر الرجل أنه من طبقة أخرى من الكائنات لأن الضوء كان يحترم حريته فيتراجع إذا ما شعر الرجل بالخوف. وعلى العكس من ذلك تماماً فإن الطبقة الدنيا تعمل ضد إرادته، وربما تهاجمه إذا ما لمست فيه الخوف. ونادراً ما تتكلم تلك الطبقة العليا بينما نجد الطبقة الدنيا تستطيع أن تواصل الكلام بلا نهاية.

وبينما تكون كائنات الطبقة الدنيا غير متدينة أو ضد الدين ويشتدّ غضبها إذا جرى أي ذكر للدين فإن الطبقة العليا كانت تبدو دائماً موهوبة حساسة وحكيمة ومتديّنة.

ولڤان ديوسين ملاحظة بالغة الأهمية عن الهلوسة، فعلى الرغم من أنه لاحظ الكثير على مدى السنين إلا أنه سرعان ما أدرك بعد أن مر عليه عشرون مريضاً أنه لا يوجد الجديد الذي يمكن أن نتعلمه، لأن الهلوسات كلها كانت متساوية. ويبدو أن هذه الملاحظة في حد ذاتها مربكة، فأولاً قد يتوقع الإنسان أن توجد تنوعات مختلفة من الهلوسة بتنوع البشر، مثال ذلك أننا قد نتوقع أن تكون هلوسة البيطريين مخاطبة الحيوانات وهلوسة المهندسين عذاباً بمخاطبة الآلات، وقد تكون هلوسة البستانيين محاصرة النباتات والأشجار لهم وهي تتحدث إليهم. وربما ترتبط هلوسة أمناء المكتبات بمحادثة الكتب، وهلوسة أطباء الأسنان بالتحدث مع أطقم الأسنان. ولكن الحقيقة أن مثل هذه الأشياء لا وجود لها، فجميع الهلوسات النابعة من كائنات الطبقة الدنيا متشابهة، وكذلك تلك الناتجة عن الطبقة العليا، وقد يعني ذلك إمّا أن هناك تشابهاً في أجزاء عقولنا التي تخلق هذه الهلوسات، أو أن هناك شيئاً أغرب من ذلك بكثير.

ويميل ڤان ديوسين إلى الاعتقاد بأن هناك شيئاً أغرب، فمن خلال اهتماماته بدراسة ظواهر النعاس وهي الأحلام والرؤى التي تمرّ بنا أحياناً ونحن على حافة النوم، رجع الى كتابات الكاتب السويدي المتديّن الصوفي إيمانويل سويدنبرج «Emmanuel Sweedenborg» الذي امتلأت مذكراته عن الأحلام بالمادة العلمية

الخام لأيّ محلّل نفساني. فإنه بعد أن قضى فترة ناجحة من حياته كمهندس وجيولوجي مرت به أزمة عقلية في سن الخامسة والستين من عام ١٧٤٤، تراءت له خلالها كوابيس رهيبة: كأنّ تمسك به عجلة آلة من الآلات الضخمة، أو أن يضاجع امرأة فيجد في فرجها أسناناً تقبض عليه، إلى غير ذلك. وأخيراً رأى في المنام أنه يخاطب السيد المسيح، فترك العلم وتحول إلى دارس متفرغ للكتاب المقدّس، وكانت نتيجة هذا التحول أن أصدر مجموعة من المؤلفات تتضمن لاهوتياته، وأصبح واحداً من أكبر المؤثّرين في الفكر الديني في عصره.

ومما جعل كتب سويدنبرج غير عادية أنه ادعى قيامه بزيارة السماوات والجحيم بالفعل، وأنه قد دخل مع الملائكة ومع رجال الدين السابقين في جدل لاهوتي طويل، (وادعى أنه هو الذي حول مارتين لوثر بالفعل إلى لاهوته الخاص، ولكنه لم يستطع أن يقنع جون كالفين). وكان من السهل رفض ذلك كله باعتبار أنه أوهام خداعة كمتدين مخبول، لكنه استطاع أن يقدم بعض الأدلة الواضحة على أنه كان على اتصال بالموتى. فلقد طلبت ملكة السويد من سويدنبرج أن يبعث بتحياتها لشقيقها الراحل - ربما فعلت ذلك من قبيل التهكم أو الدعابة، ولما حضر سويدنبرج حفل الاستقبال التالي الذي أقامته الملكة أبلغها ردّ التحية من شقيقها الراحل، وقال إنه يعتذر لأنه لم يردّ على خطابها الأخير. حينئذ امتقع وجه الملكة وقالت بتعجب شديد: «لا أحد يعلم بهذا الخطاب إلا الله وحده». كذلك طلبت أرملة السفير الهولندي الذي كان قد توفي أخيراً، من سويدنبرج أن يتصل بزوجها الراحل بشأن فاتورة وصلتها من صائغ الذهب، وذكرت أنها تعتقد أن زوجها قد سدّد الفاتورة. وبعد أيام قليلة جاءها سويدنبرج وأخبرها بأنه تحدث مع زوجها وأن الإيصال موجود في درج سرّي بمكتبه. ولم تكن أرملة السفير تعلم شيئاً عن هذا الدرج ولكنه كان المكان الفعلي الذي وجدت فيه الإيصال.

وقد وصف سويدنبرج أيضاً، بشيء من الإسهاب، ما يحدث حينما تستحوذ الأرواح على أي إنسان. ولقد دهش فان ديوسين من التشابه الكبير بين هذا الوصف وبين الملوسات التي وصفها له مرضاه في مستشفى الولاية في مندوسينو. فردّ سويدنبرج أن الأرواح والملائكة قادرة على مخاطبة الإنسان مباشرة، وذلك بالدخول بطريقة خفية إلى جهازه السمعي، وبالتالي يكون تأثيره عليه من خلال السمع.

وواصل سويدنبرج وصفه قائلاً: «إن التحدث مع الأرواح في هذه الأيام نادراً ما ينجح لأنه خطر. . . » ويعني هذا بوضوح أنه قد أتى على الإنسان حين من الماضي كان باستطاعته أن يخاطب الأرواح مباشرة. والتفسير الذي يقدمه لنا سويدنبرج لذلك، هو أن الأرواح لا تعلم في العادة «أنها مع الإنسان» لوجود نوع من الحاجز بين كينونتها أو واقع تواجدها وبين وعي الإنسان ذاته. فإذا استطاعت تلك الأرواح أن تخترق ذلك الحاجز، أو سمح لها بذلك عن طريق إنسان يحاول الخوض في الغوامض، فإنها تصبح مصدر إزعاج، «فالأرواح الشريرة تنظر إلى الإنسان نظرة بغض وكراهية شديدة، ولا تريد إلا أن تدمّر جسده وروحه. ويشير سويدنبرج أيضاً إلى أن الحاجز الذي يفصل بين الأرواح وبين وعي الإنسان قد يحطمه الناس الذين يتمادون في الخيالات لكي يبتعدوا بأنفسهم عن الملذّات التي يستمتع بها الإنسان الطبيعي». ويعلق ڤان ديوسين على ذلك بقوله: «إنه وصف جيِّد جداً لما نسميه الآن الفصام أو الشيزوفرانيا» (وعلينا أن نعلم أن الشيزوفرانيا أو الفصام لا يقصد بها انفصام الشخصية بالمفهوم الحديث الخاطىء وإنما ببساطة الخروج عن الواقع).

ويذكر ڤان ديوسين أن كل ملاحظات سويدنبرج عن تأثير الأرواح الشريرة يتفق مع اكتشافاته، ويشير إلى أن بعض الفقرات التي أوردها سويدنبرج تتضمن وصفاً لخصائص «كائنات الطبقة الدنيا» مثل إصرارها على تحطيم الإنسان، وقدرتها على إثارة الفزع أو إحداث الألم، وميلها إلى الإرهاب والتهديد والغش والكذب ومهارتها الفائقة في التنكر. كل هذه الخواص التي تميز «كائنات الطبقة الدنيا» كما يحس بها المرضى قد جاء وصفها بالذات في كتابات سويدنبرج. ومما زاد دهشة ڤان ديوسين أن تلك الكائنات تكره الدين.

«فلو أن الأصوات التي يسمعها المريض هي مجرد ظهور اللاوعي عنده، فلن يكون لديّ أي مبرر لأن أتوقع تأييدها أو عداءها للدين، بيد أن كائنات الطبقة الدنيا يمكن أن يُعتمد عليها لتنطق بأقذع التعليقات البذيئة عن أي أوامر دينية». ويذكر سويدنبرج أيضاً أن كائنات الطبقة الدنيا تتسلط باستخدام التفاهات والدناءة، وهذه نقطة أخرى من النقاط التي لاحظها ڤان ديوسين.

ومما لاحظه ڤان ديوسين كذلك أنه على الرغم من أن كائنات الطبقة الدنيا تدّعي كونها أفراداً، إلا أنها نادراً ما تظهر أي شيء عن هويتها الشخصية، ولقد

أوضح سويدنبرج أن الذاكرة الشخصية تُنتزع منهم عند الموت، ولذلك تفتقر كائنات الطبقة الدنيا أن تعتمد على ذاكرة وقدرات الشخص الذي تستحوذ عليه. وهناك تشابه واضح للغاية بين أرواح سويدنبرج وكائنات الطبقة الدنيا من حيث محاولة الاستحواذ على عضو من أعضاء المريض أو جزء من جسمه. «فالكثير منها قد اتّخذ من آذان المريض مجالاً لها حتى يبدو أن الصمم يزداد عند المريض، ويظل صوت آخر لمدى سنين عديدة يعمل كي يأسر عين المريض فيفقدها حدّة الإبصار» وغالباً ما تحاول الاستحواذ على فرج الإنسان، «وقد وصفت سيدة مريضة العلاقة الجنسية بينها وبين الروح الذكر الذي استحوذ عليها على أنها كانت أكثر إمتاعاً وأكثر عمقاً من الممارسة الجنسية المعتادة».

وهناك تشابه مذهل بين كائنات الطبقة العليا التي يصفها المريض وبين ما يسمّيه سويدنبرج «الملائكة»، إذ تتميز الملائكة بالحنان وحب المساعدة والحكمة. ويرجع السبب في قلة كلامها إلى أن «العقل الداخلي» للإنسان لا يفكر بالكلمات ولكن يفكر في «أمور عامة تتضمن الكثير من الجزئيات» أو باختصار يفكر ببصيرة حدسية نافذة، وهي وظيفة عقلية سليمة، أو هي بمعنى آخر «ملائكة تتحدث من خلال الشطر الأيمن من نصف الكرة الدماغية التي تفضّل الرموز». يذكّرنا هذا بمريض ڤان ديوسين عامل تركيب الأنابيب الذي كشف عن مئات الرموز العامّة عن طريق نصائح كائنات الطبقة العليا من خلاله في مدى ساعة واحدة. ويذكر سويدنبرج أيضاً أن أرواح كائنات الطبقة العليا قادرة على رؤية أرواح الطبقة الدنيا، ولكن العكس غير ممكن ـ وهذا يتفق مع الخبرات التي اكتسبها ڤان ديوسين.

ولقد كان ڤان ديوسين ميالاً للتعبير عن دهشته بشأن السبب الذي يجعل هلوسات الطبقة العليا أندربكثير من هلوسات الطبقة الدنيا (نحو خُمس عددها) ويقدم سويدنبرج تفسيراً لذلك بأن الملائكة تستحوذ على العمق الداخلي الأقصى في الإنسان. وأن تدفّقها ضمني، وعلى ذلك فهي ببساطة أقل ظهوراً من الأرواح العدوانية التي تريد أن تكتسب اعترافاً بتواجدها.

وهنا نتساءل: ما فائدة كل هذا الكلام؟ يصرّ كل من كاربتري وڤان ديوسين على أنهما يحاولان العمل كمراقبين فحسب، ويقصدان بذلك ضمناً أن باستطاعة القارىء أن يختار لنفسه الأرواح أو العقل الباطن تفسيراً للظواهر. بيد أننا لاحظنا

فان ديوسين يميل إلى التساؤل بدهشة عن السبب الذي يجعل «كائنات الطبقة الدنيا» تظهر عداءها للدين، فكيف إذن نفسر القصة التالية التي أوردها كاربتري في كتابه؟:
«دُعيت إحدى معارفه وتدعى بات لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في مزرعة يمتلكها جدّ وجدّة إحدى صديقاتها. وتبين أن الجدّين كانا من هواة الخوض في الغوامض. وفي ذلك المنزل شعرت بات بالقلق من بعض أجزاء المنزل مثل الطابق العلوي المسروق. وفيما بعد اقترح الجدّان على بات أن تحاول القيام بكتابة تلقائية تسجّل بها بعض هواجسها. وفي اللحظة التي أمسكت فيها بات بالقلم استرخت يدها وشعرت كأنها في حالة تشبه الاستغراق في نشوة أو غيبوبة، وأحسّت بخدر يدها وذراعها، وبدا لها وكأنّ هناك امرأة من خلفها ذات وجه مثل وجه الدمية تلبس رداء بنفسجياً. وشعرت وكأن قواها قد سلبت بواسطة تلك المرأة. وفجأة سطرت يدها بالقلم «اليزابيت باريت براونج موجودة هنا» (سبق أن ذكر مضيفاها اسم اليزابيت باريت براونج أمامها). وتبعت هذه الكلمات رسالة مطولة تضمّنت معلومات عن أن مسز براونج وروبرت يواجهان صعوبة شديدة في بيتهما الجديدة التي تواجدا فيها، وببطء بدأت طاقتها تضعف حتى توقفت عن الكتابة، ولكنها أحست خلال بقية اليوم أنها غير متماسكة.

وفي مساء اليوم نفسه عقدت جلسة أخرى فاضت فيها كينونات مختلفة باستخدام أصابع بات التي تمسك بالقلم في الكتابة، وكانت الرسائل هذه المرة ذات طابع خشن».. وفي الجلسة الثالثة أجابت مسز براونج على سؤال طرح عليها: أين تسكنين الآن؟ «نسكن في كل مكان. . . في لا مكان، نحن أنت وأنت نحن» وبعدها أخذت حذرها.

ثم تغير الخط إلى خط توم، شقيق بات الراحل، وكانت الرسالة رسالة حب وارتياح، ولكنها عبرت عن شعورها بالتأثر ففاجأتها صديقتها المضيفة صائحة «لم يكن ذلك توم، إنهم يتظاهرون بأنهم أي شخص» وهكذا أصبحت تعرف الكثير عن كينونات «الطبقة الدنيا» من الأرواح.

لاحظ أحد الجدّين فيما بعد أن بعض الكينونات قد اختفت من المنزل، إذ أن تسيء بات قد اجتذبت إليها تلك الكينونات، وأصبحت بات في حالة اضطراب لاعتقادها بأنها استخدمت كإسفنجة لامتصاص القوى المشكوك فيها.

ولما عادت بات إلى منزلها بدأت تسمع صوتاً في داخل رأسها، وأحست بأنها معزولة بصورة شاذة عن الواقع، فقد حاولت اليزابيت أن تستدرجها لمزيد من الكتابات التلقائية، ولكنها أدركت لو أنها فعلت ذلك فسوف تقوّي استمساك الروح بها، وقالت اليزابيت في إحدى رسائلها: «نحن نريدك، وإذا رفضت الاستجابة لنا فسوف نسكن حجرتك في داخل جدرانها».

وأخبرتها صديقتها بأنها لو تجاهلت الصوت فربما تضيع، وأدركت هي أن الأمر ليس من السهولة بمكان، وحاولت أن تقرأ في إحدى الروايات التافهة مع تجاهلها للصوت، ولكن إحساسها بأن هناك شخصية أو كياناً كان يضغط على وجهها ويجعلها غير قادرة على التركيز. وكانت تتقلب في فراشها وتتحرك بقوة حتى أنها كانت تفحص فراشها عدة مرات، ولكنها ظلت تشعر بأن معاناتها وتقبلها هذه المعاناة كان هو الشيء الصحيح. فبعد أيام بدأت تستعيد قدرتها على التركيز تدريجياً، وبدأ تأثير الكينونات (كانت تشعر بوجود أكثر من واحدة) يختفي، وأخيراً أصبح لديها انطباع بأنها قادرة بالفعل على رؤية المرأة في ثوبها البنفسجي تتراجع وتتحول إلى كتلة غائمة من اللون البنفسجي ثم تستحيل إلى تموجات خفيفة.

ربما كانت بات سهلة التأثر بالإيحاء، وربما أوجد عقلها الباطن تلك المرأة ذات الرداء البنفسجي، ولكن لا بد من التسليم بأن هذين التفسيرين غير مقنعين مثل التفسير الآخر بأن بات قد فتحت نفسها لإحدى كينونات «الطبقة الدنيا» وكان عليها أن تخلص نفسها منها بقدر استطاعتها. إن وصف مثل هذه الأنواع من الاستحواذ مألوفة في كتب اللامعقول، ويذكر الباحث الأمريكي ألان فوجان كيف أنه في فترة من الزمن خضع هو نفسه للاستحواذ، ويحكي أنه اشترى لنفسه لعبة معرفة الطالع لتسلية صديق له في دور النقاهة، ولكنه سرعان ما أصبح يتلقى كل أنواع الرسائل التي بدا له أن بعضها يوصل له معلومات جديدة عليه لم تكن موجودة في عقله الباطن: مثال ذلك حينما أعلن المذياع عن صحة الخبر، فأخبرته اللوحة أنها في الحقيقة ماتت بتأثر السمّ. وبعد عشرة أيام ثبتت صحة ذلك (كان هناك تشكك في أن قتلها كان بسبب معرفتها الكثير عن مقتل جون كيندي). نتيجة لهذا الإنذار تبين لفوجان أن روحاً أطلقت على نفسها اسم «تادا» (يعني لا شيء) - ونذكر هنا بإجابات اليزابيت حينما أجابت عن سؤالها على سكنها قد «دخلت إلى أعماق «رأسه» وفي ذلك يقول «أصبحت

أسمع الصوت يكرّر نفس العبارات مرات ومرات» بنفس طريقة كائنات الطبقة الدنيا وحينما سأل اللوحة عن ذلك، أجابته بخبر سيّء: استحواذ».

وتولى أحد الأصدقاء العارفين بمثل هذه الأمور مساعدة فوجان، فقامت روح أخرى بالاستحواذ على يده وجعلته يكتب رسالة: «لكل منا روح وهو حي، وعليك ألّا تتطفّل على أرواح الموتى» وأصبح واضحاً أن الروح أخذت تخرج الطاقة التي بداخل جسم فوجان وتندفع كل من «نادا» والكينونة الأخرى المعيّنة إلى الخارج من قمة رأس فوجان:

شعرت بابتهاج بالغ وصحة جيدة.. بدأ عقلي يدخل في آفاق ممتدّة ليس لها حدود من زمان أو مكان، ولأول مرة بدأت أشعر بالأشياء التي تدور في رؤوس الآخرين، ولشد ما أدهشني أنني بدأت أشعر بالمستقبل من خلال نوع من الإدراك الممتد...»[1].

مرة أخرى نستطيع هنا أن ندرك أن تقرير فوجان يبدو على اتصال وثيق بما ذكره سويدنبرج عن الملائكة والأرواح. فان «نادا» قد كررت العبارات نفسها مرات ومرات كما تفعل كينونات الطبقة الدنيا دائماً، وعرّفت نفسها أنها زوجة الضابط البحري نانتوكيت. ولاحظ فوجان من مظهرها أنها ترفض الاعتراف بأن زوجها حيّ وأنها ميتة، فيبدو أن الكينونة التي أخرجت نادا من رأس فوجان كانت بمثابة ملاك من ملائكة سويدنبرج.

لكن، ألا يمكن أن تكون كلتا الكينونتين من نتاج الشطر الأيمن من دماغ فوجان جاينز؟ إنه أمر ممكن تصوّره، ولكن مرّة أخرى، لا يبدو أن هناك تمييزاً بين استعراضات الدماغ الأيمن وبين كينونات الطبقة الدنيا، فإن الدماغ الأيمن هو النّفْس الحدسية، هو العنصر الذي يتواجد فينا ويمدنا بالتأمل والإلهام، تماماً مثل الأنغام التي تمشي في رأس الموسيقار موزارت، ولقد كان لدى نادا أشياء أخرى تفعلها أفضل من تكرار العبارات الغبية نفسها مرات ومرات.

وباستطاعتنا رؤية الفارق واضحاً في تلك الحالة السابقة في مكان آخر[2] وهي قصة برادابستز المدرّس الأمريكي الذي يعيش في فنلندا واتفق أن تورّط في خدعة

(١) Alan Vaugan: Patterns of Prophecy, 1973, P.4.

(٢) Access to Inner World, the story of Bradabestez (1938).

إقامة صلة مع «ذاته الأخرى». فبعد أن توفي طفله بالسرطان انغمس أبستر وزوجته في حالة من الانفصام، فكانت زوجته تستلقي، لمدى ساعات على فراشها وتغمض عينيها تصارع الندم والإحباط. أما براد فقد كان يستلقي بجوارها ينتظر خروجها من بياتها الموحش، كي يهدىء من روعها ويشجعها. كان يستلقي وهو في حالة تأهب كامل ينتظر أدنى حركة تدل على أنها عائدة إلى وعيها العادي. ومن الطبيعي في حالة رجل يستلقي على فراشه ساعات عديدة أن ينساق إلى حالة استرخاء. وفي يوم من الأيام بينما هو مستلق في هذه الحالة التي تجمع بين الاسترخاء والتأهب مرّ به شعور غريب بالتحرر الداخلي وتخلصه من جسمه وأحس كما لو كان طافياً فوق فراشه. ثم لاحظ نبضاً في عضلات ذراعه تريد التحرك، فأعطاها من عقله تصريحاً بالتحرك وطفا في الهواء، وما لبث أن أصبح ذراعاه يتحركان حركات عشوائية وهو ينظر كالمتفرج.

وفي قاعة الطعام حيث تُقدَّم وجبات خفيفة، أظهرت يده ميلاً إلى اختيار الطعام بنفسها، وظل مدة أسابيع متعدّدة يسمح ليده بأن تختار الطعام الذي تفضله، ونادراً ما كانت تختار ما تريده لنفسه. ولاحظ بعدها أنه بدأ يفقد من وزنه ويصبح في حالة صحيّة أفضل من ذي قبل. وفيما بعد استخدمت يده الأقلام والألوان فأبدعت مجموعة رائعة من اللوحات كما قامت يداه بعمل تماثيل معدنيّة، وأخذت تكتب أيضاً القصائد الشعرية التي تميّزت بالوضوح والبلاغة اللغوية.

الذي حدث هو أن ذات الشطر الأيمن من المخّ بدأت تعبّر عن نفسها، ويمكن القول بأن العضو المسؤول عن اللاوعي في برلمان عقله قد استثار شجاعته ليبدأ في إلقاء الخطب. ومما يذكر هنا، أن علماء النفس يشيرون إلى الشطر الأيمن من المخ على أنه الشطر غير السائد في معظمنا، وهو يتصرف مثل الزوجة المغلوب على أمرها والتي لا تجرؤ على إبداء رأيها، والتي علّمتها ساعات الاسترخاء والهموم عند براد أن تتغلب على خجلها.

ذات يوم حينما أمسك براد القلم ليسمح ليده بأن تكتب، كتبت بخط مختلف تماماً عن خطّه الأصلي، وأعلنت امرأة اسمها وقدّمت نفسها تقديماً مختصراً. كان ردُّ الفعل المباشر عند براد رفضٌ قويٌّ، فدفع الورقة من أمامه بعيداً، وتحدث بقوة قائلاً: «أنا لن أكون ممن ينطقون لأي شخص آخر سوى نفسي» فذهبت هذه المتَّصلة

يد تعد ثانية. وهنا يبدو لنا واضحاً أن هناك فرقاً بين صوت الشطر الأيمن من المخّ وأي متّصل خارجي أو روح.

باختصار، سواء قبلنا أم لم نقبل، من الواضح أن هناك حالة من الانطباع الأوّلي عن وجود كينونات غير مجسدة يمكننا أن نتصل بها في ظل ظروف معيّنة.

ولنُعْفِ سويدنبرج مؤقتاً من الشك في هذه الأمور، ولننظر فيما قاله من أمور أخرى. إن آراءه بسيطة للغاية، فالإنسان، طبقاً لما قاله، روح تسكن في جسد تماماً مثل القائد الذي يجلس في السيارة. عندما يموت الإنسان يترك جسده ويغادره، ولكن يظل باقياً متواجداً في شكل غير مجسّد. فعندما يتوقّف نبض القلب تنتقل الروح، وهي الإنسان ذاته، إلى مستوى آخر من الوجود. ويصف سويدنبرج هذا المستوى الآخر بشيء من التفصيل في كتابه الذي عنوانه «الجنة والنار».

وأول انطباع يؤدّي إليه ذلك الرأي هو أنه رأي واضح السذاجة، فنحن نعلم أن الشخصية شيء وتتغير وتتطوّر على مدى الحياة. ويشير هـ. ج. ويلز إلى أن كل حبّة من الخلايا التي تتكوّن منها أجسامنا تتغير كل سبع سنوات، ومن ثم فإن الإنسان حينما يبلغ الأربعين من عمره يكون مختلفاً تماماً عنه في سن الثلاثين أو الخمسين. فضلاً عن ذلك قد تتغير الشخصية من خلال حادثة معينة، مثال ذلك من يتلقّى ضربة قوية على رأسه قد يتحول إلى شخصية أخرى. وقد كتب أحد مشاهير الباحثين في خوارق العادات وهو البروفسور جون تيلور في كتابه عن «شكل العقل المقبل» يقول إننا نعرّف الشخصية بأنها مجموع الإسهامات المختلفة التي تتأتى من مختلف وحدات التحكم في المخ، وعلى ذلك فإن الزعم بأن الشخصية قد تبقى بعد الموت يشبه إلى حد كبير الزعم بأن المنزل سيبقى بصورة ما بعد هدمه، أو قولنا إن روح السفينة ستستمر حية بعد تفكيكها في حوض السفن. الواقع أن شخصيتي تتعرض للذبول حينما أتعب، وتنطفىء مثلما ينطفىء الضوء حينما أنام، وعلى ذلك فإن فكرة التواجد بعد الموت تبدو منافية للمنطق.

نجد هذه الاعتراضات كلها ملخصة بصورة جيلة في مقال برتراند راسل الذي كتبه خلال العصر الثالث من هذا القرن تحت عنوان «هل نبقى بعد الموت؟!»[٣].

(٣) نشر في كتاب «أسرار الحياة والموت» The Mystries life and Death

فيقول إن الشخص ببساطة عبارة عن مجموعة من الأعراض العقلية والعادات، وإذا اعتقدنا في الحياة بعد الموت فعلينا أن نعتقد أن الذاكرة والعادات التي تكون الشخص أو الشخصية سوف تبقى بصورة من الصور، وقد أدّى به ذلك إلى أن يذكر بصراحة «أن الأمر عبارة عن جدال غير عقلاني، ولكن العواطف هي التي تسبّب الاعتقاد في حياة أخرى مستقبلية». ويواصل راسل حديثه قائلاً: «إن أحد المشاعر التي تشجع على الاعتقاد بالبقاء هو الإعجاب بتفوق الإنسان»، ويقتبس من أسقف برمنجهام قوله في هذا الموضوع إن الإنسان يعرف الحق والباطل وأنه قادر على بناء كنيسة وستمنستر وصنع الطائرة وحساب المسافة بين الأرض والشمس، فكيف إذن نستطيع الظن بأنه سيفنى تماماً عند الموت؟

ويقول راسل: إن هذا (في حقيقة الأمر) هراء عاطفي، وهو من نوع الهراء الذي وقف في وجه جاليليو ونيوتن وغيرهما من عظماء العلماء حينما أرادوا أن يتعمّقوا في بحث الكون، وكان قسيساً مثل أسقف برمنجهام قد قال بأن الكواكب لا بد أن تسير في مدار دائري لأن الدائرة هي أضبط المنحنيات، وأن كل الأنواع لا بد وأن تكون ثابتة لأن الإله لا يهمه أن يخلق شيئاً غير محكم.

على كل، يقول راسل، إن الفكرة الرفيعة عن الإنسان لا تتأتى إلا حينما نفكر تفكيراً تجريدياً، والدول المتحضرة تنفق نصف دخلها في قتل بعضها، ولنفكر في كل تلك الأهوال التي ارتكبها الإنسان. فلو أن عالمنا كان له غرض محدد فهل من المؤكد أن يكون ذلك الغرض غرضاً شيطانياً؟

هذا الجدل من واقع الأمر جدل عاطفي وغير منطقي، مثله مثل ذلك الجدل الذي ينسبه راسل للأسقف، فإن لبّ الموضوع هو التأكد من أن الشخص أو الشخصية هي ببساطة مجموعة من الأعراض العقلية والعادات، وخبرتي الشخصية تتعارض مع هذا، فإنني مقتنع تماماً بأن الشخص الذي ينظر بعيني هو شخص الطفل نفسه الذي فتح عينيه على هذا العالم منذ نحو خمسين عاماً. حقاً إنه كان يقود سيارة صغيرة وأنا أقود سيارة صالون ثقيلة، وحقاً أنه نسي ما كان يشعر به وهو طفل، إلا أن الشيء يحدث الآن، فأنا أشعر بأننا الآن أساساً الأشخاص أنفسهم.

بالإضافة إلى ذلك، لاحظت أن شخصيات أطفالي بدأت تتكشّف وهم صغار

حد في الوقت الذي لم تكن لهم قدرة على شرب اللبن بأنفسهم، ولو أن ما قاله جون تيور وبرتراند راسل يصح عن أن مصدر الشخصية هو وحدات التحكم الموجودة في عقل، فلا بد وأن كلاً منا قد ولد بوحدات تحكم فردية مميزة.

فوق ذلك، يمكننا متابعة النقاش هكذا حتى نهاية اليوم دون أن يقتنع راسل بأن كائنات البشرية أكثر من مجرد مجموعة عن الأعراض العقلية والعادات، ودون أن يقتنع الأسقف بأننا لسنا أرواحاً مخلدة. بدلاً من ذلك لننظر إلى نوع آخر من الأدلة تعتبر خبرة شخصية. إن صعوبة مثل هذه الحكايات تكمن في أن معظمها غير قابل للفحص، ومن ثم فإن قبولك لها من عدمه يعتمد على سرعة تصديقك لها في البداية، وهذا هو ما يسميه رينيه هاينز Renée Haynes بداية الانغماس. والواقع أن ما يخفف من الأمر هو المدى الذي نشعر به بأننا نثق في الشخص المعين. ولنأخذ على سبيل المثال الحكاية التي رواها الكاتب المسرحي المعروف الفريد سوترو في ذكرياته التي نشرها عام ١٩٣٣ بعنوان «الأرواح البسيطة والأرواح المشهورة» يقول سوترو إنه قد مرت به في حياته كلها تجربة نفسانية واحدة: كان في سيارته التي يقودها سائقه في طريق ريفي حينما سمع نحيب طفل، فطلب من السائق أن يتوقف، وقال له السائق إنه لا يسمع شيئاً مما سمعه، ولكن سوترو تتبع الصوت خلف بعض الأشجار ونزل على جسر النهر، وهناك وجد طفلة جميلة في الثالثة أو الرابعة من عمرها تبكي وتنتحب وهي مبتلّة. وكان واضحاً أنها سقطت في الماء، فحملها وعاد بها إلى سيارته، ولم يستطع أن يوقف بكاءها ليعرف منها ما حدث، وسألها عن مكان سكنها وأشار لها نحو الأمام فأومأت برأسها، ومضت السيارة ولم تقطع مسافة طويلة حتى وصلت إلى بوابة منزل ضخم. وحينما دخلت السيارة اندفع نحوها رجل وامرأة لمقابلة سوترو، وسألاه: «هل لديك أي معلومات عن الفتاة؟» فأجاب: «إنها في السيارة» وعاد إلى السيارة فلم يجدها بداخلها، وسأل السائق: «أين الفتاة الصغيرة؟» ولكن السائق ظل صامتاً لم يجب، فبادره قائلاً: «الفتاة التي أحضرتها إلى السيارة» فأجاب السائق «إنك لم تحضر أحداً للسيارة».

عاد بالسيارة إلى شط النهر فوجد جسد الطفلة ممتداً على بعد أقدام قليلة من الماء.

قصة غير عادية، لا شك أن معظم الناس يرفضونها ويعتبرونها منافية للعقل،

غير أن هناك بعض الأحداث التي تؤيّدها، فقد كان سوترو كاتباً مسرحياً مشهوراً في عصره، ومن المفروض أنه لا يقول كذباً لمجرّد الهزل. ولكن هناك حقيقة أخرى هي أن تلك كانت التجربة النفسانية الوحيدة التي ذكر أنها صادقة.

لم يكن الأمر كذلك، ويذكر سوترو أنه روى القصة لعديد ممن يشتغلون بالأمور النفسانية والغوامض كهواية، ففسّروها له تفسيرات متعددة، ولكنه لم يجد من أي منهم التفسير الحقيقي الذي توصل إليه بنفسه. كان واضحاً أنها عملية مقصودة لإظهار سذاجة من يؤمنون بالحياة بعد الموت...

لو عرفنا ذلك لأمكننا أن نبدأ بالنظر في أوجه الضعف التي تنطوي عليها القصة: هل يستطيع أيّ راكب سيارة أن يسمع أنين طفل؟ ولو أنه سمعه فهل يبلغ به الاهتمام أن يوقف السيارة للبحث عنه في الوقت الذي تعتبر ظاهرة بكاء الأطفال أمراً غير نادر الحدوث؟ وهل لم يسأله السائق متعجباً عما يفعل وهو يتحدث إلى المقعد المجاور موجّهاً سؤاله عن مكان السكن؟ وهل يمكن أن يخرج من الباب الأمامي من السيارة تاركاً الطفل في داخل السيارة؟

هذا هو نوع الأسئلة التي علينا أن نطرحها عن أي تجربة خارقة للعادة إذا ما أردنا أن نتجنّب التسليم بها، وهو أمر معروف للباحثين الأوائل في جمعية البحوث النفسانية حينما تكونت عام ١٨٨٢، فلقد رأوا أن من الضروري التثبت من الأمور من أكبر عدد ممكن من الناس وجعلهم يحلفون اليمين على صدقهم. وهذه الطريقة لا تكفي للتأكد من زيف القصة. بيد أنه في قليل من الحالات قد تجتمع الدلائل المأخوذة من الأحداث وتأكيدات الشهود على أمور متشابهة. رويت قصة من هذا القبيل في محاضر جمعية البحوث النفسانية في الجزء الثامن عام ١٨٩٢، يمكن أن تخدمنا كمثال يؤكد هذه الحقيقة. وقد رويت تلك القصة على لسان الأب ج.ل. برتراند الراعي البروتستنتي للكنيسة نويللي على نهر السين، وأكدها أشخاص معنيون: كان برتراند في سويسرا على رأس مجموعة من الشباب في رحلة لتسلّق جبل يسمى تيتليس، وحينما أوشكوا على بلوغ القمة شعر برتراند بإعياء شديد يعجزه عن مواصلة الصعود، فطلب إلى بقية الجماعة الذين يقودهم دليل أن يواصلوا الصعود بدونه وأن يصحبوه عند نزولهم.

جست وقدماي معلقتان فوق منحدر خطير، وظهري مستند إلى صخرة ضخمة كالمقعد الوثير، حدث ذلك الجرف لعدم وجود الجليد عليه، ولأنه يواجه منظراً جميلاً من جبال الألب بمنطقة برن. تذكرت أن في جيبي لفافتي تبغ، أخذت إحداها وأشعلتها بعود ثقاب فشعرت بأني أسعد من كل هؤلاء الرجال ثم شعرت فجأة بضربة عاصفة من السكتة المخيّة، ورغم أن عود الثقاب ظلّ مشتعلاً حتى أحرق إصبعي، فإنني لم أتمكن من إلقائه. كان عقلي آنذاك في حالة صفاء تام وسلامة، ولكن جسمي كان خائراً فاقد القوة، عديم الحركة كالصخرة، ولم يكن لديّ أي مبرّر للظنّ بأنني وفي حالة جمدة الثلوج ولو تحركت لسقطت إلى القاع، وإذا لم أتحرك فسوف أصبح في عدد الأموات خلال عشرين أو ثلاثين دقيقة». بعثت بدعاء إلى الله وعرفت أن أدرس في هدوء عملية الموت. تجمدت قدمي ويداي في أول الأمر، وشيئاً فشيئاً وصل الموت إلى ركبتيّ ومرفقي. لم يكن إحساساً مؤلماً بل كان في العقل شعور بالارتياح التام. ولكن حينما شمل الموت كل جسمي شعرت برأسي شديد البرودة، وبدا لي كأن كماشات تعتصر قلبي لتنتزع حياتي. لم يسبق لي أن شعرت بمثل ذلك الألم المزمن حتى استمر لحظة أو دقيقة وفارقتني الحياة. حينئذ فكرت: «حسن جداً، أصبحت في عدد الأموات، وأصبحت مثل كرة في الهواء.. بالونة ما زالت مرتبطة بالأرض بنوع من الخيط المطاطي، وأنا أصعد إلى أعلى وأستمر في الصعود، ما أغرب ما أرى.. أرى أكثر من ذي قبل وأنا ميت... أين جسدي الآن؟ ونظرت إلى أسفل فدهشت حينما تعرفت على غلافي وقلت لنفسي «عجباً» هذا هو الجسد الذي كنت أسكنه وأسمّيه «أنا»، كما لو أن المعطف هو الجسد وكما لو أن الجسد كان هو الروح! ما شبه ذلك الشيء الذي هو الجسد.. شاحب للغاية، ملون بلون أزرق باهت يحمل سيجارة بين شفتيه وعود ثقاب بين إصبعيه.. حسن أرجو ألا أدخن أبداً.. إنها خرقة بالية قذرة... آه! لو أن لي يداً ومعي مقص لقطعت الخيط الذي ما زال يربطني إلى تلك الخرقة البالية! حينما يعود رفاقي سوف ينظرون إليّ ويقولون: «مات الأستاذ، ما أتعس هؤلاء الأصدقاء، إنهم صغار لا يعرفون أنني لم أكن قبل حياً مثلما أنا الآن، والدليل على ذلك هو أنني أرى الدليل يوجّههم إلى اليمين بينما قد وعدني أن يتجه بهم إلى اليسار. كان المفروض أن يكون في آخر الحبل. ولكنه الآن ليس في أوله ولا آخره، إنه وحيد بعيد عن الحبل. والآن يظن الدليل أنني لا أراه، اختفى خلف الشباب، وهو الآن يشرب من زجاجة الماديرا التي كانت معي... حسن، لتستمر أيها المسكين.. إني آمل ألا يشرب جسدي شيئاً بعد الآن. آه هناك يسرق جزء من الدجاجة... هنا استمرّ يا صديقي القديم التهم الدجاجة كلها إذا أردت فإني آمل إلا بأكل جسدي البائس مرة أخرى؛ ولم أشعر بدهشة أو غيظ، ذكرت حقائق دون مواربة وقلت «هالو. إن زوجتي ذاهبة إلى لوسرن، أخبرتني أنها قد تذهب غداً أو بعد غد.. إنهم خمسة أمام فندق لونجرن.. وداعاً يا زوجتي إنني ميت..» كان كل ما يؤسفني أنني لم أستطيع أن أقطع الخيط. سافرت بلا طائل خلال عوالم جميلة حتى لم يصبح لهذه الأرض معنى. إنني أرغب في شيئين فقط: ان أتأكد من عدم عودتي إلى الأرض وأن أكتشف جسدي الجديد الجليل الذي لا يشعر بالإعياء. لن أكون سعيداً لأن الخيط لم ينقطع، حتى بعد ان أستدق وأصبح رفيعاً عما كان، وقد يصبح جسدي المأمول ظاهر النظرات الفاحصة.

فجأة جاءت صدمة أوقفت تصاعدي، وأحسست كأنّ شخصاً ما يسحب البالون إلى أسفل.

حزنت حزناً لا يمكن تقديره. كان الدليل قد اكتشف الأمر، وطبق على جسدي العلاج المعروف لمثل هذه الحالة، وهو أن يدلك جسدي بالثلج، كان الأمر غامضاً بالنسبة لي، وأذكر فقط أن كل شيء بدا لي غامضاً، وأحسست بازدراء شديد للدليل الذي كان ينتظر مني جزءاً حسناً حينما أفهمني أنه صنع الأعاجيب. لم أشعر من قبل بمثل هذه المضايقة القوية، وقلت أخيراً لذلك الدليل المسكين «إنك غبيّ، وعاملتني كغبيّ، حينما كان جسدي مريضاً فقط آه.. لماذا لم تقطع الخيط؟.. قال الخيط! أي خيط؟ كنت تقريباً في عداد الأموات؟

ـ ميت! في عداد الأموات!.. لا بل كنت أقل موتاً منك الآن. وليس أدل على ذلك من أنني رأيتك تصعد إلى قمة جبل تيتليس من اليمين من بيتنا وعدتني أن تصعد من اليسار. فأبدى الرجل دهشته قبل أن يردّ عليّ قائلاً: الآن تقول كان ليناً، ولم يكن هناك خطر الانزلاق من عليه.

ـ تقول ذلك لأنك ظننت أنني كنت بعيداً عنكم، لقد ذهبت من الجانب الأيمن كما سمحت لإثنين من الشباب أن يتركوا الحبل، فمن منا الغبيّ إذن؟ إنه أنت ولست أنا. والآن ناولني زجاجة المدير لأرى إذا ما كانت ما زالت ملآنة.

كان ذلك مفاجأة جعلته يبعد يديه عن جسدي، وسقط على الأرض وهو يقول لنفسه بصوت واضح: هل ساروا وراءنا؟.. لا، لا يمكن وإلاّ لرأيناه، أم أنه كان يرانا من خلال الجبل؟ هل جسده ميت والذي يعلمني بما فعلته هو شبحه؟

قلت له بصرامة «آه» فلنسقط ولتنظر إلى ما شاء ذلك أن تنظر، ولتقدم لي مبرراتك الضعيفة، ولكنك لن تستطيع أن تثبت أن دجاجتي لم يكن لها رجلان اثنان، لأنك سرقت إحداهما!

كان هذا كثيراً على ذلك الرجل الطيِّب، فوقف على قدميه وأفرغ كل ما تحتويه صرّته وهو يتمتم بالاعتراف، ثم هرب من أمامي.

هذا وتعتبر ملاحظة برتراند بأن زوجته قد غادرت لوسرن مبكرة يوماً كاملاً عما كان مقرراً، مما يؤكد أنه كان صادقاً.

في حالة مثل هذه، لا توجد لدينا تأكيدات من الأشخاص المعنيِّين، ولكن لدينا أيضاً ظاهرة مستحيلة تتمثّل في معرفة برتراند بوجهة الدليل في الوقت الذي كان يجلس فيه وظهره نحوه، ولئن كان قد أخطأ في ظنه أنه قد مرّ بتجربة الموت، فلا بد وأنه قد مرّ بتجربة غريبة تتمثل في الإدراك من خلال نوبة حسّيّة فائقة.

وفي هذا التقرير عدة نقاط هامة، إحداها الخيط الذي أراد برتراند أن يقطعه، فهو لم يشرح ما الذي كان يقصده بهذا الخيط الذي كثيراً ما يذكر في التقارير التي نسمّيها تجارب التواجد خارج الجسد (O.B.E) التي كان فيها الأشخاص يطفون

حـ ـ أجسادهم بينما يشعرون بأنهم ينظرون إلى أسفل فيرون أجسادهم الطبيعية وهم مرتبطون بها بنوع من الحبل أو الخيط اللامع. ونقطة أخرى جديرة بالذكر هي قدرة برتراند على إدراك أشياء كانت تحدث في مكـان آخر، مثـل ما كـان يفعله الدليـل، واستعداد رحلته لزيارة لوسرن وغير ذلك. مرة أخرى نذكر أن مثل هذه الأمـور يتكرّر شرحهـا من جانب كل من يزعمون أنهم مرّوا بتجربة التواجد خارج الجسد. وهناك نقطة ثالثة تستحق الإشارة إليها هي شعور برتراند بالارتياح وهو خارج جسده، وما استتبع ذلك من شعور بالتردد أو عدم الرغبة في العودة إلى الجسد، وهي ظـاهرة أخـرى مألـوفة في رو يـات تلك التجارب.

كل هذا يميّز قصة برتراند عن تلك القصة التي ابتدعها الفريد سوترو، ذلك أن حكاية سوترو تعتبر من ذلك النـوع الذي يتصـوره من يعرفـون القليل عن البحـوث النفسانية وأنها من قبيل حكايـات الأشباح، ولكنهـا في الواقـع خلاف ذلـك. وإذا ما حكمنا من آلاف الروايـات والتقاريـر الواردة في الكتب السنـويـة لجمعيـة البحـوث النفسـانية، أو مثيلاتها في أوروبا وأمريكا، لوجدنا أن الأشباح لا تجلس على شـواطىء الأنهار على بعد ياردات قليلة من الأجسام الغارقة وتصدر أصواتاً مزعجة تعلو لدرجـة تجعلها مسموعـة في داخل السيـارة رغم دوران محركـاتها. وهي لا تسمـح لأنفسها أن تحمـل أو تؤخذ إلى خـارج المنازل التي تعيش فيهـا. فظهـورهـا النمـطي كـما تصفهـا تقارير تلو التقارير تبـدو فيها كـأشخاص حقيقيـين. كانت هنـاك امرأة جـالسة تقـرأ فدخل عليها في الحجرة عجوز طويـل القامـة نحيف القوام، وحينـما دقّقت النظر فيه تعرّفت عليه كعمها الكبير، كان يبدو عليـه الهياج، وفي يـده لفّة ورق. لم يجبهـا حينما حدّثته، ولكنه خرج من باب كان أحد مصراعيه مفتـوحاً. لم تشعـر بأيّ تهـديد لأنها افترضت أن عمها قد أتى ليراها. ثم تلقت في البريـد بعد ذلـك خطاباً من والدهـا، يطلب إليها فيه أن تذهب لترى عمها الذي كان مريضاً في فـراش الموت. ولمـا ذهبت وجدت أنه قد مات في مساء اليوم السـابق في الوقت الـذي رأته فيـه بحجرتهـا. وعثر على لفّة ورق تحت وسادة الرجل، واستنتجت من ذلك أنه كان يـريد أن يغـيّر وصيته لصالح أبيها، ولكن الموت فـاجأه. هـذه الروايـة مأخـوذة من أحد المجلدات القـديمة لجمعيـة البحوث النفسـانية تحت عنـوان «خيالات الأحيـاء» كـان قـد سطّرهـا بعض أعضـاء المؤسسين وهـم جـورني Gurney ومايـرز Mayers وبودمـور Podmer (الجزء الأول ص ٥٥٩). وهي حكـاية تسـاير أسـاساً النمط الـذي عليـه مئـات الـروايـات

المشابهة (يبلغ حجم الكتاب أكثر من ألف صفحة). وحكاية الأسقف برتراند أيضاً تساير هذا النوع ومثلها في ذلك مثل مئات التقارير عن الموت القريب أو تجارب ما بعد الموت.

وبالإمكان دائماً أن نعثر على ثغرات في الروايات الفردية، مثال ذلك حالة العم الكبير التي قدمها الميجور تيلور إلى جمعية البحوث النفسانية ذكر فيها أن السيدة «ل» التي سجلت هذه الحالة ترغب في إخفاء اسمها عن أقاربها المضربين» ربما لأن الموضوع كله من اختلاق تلك السيدة أو من إبداع الميجور تيلور، أو ربما كان اختلاقاً من مؤلفي الكتاب لغرض معين. غير أنه وجدت بعد ذلك الكثير من الحالات في كتاب «خيالات الأحياء» يبدو بوضوح ما بينها من تشابه أساسي ويبدو أنها جميعاً حالات مزعومة.

أخيراً هناك ما هو أكثر إقناعاً من الجدل حول ما قدّمه سويدنبرج من آراء عن الحياة بعد الموت: فهناك أدلة كثيرة مماثلة تؤيّده في مئات من التقارير المكتوبة عن الحياة بعد الموت تعرض لنا النمط نفسه الذي يتمثل بصفة عامة في أنه بعد مرور الإنسان بتجربة الموت التي قد يصحبها إحساس بالألم أو الاختناق يأتي الشعور بالتحرر. وفي كثير من الحالات يشعر الإنسان بأنه يهوي في خندق عميق يرى في نهايته النور، ثم يجد نفسه ينظر إلى جسده، وعادة ما تصطحب هذه الحالة شعورٌ بأمن عميق وارتياح معين لوقوع هذا الوجود الطبيعي: وقد يجد الشخص أنه من المستحيل قبول فكرة موته، ويحاول أن يتحدث إلى أناس آخرين، فهم يتجاهلونه رغم أن تلك الكائنات تبدو أحياناً مدركة له. وهو يحاول أن يلمسهم ويمر بيده من خلالهم. وفي مرات متكررة من حوادث «تجربة الموت» يقابل الشخص الميت أناساً من أقاربه ماتوا قبله، وهذا يحدث فقط في حالة الحمّى الشديدة، وقد يفشل الشخص في إدراك أنه لم يعد حيّاً، وفي تلك الحالة قد يظل محبوساً في الأرض أو روحاً مرتبطة بالأرض إلى الأبد.

ولعل الاعتراض الواضح أخذ على حالة القس برتراند كدليل على الحياة بعد الموت عدم وجود دليل يثبت أنه قد مر بالفعل بتجربة الموت. ربما مرَّت به حالة شبيهة بالحلم أو الرؤيا، حتى علمه بالمخالفات التي ارتكبها الدليل لا تعتبر إثباتاً واضحاً على خوضه تجربة الموت، فربما كانت نوعاً من رؤيا الاستشفاف. بيد أن حالات أخرى

عديدة قامت فيها الأرواح الوسيطة بإملاء رسائل تزعم أنها قد عادت من الموت، نقدم هنا حالة نموذجية منها من سجلّات أحد الباحثين المحدثين هو الدكتور روبرت كروكال Dr. Robert Crokall تتعلق بوفاة الدكتور كارل نوفوتني أحد تلاميذ العالم النفساني الفريد أدلر، فقد رأت صديقته جريت شرودر Grete Schroder في منامها نوفوتني قبل وفاته بيومين ليلة عيد الفصح عام ١٩٦٥، وأعلنت أنها علمت بقرب موت نوفوتني، وحينما تحقّق الحلم تأثرت جريت بشدة لدرجة أنها ذهبت إلى أحد الوسطاء لتستشيره رغم أنها لم تكن تؤمن بهذه الأمور من قبل، وكتب الوسيط رسالة موت نوفوتني بالكتابة التلقائية بخط يد معيّن تعرفت جريت شرودر على أنه خطّ نوفوتني نفسه.

وصف نوفوتني كيف أنه أثناء عيد للربيع كان يقضيه في منزله الريفي، وافق على الخروج إلى نزهة مع بعض أصدقائه، فشعر بالمرض، مدة من الزمن، وكان يشك إذا كان سيصطحبهم في تلك الرحلة أم لا:

مع ذلك أجبرت نفسي على الذهاب معهم، ثم شعرت بأنني متحرّر وفي صحة جيدة، وأخذت تنفس بعمق في هواء المساء النقي. وكنت في حالة أسعد مما كنت عليه لمدة طويلة. كيف كان ذلك؟ لقد أدهشني أنني أصبحت لا أواجه أي مشكلات، ولم أكن متعباً أو ضيّق النفس.

تلفّت نحو أصحابي فإذا بي أنظر إلى أسفل فأرى جسدي على الأرض وأصدقائي في حالة من اليأس يستدعون طبيباً ويحاولون الحصول على سيارة تحملني إلى المنزل، ولكنني كنت صحيحاً، لا أشعر بأي ألم، ولم أستطع تفهّم ما يحدث. واتجهت إلى أسفل وتحسست قلب الجسم الملقى على الأرض. حقاً - لقد توقّف النبض - وكنت ميتاً! لكنني ما زلت حياً مع أصدقائي أتكلم، غير أنهم لا يرونني ولا يردّون عليّ. فغضبت منهم وتركتهم.

وظلّ كلبي ينبح ويئنّ أنيناً حزيناً لا يعرف إلى أي واحد منا يذهب، إذ كان يراني في مكانين في وقت واحد واقفاً ومستلقياً على الأرض.

وحينما انتهت كل الرسميات ووضعت جثتي في التابوت تحققت من أن المنية قد وافتني، ولكنني لم أستطع الاعتراف بالحقيقة لأنني مثل أستاذي الفريد أدلر لم أكن أؤمن بالحياة الأخرى أو بما بعد الحياة، فذهبت إلى أعلى التل حيث تسكن جريت، وكانت جالسة بمفردها، وقد بدا أنها غير مستعدة، ويبدو أنها لم تسمعني هي الأخرى.

ولم يعد هناك بد من الاعتراف بالحقيقة. فحينما فعلت ذلك رأيت أمي تأتي لتحيني، بذراعيها مفتوحتين لي تخبرني بأنني انتقلت إلى العالم الآخر - لم يكن ذلك بالكلمات طبعاً، لأن الكلمات شيء

ينتمي إلى الأرض فقط، ومع ذلك لم أدرك عباراتها، وظننت أنني في حلم. وظل هذا الاعتقاد عندي مدة طويلة، قاومت الحقيقة وأصبحت بالغ التعاسة(٤)».

من السهل أن نؤيد برتراند راسل في عدم ثقته في مثل هذه البراهين، فيبدو أنها مثل التفكير المأمول. وهي أيضاً تتعارض مع افتراضاتنا المبنية على التعقل، فمثلاً يصف نفسه وهو يتنفس بعمق في هواء المساء النقي، فهل يتنفس الميت مثل الحي ليحوّل الأوكسيجين إلى ثاني أوكسيد الكربون؟ . . والمفروض أنه وجد نفسه في ملابسه الكاملة وهو يقف بجانب جسده. . ولو أنه وجد نفسه فجأة عارياً تماماً فربما كان قد لاحظ بسرعة أن شيئاً غريباً يحدث، فهل يعني ذلك أن ملابسنا سوف تبقى علينا بعد الموت أيضاً؟ يبدو أن الرواية بكل أسف غير مقبولة من ناحية الحقائق، فلو أنه وصف دوّامة الأضواء الملونة أو الشعور بامتداد التموّجات التي تنزاح على سطح البحيرة فربما كان الأمر أكثر قبولاً. ولعل هذا الموضوع العادي الكامل الذي هو محاولته لتحسّس نبض قلبه وغضبه من أصدقائه يبدو كما لو كان من ابتكار شخص ضعيف الخيال.

أمام هذه الاعتراضات، علينا أن نضع تحت أعيننا الحقيقة البسيطة بأن هناك الكثير جداً من التقارير الخاصة بتجربة الموت، وهي تسير تقريباً على النمط نفسه، فأي عالم قد يسلم بأن ذلك يجعل البراهين أكثر إقناعاً، فإذا عاد بحّار يحكي أنه تعرض لحادثة غرق سفينته ووصل إلى جزيرة بها سكان لهم شعر أخضر وذيول طويلة فربما كان من الأسلم افتراض أنه إما كاذب أو أنه كان يعاني من هذيان ارتعاشيّ. أما إذا قرر مئات البحارة مرورهم بالتجربة نفسها خلال سنوات عديدة فقد يكون من الغباء ألّا نولي ما يروون عناية خاصة وتقديراً دقيقاً، فقد يكون من ورائها شيء حتى لو كان تآمراً من جانب البحارة، بالطريقة نفسها حينما يأتي تقرير وراء تقرير من أناس تعرضوا لخطر مفاجيء ويذكرون في رواياتهم عبارة واحدة: «وتراءت كل حياتي أمام عيني»، فربما يبدو ذلك وكأنّ العقل قد تعرّض بصورة غريبة «لذكريات سريعة التداعي» بشكل آلي نشطتها لحظات التعرض للموت. قد يفكر الذين يعتقدون في الحياة الأخرى أن الغرض من هذه الميكانيكية هو تذكير الشخص بهويته حتى لا يدخل إلى العالم الآخر وهو في حالة التباس، أما المتشككون فينظرون إلى ذلك على أنه ظاهرة

---

(٤) Robert Crookall, What Happens When you Die, P. 63.

طبيعية، ربما تكون نتيجة لزيادة في إفراز الإدرينالين، أو لبعض التفريغ الكهربي الذي يصحب الحالة الطارئة. بيد أنه نظراً لكثرة عدد الحكايات التي رددت هذا الإحساس فإن هناك اتجاهاً أكثر ضعفاً يرفضها باعتبارها نوعاً من حكايات العجائز.

فهل يعني ذلك أن برتراند راسل قد عمد إلى إغفال الحقائق حينما وصف ما يسبب الاعتقاد في حياة مستقبليّة بأنها ليست مزاعم عقلانية بل عاطفية؟ ليس ضرورياً أن يكون برتراند راسل قد فعل ذلك، بل علينا أن نعترف بأن العالم مليء بملايين الحقائق، وأن لكل شخص أن يختار ما يهمه، حتى كبار المفكرين لا يستطيعون أبداً أن يأملوا في معرفة تتجاوز جزءاً ضئيلاً من كل الحقائق المتعلقة بالعالم الذي يعيشون فيه. ولقد كرس راسل حياته لمحاولة إقامة الحقائق الأساسية عن المنطق والرياضيات، ولا يحق لأحد أن يلومه في أنه لم يكن محباً للاستطلاع عن وجود حياة أخرى أو «حياة بعد الحياة» وفي ضوء عدم وجود الدافع إلى الاستطلاع يصعب علينا أن نلومه على الخلاصة التي عبر عنها بعبارته «حينما تموت فإنك ميِّت بالفعل».

هذا، ويستحق راسل أن ننظر إليه نظرة ناقدة حول الطبيعة الضحلة التي ميّزت مزاعمه عن السبب في اعتقاد الناس بوجود حياة أخرى، فهو يسلِّم بعدم وجود براهين علمية على وجود حياة بعد الموت، وبذلك فلا بد أن يكون تفكيراً في رغبة مأمولة. أما عن الاعتراض على أنه فشل في تقدير الحقائق فقد يجيبنا على هذا بأنه ليس لديه وقت. ولكن لو تقدم إليه شخص بالحقائق القوية الثابتة ليبرهن على وجود حياة بعد الموت، فقد يكون مستعداً للاقتناع بها.

والحقيقة البسيطة هي أن هذه ليست الطريقة التي نقيم بها الحجج، فلا يمكنني أن أقرر أن الشخص صادق لأن لديّ برهاناً دامغاً قوياً، ولكنني أقرر على أساس عدد كبير من التجارب التي مرّ بها هذا الشخص وتتجمع في النهاية كتجمع الجزئيات لتعطيني صورة شاملة عن شخصيته. ويمكن مقارنة ذلك بالصورة التي تظهر في الصحف، فحينما ننظر إليها من خلال عدسة مكبّرة نجدها تتحول إلى مجموعات من النقط السوداء والرمادية، ولا يستطيع من ينظر إلى هذه النقاط، كل على حدة، أن يكون صورة حقيقية لوجه معروف. والشيء الغريب هنا هو أننا حينما ننظر إلى الصورة عن بعد معينٍ تتلاشى النقط، وحينئذ نتعرف على الوجه بل ونرى التعبيرات

في العينين. فلو أننا نظرنا إلى الصورة نفسها من خلال عدسة مكبّرة فمن المستحيل أن نرى كيف أن النقط تخلق ذلك التعبير.

ينطبق ذلك كله على المشاكل المتعلقة بخوارق العادات، ولقد مرّت بي تجربة من هذا القبيل منذ بضع سنوات حينما كنت أكتب كتاباً عن «الشبح المزعج» الذي جاء ذكره في سجلات العصور[٥]. إذ جاءني الناشر السابق لكتبي وسألني عما أكتب في ذلك الوقت، وكنت عائداً من فوري من بونترفراكت حيث كنت أحقّق في حالة شبح يظهر في صورة راهب أسود. وبدأت أحكي له عن الموضوع فقال لي: «بالتأكيد أنك لا تؤمن حقاً بمثل هذه الأمور»، وأخذ يثير كل أنواع الاعتراضات المعتادة لكون الروايات غير دقيقة أو أنها من قبيل عبث الأطفال واضطرابات زلزالية، وشهود كذابين... ففنّدت له كل اعتراض بأن وصفت حالة أخرى لا ينطبق عليها الاعتراض. ففكّر من فوره في اعتراضات أخرى جديدة، وبعد نصف ساعة أو يزيد من المناقشة أدركت أنه لن يغير رأيه مهما قلت. فعلى حدّ إدراكه تعتبر الأشباح والعفاريت بقايا سيئة من خرافات العصور الوسطى، وهذا كلّ ما يتعلق بها. وكانت كل حالة من الحالات التي شرحتها له بمثابة نقطة من نقاط صورة الصحيفة، فهو ينظر إلى تلك النقط من خلال عدسته المكبرة، فلا يرى أي شيء.. ولقد قضيت عدة أشهر في دراسة مئات الحالات المرويّة منذ عهد روما القديمة إلى لندن الحديثة ومن فرنسا العصور الوسطى إلى البرازيل في عصرنا هذا، فتوصلت إلى التعرف على كل الخواص الرئيسية المميّزة للعفاريت، وتبيّنت أن من الواضح أنها لم تتغيّر. أو باختصار يتكون منها نمط أو نموذج واحد، ولئن لم يعكف صديقي ذاك لأسابيع قليلة على دراسة مثل هذه الحالات فسيظلّ معتقداً أن كل حالة منها نوع من الوهم أو الخداع، ولو أنني قلت له ذلك من أول الأمر فلربما شعر بأنني أفرض عليه رأياً خاصاً.

اقتنع صاحبي تماماً بأن قدراته على التعليل لا تقلّ جودة عن قدراتي، ولكن الذي لم يستطع رؤيته هو أن التعليل، كي يكون فعالاً، لا بد وأن يتناول مدى واسعاً

---

(٥) الشبح المزعج: دراسة في الوهم المدمّر .Poltergeist: Study in destructive Hannting

من الحقائق، فيدوّن حقائق يعتمد عليها العمل، فإن أقوى العقول المستنبطة في العالم سوف تدور في فراغ.

هذا ولا يعتبر هذا الكتاب محاولة لإقناع أحد بأن الحياة بعد الموت حقيقة قائمة بل إنه ببساطة محاولة لتقديم الحقائق بصورة منظمة، وسيكون القارىء في النهاية في وضع يسمح له بأن يقرر بنفسه.

٣
عالم المستشِّق

حينما أفتح عيني في الصباح أعتبر نفسي أنظر إلى العالم نفسه الذي تنظر إليه أنت حينما تفتح عينيك، وربما كان هذا بعامّة زعماً معقولاً ولكنه يعميني عن بعض الاختلافات الهامة بيني وبين رفقائي من الكائنات البشرية.

وصل تشارلز داروين إلى تييرادي لفويجو على ظهر السفينة بيجيل في ديسمبر عام ١٨٣٢، فأصابته الدهشة حينما رأى السكان الوطنيين ممثلين بارعين، فرغم أنهم لم يكونوا يعرفون الانجليزية، فقد استطاعوا ترديد جمل كاملة بالنبرة الانجليزية، كما كانت لديهم القدرة على أن يشاركوا في أغنيات البحر حينما يجلسون حول النار مع بحّارة السفينة بيجيل. لقد استغلّوا قدراتهم البسيطة في ترديد كل كلمة بعد لحظة من نطق البحارة الانجليز بها في أغنياتهم. وفي ذلك قال داروين «إن الطريقة التي كانوا يتنافرون بها قليلاً لم تكن تتغير وكانت مثيرة للضحك حقاً» كما قال بدهشة بالغة: «كيف يمكن شرح هذه الموهبة؟ هل هي حصيلة ما أحسنوا التدريب عليه من عادات الإدراك والحس الدقيق الذي يشترك فيه كل من يعيشون في هذه المرحلة من البدائية عندما نقارنهم بمن طال عليهم عصر التحضر؟».

بهذا يكون داروين في الخط الصحيح، ولكن عاداته الانجليزية الرئيسية في التفكير جعلته غير قادر على أن يتعمق في قلب الموضوع، كما فعل عالم الحيوان ليال واطسون Lyall Watson الذي جاء بعده واستطاع أن يتفهم الأمر:

إن القزم يعيش في غابات ايتوري الكثيفة حيث لا يمكن للانسان أن يرى أي شيء عن بعد بدهشه أن يرى الوعل على بعد صغير الحجم حينما يذهب لأول مرة إلى السهل المنبسط. ففي ظلمة أرض الغابة يعتبر الصوت أهم من البصر ومن ثم فإن تجارب القزم تجعل لحواسّ الحياة عنده ترتيباً مختلفاً، ويكون بذلك ظاهرة مستقلة.

أو بمعنى آخر تتميز ثقافة الأقزام بأنها ثقافة سمعيّة لا بصريّة، أما في ثقافتنا فإن الرؤية أهم عندنا من السمع، إذ لا يستطيع قاطن المدينة ملاحظة التدفق المستمر للأصوات التي تتردد في أذنيه، ولكن عليه أن يلاحظ الحافلات لكي لا تصدمه. أما البدائي فلا بد أن يوجه الاهتمام كلّه للأصوات، لأن الأصوات قد تعني وجود حيوان برّي خطير أو عدوّ. ولو أن داروين استطاع أن يدخل في رؤوس سكان تييرادي لفويجو فربما شعر بالتباس كما لو كان ينظر من خلال عيني إنسان من المرّيخ مثلاً.

ولقد ذكر عالم النفس وليام جيمس النقطة نفسها في مقاله الهام بعنوان: «أنواع معينة من العمي في الجنس البشري»، فأوضح أننا نميل إلى العماء بالنسبة للأشياء التي لا تهمنا، فهي ببساطة (غير متواجدة). ولما كان كل منا مهتماً بأشياء مختلفة، فكل منا يرى عالماً مختلفاً، فالرجل الذي يجلس في الحافلة أو في داخل نفق يظن أنه محاط بآخرين من بني جنسه، وفي الحقيقة هو في وسط آخرين من سكان الكهوف أو المريخ أو الزهرة أو أبناء تييرادي لفويجو أو البتاجونيين أو عشرات غيرهم من القبائل الخارجية.

ومن بين المتحضرين من الجنس البشري هناك نوع تختلف طريقة الرؤية عندهم مثل أبناء تييرادي لفويجو، وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم اسم المستشفيّين أو المستبصرين، وهم أكثر شيوعاً مما قد يتوقعه الكثير، من ثم حينما يصف لنا المريض النفساني تجربة مرّ بها على أنه يأخذها كقضية مسلمة فسوف يدهش الآخرون وينظرون إليها على أنها خبل أو نوع من الانفعال الأبله. وفيما يلي وصف لإحدى التجارب.

بمجرد وصولنا إلى أوكهاميشون خرجت مع زوجي لنلقي نظرة على آخر لحظات الغروب إذ كانت إحدى الأمسيات التي يمسك فيها العالم كله بأنفاسه. فالمستنقع يبدو في ظلال متدرجة بيننا وبين الشمس الغاربة، وفوقه السماء غريبة مخضرة وذهبية مثل ماء الجليد، وفجأة وبدون سابق إنذار حرقني الجمال الفائق عبر حاجز أصبحت معه لا أنظر إلى الطبيعة بل أصبحت الطبيعة تنظر إليّ، ولم يعجبها ما ترى. كان إحساساً غريباً فيه إذلال كما لو أن هناك عدداً لا يحصى من المخلوقات المسالمة تتراجع أمام غزونا، وصدمني شيء كاللكمة، فالأشجار الصغيرة التي تهزها الريح في الأفق بدت وكأنها تتنحى مبتعدة عنا في اشمئزاز، فهمست لزوجي قائلة: «ماذا سنفعل؟ إنهم يشمئزون منا، لا يمكننا أن نتطفل هكذا».

لم يضحك زوجي مني، بل كان يشعر هو الآخر كدخيل، فقلت: «هل سنقف هكذا في سكون ونفسر موقفنا بأننا جئنا كأصدقاء بروح طيبة ونطلب إليهم بامتنان أن نمشي في هدوء فوق

البحيرة؟ وفكرت كذلك في الأيام الماضية حينما كانت الأرواح تربط نفسها ببساطة مع الطبيعة عن طريق السحر القديم الذي يستخدم فيه خشب البلوط والرماد والشوك.

إني أكتب هذا من واقع التجربة، وليس كباحثة، فليس هناك داع لأن أخوض في شروح منمقة مثل الادّعاء الذاتي بوقوع التجربة المدهشة التي أدت إلى التماس الاعتذار. كنا مثل الطائر المائي الذي يرفرف بجناحيه ملامساً سطح الماء، وتحوم حولنا كل الكائنات المرئية وغير المرئية كوحدة واحدة تتفحصنا.

ويبدو أنني سمعت همس ارتياحهم حينما توصلوا إلى قرار جماعي بأننا لسنا خطرين أو متوحّشين، وكان في ذلك قبول لاعتذارنا وأصبح لنا أن نتقدم وندخل. في ذلك الوقت لم يراود فكري أي ظن في غرابة تحرك الأشجار التي تهزها الريح وتميلها نحونا في ود وصداقة.

«كان لهذه التجربة معقباتها غير المتوقعة، فبعد عدة أيام كنت أقف وحدي صباحاً في النافذة أنظر إلى البحيرة وأسطر الخطابات، ولا أفكر في شيء سوى سكانها غير المرئيين، ثم عانيت من غزوة اقتحمت نفسي، كانت غزوة مبهجة، شيئاً أشبه بأطفال أشقياء، حركة صغار غير مرئيين يطوفون بالنافذة ويصيحون «هالو» ويدعونني لأشاركهم لعبهم. كانت زيارتهم هذه عادية في لحظة من اللحظات، ثم أخذ عقلي المحلل يعمل، وفجأة لم يعد لهم وجود بالنسبة لي، والآن ليس لدي أي فكرة عما إذا كنت آنذاك أخاطب «أشياء لها كينونة فعلية أم لا». . .

لو أن هذه الرواية أوحت بالظن أن صاحبتها مصابة بمرض نفسي خفيف مثل شخصية مدام أركاتي في رواية نويل كوارد التي مثلتها مرجريت روشرفورد لكانت الرواية في نظرنا خداعاً، فلقد كانت صاحبة الرواية روزالين هايوود طوال حياتها عضواً في جمعية البحوث النفسانية، وهي سيِّدة ذات عقلية فذّة، ومستواها في البحوث يبلغ درجة من الدقة تفوق به أكثر الباحثين تشككاً. وفي الحقيقة كانت تنظر إلى تجاربها الخاصة نظرة تشكُّك وعدم ثقة. فحينما كانت تكتب عن مسائل البحوث النفسانية مثل كتابها «الحاسّة السادسة»، كانت تتمسك بالمنطقية، مما جعلها تبدو أقرب إلى برتراندراسل، ولكن في سيرتها الذاتية «الخلية اللانهائية» نجد أنها تبنّت أسلوباً أكثر ذاتية وشخصية في وصف لتجاربها التي مرت بها، وكانت نتيجة ذلك أن نظرتها كانت من أكثر النظرات إقناعاً عن التأمل في الغرائب الخاصة بعالم الاستشفاف في تيرادي لفويجو.

ومن الجدير بنا هنا أن نلاحظ تعليقها الذي قالت فيه «. . .ثم أخذ عقلي

المحلّل يعمل . . . وفجأة لم يعد لهم وجود بالنسبة لي». فمن الواضح أننا نتكلم عن الفرق بين التحليل والحدس، وهو الفرق بين الشطر الأيمن والشطر الأيسر من المخ. وهذا بدوره يوحي لنا بأن المريض النفساني أشبه ما يكون بفنان مثل موزارت الذي ظلت الانغام تسير في رأسه غير معلنة (وقال الملحّن سانت سانيز أيضاً إنه لكي يلحن، ما كان عليه إلا أن ينصت)، فالرجل المتحضّر والمرأة المتحضّرة قد تطور لديهما الشطر الأيسر من المخ حتى أصبح سائداً ومسيطراً على الشطر الأيمن، وإن مريضة نفسانية مثل روزاليند هايوود أقرب إلى أسلافنا الذين عاشوا منذ عشرة آلاف سنة (أو إذا صح قول جوليان جاينز أقرب من ذلك بكثير). .

وجدير بنا أيضاً أن ندقق النظر في تطور القرارات النفسانية لدى روزاليند هايوود، لأن ذلك يمكننا من أن نرى أنها في حقيقة أمرها لا تختلف كثيراً عن بقيتنا، ولهذا السبب فلا بد من وجود قررات مازالت كامنة في كل منا.

فلقد ولدت روزاليند في منزل مثالي في أواخر العصر الفيكتوري، ولذا لا يشك في أنها كانت مريضة نفسانياً حتى قاربت سن النضج، ويبدو أنها كانت تزعم قبل ذلك أنها كانت مجرد خيالات، وكتبت في ذلك تقول: - حدث ذلك بمجرد أن عدنا من الهند، وكنت قد بلغت الثالثة عشرة من عمري. آنذاك أدركت أنني في بعض الأحيان وبطريقة لا شعورية كنت أشعر بموجودات غير كاملة في أماكن معينة، بعضها يبدو متجهماً حزيناً، وكنت أحس لو أنني استطيع أن أراها لأصبحت أقل عصبية مما أنا فيه. كان أحدها موجوداً في حجرة نومي بمنزل جدّي الذي يطلّ على دارتمور، والحجرة صغيرة مبهجة أثناء النهار، وتطل على الجنوب، حوائطها مغطاة بورق مزيّن بشرائط زرقاء اللون وزهور قرمزية، فإذا حل الليل أصبحت الحجرة مختلفة تماماً، يشاركني فيها شخص غامض خفي؛ لم أعرف من هو ذلك الشخص، ولو أخبرت به الكبار لذكرت لي أمي أو خالتي كل على حدة أنها قد شاهدتا عجوزاً شمطاء واقفة إلى جانب الفراش. . .

وتوقّف كل تطور معرفي من قدراتها النفسانية في سن السابعة عشرة حينما اشترت من أحدى المكتبات نسخة من كتاب أيرنست هايكل Earnest Haekel «لغز الكون». كان هايكل فيلسوفاً مادياً، وكان كتابه عبارة عن تقرير رائق عن اكتشافات العلوم الحديثة ومن أكثر الكتب انتشاراً خلال السنوات الأولى من القرن العشرين، فهو يتناول بالدراسة تطور الجسم وتطور العقل وتطور الكون في ضوء البيولوجيا الحديثة وعلم الفلك الحديث، ويحاول الكاتب فيه إثبات عدم وجود شيء يسمى إلّهاً شخصياً، وإن الإرادة الحرة وهم وإن الحياة بعد الموت من أكبر الخرافات.

أصيبت روزاليند بالتمزق:

«مسكينة أمي، فلم تكن هناك تلك القتيلة التي كان لها تأثيرها المدمّر على الإطار الذي شكلت في داخله حياة ابنتها. ليس هناك إله، والجبال احبولة ووهم ليست له فائدة إلا في تعديل فكرة أن الكون آلية بلا روح يدور حول نفسه ويستمر في الدوران إلى الأبد بلا هدف. وفي تلك الليلة أخذت انظر إلى النجوم من نافذة حجرتي وكنت غالباً ما استمع إلى تروس العجلات تصطك مع بعضها. وهي تسيّر تلك النجوم، وضاع مني كل أمل في أن أجد مركزاً لأي شيء»، وأصبح والداي بكل حكمتهما يعيشان في جنة المغفلين.»

بدأت بعد ذلك مباشرة حرب سنة ١٩١٤، وأصبحت روزاليند ممرضة، وساورها أول شكّ في وجود إدراك حسيّ فوق العادة حينما كانت جالسة في حجرة مع امرأة فاقدة الوعي تقرأ قصة الأخوة كارامازوف. وبينما هي تقرأ الفصل الذي يحتوي على المناقشة بين إيفان والشيطان، إذا بالسيدة المريضة تقوم جالسة وتشير بأصبعها إلى أسفل الفراش، وبدأت تتكلم مع شيطان. ربما كان ذلك مجرد صدفة، ولكن يبدو وكأنه نوع من التخاطر.

وبعد أسابيع قليلة جلست ترقب رجلاً يهذي من شدّة المرض، وكان واضحاً أنه لا يعلم بوجودها. وفجأة مرت بها تجربة كأنّ أمراً يصدر من داخلها يقول «فكّري به في هدوء» وتذكرت حالة التخاطر السابقة فقررت أن تحاول، وفوراً راح الرجل في نوم هادىء، وحينما أتت ممرضة أخرى لتوقظه فيما بعد، وأزاحت الستائر ظنّت أنه مازال نائماً، وحينما أتت رئيسة الممرضات للمرة الثالثة توقظه لم تتمكن:

ثم فجأة توقف الهذيان والارتعاد، ونظر بعيون هادئة متأملة، وكان واضحاً أنه رجل متعلم. وقال بهدوء: «لا فائدة من التركيز أكثر من ذلك، أيتها الممرضة أنا لن أنام ثانية» واختفى منه الرجل المفكر وعاوده الهذيان المؤلم. فكرت فيما لو أن الموت يأتي هكذا فلن يكون أكثر بشاعة مما تصورته. ولكن فجأة أضاء وجهه وصاح قائلاً: «إنها آني. . . وبدا وكأنه ينظر إلى شخص يعرفه وقد غمرته السعادة. . ولكنني لم أر ذلك الشخص. وواصل المريض صياحه: ـ «وهذا جديد. . . . آه. . إنه النور. . . نور نور.»

ما سجلته روزاليند هنا هو في الحقيقة: تجربة موت عادية في الفراش. وفي عام ١٩٦٠ أرسل الدكتور كارليس أوزيس Karlis Osis الذي يعمل في مؤسسة ما وراء السيكولوجيا بنيويورك آلاف الاستبيانات إلى الممرضات يسأل عن رؤية مرضاهم في

فـراش الموت، واكتشف في عـدد كبير من الحـالات أن الذين يمـوتـون يعتقـدون أنهم يرون أثناء سكرات الموت الراحلين من أقاربهم. وكان السير وليام باريت رئيس جمعية البحوث النفسانية قد اكتشف بالفعل نفس الشيء حينما كان يجمع المادة لكتـابه «رؤى سكرات الموت».

والغريب في الأمر أن هذه التجربة لم تؤدِّ إلى اهتزاز الشـك الذي كـان قد مـلأ روزاليند هايوود مما اكتسبته من كتاب هايكل عن لغـز الكون، ولا الخـبرات العديـدة بأوامر جعلتها تتخذ العديد من القرارات غير العقلانية. فحينما كان أحـد الجنود عـلى وشك الموت من حمى البول الأسود التي يئس الأطباء من علاجها جاءتها «الأوامر» بأن تسأله عن أفضل ما يحبّه في الدنيا، فأجابها قائلاً: «وردة حمراء يا أختـاه» وسمعت من نفسها وعداً بأن تحقق مطلبه في اليوم التالي. كان من الواضح أن هذه الحالـة نوع من المستحيل وهي في مستشفى بمقدونيا، ولقد أرسلت مع حامل البريد رسالة إلى عاصمة اليونان تطلب الوردة الحمراء، ووصلتها باقة منهـا من المديـر اليونـاني، فشفي الجندي الذي كان يعاني سكرات الموت. حينما يكون الانسان جريحاً عادة ما يعجز عن النوم، ولكن «الأوامر» أخبرتهـا بأن تقـدّم الدواء المسكن بنفسهـا، فركّبت دواء سيء الـطعم قدر إمكانها بمزج عدد من العقاقير بصورة عشوائية، وأضافت للمزيج ملعقة كبيرة من الملح. وكان لهذا الدواء أثره الفعال، وبعدها لم يعان الرجل من مشكـلات في النوم. وحينما رفض شخص مدمن ما يُقدم له من غذاء، جاءتها الأوامـر تخبرهـا بأن تضـايقه «ضايقيه.. ضايقيه بشـدّة» وكان ذلـك ضد طبيعتهـا، ولكنها نفّذت الأوامر، وأخيـراً أخذ يتأوه ويقول: «سآكل أي شيء، «إذا ابتعدت عني»، وبدأ يأكل بصورة عادية.

يمكننـا أن نفسر معظم هـذه الأمثلة طبعاً في ضـوء العقل البـاطن. لكن هنـاك أمثلة أخـرى في كتابهـا يصعب تفسيرهـا، فهي تحكي كيف كانت عـلى وشك إغـلاق منزلها لمدة شهر لتقضي إجازة منتصف الصيف، فجاءتها الأوامر تخبرها بضرورة إغـلاق المحبس الرئيسي للمياه لأن الأنابيب سوف تنفجر، وحينما أخبرت زوجها بذلك شرح لها كل الأسباب الفنية التي لا تجعل الأنابيب تنفجر، ولكنها بدلاً من أن تعترض عـلى ما قاله أعطت مفتاحاً احتياطياً للبنّاء لاستعمالـه في حالـة انفجار الأنـابيب، فشرح لها البنّاء أيضاً لمـاذا لا تنفجر الأنـابيب في يوليـه. وبعد مـدة قصيرة انفجـرت الأنابيب، وتمكن البنّاء من القيام بالإصلاحات اللازمة لأن معه المفتاح الاحتياطي. هنـا يصعب

تماماً تفسير «الأوامر» في ضوء منظور اللاوعي وبخاصة ما يتعلّق بإصرارها على أن كل ما يتعلّق بالسباكة هو من مسؤولياتها الخاصة.

هناك أمثلة أخرى في كتاب «الخلية اللامتناهية» تجعل الاحتمالات عالية بأن لديها موهبة المعرفة المسبقة أو القدرة على رؤية المستقبل. ومن الواضح أنها موهبة لا يتحتم تواجدها بهذه البساطة. فبالنسبة لمواهب نفسانية أخرى مثل التخاطر والاستشفاف والوساطة والحركة النفسانية يمكن أن نجد لها تفسيرات على درجات متفاوتة من العلمية، ولكن بالنسبة للمعرفة المسبقة بالمستقبل فلا توجد تفسيرات ممكنة، فهي ببساطة غير منطقية ومنافية للعقل، أو هي باختصار مستحيلة، لأن المستقبل لم يأت بعد. وعلى ذلك فإن كتاب روزاليند هايوود به أمثلة كثيرة للمعرفة المسبقة بالمستقبل أغلبها يفتقر إلى التفسيرات العقلانية. على سبيل المثال تحكي لنا كيف أن زوجها قابل أحد المخترعين المعروف بأنه عاجز عن تسويق اختراعه، وكان زوجها آنذاك يشتغل بالأعمال التجارية، فعرض عليه أن يتولى الأمر نيابة عنه. وحينما أخبرها بالموضوع رأت أنها فكرة ممتازة، حتى أخبرها زوجها باسم الرجل، فحينئذ غمرتها «موجة من النفور والرهبة» وقالت: «لا تفعل.. لا تعقد أيّ صفقة مع ذلك الرجل»، وأصرّ زوجها على أن الوقت قد فات وأنه لا يستطيع التراجع عن الصفقة، واستمر فيها. وبعد فترة قصيرة غشّها الرجل فقبض عليه وانتحر وهو في الحجز.

كان تفسيرها لذلك هو أن زوجها يعلم في اللاشعور بأن الرجل غشاش، وانها تلقت ذلك عن طريق التخاطر. ونظراً لأنها أعطت أمثلة كثيرة توضح فيها أن زوجها له قدرات نفسانية أصبح من الواضح أن رفضه لرجائها وإصراره على أن يشارك ذلك الغشاش في عمل تجاري أمر شاذ.

وتذكر المثال التالي عن المواهب النفسانية لزوجها:

حدث أن صدمت سيارة ليموزين كبيرة سيارتنا الصغيرة ودفعتها فوق الرصيف نحو أحد أعمدة الإنارة فقال بهدوء «حسن ما حدث، فلا بدّ لي أن أغير العجلة، وخرج من السيارة وقال: «تماماً كما فكرت» وقام بتغيير العجلة».

والتفسير المعقول هنا هو الصدفة، ولكن ذلك لا ينطبق على الأمثلة الأخرى التي ذكرتها عن قدرات ابنها الأصغر، فحينما جاء من انجلترا إلى أمريكا ليقضي مع والديه عطلة الصيف أخبرها بأنه يعرف بالفعل القرية التي يسكنان فيها لأنه رآها في منامه. وقالت له أمه «إذا كنت تعرف بالفعل فعليك أن توجهنا في الطريق إلى البحر»، وفعلاً

وجههـا في الطريق إلى الشـاطىء، ثم شق طـريقـه وسط المظلات الشمسيـة إلى مظلتهم، فلما سألته «كيف عرفت أنها مظلتنا؟» أجاب: «رأيت في منامي الرسم الذي عليها».

وتوافق روزاليند هايوود على أن ذلك ربما يكون تخاطراً، ولكن ماذا عن الحادثة العارضة التالية؟

ذات يوم.. رأيت ابني الأصغر يبحث عن اسم شارع في خريطة لندن، لأنـه - كما أخبرني - يعرف أنه حينما نخرج سوف يسأله أحد عن مكانه وهو لا يعرفـه. وفعلاً وقـع ما ارتـآه مسبقاً خـلال ساعة من رؤيته.

إذا دققنا النظر هنا في شرح أقصى ما كانت تأتي به المصادفة أو أي تخاطـر معقد مع شخص غريب، فسوف يبدو لنـا أنه التفسـير الوحيـد لوجـود نوع من الاحسـاس الغريب، وأن حادث معرفة الابن مسبقاً بما وقع بالفعل هو أنه تلقى «ذاكرة المستقبل» بطريقة ما. ويكون تفسير توقعها للشر من ذلك الرجل الذي سمعت اسمـه من زوجها هـو أنها تعرفت عـلى أنه هـو الرجـل الذي غشّهم بـالفعل. ومن الـواضـح أن ذلـك يتعارض كلية مع نظرتنا إلى الزمان على أنه شيء يتدفق ويسير في اتجاه واحد، ولكن التجارب النفسانية غالباً ما كانت تبدو لذلك متعارضة مع اتجاهاتنا المكانية، ومن القوانين الأساسية في عـالمنا أن يستحيـل عـلى أي شخص أن يتـواجـد في مكـانـين في وقت واحـد، وكـانـت روزاليند هايوود أيضاً قادرة على أن تعارض ذلك من التجربة الشخصية التالية:

في إحـدى الليالي الحـارة كان زوجي نـائماً في أمـان بينما كنت بجـانبه اتقلب في الفـراش العريض قلقة ومستيقظة تماماً، وأخيراً أصبحت لا أحتمل الأمان الزائد عن الحد، وفكرت قائلة «أنا لا أحتمل ذلك، سوف أوقظه ليضاجعني».

وقبـل أن أنفذ هـذه الفكرة الأنـانية حـدث لي شيء غـريب، انقسمت إلى قسـمين أحـدهمـا ذاتي التي في رداء نومي القرمزي تواصل ارتهازها وهي فوق وسادتها المطرزة، ولكن الأخرى كانت ترتـدي رداء طـويلاً أبيض اللون واسـع الذيـل تقف إلى جوار الفـراش في هدوء، وبـلا حراك تـنظر إلى الخـارج متأملة. كانت تلك الأنا ذات الرداء الأبيض مثلي تماماً وأنا في الـرداء القرمـزي. كنت واعية في كـلا المكـانين في نفس الـوقت، وأذكر تمـاماً ذاتي في الـرداء الأبيض تنظر إلى أسفـل ترقب جـانب الفراش الذي كنت مستلقية فيه كالتمثال أمام ذاتي، وأفكر كذلك في ذاتي الغبية البلهاء ذات الرداء القـرمزي المرتهزة فوق وسادتها، وقالت ذاتي ذات الرداء الأبيض لذاتي ذات الرداء القرمـزي بازدراء وبرود، «إن سلوكك مشين، لا تكوني أنانية لهذا الحد، أنت تعلمين أنه متعب للغاية».

وكانت ذاتي ذات الرداء القرمزي مثل الحيوان الشاب بتكون كلية من شهوات، ولم يكن يهمها

س ... كن الزوج التعيس متعباً أم لا. واندفعت أرد عليها بعنف: «سوف أفعل ما أشاء، ولن تستطيعي إيقافي أيتها التقية المتزمتة البيضاء» كانت الذات القرمزية شديدة العنف لأنها تعلم أن ... ت البيضاء أقوى منها وانها قادرة على إيقافها.

وبعد دقيقة أو دقيقتين شعرت بعدم وجود تحول، وانحبست ذاتي البيضاء مرة أخرى مع ذاتي القرمزية في جسم واحد، ومنذ ذلك الوقت سكنتا معاً مثل الزيت والماء. وجاء ادراكي متأخراً، لا أذكر متى، بأنني أستطيع أن أربط نفسي بذاتي البيضاء وفق إرادتي وأرغب دون شعور، وتلك نقطة هامة. تلك الرغبات والنزعات التي تسبّب لكل ذواتي القرمزية أن تترنّح مرتعشة.

في حالة توهم القارىء بأن هذه التجربة تغلب عليها الرمزية أكثر من الحقيقة ... تواصل ذكر حالة امرأة حدثت لها حالة انقسام بعد وضعها لطفل، إحداهما ... شعرت مستلقية في الفراش بينما الأخرى كانت تقف بجانبه، وحينما سئلت عن رأي كل من هاتين الذاتين في الأخرى أجابت قائلة: «كانت ذاتي الخارجية تنظر إلى ذاتي المستلقية في الفراش باشمئزاز خال من أي عواطف».

ولم تؤدِّ مثل هذه التجارب إلى زعزعة التعصبات الأساسية التي تشربتها روزالیند هايوود من هايكل بطريقة ليس لها مبرر، فوجود التخاطر والاستشفاف لا يتعارض في حد ذاته مع الاتجاه المادي، بل ان تجارب الرؤية المستقبلية ليست تحدياً ... بل ولكنها قد تثبت أن رؤيتنا للزمن أشبه ما تكون بطريق ذي اتجاه واحد قد يكون فيه خطأ ما، إلا أن حقيقة الزمان تكون منطقية وعلمية كرأينا الحالي فيها.

وتقوض تعصب روزالیند هايوود أخيراً نتيجة تجربتين تتعلقان بالاتصال الظاهري بالموتى، أولاهما وقعت في واشنطن العاصمة عام ١٩٣٠ حينما كان فرانك زوج روزالیند يعمل بالسلك السياسي هناك. وكانا يلتقيان في أغلب الحفلات مع سيدة جذابة اسمها جوليا. وفي يوم من الأيام طلبت تلك السيّدة فجأة من روزالیند أن تقرأ لها الكف، فقد كانت تهوى ذلك، وحينما أخذت روزالیند يد جوليا وجدت نفسها تقول في حزن عميق: «لن تجدي ما تبحثين عنه أبداً في هذا العالم.. هل تجدينه؟» فردت عليها السيدة جوليا بأسى: «لا».

وبعد بضعة أسابيع قدمت جوليا إلى روزالیند هايوود صورة صغيرة لها. وكانت على وشك الرحيل إلى بيرو. وجاءت الأوامر إلى روزالیند تخبرها بأن لذلك أهمية كبيرة. وفي الرحلة إلى بيرو اصطدمت الطائرة بجبال الانديز ولم ينج منها أحد.

ووجدت روزالیند أن اسم جوليا ثبت في رأسها وأخذ يتكرر المرة تلو الأخرى،

وبعد يومين كتبت خطاب تعزية إلى والدة جوليا، ثم استلقت على مقعد لتستريح، وفجأة سقطت لوحة خشبية فنية محفورة من فينا من الحائط، ولكنها لم تتحطم، حتى خيطها المعلقة به كان سليماً وكان المسمار ثابتاً في الحائط. «كنت واقفة بجوار مكتبي أحاول إيجاد تفسير لهذا اللغز فلمحت عيني الخطاب الذي كنت قد كتبته إلى والدة جوليا، وفي تلك اللحظة سمعت جوليا تتكلم بعبارات غير واضحة تقول: «لا ترسلي هذا الخطاب السيء بل اذهبي إلى أمي الآن، فوراً، واطلبي منها أن تكف عن النحيب من فورها، لأنني سعيدة ولا أستطيع احتمال ذلك».

وهكذا انتابني تردد في تفكيري فأنا زوجة دبلوماسي بريطاني، ولو أنني ذهبت لتوصيل رسالة آتية من إنسان ميت فربما يؤدي ذلك إلى إساءة سمعتي وكنت «كلما ترددت زادت جوليا إصراراً في حديثها. . .»

وأخيراً. . .

ومع شعوري بكل أنواع الغباء تحيطني ركبت سيارتي وذهبت، ومما زاد الموقف تعقيداً أنني لم أكن أعلم شيئاً عن عادات أبناء الولايات الجنوبية الأمريكيين في ظروف الوفاة، وجعلني جهلي أظن أن والدة جوليا سوف تتصرف كما أتصرف أنا في مثل هذه الظروف، ولو كان الأمر كذلك فإن التدخل وطلب وقف الأحزان البالغة لن يكون له مكان، لكنني حينما وصلت إلى منزلها وجدت جميع الستائر مسدلة، وقابلتني في البهو مجموعة من السيدات باديات الأسى يتحدثن في همس ويشبهن الغربان في ثيابهن السوداء، وسألتهنّ: «هل يمكنني رؤية مسز هوارد؟»

وكانت المفاجأة أن رددن علي «بالطبع لا يمكن، إنها في فراشها تنتحب». بهذا انحلت المشكلة، وقلت في إصرار: «لا بد لي أن أراها». وبعد احتجاجات كثيرة أخذنني إلى حجرتها في الطابق العلوي، وهنالك وجدت امرأة مسكينة وحيدة جالسة في الظلام فوق فراشها والأسى العميق يلفها، وظننت أنها راغبة في ذلك، وأبلغتها الرسالة وظني أنها لن تقبلها بل سترفضها في جنون، ولكن على العكس أضاء وجهها وهي تقول: «أعرف ذلك. أعرف أنها تكره هذا، وأنا لا أريده، سوف أقوم وأوقف ذلك الحداد من فوري».

كان لاستجابتها السريعة تأثير غريب عليّ، فمنذ تلك اللحظة اختفى وجود جوليا بالنسبة لي، كما أني لم أفكر في الأمر إلا على أنه شيء عادي.

حدثت التجربة الثانية لاتصال روزاليند هايوود بالموتى بعد ذلك بعشرين عاماً في لندن. فقد مات صديق قديم يدعى فيفيان أوسبرن بعد مرض طويل، وقرب نهايته عبر عن بعض المرارة من فكرة الموت الذي يقضي على الانسان كالشمعة ولا يبقى له أثر من بعده.

وبعد عشرة أيام ذهبت لآخذ لوحة زيتية من رسمة كان قد أوصى بها لي، وربما كان من المناسب أن أذكر هنا أنني كنت مسرعة لموعد آخر كنت متلهّفة عليه، ولم أكن متلهّفة على موعد فيفيان هذا، وبينما أنا أسارع إلى حجرته لأبحث عن اللوْحة فوجئت بصفعة أدارت رأسي، وكانت من النوع الذي أسميته رائحة الموت. ولا أدري بالضبط إذا كان ذلك طبيعياً أم أنه نوع من الحساسية تأتي على الهامش، وإن كان القاريء لن يتفهم بسهولة ما أقصده من ذلك. ثم اندفعت نحو فيفيان نفسه بسرور عظيم وحيوية بالغة، وانجذبت بشدة نحوه كما يجري الانسان إلى أحضان صديق له في الشارع. ثم دخلت في تجربة يصعب وصفها دون أن تبدو سطحية غير ذات معنى أو بالغة في دراميتها. فكما حدث مع جوليا شعرت بأن فيفيان يبعث برسالة إلى داخل عقلي، فأغمضت عيني ووقفت ساكنة لأتلقّى بوضوح أكثر. أوصل لي بجودة شديدة أن أفضل تعبير عما يشعر به هو الاندماج وأن الأقوال التي سمعها تقول إن الهلاك يأتي مع الموت أقوال خاطئة، فعلى العكس من ذلك أصبح الآن في مدى واسع وحرية وفرصة تتجاوز كل الأحلام، كان تركيزه كله لا على أنه أصبح حياً فحسب بل على الفرصة المدهشة التي واتته بالامتداد الواسع . . .

وقفت ساكنة لحظات قليلة مدركة تماماً ذلك التناقض الصارخ بين رائحة الموت وقوة حياة فيفيان، كما لو كانا شيئين مختلفين تماماً. ثم تذكرت واجبي وقلت له: «هذا مدهش، ولكنك لم تقدم لي أي دليل، ماذا أقول لجمعية البحوث النفسانية؟»

(أود أن أوضح للقاريء أن تعمدي الفورية في وصف اتصال جوليا لي قد أوضحت استعمالي لكلمة «قالت» فهي بعيدة كل البعد عن المعنى الحقيقي في هذا النوع الحميمي من الإدراك الاتحادي، إذ كان الشعور في هذه الحالة كما لو أن جيلبرت موري ذكر عن طريق تجربة تخاطريه نوعاً من الحساسية المشتركة) وكانت إجابة فيفيان على سؤالي فورية وحاسمة: «لا أستطيع أن أقدم الدليل، فإنكم تفتقرون إلى المفاهيم الخاصة بهذه الأحوال، وكل ما أستطيعه هو أن أقدم لك صوراً شعرية:

هنالك في البعد الشاسع من فوقي، رأيت بعيوني الداخلية جناحين أبيضين كبيرين يرفرفان في السماء الزرقاء اللامتناهية، وإن بدت من أول وهلة أنها صورة فيكتورية مبالغ فيها، إلا أنها في حقيقة الأمر مناسبة تماماً للتعبير عن المجال والفرصة والحرية التي شعرت بأنني اندمجت فيها لحظات محدودة، ولئن كان ذلك للحظات معدودة فسرعان ما أصبحت إدراكاً كاملاً لأني لا أستطيع أن أستمسك بحالة الاندماج التي يتطلبها اندماجي في فيفيان. وكان عليّ أن أقول من فوري بشيء من التمنع «سلاماً. يجب أن انفصل الآن».

ثم سقطت إلى أسفل الحجرة الخالية وعاودني الشعور برائحة الموت.

وأضافت روزاليند أنها مرت بتجارب أخرى من الاتصال بالموتى، ولكنها كانت تتلاشى بسرعة خلاف اتصالها مع جوليا وفيفيان، ولن أذكر منها شيئاً فربما سبّبت الملل للقاريء. ويكفي أن نذكر أن روزاليند أضافت قولها:

كانت جميعها تشترك في شيء أو شيئين: إما شعور بغرض وقتي من جانب الميت، أوحى لي

القيام بعمل معين، وهذه الحالات تختلف عن تجربتي مع الظاهرة التي تعرف باسم التلبّس (Haunting) التي مهما كانت أسبابها ينقصها الشعور بالفورية.

بمعنى آخر كانت تجارب الاتصال مع حديثي الموت ترجع إلى رغبة الانسان الراحل في «عمل اتصال»، وما حدث هو أن روزاليند هايوود كانت «منفتحة» بدرجة كافية لتلقي اتصالاتهم.

تناولت تجارب روزالينـد بشيء من التفصيل لأنها مهمة للتحقق من أن تجارب المستشفَ ليست سلسلة من الأحداث الغامضة التي تنتاب الإنسان في حياته اليومية، ولكنها جزء من نمط بل هي النسيج الأساسي لذلك النمط. حقًا إنَّ روزاليند هايوود لا تعتبر من ذوي المواهب النفسانية الخاصة. إذ بمقارنتها بأمثال دانييل دانجلاس هوم Daniel Dunglas Homeأو أيوسابيا بالادينو Eusapia Palladino أو حتى مقاييس جيرار كرواسيت Gerard Croissetأو روبرت كراكنل Robert Cracknel - بمقارنتها بهؤلاء لا يعتبر بمكانتها، فهي توصف بأنها حالة نفسانية خفيفة تستحق الدراسة، فهي ربة بيت عادية، سيدة من الطبقة المتوسطة العليا، ادواردية تشترك مع طبقتها في كل قيمها وتعتقد في أن كونها ذات حالة نفسانية أمر يسيء إلى سمعتها، ولهذا السبب كانت دائماً تبحث عن تفسيرات أخرى لما يمر بها من تجارب، مثال ذلك توقعها الشر عند سماعها اسم الغشاش، فهي تميل إلى أن تعبر عن الدهشة على أن ذلك نوع من التخاطر مع زوجها، وتميل أيضاً إلى اعتبار ذلك اعتقاداً بدائياً، وتعبر عن الدهشة من أن ذلك الاسم قد يربطها بصفة الغش عن طريق التخاطر، ثم تعترف آسفة بأن ذلك مستحيل لأنه كان اسماً مزعوماً. وهي مستعدة لأن تتقبل التفسير الواضح - الذي ربما كان أيضاً تفسيراً محيراً - بأنها تعرفت على اسم الغشاش لأن الخدعة كانت إلى حد ما قد وقعت بالفعل. أو بمعنى آخر كانت تجربتها مثالاً لما أسماه دكتور جواد (Goad)؛ «التورط الذي لا جدال فيه عن الزمن». ورغم تجاربها العديدة في الاستشفاف كانت روزاليند هايوود شخصاً ممن يودون الاعتقاد في الارتياب المؤكد في أي شيء، إذ كانت لها اتجاهات فيكتورية تجعلها في صف النسق والترتيب.

هناك طبعاً تفسير آخر لمعرفتها المسبقة التي لا يقل عدم استعدادها لاستقباله عما سبق، وهي المعلومات التي كانت «تأتيها من الأرواح». مع ذلك ذكرت روزاليند فكاهة عما جعلها مستعدة لمواجهة ذلك. في الأيام الأولى للحرب العالمية الثانية

حـاولت استخدام لـوحة استطلاع الخط التي تتكون من مؤشر يحركه مشغـل اللعبـة بأصابعه وتصف دائرة من البطاقات تحتـوي على حـروف أبجديـة، وحينها طلب منهـا طبيب صـديق أن تعرض لـه اللوحة قـررت أن تستبعد أن يملي عليها عقلهـا البـاطن الرسالة وذلك بأن تجلس تحت المائدة وأصابعها على المؤشر فـوق رأسها. وقـرأ الطبيب الرسالة، وأخبرها بأن شخصاً يدعى جورج يحذر فرانك ويطلب منه أن يقـود سيارتـه بحرص شديد خلال اليومين التاليين. فرانك هـو زوجها، وجـورج هو شقيق زوجهـا الـذي قتـل منـذ مـدة طـويلة، ولم يكن ذلـك الـطبيب يعلم بـأن فـرانـك هـو زوج روزاليند هايوود. هنا تشرح لنا روزاليند بـأنها تتشكك في الحيـاة بعد المـوت (رغم أن تجـربتها في واشنـطن مع جـوليا تعـطينا مثـالاً آخـر عـلى أنها مـترددة في الانضـمام إلى المتشككين)، وأنها تتعجب من أن عقلها الباطن كان يجرها إلى ذلـك الاعتقاد. نقلت الرسالة إلى زوجها بتردد شديد، وفي اليوم التالي أخبرها بأنه إذا لم يكن قد قاد سيارتـه بحرص شديد كما طلبت منه لتعرض لثلاثة حوادث خطيرة.

وعلى الرغم من أن التفسير بالروح قد يقدم لنا بديلاً مقبولاً عن المعرفـة المسبقة بأحداث المستقبل بالنسبة لحالة الغشاش، عـلى اعتبار أن الـروح الصديقـة تعلم بأنـه غشـاش، إلا أن ذلك لم ينجح في تفسير الكيفية التي علم بها جورج مقدماً أن فرانـك معرض لخطر ثلاثة حـوادث خلال الثماني والأربعـين ساعـة المقبلة. وهنا: عـلى مثال تجربة ابنها الأصغر الذي علم مسبقاً بأن شخصاً ما سوف يسأله عن شـارع معين، لا بـد لنا أن نفسر الأمـر على أسـاس نظريـة جواد عن «التـورط الزمني الـذي لا جدال فيه».

وهنا نتساءل، هل بالإمكان أخذ تجارب روزاليند هايوود ككل لاستنباط نمـوذج قد يساعد على تقديم تفسير أساسي؟

تقدم لنا بنفسها مفتاحاً هاماً لذلك، إذ يبدو أنها كانت تنظر إلى الجبـال بتشكك غير عادي. فلقد قضت طفولتها في الهند، وتصف والـدها وهـو يشير إلى الثلوج عـلى قمم الجبال ويقول:

«انظروا يا أطفال.. هناك ثلوج».

وظللنا مدة طويلة لا نراها لأننا لم نكن ننظر إلى أعلى بدرجة كافية، وأخيـراً رأيناه شـامخاً وسط السماء الزرقاء.. جبل كانشنجونجا أعلى جبل في العالم، قمته بيضاء لامعة. ولا أستطيع أن أعبر عـما

هزني وأتى غالباً من وراء التلال، كان نوعاً من الريح التي تهب بالروح على كائن هو مجرد طفل، ولمست فيه شيئاً فلم يعد شيئاً طفولياً بعد ذلك. . .

وحينها عادت إلى انجلترا طالما بكت حينها كانت تتذكر تلك التلال. وبعد مضي سنوات، وفي أثناء حفل عشاء، كانت تجلس إلى جوار أحد رواد جبال التبت، وحاولت أن تخبره بمعنى التلال عندها، «وبعد لحظة من سكون قال كلمتين ميزتهما من بين كل ما سمعت هما عبارة «تلك الموجودات».

جاء إدراكها «للموجودات الأخرى الصغرى» لأول مرة بعد عودتها من الهند، مثل تواجد السيدة العجوز في حجرة نومها بمنزل جدها.

وتصف عدداً من تجاربها مع الجمال، ولكن صدقها الواضح في ذلك الوصف يمنع توهم أنها صيغة جمالية، مثال ذلك وصفها كيف أنها بعد استمعت إلى مقطوعة «اللحن المسطح» لشوبان مرت بنوع من الهلوسة عن وجود بهو كبير من الممر مستطيل الشكل مطلي الجدران وجانبه الشرقي مفتوح على السماء في الليل بنجومها. وتذكر أن زوجها لمسها براحة يده على ظهرها لمسه خفيفة أعادتها إلى الأرض بقوة كما لو كان شيءٌ قد ركلها.

تذكرنا هذه التجارب بحادثة وقعت لكاهن هندوكي حديث يدعى راما كريشنا، كان في أحد أيام طفولته يعبر حقلاً مزروعاً بالأرز ويحمل صحناً به أرز، ففوجيء بسرب من طيور الغرنوق الأبيض يمر فوقه كسحابة كثيفة سوداء، فغمره شعور بالغ بالجمال جعله يسقط مغشياً عليه، وتطاير الأرز في كل مكان. وفيما بعد أصبح راماكريشنا يتعرَّض في حياته لنوبات من السكرات الإلٓهية التي تسمَّى سامهادي يستغرق أثناءها في نشوة قد يفقد معها الوعي.

ولعل التعليق الواضح على مثل هذه التجارب هو أن وقوعها قد لا يكون مناسباً في مكان مثل ميدان بيكاديللي. وهنا نعود إلى نظرية جوليان جاينز عن العقل المزدوج الرؤية، إذ يعتقد جاينز أن الإنسان المتحضر لم يعد مزدوج العقل كما كان يسمع أصوات الآلهة، فالحياة أصبحت على درجة من الخطورة والتعقيد جعلت الاهتمام الرئيسي للانسان يتركز في أن يحافظ على وعيه بها. ويزعم جاينز أن ذلك الاستماع إلى أصوات الآلهة كان يحدث حتى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد. بعد وقوع العديد من الكوارث في حوض البحر المتوسط مثل تفجر بركان سانتوريني الذي دمر الحضارة

الاغريقية، وغزو البربر المخربين الذين عرفوا باسم شعوب البحار. ويبدو بالتأكيد أن في ذلك الكفاية للدلالة على اعتقاد جاينز في أن ذلك قد بدأ بعد فترة من تعرض تاريخ البشرية لفترات القسوة لأول مرة[1].

وحتى لو قبلنا جدلاً اعتقاد جاينز بأن الانسان الذي استخدم الحجارة في بناء مأواه وبناء الأهرام كان يفتقر إلى «الوعي بالذات» فسيبدو لنا واضحاً أنه كان محقاً في اعتقاده هذا بالنسبة لفترة من تاريخ الحضارة اضطر فيها الانسان أن يصبح خاضعاً للشطر الأيسر من المخ بمعنى أنه ألغى عن عمد الوعي الرقيق الدافىء للحيوان وللطفل وتّمى بلا رحمة «نظرته إلى العمل». وقد نقول هنا إن الانسان القديم كان ينظر إلى الكون من خلال نوع من المنظار المكبر الذي يظهر له الآفاق البعيدة، ثم ظهرت مشاكل البقاء متزايدة فاضطرته لخلق أداة أقرب شبهاً بالمجهر أو منظار الساعاتي الذي يمكنه من التركيز على رؤية الجزئيات المتناهية في الصغر، وكانت النتيجة أنه أصبح غير واعٍ بالآفاق البعيدة.

حقاً مازال الانسان أهلاً لهذا الادراك الأوسع، إلا أن ذلك يقتصر على لحظات معينة من الاسترخاء العميق، ولو حدث ذلك فيبدو أن شطري المخ الأيمن والأيسر يندمجان فيمر الانسان بشعور من الأمان والسكينة، ويصبح الاحساس كله خيّراً. ولكن لا بد للانسان الحديث أن يبدأ بإدراكات الشطر الأيسر من المخ - وهو الذات الضيقة الوعي منا، وربما كان أسلافنا القدامى يدخلون مباشرة في «الوعي الكوني» بمجرد الاسترخاء.

نتيجة لهذه التطورات الجذرية يتميز الانسان الحديث بارتفاع «عتبة الجهال»، والعتبة هنا اصطلاح نفساني يعني مقدار ما يتطلبه الأمر من دوافع لاستثارة إدراكات شخص ما. فالانسان ذو المدخل الضوضائي العالي يستطيع أن يتجاهل ضوضاء الحلبة التي تؤدي بإنسان أكثر حساسية إلى الجنون. والانسان الذي ترتفع عنده عتبة الألم يستطيع أن يقبل حشو الضرس بدون أي مخدر. والمدخل المنخفض نحو الجهال عند راماكريشنا يعني أي نوع من الجهال قد يوصله إلى درجة النشوة. وبالنسبة لسكان المدن قد يكون ذلك غير مرغوب فيه تماماً مثل الاسهال المزمن.

أما عن روزاليند هايوود فقد كانت نتاج الحضارة البريطانية التي تتميز بالتجهم

(١) أنظر كتابي عن التاريخ الاجرامي للجنس البشري: الفصل الثاني See my: Criminal History of Mankind, Chapter 2.

وكراهية العواطف، والالتزام بضبط النفس الحديدي. مثل هذه الصفات تستلزم عادة عتبة عالية من الجمال، فالانجليزي يفخر بأنه من الناحية الفنية غير حساس. وفي حالتها يمكننا أن نرى أنها كانت مختلفة عن ذلك، وأنها قد ربطت تجاربها النفسانية الأولى «برياح الأرواح» التي هبت على «الكائن الطفل» من جبل كانسينجونجا. و «لمست فيها شيئاً يقظاً».

ربما لا يكون للمس زوجها بعد سماعها لحن شوبان أو الصدمة التي مرت بها متجاوزة كل درجات الاثارة أي معنى، وربما يلاحظ معظم الناس نفس الشيء إذا ما استيقظوا من هامش النوم أو من الغفوة، فالمتصف بين النوم واليقظة يبدأ بحالة هلوسة نعاسية، وأي صوت ولو صوت إغلاق الباب يؤدي إلى نوع من الوميض داخل المخ فيسبب إحساساً بما يشبه الانفجار. وتصف لنا روزاليند هايوود أيضاً كيف أنها حاولت في صبيحة يوم من الأيام أن تمارس نوعاً من قراءة الأفكار بالتحليق وهي في حالة من الاسترخاء العميق وحاولت الاتصال بعقل شخص آخر بالمنزل. ووصفت شعورها بأنه «حالة من التحول العظيم إلى مرحلة الدخول إلى التخدير». ثم تمزق الأمن بواسطة «ضربات عاصفة مؤلمة تصادمت مباشرة في داخلي». واستمرت الضربات، ثم شعرت بأنها تعود إلى حالتها الطبيعية. وكان زوجها آنذاك يدق الباب ليقول لها إن طعام الافطار جاهز. فمن مدخل حساسيتها المنخفض سمعت كل دقة وكأنها انفجار قنبلة. وتواصل تأملها فيما إذا كان ذلك هو السبب في خطورة إيقاظ «الوسيط من حالة الاندماج». فالمعروف أنها قد تكون سبباً في توقف القلب.

واستطاع راماكريشنا بعد أول تجاربه مع السامادهي أو «النشوة الإلهية» أن يعرف كيفية التوصل إلى هذه الحالة إرادياً، فما كان عليه إلا أن يسمع اسم كريشنا أو كالي حتى يدخل في السكرة الإلهية، ونلاحظ أن هناك شيئاً مقابلاً لهذا إذا ما تجاوب الانسان بعمق مع مقطوعة موسيقية يستمع إليها، فالأنغام الأولى من مقطوعة تريستان أو الانغام الافتتاحية لسيمفونية بروكنر تستثير عند السامع إحساسات بدغدغة في الدماغ يتبعها فيض مفاجيء من الامتاع. وهي لا تخرج من الناحية النفسية عن كونها نمطاً معتاداً مثل كلب بافلوف الذي يفرز اللعاب حينما يستمع إلى صوت الجرس. والمهم هو أنه بمجرد أن يدرك المخ الخدعة أو على حد قول آخر الطريق إلى النشوة، فسيصبح قادراً على تكرارها بإرادته. ويستلزم ذلك فعلاً إرادياً معيناً هو التركيز المتعمد

على مصدر المتعة، فإذا ما استمعت إلى الموسيقى وأنت تقرأ في صحيفة يومية أو تفكر في أي شيء آخر، فلن يكون العمل أقل قوة، ولكن إذا ما تعاون المخ والمثير فسيكون هناك استرخاء يتبعه اتصال بالمصدر الداخلي للمتعة.

وبذلك تبدأ في الظهور نظرية عن الحساسية النفسانية على النحو التالي: ـ حينما أسترخي بعمق، وكأنَّ أحداً قد فتح الفاصل بين شطري المخ فيحولهما إلى غرفة واحدة، وأمر بإحساس التحرر العقلي كما لو أصبحت فجأة قادراً على التنفّس، وأحس باتصال الأشياء، فلا بد أن كل فرد قد مر بموقف التسرع أو الدهشة ولكنه يفشل في أن يلاحظ أن هذه المواقف تظل تتعمق وتتسلل حتى تتبخر حالة الدهشة ويبدأ الشعور بالألم في الظهور. إن التسرع والتوتر يرفع عتبة الحساسية، ويقيم في نفس الوقت جداراً من زجاج بيننا وبين الواقع. وفي حالة النظرة الموحدة يتلاشى ذلك الحائط ويبدو كل شيء كأنه واقع.

وليس من شك في أن القطط والكلاب تكون دائماً في هذه الحالة، إذ أنها تفتقر إلى القوة التي تدعم التركيز، ويبدو أن هناك احتمالاً قويّاً بأن أسلافنا من سكان الكهوف الذين عاشوا منذ نحو أربعين ألف عام كانوا يقضون معظم وقتهم في هذه الحالة. فحينما اكتشفت رسوم الحيوانات على جدران كهوف إنسان كرومانيون استنتج العلماء أن أسلافنا كانوا يقضون الأمسيات بقطعة من الفحم إو أكسيد الحديد الأحمر، ثم تبين تدريجياً أن ذلك لا يعتبر أقدم مثال تنطبق عليه عبارة «الفن للفن» بل أنه فن من أجل السحر. إن الكاهن هو الذي رسم الثور والغزال لأن الرجال كانوا على وشك الخروج للصيد في اليوم التالي، والمفروض أن الرسوم عُملت لتربط بين عقول الصيادين وبين الصيد السمين. مع عتبة حساسيتنا العالية للغاية يبدو لنا أن الفكرة منافية للعقل، أمّا بالنسبة للإنسان البدائي فلا بدّ أنها كانت مسألة معقولة مثلها تماماً مثل البحث عن الماء. وبالاضافة إلى ذلك هناك براهين تدل على أن مثل ذلك السحر كان له مفعوله. ولقد وصف السير آرثر جريمبل الذي كان مندوباً سامياً في جزر جيلبرت، كيف أن النداء الموروث على خنازير البحر قد أقام بالفعل صلة عقلية مع تلك الخنازير فجعلها تسبح نحو الشاطىء وهي في حالة أشبه ما تكون بحالة السكرة فيمكن للوطنيين أن يغوصوا في الماء ويقتلوها(٢). كما أن مانويل كوردوفا ـ

---

(٢) Arther Grimble, Patterns of Island (Chap. 6).

ريوس الذي اختطفه هنود الإمزون من وطنه بيرو عام ١٩١٢ وعاش عدّة سنوات معهم قد وصف سحر الصيد وأكّد أنّ له أثراً فعّالاً(١).

ونظراً لأن الانسان هو الذي صنع التعقيدات الحضارية أصبح عليه أن يطور مركبات العقل لتتمشى معها، فضاع العقل الموحد النظرة وحلت محله الصيغة الجديدة التي يتكون فيها العقل من شطرين أو غرفتين، فيه غرفة الجلوس إلى اليسار، بيد أن من الخطأ أن نعتقد أن العقل الموحد النظرة قد ضاع بغير رجعة، بل يمكننا إذا أردنا أن نعمد إلى خفض عتبة الحساسية. ولقد قدم لنا جيم كور بيت صياد النمور المعروف في كتابه عن آكلات الانسان في بلاد كوماون وصفاً للطريقة التي أمكنه بها تطوير حساسيته للأدغال مما جعله يعرف بالحدس المجرد الوقت الذي يكون النمر فيه مستلقياً في انتظاره (والمفروض أنه طور هذه القدرة حينما كان يقوم بصيد النمور). وعلمته محافظته على نفسه أن يخفض من عتبة الحساسية، وبذلك يتلقى الانذار بالخطر من الشطر الأيمن من فمه، ورأينا بوضوح فيما سبق كيف قامت روزاليند هايوود بتطوير قدرة مماثلة وتم لها ذلك مصادفة من خلال حساسيتها بالتواجد في التلال، وهي تزعم أيضاً أنها طورت صلات تخاطرية مع زوجها لأنه كان قليل الكلام بينما هي في حاجة مستمرة طيلة حياتها للقيام بالاتصالات.

ولعل أغرب فصل في كتابها «الخلية اللامتناهية» فصل بعنوان الغناء، تقدم فيه تأييداً هاماً للنظرية البدائية الخاصة بالقوى النفسانية للشطر الأيمن من المخ. فالغناء هو إحساس مرهف تسمعه بدرجات متفاوتة طول الوقت (ويزداد في بعض الأوقات عن الأخرى) وهي تصفه على النحو التالي:

هو نوع من الذبذبات الداخلية شبه الصوتية، أقرب شيء يقاس عليها هو الضوضاء التي تسمع في محارة البحر حينما نضعها على الأذن، أو ربما كانت كصوت المحرك الدائر الذي نسمعه عن بعد. . ربما بدا ذلك للآخرين طنيناً في الأذن، ولكنه بالنسبة لمن مر بالتجربة يبدو له أنه لا يسمع بالأذن، ولا يعرف للصوت مكاناً، بل هو بالأحرى مثل الضوء يسود الجو كله، وإن كان إدراكه يتضح في إطار قوس واسع فوق وخلف الرأس ولا أستطيع أن أشرح ما أقصده بدقة، فلا يبدو أنه يرن خلال الفضاء الخارجي ولكنه بعيد وعميق «في الداخل»، وربما تكون كلمة الحدية أو حصر الحدود هي أنسب ما يعبر عنه فإذا ما صحت شكوكي التي أغامر بها، فلن يكون هناك حد فاصل بين الحس العادي وظاهرة الحس الفائق.

ويبدو أن ذلك الصوت، طبقاً لما يذكر الملحن الموسيقي جون كيدح John

---

(١) F. Bruce Lamb, Vizard of the Upper Amazon, 1971.

Cage هو الضوضاء التي يحدثها على الجهاز العصبي والتي يمكن سماعها في ظروف الحرمان الكامل من الحسية، مثل ما في ذاتي الداخلية العميقة، يبدو أنه في تلك الحالة قد يكون نفس الشيء، وتزعم روزاليند هايوود أن الأمر يختلف، فالمرة الوحيدة التي فشلت فيها في الاستماع أثناء تواجدها في حالة صمت سائد حينما كانت تنتظر القطار ليلاً في نفق هامستر، الذي يعتبر من أعمق محطات الانفاق في لندن، والذي لا بد، إذا ما كانت نظرية الأعصاب صحيحة أن يكون الصوت واضحاً فيه ولكن: ـ

كان الأمر أكثر وضوحاً في بعض الأماكن عنها في أماكن أخرى، وبخاصة في الغابات الهادئة أو في البحيرات أو على الجبال، وكلها أماكن طبيعية لم يفسرها الانسان. ويتضح الصوت أيضاً في أماكن مثل الكنيسة، ومكتبة الكلية من الأماكن التي يستمر فيها التفكير والتركيز بعمق لمدى سنين طويلة، وقد يرن الصوت في حجرة عادية يكون التفكير بداخلها متواصلاً.

وتضيف روزاليند أنه «رغم أن الغناء يبدو مختلفاً باختلاف أصله الظاهري فإنني لا أستطيع أن أكون فكرة عن موضع الاختلاف، ولكن يمكنني فقط أن أقول إن أغاني الجبال توصل إلى النفس جواً مختلفاً عما توصله أغاني الكنائس، تماماً مثلما يصدر عن المزمار جو مختلف عما توصله العاصفة...»

وتواصل كلامها عن غناء الكنائس فتقول «استمعت إلى نغمات المسيحية في العديد من الكنائس الهادئة الخالية فوجدت أنها في بعض الحالات قد تمر من فوقك في تجربة أكثر تركيزاً، كما لو كانت ـ وأكرر كما لو كانت ـ قوة داخلية تنساب من العالم الآخر».

كانت روزاليند تشرح الغناء لمهندس شاب على أمل أن تصدمه، فرد عليها بهدوء شديد «أجل ـ أنا أسمع ذلك أيضاً، في بعض الأماكن التي بها عواطف قوية». لهذا التعليق أهمية كبيرة، ففي عام ١٩٠٨ خرج السير أوليفر لودج وهو أشهر أعضاء جمعية البحوث النفسانية آنذاك برأي هام هو أن الأشباح قد تكون نوعاً من الأشرطة المسجلة. «كما لو أمكن تسجيل العواطف الجياشة على مادة دون أن تدرك ذلك التسجيل».

لنأخذ مثلاً منزلاً مسكوناً بالأشباح، فيه إحدى الحجرات هي المسرح الذي يظهر فيه شبح حادث محزن من الماضي. فعلى أساس نظرية الكشف النفساني[1]،

(١) الكشف النفساني هو القدرة على قراءة تاريخ شيء عن طريق لمسه أو مسكه باليد أو في حالة الحجرة هو استشعار بعض الأحداث التي وقعت في تلك الحجرة. انظر كتاب المؤلف بعنوان The psychic Detec- tives, 1984 المخبرون النفسانيون.

تكون صورة الحادثة الأصلية قد انطبعت مجازاً كالصورة في المحيط المادي لها وليس هذا فحسب بل وفي الأثير بسبب عمق الانفعالات التي أحس بها أصحابها، ثم يتعرض بعد ذلك شخص معين لتأثير هلوسة تتصل بمثل ذلك الانطباع. تلك هي النظرية التي تمت صياغتها كي تقرر الشعور الذي يحسه الشخص عند دخوله إلى حجرة معيَّنة بأن هناك كياناً غريباً في تلك الحجرة(١).

وعبارة «ليس هذا فحسب بل وفي الأثير» قد ينظر إليها على أنها صيغة مبالغة، ولكن الحقيقة أن هذه النظرية تعتبر حتى النصف الثاني من القرن العشرين من أشهر النظريات التي عرفت عن طبيعة ظهور الغوامض. ولقد توصل الراحل ليثبريدج T.C. Lethbridge الذي أشرت إلى إسهاماته في مكان آخر(٢) إلى نوع من الظهور الشبحي يسمى «الغول» هو نوع من الأحاسيس المروعة وصفها لودج بأنها إحساس بشريط مسجل في نوع من المجال الكهربي، وكان مقتنعاً بأن هناك أنواعاً مختلفة من المجالات ترتبط بالغابات والجبال والأماكن المفتوحة وهذا يتفق مع مالاحظته روزاليند هايوود عن الغناء. وبناء على ما ذكره ليثبريدج ربما كانت هناك بعض الذبذبات الكهربية التي تلتقط ويفترض أنها لا تستطيع الوصول إلى أعماق مثل عمق محطة النفق في هامستيد أو الأماكن التي تعزل عنها بطريقة أو بأخرى.

ولو لم يكن للنظرية قيمة، وأمكن تسجيل المشاعر والحالات الذهنية (أو مجالها) على مادة معينة فقد نجد في ذلك تفسيراً لما لاحظته روزاليند عن وجود أنواع مختلفة من الغناء في كل من المكتبات الجامعية والكنائس نتيجة لاختلاف الذبذبات. ومن المدهش أنها لاحظت وجود «قوة داخلية» تنساب من هياكل الكنيسة لأن الكنائس المسيحية كثيراً ما كانت تبنى فوق مواقع عبادات وثنية، إذ كانت هناك تعليمات من الفاتيكان في العصور الوسطى بضرورة بناء الكنائس في مثل تلك المواقع. وسوف يستوثق أي باحث متعمق من أن المجال المحيط بالمواقع القديمة مثل الأحجار التي يبنى بها أسوار أو حوائط للمعابد كانت عادة قوية، والكنائس المسيحية مثلها مثل تلك المواقع الوثنية القديمة تنشأ لتواجه الشر وغالباً ما يكون الهيكل أو المذبح فيها في نهاية الجانب الشرقي، ولعل ما استشعرته روزاليند هايوود منساباً من الهيكل ربما كان بادىء ذي بدء هو النوعية التي من أجلها اختير الموقع.

(١) لودج: الإنسان والكون (١٩٠٨) Loodge, Man and the Universe, 1908

(٢) خفايا الحياة (١٩٨٧) من الفصل الرابع .Mysteries, 1978, Chapters 1 to 4

وطبقاً لهذه النظرية «نظرية التواجد الأصغر» لم يكن الذي استشعرته روزاليند هايوود في حجرة النوم بمنزل جدها سيِّدة عجوزاً، إنما شريط مسجل عن حادثة قديمة، (ويعتقد ليثبريدج أن التسجيل غالباً ما يكون مرئياً كما يمكن الشعور به خاصة بالنسبة للمتفوّقين المدققين).

هكذا، رغم ما كان لهذا التفسير من صدى علمي طيب إلا أنه مازال فاشلاً في تفسير الكثير من تجارب روزاليند هايوود، فمن الواضح تماماً أنه حينما مرت روزاليند بتجربتها مع جوليا ومع فيفيان لم تشعر بأنها تأخذ عن جهاز تسجيل، وأن تجربتها هي وزوجها عندما كانا في دورتموند قد شعرا فيها بوجود علاقات بينها وبين كائنات طبيعية غير مرئية وليست نوعاً من المجال الكهربي. فكيف إذن تقرر نظرية عتبة الحاسة الاستشفافية ما يتعلق بالتعرض للانقسام إلى شخصيتين؟

فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة يمكننا الرجوع إلى كتاب ج. ن. م تيريل صديق روزاليند الذي كتبه عن شخصية الانسان وأصبح من أهم المراجع الكلاسيكية عن البحوث النفسانية. (كتبت هذا الكتاب في منزلها، ونصت فيه كيف حدث لك حينما كانت وحيدة بالمنزل أثناء الحرب، فأتتها الأوامر بأن تكتب إلى تيريل تطلب منه أن ينتقل إلى لندن، وقبل الدعوة بشغف رغم كل ما فيها من مخالفات). ولقد أشار تيريل أيضاً إلى حكاية انقسامها (إن لم يذكر اسمها) ثم واصل الاشارة إلى حالات مماثلة، فهناك حالة مسز ويلليت (وهي سيدة ويتفريد كومبي تنانت المصابة بشبه غلمه) والتي كانت وسيطاً للكتابة التلقائية، وتلقت في أغسطس سنة ١٩١٣ خطاباً من السير أوليفر لودج به مرفقات عديدة. وبينما كانت على وشك إخراج تلك المرفقات مرت بها حالة «كضربة قاضية راعدة تدعوني ألا أفعل ذلك». وبينما هي مترددة تفكر في أن تتغلّب على هذا الشعور انشطرت إلى قسمين «العقل رقم ١ الذي يحمل جسمها فقامت وسارت عبر الحجرة إلى الباب، ولكن العقل رقم ٢ الذي كان هو ذاتي أو الأنا كما أعرفها) فلم يستطع أن يدرك لماذا أنا هناك» وجعلها العقل رقم ١ تعيد الخطاب إلى المظروف وتسير نحو حجرة زوجها وتسلمه الخطاب (وكان لعدم قراءتها للمرفقات دلالتها الهامة).

ويذكر تيريل أيضاً حالة جندي في المخبأ أثناء الحرب العالمية الأولى، كان في حالة تجمد ويأس، وفجأة انشطر ووجد نفسه خارج جسمه الأرضي، الذي واصل

السير نحو رفيق له، قرر فيما بعد أنه تحدث معه طويلاً بفصاحة وطرافة كما لو كان جالساً في راحة تامة أمام النار.

والحالة الثالثة التي ذكرها تتعلق بالسير أوكلاند جيريس أستاذ التشريح في دبلن، وفيها شبه كبير بحالة القس برتراند التي أشرنا إليها في الفصل الأول. ويشرح جيريس كيف بدأ يشعر بمرض شديد نتيجة لإصابته بالتهاب معوي، وحينما حاول طلب المساعدة بالهاتف وجد نفسه عاجزا عن الحركة، وبينما هو جالس في مكانه «أخذ الوعي عندي ينفصل عن وعي آخر كان أيضاً هو نفسي» وأسماهما الوعي أ والوعي ب. «كان الوعي ب ملحقاً بجسمي الجالس على المقعد» بينما كان الوعي أ ملحقاً بذاته (وعلينا أن نلاحظ هنا أنه قال ملحقاً بذاتي وليس متماثلاً معه).

بينما بدأت حالتي الصحية تسوء، وكان قلبي ينقبض بدلاً من أن يدق أيقنت أن الوعي بذاتي الذي ينتمي لجسدي بدأ يظهر علامات تدل على أنه مركب، بمعنى أنه مكون من الرأس والقلب والاحشاء، وأصبحت هذه المكونات أكثر تفرداً، وبدأ الوعي ب بتفكك بينما بدأ الوعي أ الذي هو أنا الآن يخرج تماماً من جسدي.

وفجأة أصبح مدركاً أن باستطاعته أن يرى كل المنزل والحديقة، ثم الأشياء الموجودة في لندن واسكتلنده، وعلق على ذلك تعليقاً غريباً بأنه شعر وكأنه أصبح الآن متحرراً في البعد الزماني والمكاني، بينما كان «الآن» بصورة ما يساوي «هنا» بالطريقة المعتادة للمكان المجسّم ذي الأبعاد الثلاثة الذي اعتدناه في حياتنا اليومية، أو بمعنى آخر يبدو أنه أصبح «أعلى» درجة من درجات التجسيد من العالم الطبيعي. بهذه الملاحظة يمكننا تفسير التجربة التي مر بها ألان فوجان بمعرفته السابقة التي أدركها حينما «ترك» جسمه، وهي التي أشرنا إليها في الفصل الأول.

اكتشفت حالة جيريس بعد ذلك بدقائق قليلة، فأخذ حقنة كافور قوية، وبدأ قلبه يدق مرة أخرى. وكما حدث بالنسبة للقس برنارد سكر «بغضب شديد» لأنه عاد إلى جسده فقد أحس بأنه بدأ يتفهم (حينما شرح جيريس هذه التجربة التي مر بها في محاضرة ألقاها بالجمعية الطبية الملكية حيث زعم بأنه كان له صديق يثق في كلماته، ولكنه اكتشف فيما بعد أنها كلماته هو) وأكد أن التجربة بعد انتهائها لم تتلاشَ مثلما يتلاشى الحلم.

وهناك فرق واضح بين التجربة التي مر بها جيريس وتلك التي مر بها القس

برتراند في ثيتليس، فحينما مر برتراند بتجربة الانفصال كانت ذاته الواعية تنظر إلى أسفل إلى جسمه الفاقد الحياة، ويبدو أن ذلك هو الذي يحدث لأي منا حينما يمر الانسان بتجربة الخروج من الجسد، ذلك أن جيريس مثله مثل روزاليند هايوود قد مر بتجربة «الوعي المقسم» فأصبح متشطراً إلى شخصين كلاهما واع، وهو شيء يصعب تصوره، إذ يمكننا فقط أن نتخيل الوعي موجوداً في مكان واحد في وقت واحد، ولكن روزاليند هايوود أخبرت تيريل بما يلي: «كنت بالتأكيد وسطاً بين كليهما، وفي نفس الوقت واعية في كلا المكانين، ولم يكن هناك أي إحساس بوجود شخصية ثالثة «مني» تربط بين الاثنين».

ويمكننا توضيح هذه النقطة بذكر حالة أخرى أشار إليها تيريل، وهي مثال أكثر انطباقاً على تجربة الخروج من الجسد. في خلال حرب البوير دخل السيد الكسندر أوجستون مستشفى بلوموفونتين وهو يعاني من حمى التيفود. وقال عن هذيان الحمى: «يبدو أن الجسم والروح ثنائي.. فقد كنت واعياً بأن الجسم شيء غير فعال ككتلة تتعثر بجوار الباب، كان هذا الجسم ينتمي لي ولكنني لم أكن أنا». وتحدث عن نفسه العقلية على أنها تركت الجسم وأخذت تتجول «فأرى ظلاً أسود يتحول ببطء» حتى شعر بأنه عاد بسرعة إلى جسمه، كان كما لو أنه شيء يوصف بالتوهم أو الهذيان، لكن هذا لا يفسر الحادثة التالية:

رأيت ببساطة جراحاً مسكيناً لم أكن أعلم بوجوده، وكان في قسم آخر منفصل من المستشفى، وقد اشتد عليه المرض وتأوه ثم مات، ورأيتهم يغطون جثته ويحملونه برفق على نقالة.. وبعد ذلك، حينما أخبرت الممرضات بما رأيت أخبروني بأن كل ذلك قد حدث فعلاً...»

غير أن أوجستون لم يكن يشعر بأي نوع من «ازدواج الوحي» مثل روزاليند هايوود وجيريس، فقد طاف المستشفى بينما كانت الجثة مسجاة في الفراش. وينطبق هذا على معظم الحالات. ولقد أصدرت الدكتورة سيليا جرين رئيسة معهد السفورد للبحوث النفسية الطبيعية نداء عاماً سنة ١٩٦٦ للتعرف على حالات التواجد خارج الجسد، وتلقت أكثر من أربعمائة رد على ندائها، ثم نشرت نتائج دراستها الاحصائية عن تجارب التواجد خارج الجسد عام ١٩٦٨. وتبين أن الشخص في معظم الحالات كان يجد نفسه خارج جسده الطبيعي، وعادة ما ينظر إلى جسده من أعلى، كما كان هناك شعور بالانفصال الكامل كما لو أن الجسم ينتمي إلى شخص آخر.

يبدو أن أوّل حالة في ذلك الكتاب هو أن الأمر أكثر تعقيداً من انفصال الجسم والروح. كانت إحدى نادلات المحلات تسير متجهة إلى منزلها بعد اثني عشر ساعة من التواجد في مقر العمل، وكانت في حالة إرهاق شديد. وفجأة وجدت نفسها تنظر إلى أسفل لترى جسمها المادّي الذي كان يسير في الشارع، وقالت في نفسها وهي تفكر «إذن هكذا أظهر أمام الآخرين». ويبدو من ذلك أن جسمها الطبيعي كان مدركاً لذاته. وهناك موضوع آخر عن شخص انفصل أثناء مرضه وقال «كنت أشعر أن شخصي الأعلى مسترخ ومرتاح ولكنه واعٍ تماماً بما تعانيه «ذاتي الأخرى»... وهذا يوحي بوضوح بأن هناك وعياً مزدوجاً. ويبدو أن معظم المراجع العادية تكشف لنا عن وجود اتفاق أساس معين حول تجارب التواجد خارج الجسد، وتدل تلك الافكار المشتركة على أن تلك التجارب جميعها تتضمن انفصال الجسم الطبيعي عما يسمى الجسم النجمي (Astral Body) وفي ذلك كتب نيلسون ستيوارت C. Nilson Stewart ما يلي:

ظلت الفكرة الشائعة لدى قرون عديدة أن الإنسان يتكون من عنصرين أحدهما الروح أو النفس التي تأتي من عند الله، والجسم المادي الذي يتكون من لحم ودم، ولكن بعض الفلاسفة وأصحاب نظريات الغوامض رأوا أن لكل إنسان عنصراً ثالثاً هو الجسم النجمي أو الذي يسمى أحياناً النوراني، وهو صورة طبق الأصل من الجسم المكون من لحم ودم، ولكنه من مادة رقيقة[1]...

ومن المسلم به أن هذا يماثل تلك العقائد المشوشة عن اللامعقول، ومن السهل أن نتفهم لماذا يفضل الكثير من الباحثين المتزمتين مثل أنتوني فلو Antony Flew ووست D.J. West أن يعتبروا الجسم النجمي نوعاً من الأحجية، وهناك آخرون مثل البروفسور جان ليرميت Jean L'Ermite الذي يعمل في كلية الطب بباريس وغيره مستعدون للقول بصحة تجارب التواجد خارج الجسم ولكنهم يعتبرونها نوعاً من الهلوسة أو خدعة يمارسها العقل الباطن على جهاز الاستشعار عندنا. ولكننا نجد أن بعض الحالات مثل حالة السيد الكسندر أوجستون تثير تساؤلات: كيف يمكن لأي إنسان يعاني من الهلوسة أن يحصل على معلومات دقيقة عن شيء يحدث في مكان آخر كمريض يموت في جزء آخر من المستشفى؟ إن أي شخص يجازف ويحاول فحص الدلائل والبراهين ربما سينتهي إلى الموافقة - مثل ما فعلت سيليا جرين - على أن تجربة

---

(١) راجع كتاب الإنسان والأسطورة والسحر (73 - 1972) Man, Myth and Magic

التواجد خارج الجسد لا تخرج عن كونها وهماً، ولذا فربما يكون للجسم الوهمي وجود.

تصبح المشكلة أمامنا إذن هي التوصل إلى نظرية تفسر كيف أن روزاليند هايوود والسير أوكلاند جيريس استطاعا أن يمرا بتجربة الوعي المزدوج، وكيف أن الجندي الذي أشار إليه تيريل استطاع أن يواصل الحديث عن زميله بينما كان وعيه ينظر إلى نفسه (جسده من أعلى) ولم تنجح حتى أفضل دوائر المعارف الخاصة بالغوامض واللامعقول أن تقدم تفسيراً لذلك.

ومن بين القلائل الذين يدرسون الغوامض واستطاعوا تقديم نظريات مقبولة شاملة رودلف شتاينر Rudolf Steiner مؤسس حركة الحكمة الانسانية، وسوف نتناول آراءه عن الحياة بعد الموت فيما بعد. وربما يعارض شتاينر أن يعتبره البعض من اللامعقوليين لأنه يعتبر نفسه عالماً، إذ كان تدريبه الأساسي في العلوم والرياضيات.

ويرى شتاينر أن للإنسان أربعة مكونات: الجسم والجسم الأثيري والجسم النجمي أو الوهمي والذات، فحينما ينام الانسان ينقسم إلى قسمين فينفصل الجسم الوهمي والذات عن الجسم الطبيعي والأثيري.

وتستحق هذه الآراء بعض الدراسة الدقيقة، فطبقاً لما ذكره شتاينر يتغلغل الجسم الأثيري (الذي يسمى أحياناً النسمة Aura) في داخل الجسم الطبيعي، وقد يتولى هندسة الإنسان، ويقول إن كل الأعضاء الطبيعية تحافظ على تكوينها وشكلها بواسطة تيارات وحركات «الجسم الأثيري».

وتعطينا كلمة «تيارات» مدخلاً مهماً، فمنذ القرن الثامن عشر حينما اكتشف جلفاني أن ساق الضفدع الميّتة تركل حينما يمرّر خلالها تيّار كهربي. والمعروف أن البشر في بعض الحالات يكونون بمثابة أجهزة أو آلات كهربية، ففي كل مرة تقوم فيها بعملية التفكير يصدر المخ تيارات كهربية.

ومن الأمور المحيرة للغاية عن المادة الحية تماسكها مع بعضها، وهذه النقطة قد أثيرت في القرن التاسع عشر على يد البيولوجي الشاب المسمى هانز دريش Hans Driesch، فقد انتظر دريش حتى انقسمت بيضة قنفذ البحر الملقحة، ثم قتل أحد النصفين باستخدام أبرة ساخنة وتوقع أن ينمو النصف الثاني فيكون نصف قنفذ بحري، ولكن لشدة دهشته وجد ذلك النصف قد نما إلى قنفذ كامل ولكن بنصف

الحجم المعتاد لقنفذ البحر. ثم حاول أن يجمع بيضتين معاً، فكانت النتيجة خروج قنفذ واحد في ضعف حجم القنفذ العادي. فمن الواضح أن هناك قوة عملت بنشاط على هذا التشكيل الكامل. وحتى ذلك الوقت كان المعتقد أن الرحم يحتوي على الكثير من الجزئيات المرقمة مثل جزئيات الأثاث التي تركبها بنفسك، وهكذا أدت تجارب دريش إلى تقديم صورة جديدة مدهشة أشبه ما تكون بإعطاء قطع الدولاب المجزأة لقزم صغير ليركبها.

وعلى الجانب الآخر من المحيط الأطلسي اهتم أستاذ التشريح هارولد سالسون بير Harold Saxon Burr بالنتائج التي توصل إليها دريش وبخاصة فكرة تشكيل المجال أو المخطط، وأشار بير إلى أن جنين الضفدع يتواجد في محلول قلوي تتحلل فيه الخلايا وتتحول إلى شيء يشبه الكيس المليء بقطع الرخام، ولكن إذا وضعت في محلول حمضي خفيف التركيز فإنها تتجمع مع بعضها ليعود تكوين الجنين. قارن بير بين هذا وبين ما يحدث حينما نمسك بقضيب مغناطيسي تحت فرخ من الورق عليه برادة حديد، فإن برادة الحديد تتخذ شكلاً نمطياً يسير مع خطوط المجال المغناطيسي. وقام بير وزميله نورثروب F.S.C. Northrop بتوصيل فلتاميتر حساس بأشجار وبأجنة أنواع مختلفة من الأحياء، فتبين حدوث تغيرات فصلية في مجال كهربي ضعيف يوجد في جميع المخلوقات، وهذا هو القوة التي تشكل الحياة مثل القزم الذي يأتي ليركب الدولاب الكبير. وهكذا نجد أن ملاحظة شتاينر عن وجود جسم أثيري يهندس الجسم الطبيعي وعن الأعضاء التي تحافظ على شكلها من خلال تيارات ذلك الجسم الأثيري تعتبر وصفاً علمياً دقيقاً. ونظراً لأن شتاينر كتب هذه الكلمات سنة ١٩١٠ في كتابه إطار عام لعلم الغوامض أو اللامعقول، ونظراً لأن ذلك جاء قبل أن يبدأ بير وزميله نورثروب بتجاربهما في جامعة ييل بنصف قرن، فقد أصبح لزاماً علينا أن نسلم بأنه قد كشف عن مقدمة علمية هامة.

بيد أنه طبقاً لما قاله شتاينر يتكون الكائن البشري أو الانسان فقط من الجسم الطبيعي المتماسك بواسطة الجسم الأثيري الذي ربما يكون بمعناه الحرفي نباتاً، وفي الحقيقة يصبح الانسان أثناء النوم نوعاً من النبات وحينما يستيقظ يضاف الوعي إلى تركيبه، ويعتبر الوعي حسب رأي شتاينر هو الجسم النجمي أو النوراني، أو على الأقل يكون هذا الجسم هو المؤثر الأهم في الانسان، ولما يشترك الانسان مع النبات في وجود الجسم الأثيري فإنه يشترك مع الحيوان في وجود الجسم النجمي أو النوراني.

ويقول شتاينر إن هناك عنصراً آخر في الإنسان أهمّ من كل ذلك، فما تقوم به الحيوانات يملى عليها بواسطة إحساساتها بالحرارة والبرودة والجوع والعطش والسرور والألم، أما الانسان فإنه قادر على أن يطور مطالبه ورغباته متجاوزاً كل ذلك. ومن الأمثلة التي تدل على هذا التجاوز اهتمام الانسان بالرياضيات التي من الواضح أن ليس لها أي صلة بالشهوات الطبيعية (حافظ شتاينر على اهتمامه بالرياضيات خلال كل فترات حياته). ذلك الاختيار ذو المستوى الرفيع هو الذي يسمى عند الانسان «الذات»، والذات كما يقول شتاينر هي مبدأ الاستمرارية، فالنفس الحيوانية تنسى بسرعة وبسهولة (فمثلاً كلنا نلاحظ أننا ننسى الآلام ومتاعب المرض الطبيعي بسرعة) فالذات تحاول أن توتر عنصر الدوام في حياة الانسان.

تثير هذه الملاحظات في فكر أي شخص ذكي شيئاً ما، فقد قال نيتشه ذات مرة إن باستطاعتنا أن نسأل الأبقار عن سر سعادتها، ولكن لن يكون لذلك معنى لأنها قد تنسى السؤال قبل أن تشرع في الاجابة عليه، إذ ليس لديها استمرارية في الوعي. وتناول هـ. ج. ويلز نفس النقطة في كتابه «تجربة في السيرة الشخصية» نذكر أنه منذ بداية الزمان ومعظم المخلوقات تقف ضده، ولذا أصبحت حياتها كلهاصراعاً ضد الظروف، أما الآن ولأول مرة في التاريخ يمكنك أن تقول للانسان نعم: نعم إنك تكسب عيشك وتعول الأسرة وتحب وتكره، ولكن ماذا تفعل؟ ينطبق هذا على كل إنسان بدءاً من العالم الطبيعي إلى الفنان، ومن عالم الرياضيات إلى المفكر الديني. فلنبعد تلك الخلفيات عن حياتهم وندفعهم أن يعيشوا فقط، عندئذ لن يرغبوا في الانتحار.

هكذا نجد أن التقسيم الرباعي الذي قدمه شتاينر مقبول عملياً على ثلاثة مستويات: المستوى الطبيعي (وهذا واضح) والمستوى الأثيري ومستوى الذات، وإذا ما أردنا يمكننا القول بأن تقسيم شتاينر الرباعي متفق مع العقل على جميع مستوياته.

هناك نظام آخر للغوامض فيه تشابه كبير مع نظام شتاينر هو نظام «الكاهونا» في جزر هاواي كما وصفه الأنثروبولوجي ماكس فريدوم لونج Max Freedom Long في كتابه بعنوان «قانون الهونا الديني». فالكاهونا (كهنة ديانة هونا) يعتقدون في أن الانسان يتكون من جسم طبيعي وثلاثة أرواح أو أنفس هي النفس الدنيا أو الكيان الغريزي للانسان وترتبط بصورة ما مع اللاوعي عند فرويد، والنفس المتوسطة وهي

الذات الواعية للانسان أو روح الحياة اليومية، والثالثة هي النفس العليا لأنها أعلى بكثير من الوعي لدرجة أن اللاوعي يتواجد أسفلها، وفضلاً عن ذلك فإن النفس الدنيا والنفس الوسطى يمتزجان، ولذا يعتقد الانسان بأنهما شيء واحد.

من الواضح أن النفس الدنيا تشبه كثيراً الجسم الأثيري عند شتاينر فهي تتسلل بعمق بين خلايا الجسم وأنسجته، وهي تمنع القوة الحيوية، وهي أيضاً موضع العواطف من حب وبغض وخوف ورغبة، ومركز جاذبيتها كما يقول الكاهونا، هي جدائل أشعة الشمس، وهي بطبيعتها عنيفة وانفعالية، وعادة ما تتصرف كالطفل المدلل. وتقوم النفس الوسطى بمحاولة تأديبها والارتفاع بها إلى مستواها، ولكن للأسف يضعف الكثير من الناس أمام مطالب النفس الدنيا، ويهبطون إلى مستواها.

في كل هذا بداية للاجابة على التساؤل عن الكيفية التي تمكنت بها روزاليند هايوود أن تمر بنفسها في تجربة «الذات البيضاء والذات القرمزية»، وتشعر بشيء من الازدراء نحو الأنا القرمزية ورغباتها الأنانية. وفي المصطلح الذي استخدمه شتاينر نجد أن الذات كانت تحتقر الجسم الأثيري، وفي مصطلح الكاهونا تعتبر النفس الدنيا مقابلة للذات القرمزية، والنفس العليا مقابلة للذات البيضاء، وقد أكدت روزاليند هايوود ذلك في تعليقها التالي:

بعد دقيقة أو دقيقتين، شعرت بعدم وجود تحول، وانحبست ذاتي البيضاء مرة أخرى مع ذاتي القرمزية في جسم واحد، ومنذ ذلك الوقت سكنتنا معاً مثل الزيت والماء، وجاء الادراك متأخراً ـ وإن كنت لا أتذكر ذلك إلا نادراً ـ بأنني أستطيع أن أربط نفسي بذاتي البيضاء بإرادتي، وأرقب دون شعور ـ وهذه هي النقطة ذات الأهمية ـ المباحات أو الممنوعات التي تفرض نفسها وتجعل كل أجزاء ذاتي القرمزية تترنح مرتعشة.

وتضيف روزاليند إلى ذلك تعليقاً آخر له أهميته: «لو أن فرويد واجه مثل هذه الحالات فلربما ساعدته على تكوين مفهومه عن «الهُوَ والذات العليا»، فالذات العليا عند فرويد، مرادف آخر لكلمة الوعي، ولا يقصد بها الذات العليا التي تعنيها روزاليند هايوود هنا. لكن تحليلها الخاص للموقف يناسب بطريقة تامة آراء الكاهونا عن النفس الدنيا والنفس العليا.

يكشف لنا ذلك كله أن روزاليند هايوود لم تكن كما تظن في أول الأمر، امرأة دعيّة لدرجة تجعلها تخترع روايات عن خبرات نفسانية كي تكتسب لنفسها شهرة، بل هي تصف العالم ببساطة كما تراه من خلال عيني شخص مستشف. ويختلف ذلك

العـالم عن العالم الـذي يصفه العلم الحـديث، ومع ذلـك فإن لـه مكونـاته الـداخلية الخاصة. ولو أن نظرية «عتبة الحساسية» صحيحـة فمن المؤكد أنها لن تتعـارض بحال من الأحوال مع العلم. وربمـا أدت الحقيقة كما رأينا إلى إمكـان تفسير التجـارب التي مرت بها روزاليند هايوود على أساس فكرة نصف الكرة المخية اليمنى واليسرى.

وإذا ما قلنا بضرورة التسليم بأن الكثير مما تقوله أشياء قد لا يقبلها العلم، مثل تجربتها مع جوليا وفيفيان التي أقنعتهـا بأن الحيـاة بعد المـوت حقيقة، فـماذا نقول عن تجـربتها التي مـرّت بهـا في أطـراف دورتمـور حينـما زعمت بـأنها قـد استشعـرت وجـود كائنات غـير انسانيـة عديـدة بعضها يـأتي لزيـارتها (بـأمر من الصغـار المختفين) أثنـاء جلوسها على مكتبها في اليوم التالي.

هنا فقط يمكننا أن نكرر القول بأن روزاليند هايوود لا تنفرد بالتجربة التي مرت بها، فإن الكيانات أو الموجودات التي تصفها عادة ما تكون معروفة كعنـاصر طبيعية أو أرواح، ويزعم معظم الأشخاص الحسّاسين أنهم قد رأوها، ويتحدث شنـايدر عنهم على أنهم حقيقة واقعة في قوله:

يمكننا أن ندرك الطبيعة على أساس واقعها الأحادي (نقصد المادي) لأن الادراك الحسي يسمـح لنا عادة أن نمر بالتجربة بصورة طبيعية تتمشى فقط مـع ذلك المبـدأ، فكل مـا يتعارض معهـا يستبعد عند التصفية، والطبيعة التي تصل إلى إدراكنا هي مظهر لذلك النظام الأحادي.

ويواصل شنايدر تعليقه قائلاً: توجـد أرواح أرضية (حـراس الأرض) و (أرواح الماء) (جنيات البحر) وأرواح الهواء وأرواح النار في عالم العناصر.

أما ايفانز W.Y. Evans الذي يعتبر حجة في الأديان الشرقية، فيـذكر في كتـابه عن الاعتقاد في الجنيات عنـد الشعوب الكلتية «أن بـإمكاننـا أن نخمن علمياً وجـود الذكاء الخفي مثل الآلهة والجـان والجنيات الحقيقيـات والرجـل الخفي (غير المجسم)» وتوصل إلى هذه الخلاصة كنتيجة لدراسة قام بها لعدة سنين عن الايمان بالجنيات جمع أثناءها المئات من الاعترافات الشخصية.

على أي الأحوال نذكر أن من أغـرب الروايـات رواية أوردهـا آدم كاربـتري في كتابه عن الإنسان المتعدد الذات، تتعلق باستحواذ كيان غـير إنساني عـلى شخص ما، ويعترف كاربتري أنه كان متردداً في تضمين هذه الرواية في كتابه لأنها منـافية للواقـع، ولكنـه يضيـف: «ومع ذلـك تبقى الحقيقـة، وهي أنها وقعت كما وصفتهـا (وكـل مـا

استبعدته منها هو بعض العناصر الدرامية في التجربة)» وتتعلق تلك الرواية برجل اسمه موريوس كان يدرس التاريخ في الجامعة. وشغل منصباً هاماً في وكالة صحيّة حكومية، وتزوج الرجل، وكان زواجه سعيداً. ولسبب لم يستطع إدراك كنهه، بدأ فجأة يمر بتجربة تتمثل في امتلائه بدوافع لقتل زوجته، ويبدو أنه كان منساقاً لبعض القوى الداخلية لرؤية الدماء، وبلغت تلك الدوافع من القوة درجة جعلته يخشى أن يفقد سيطرته على نفسه ويقدم على قتلها.

ظهر له في أحلامه ما يحل لنا هذا اللغز: كان يرى نفسه يعيش وسط سكان الكهوف الذين يلبسون الجلود، إو يسكن في كوخ بدائي معلقة فيه شرائح لحم لتجفف، ورأى أنه يقابل إنساناً بدائياً قوي البنيان يخرج له من الأرض، وبعد هذا الحلم مباشرة كان يبحث عن مجموعة مقتنياته من القطع النقدية وظن بأن شخصاً ما قد وضعها على الرف، دون أن يتذكر أنه هو الذي وضعها بنفسه. وتمزقت أسلاك إحدى النوافذ التي كان قد أصلحها، ولم يجد لذلك تفسيراً. ثم أخذ يسمع صوتاً في رأسه يخبره بأنه هو نفسه الرجل البدائي الذي رآه في منامه، وأنه كان دائماً متلبساً في ماريوس. ولإثبات ذلك استحوذ عليه مرتين؛ نقل نقوده مرة، وقطع الأسلاك في المرة الأخرى، وقال إنه يستطيع أن يستحوذ عليه متى شاء.

ويبدو أن ماريوس أيضاً اعتقد أنه تعرض لاستحواذ كيان غريب عليه يسمى ديا، وقال إن لديه فكرة عن كيفية طرده. وشعر مرة برغبة في الاستلقاء أمام خشب مشتعل تنبثق منه نيران كبيرة كي يستمد منها الدفء، فربما يمنحه ذلك القوة الكافية التي تسمح بظهور الدب أمامه.

وفي هذه الجلسة العلاجية تحرك كاربتري ومريضه متراجعين نحو القرية، وذهب معهم خمسة رجال أقوياء تحسباً لاستسلام ماريوس لدافع العنف، وأشعلت نار كبيرة استلقى ماريوس أمامها وخلع الجزء الأعلى من ملابسه. وبعد نصف ساعة بدأ يزأر وأخذ يجوب الأرض في هياج شديد، ولما استرخى وعاد إلى حالته الطبيعية أخبرهم بأنه قد تفهم أخيراً موضوع الدب، كان دبّاً ضخماً من دببة الكهوف أمسك به بعض الصيادين وقتلوه قتلاً بطيئاً ـ لسبب شعائري بالضرورة ـ فحلت روحه داخل أحد الصيادين، وانتقلت خلال الأجيال من الآباء إلى الأبناء حتى وصلت إلى ماريوس، والآن بعد هذه التجربة غادرته تلك الروح.

غير أن الكيان الذي كان يدفع ماريوس إلى العنف قد ظل بداخله. وطبقاً لما ذكره ماريوس كان ذلك الكيان «ثقباً مستديراً في الفضاء» امتص العنف إذ كان حاضراً أثناء قتل الدب وظهر في حلم ماريوس كما لو كان إنساناً بدائياً عملاقاً يخرج من صخور القاعدة (والرمزية هنا واضحة).

في اليوم التالي حينما وضع ماريوس في حالة استرخاء عميق بدأ ذلك الكيان يتحدث من خلاله، وبعد أسئلة كثيرة ومشاحنات عدوانية ذكر أن اسمه: مولارك وقال إنه كان في الماضي السحيق معبوداً بصفته كبشاً وتيساً، «يمنح الحياة والقوة لمن يعبدونه»، واستمرت عبادته على صور مختلفة مدى آلاف السنين، «وكان يبغض التعاطف والحب، وكان يزدهر في الجو الذي يسوده العنف والرعب» ووصف نفسه على أنه نوع من «الوميض» الذي يلمع في الفضاء، أو «نوع من الدوامة المظلمة التي تحتوي على إطار خاص»، وذكر أنه يكره صنوف ذلك الاهتمام وحب الخير التي يوجهها كرابتري والعاملون معه لماريوس.

ولما بلغ ماريوس درجة الادمان الذي كان يتكرر أثناء عمله مع ذلك الكيان، توقفوا عن العمل حتى اليوم التالي، ولم يحتفظ ماريوس بأية ذكرى لما كان يحدث في تلك الجلسات.

وحينما رجع إلى تورنتو واصل أحاديثه الغريبة مع ذلك الكيان، وظل الكيان يزدريه إلا أنه لم يستمر على تعاونه الكلي معه، «فبعد عدد من الجلسات التي عقدت له بالمدينة دخل شيء جديد في معرض العمل، حيث بدأ الكيان يتذكر أصله، وتحقق من أنه جاء من مكان آخر، وأن له تاريخه السابق على تجربته في الأرض، وإن كان لا يتذكر ذلك التاريخ».

وتوضح الفقرة التالية السبب الذي جعل كاربتري يشعر بالضيق من ذكر هذه الحالة بالذات.

ثم حدث في أحد الأيام أن الكيان أدرك بعض الأشياء عن نفسه: أدرك أنه مظلم تماماً، كما كان يعتقد دائماً، وفي الواقع أن هالته الخارجية كان بها مسحة من نور، ومن هنا تحركت الأمور بسرعة، فأدرك الكيان أن ليس هناك ما يدعو إلى الخوف من الضوء الأبيض لأنه كان يعيش منذ زمن طويل في «النور»، وتبع ذلك اعترافه بضرورة ترك الشخص المضيف له الذي استحوذ عليه، وكان الكيان في أول الأمر يخشى الهلاك بدون أن تكون ضحية يتغذى عليها، ولكنه حينما تحقق من أن النور سوف يغذيه مضى لحاله.

ويسجل كاربتري أنه منذ وقوع ذلك ومضي ثمانية عشر شهراً عليه، لم تحدث لماريوس أي مشكلة، وعادت حياته العائلية إلى حالتها الطبيعية.

وكالمعتاد في الحالات التي يتناولها كاربتري لا يوجد ما لا يمكن تفسيره في ضوء المرض العقلي، ويدعونا هذا القول لأن نضيف أن الحالات النفسانية بدءاً من سويدنبرج حتى روزاليند هايوود ربما تتفق جميعها على وجود تفسير آخر ممكن، فهناك الكيانات الخفية أو غير المجسدة التي يتميز بعضها بالخطورة والشر، وربما يخدمنا هنا وصف روزاليند هايوود عن الاتصال بأحد هذه الكيانات في التوصل إلى خلاصة لهذا الفصل. ذكرت أنه في عام ١٩٢٧ في أحد منازل سسكس الذي كان من قبل مخزناً قديماً، وصلت هي وزوجها معاً إلى ذلك المنزل وبصحبتهما الأثاث في وقت متأخر من الليل. وبعد أن ركبا أجزاء السريرين استغرقا في نوم عميق حتى الصباح. وحينما استيقظا كان في ذهنيهما فكرة واحدة هي أنه «لا يمكن إحضار الطفل إلى هذا المكان»، كانا يحسان بكراهة أن يفعلا ذلك، «لأن هناك كيانات غير بشرية خفية ومعادية تنتمي إلى هذا المكان وتحاول بإصرار أن تطردنا منه».

كانا وقَّعا عقد الايجار، ولم يكن باستطاعتهما البحث عن مكان آخر، وقرر زوجها أن الحل الوحيد هو دعوة أحد الأشخاص الذين يعملون الرقى والتعاويذ، وعاد ومعه كاهنة طلبت بعض الملح والماء.

ذهبت لاحضار الملح من المطبخ، فأصابتني صدمة، إذ كان المطبخ، مثل الجحيم تسوده دوامة من الكراهية والغضب، وتسوده أقوى أنواع مشاعر الرعب، وأحسست وكأنني أتلقى ضربات قوية متلاحقة كالموجات الطبيعية التي تتوالى بالارهاب، وكان لدي دافع قوي واستعداد لملاقاتها والرد عليها بضربات مماثلة، ولكن، رغم أنني لم أكن في ذلك الوقت أدري شيئاً عن أساليب البحث، إلا أن غريزة الاختيار والتجربة كانت قوية عندي بدرجة غير عادية، فأخذت الماء فقط ورجعت به إلى غرفة المعيشة وقلت لزوجي عن قصد «نسيت الملح يا عزيزي، فلتذهب أنت لتحضره».

وذهب زوجي بوجه مبتسم، ولكنه عاد وقد بدا عليه الذعر وقال «يا إلهي.. ماذا بهذا المطبخ..!»

فعلت المراسيم والرقى والتعاويذ فعلها، وبعد ذلك حينما كنت أدخل المطبخ والأنوار مطفأة «كانت تلك الكراهيات قد اختفت ومشاعر الرعب قد زالت، وحل محلها هدوء يخيم على المكان».

كانت روزاليند هايوود بتفكيرها المتعقل المعتاد مستعدة لأن تسلم بأن ذلك

يرجع إلى الوهم، ولكن بعد بضع سنوات أعارا المنزل لشقيقتها التي وجدت أن من المستحيل دخول المطبخ ليلاً دون الشعور بشيء يملأها بالرعب، ومع ذلك لم يحدث أن شعرت روزاليند أو شقيقتها بوجود كيانات غير إنسانية معادية.

تبدو هذه الحادثة المرضية التي ذكرناها كغيرها من الأحداث التي ناقشناها في هذا الفصل كما لو كانت من خرافات عالم العصور الوسطى. وهي في حقيقة الأمر تعتبر نموذجاً لاكتشاف أخذ يظهر منذ نحو قرن ونصف مما يفرض علينا أن نتناوله في منظوره التاريخي.

٣
غزو الروحانيين

كانت الهزة الأدبية لعام ١٨٤٨ ظهور كتاب بعنوان «الجانب الليلي من الطبيعة» تأليف كاترين كرو Catherine Crowe التي كانت ربة بيت متواضعة تعيش في أدنبره، وكانت قد حققت بالفعل بعض النجاح ببعض رواياتها مثل رواية سوزان هوبلي، ورواية ليلي دوسون. وكان لكتاب «الجانب الليلي من الطبيعة» الذي حمل عنواناً توضيحياً «الأشباح ومشاهدو الأشباح»، الفصل في اكسابها شهرة وأصبح أحد الكتب ذات التأثير الكبير خلال القرن التاسع عشر.

ومع الأسف لم تستمتع مسز كرو بشهرتها مدة طويلة، ففي عام ١٨٥٩ أصدرت بحثاً تحت عنوان «الروحانية والعصر الذي نعيش فيه» تسبب في أنها وضعت في معجم السير القومية على أنها في حالة مرضية تجعلها تشعر بالكآبة أو الفزع. وأصيبت بعد ذلك بقليل بالخبل، ورأى معاصروها أن ذلك المصير الذي آلت إليه يرجع إلى اهتمامها بمثل تلك الموضوعات المرعبة. ثم شفيت ولم تكتب بعد ذلك إلا القليل في الفترة التي عاشتها بعد إصدار كتابها «الجانب الليلي من الطبيعة» حتى وفاتها عام ١٨٦٧. وظل كتاب «الجانب الليلي من الطبيعة» محافظاً على شهرته كما كان، وظل يباع في محطات السكة الحديد بشلنين حتى نهاية القرن.

كان واضحاً أن الفقرة التي ظهرت عنها في معجم السير القومية لا تظهرها مؤمنة بالأشباح ومشاهدي الأشباح، فبعد أن تعترف الفقرة بأن هذا الكتاب يعتبر من أحسن مجموعات قصص اللامعقول في لغتنا تهاجم المسز كرو وتتهمها بأنها «ساذجة عاجزة عن النقد». وهذه معالجة غير عادلة، فلو أن الكتاب كان كما جاء في الفقرة مجرد مجموعة قصص عن الأشباح لما أصبح له ذلك التأثير البالغ الذي اكتسبه. ولعل ما أعجب به الفيكتوريون من هذا الكتاب هو ما يمتاز به من أسلوب متعقل قوي،

ومحاولته معالجة الظاهرة بحيادية وتجرد. جاء هذا الحكم قبل أن يخوض الباحثون في مجال خوارق الطبيعة النفسانية ببحوث منتظمة بثلاثين عاماً. ولكن مسز كرو قدمت أحسن ما استطاعت مع ذكر الخطابات الواردة والوثائق والأسماء والشهود والتواريخ المحددة.

استوحت كتابها: «الجانب الليلي من الطبيعة» من كتاب آخر كان من أكثر الكتب انتشاراً خلال القرن التاسع عشر هو كتاب «شاهدة بريفورست» الذي ألفه جوستينوس كيرنر Justinus Kerner كانت مسز كرو قد ترجمته عن اللغة الألمانية ونشرته قبل نشر كتابها بثلاث سنوات. وكان أول دراسة تفصيلية متكاملة ظهرت في تاريخ الأدب عن الاستشفاف. وشاهدة بريفورست هذه إمرأة ريفية تدعى فردريك هاوف كانت تشاهد رؤى غريبة، وتتحدث عن أرواح خفية منذ طفولتها، ولما بلغت التاسعة عشرة من عمرها تزوجت من ابن عمها وأنجبت منه طفلاً ثم أصيبت بهبوط بعد الولادة، وظهرت عليها أعراض هستيرية. وكانت تدخل كل مساء في غشية تنويمية أو غيبوبة ترى أثناءها أرواح الموتى. فاستدعى لها الطبيب الثري كرينر الذي كان يهوى الشعر لمعالجتها ومحاولة شفائها.

والمفهوم أنه أخذ يعالج رؤاها على أنها خيالات، ولكنه أصيب بالدهشة من أحد مزاعمها الفريدة من نوعها، من أنها تستطيع أن تقرأ بمعدتها، فهي تستلقي على الفراش، ويوضع كتاب مفتوح فوق حجابها الحاجز مباشرة دون أن تكون تحته ملابس. وبعينيها مغمضتين تستطيع أن تقرأه بنفس السهولة التي تقرأ بها لو كان أمام وجهها. وزعمت أيضاً أنها قادرة على الرؤية من خلال الجسم البشري وكان علمها بالجهاز العصبي أمراً غريباً بالنسبة لسيدة ريفيّة.

تغير رأي كرينر عن أحلامها أو رؤاها بعد أن مر بتجربة غريبة. أخبرته أن روح رجل أحول قد تلبستها، ومن وصفها تعرف كرينر على الرجل الذي كان قد مات منذ بضع سنوات. وقالت فردريكا إن الرجل الميت كان يعاني من شعور بالذنب لأنه اختلس مبلغاً من المال وحاقت تهمته برجل آخر، وأراد هذا المختلس أن يبرىء ساحة الرجل المتهم حرصاً على مصلحة أرملته، وذكر أن الاثبات موجود في صندوق وثائق قد يعثر عليه في حجرة أحد الموظفين الرسميين، وأطلقها روح الرجل الميت بالموظف الرسمي في صورته وهو جالس في حجرته والصندوق مفتوح أمامه على

المكتب. وكان الوصف الذي نقلته جيداً لحد أن كرينر استطاع أن يتعرف على ذلك الموظف وكان هو القاضي هايد. وكان على القاضي أن يسلم مقدماً بدقة تقرير فردريكا التي وصفت به حجرته، ودهش هو وكرينر حينما عثر على الوثيقة مطابقة تماماً لما قالته لدرجة أنها عرفت أنها موضوعة في الملف في موضع خاطىء.

منذ ذلك الوقت أصبح كرينر ينظر إلى فردريكا على أنها جادة فيما تذكره وأخذ يدوّن مذكرات عن أفكارها الأساسية. أخبرته بأننا محاطون بأرواح خفية غير مرئية، ولاثبات ذلك استحثتهم أن يصدروا أصواتاً من الحصى، وأن يرفعوا كرسياً كبيراً في الهواء. وانفتح كتاب وانطفأت شمعة بواسطة أصابع غير مرئية، وأخذ شيء غير منظور يسحب حذاءها بينما هي مستلقية على الفراش. ووصف كرينر روحاً رآها بنفسه وقال إنها تشبه عاموداً رمادياً من سحاب فوقه رأس.

كانت فردريكا أيضاً تتحدث بلغة أجنبية غير معروفة زعمت أنها اللغة الأصلية للحياة الداخلية، وتبين منها بعد أنها تشبه اللغة القبطية. وتحدثت عن دوائر متعددة ومعقدة في الوجود الانساني، كانت دوائر الشمس ودوائر الحياة هي أبرزها، وأعلنت أن الانسان يتكون من أربعة أجزاء: الجسم والهالة العصبية والنفس والروح، أما الهالة العصبية فهي جسم أثيري يتابع أعماله الحيوية حينما ينام الانسان أو يذهب في غيبوبة، ويتفق هذا تماماً مع آراء شتاينر التي ذكرناها في الفصل الثاني.

أدت هذه الاستعراضات الروحية إلى سوء صحتها وماتت في التاسعة والعشرين من عمرها عام ١٨٢٩، وفي نفس السنة نشر كرينر كتابه المشهور «شاهدة بريغورست» الذي أحدث ضجة كبيرة، حيث كان كرينر رجلاً متعلماً له احترامه، وكان صديقاً لكثير من الفنانين والفلاسفة، وكان طبيباً شهيراً، ولذلك لم يؤخذ الكتاب على أنه كذب أو خيال. ولقد شهد أيضاً عالم اللاهوت المعروف آنذاك دافيد شتراوس الكثير من الأشياء التي أورد وصفها في كتابه، وأتى بشهود على صحتها، وأدى كتاب شتراوس وعنوانه «الهدام» وهو عن حياة المسيح إلى ضجة ذاعت على المستوى القومي، ولكنها لا تقارن بما أحدثه كتاب شاهدة بريغورست على المستوى الأوروبي كله، إذ أن القرن التاسع عشر كان عصر انتصار العقلانية، وربما اتفق العلماء على التشكك فيما ذكره دافيد شتراوس، ولكنهم لم يروا ذلك في الأرواح الخفية التي ذكرتها فردريكا. وكان أطباء باريس وفييناقد نجحوا في تدمير الحياة الوظيفية

للدكتور فرانـز مسمار Dr. Franz Mesmer بـأن اعتبـروا المسمـرية والعـلاج بالايحـاء ضرباً من الخداع، ورفضوا حتى أن ينظروا في أداة التخـاطر والاستشفـاف، وكان من الأيسر لهم أن يعتقدوا أن شاهـدة بريغـورست كانت ضربـاً من الخداع دون مـا حاجـة إلى التسـاؤل عما تعنيـه، بل إن النجـاح الشعبي الكبير الـذي لاقاه الكتـاب قد عمق اتهامهم له بأنه نوع من الخداع الذي ينطلي على العامة.

يساعدنا كل ذلك في شرح السبب الذي جعل كتاب كرينر لا يصـل إلى انجلترا إلا بعد ظهوره بعقدين من الزمان، فقد كانت بريطانيا أولاً وقبل كل شيء هي الموطن الأصلي لمذهب الشك، حيث كان دافيـد هيوم قـد رفض المعجزات بـأن طرح السؤال التالي: هل الأفضل لنا أن نعتبر الشهود كاذبين أو أن ننتهك قوانين الطبيعة ونهدرها؟ وكان الانجليز فخورين بتفكيرهم الصارم، ويحبون أن يعلنوا ذلك بخلاف الفرنسيـين والايطاليين والبافاريين، ولم يكن لدى الانجليز ما يدعوهم إلى الخـوف من السجن إذا اتهموا البابا نفسه بالكذب. ولقد أقر المشتغلون بالطب في بريطانيـا ما قـرره زملاؤهم في فرنسا عن أن مسمار دجال. وحينما أعلن جون اليستـون الطبيب أنـه لا يقرهم عـلى ذلك وأنه يأخذ المسمرية بشيء من الجدية، أعلن أحـد مشاهـير الجراحـين وهو السـير بنيامين برودي في منشور أصدره أن ما ذكره جون اليستـون «خرافـة خداعـة، وأنها لا تخرج عن كونها مزيجاً حقيراً بين الإيمان والخوف».

ولكن كاترين كرو نشرت ترجمتها لكتاب «شاهدة بـريغورست» عـام ١٨٤٥ دون أن يصيبها أي أذى، أولاً لأنها سيدة، وثانياً بـاعتبارهـا كاتبـة روائية، ولاقى الكتـاب إعجاباً واهتماماً في فرنسا مثلما لاقاه الكتاب الأصـلي في ألمانيـا. وأدى إلى إقناع المسـز كرو بوجود اللامعقـول، حيث كانت آنـذاك من تلاميـذ طبيب أدنبره المشهـور جورج كومبي George Combe الذي يعتبر أشهر أنصار «الفراسة» وهي المذهب الـذي يقول بأن شخصية الانسان يمكن أن تُعرف وتكتشـف من خلال قراءة ضربـات مباشرة عـلى الدماغ، وكان كومبي من أشـد المتشككين في وجـود الأشباح وأمثـالها من أمـور. كان لكـل من كيرنـز وفردريكـا أثرهمـا من تغيير رأيهما، وانتهاكـاً لوحي فكـرة أن «الـروح العلمية» تجاوزت الحـدود «لأن القرن السـابع عشر شهـد تفوق سرعـة التصديق عـلى البحث عن الأسباب والتدقيق في الأمور، وكرد فعل طبيعي لذلـك اتجه القـرن الثامن عشر إلى عكس ذلك تماماً، واستمر هذا الاتجاه في القـرن التاسـع عشر لحد المبـالغة،

وأصبح هناك في حقيقة الأمر نوع جديد من الخرافة هو رفض مواجهة الحقائق التي تتعارض مع المعتقدات السائدة.

لم تكن مسز كرو تصدق الأمور بسرعة إذ أنها بدأت البحث عن الحقائق فوجدت أنها تبدو متمشية مع النمط المنطقي، وأغلب ما كتبته كان فيها بعد موضع دراسة أكثر نظامية ونسقية قام بها علماء متخصصون في علم نفس خوارق العادات، وتم توثيق ذلك في السجلات العلمية مثل الرؤى أو الأحلام المستقبلية، ورؤى سكرات الموت، والهواجس عن الكوارث، والصور الذهنية لأحياء ولأموات، والاشباح المزعجة، والحركة النفسية والاستحواذ كذلك. ولجأت للعلماء المعاصرين مصرة على أن خوارق العادات يمكن تفسيرها في ضوء الاصابة بالهيستيريا أو اضطراب الاعصاب، وتشير وهي على حق إلى أنهم «ينظمون الحقائق التي تؤيد نظرياتهم ولكنهم لا ينظمون نظرياتهم على أساس الحقائق الواقعة». وتقول إن ما نحتاجه الآن هو التحقيق «ولا أقصد بالتحقيق أن يكون بحثاً متسرعاً أو كشف العيوب أو ملاحظات غاضبة عن حقيقة أو ظاهرة يرحب بها الباحث... بل تحقيق بطيء متعقل أو فحص اجتهادي يقبل الاعتياد على الطبيعة ويتواضع ليساير ما تكشف عنه مهما كان متعارضاً مع النظريات التي سبق الاقتناع بها، ويجب ألا يكون مهدراً للكرامة الانسانية». من الواضح هنا أنها تردد ملاحظة مشهورة ذكرها هنري هكسلي عن واجبات رجل العلم وهي «أن يجلس أمام الحقيقة كالطفل الصغير مستعداً لأن يتنازل عن أي آراء سبق اقتناعه بها. ويساير بتواضع ما تقوده إليه الطبيعة، وإلا فلن يتعلم شيئاً». ومن الطريف أن نكتشف أن هكسلي كتب هذه العبارة عام ١٨٦٠ أي بعد نشر كتاب «الجانب الليلي من الطبيعة» بنحو عقد من الزمان، وربما كان ما ذكره هكسلي يعتبر صدى لما قالته مسز كرو.

وتعترف مسز كرو بأن غرضها هو أن تجد رداً على تساؤلها عما إذا كان هناك دليل يثبت أن الانسان قد يعيش بعد الموت. وكانت أول خطوة سارت فيها نحو هذا الهدف وتبعها فيها بعد خلفاؤها المشهورون من أمثال مايرز Mayers وتيريل Tyrell هي محاولة إبراز ما يمتلكه الانسان من قوى لا يمكن تفسيرها بالعلم، وخصصت عدة فصول من كتابها للأحلام ورؤى المستقبل وضمنتها الكثير من التجارب والخبرات التي جمعتها من أصدقائها.

في ليلة من ليالي الخميس رأى صديق آخر في منامه أن أحد أصدقائه سقط من فوق جواده واستلقى على الأرض والدماء تنزف من جروح كثيرة أصابت وجهه. وروى الحلم في الصباح. ولأنه لم يكن يؤمن إطلاقاً بمثل هذه الظواهر لم يستطع أن يحكي ما تركه الحلم في ذهنه من انطباعات. وظل متماسكاً حتى يوم السبت حيث لم يحتمل الكتمان أكثر من ذلك فاتصل بصديق له في منزله فأخبره ذلك الصديق أنه في الفراش لأنه سقط من فوق جواده في اليوم السابق وأن وجهه مليء بالجروح.

ولو أن مسز كرو قد عاشت لتصبح عضواً في جمعية البحوث النفسانية فلربما لجأت إلى الحصول على اعترافات موقعة من ذلك الصديق الذي أصيب في ذلك الحادث ومن الشخص الذي رأى الحلم في صبيحة رؤيته. وكواحدة من الطلائع في هذا المجال لم نجد ضرورة لذلك. وخلاف هذا العيب من الصعب أن ننظر إلى منهجها على أنه منهج خاطىء.

وهي كغيرها ممن كتبوا عن خوارق العادات كانت مندهشة من تجارب التواجد، خارج الجسم لأنها كانت تعتبر ذلك بحق كدليل ممكن على أن في الانسان شيئاً قد يتواجد خارج الجسم، ومرة أخرى بذلت قصارى جهدها لتقدم حقائق قابلة للفحص والدراسة:

مستر جون هولواي الراحل كان يعمل في بنك انجلترا وهو شقيق للنحات الذي يحمل نفس الاسم. ذكر عن نفسه أنه كان في فراشه بجوار زوجته في إحدى الليالي وكان أرقاً غير قادر على النوم، وثبت عينيه وأعمل تفكيره بطريقة مركزة على نجم جميل رآه يتلألأ في السماء من خلال النافذة، وفوجىء بأن وجد روحه قد تحررت من جسده وأصبح محلقاً في الآفاق اللامعة، ولكنه توقف عن ذلك من فوره خشية أن تصدم زوجته إذا ما اكتشفت أن جسده يبدو ميتاً بجوارها، وعاد بصعوبة ليدخل في جسده... ووصف أن الرجوع كان رجوعاً للظلام، وأنه أثناء تحرر روحه كان يتردد بين النور والظلام مع تفكيره في زوجته وفي النجم المتلألىء، وقال إنه كان يحاول دائماً أن يتجنب أي شيء قد يؤدي إلى تكرار هذا الحادث لأن نتائجه كانت مدعاة للحزن.

كانت المشكلة الرئيسية التي واجهت مسز كرو نتيجة لاعتمادها على السماع فقط في عملها أنها تفتقر إلى طريقة بسيطة للتمييز بين ما هو جدير بالتصديق وما هو غير حقيقي. وأحسن مثال على ذلك الحالة التي نقلها إليها هينريش جونج ستيلنج Hein-rich Jung- Stilling، كان آنذاك ممن يبحثون في خوارق العادات، وهو أستاذ الاقتصاد في هامبورج ومن أنصار مذهب مسمار، والمفروض أنه ثقة في الموضوع. كانت القصة التي رواها حالة جيدة، وهي التي سميت فيما بعد «صورة ذهنية للاحياء». يقول جونج ستيلنج إنه حدث وهو موجود في فيلادلفيا عام ١٧٤٠ أن

اتصلت زوجة أحد القباطنة بأحد المستشفين، وكانت جزعة لعدم سماعها بأخبار زوجها من مدة طويلة، فاستأذنها ذلك المستشف وذهبت إلى حجرة أخرى. وبعد فترة من الانتظار كادت المرأة تفقد صبرها فيها ذهبت لتتسمع ونظرت من ثقب الباب، فوجدت ذلك المستشف مستلقياً على مقعد كبير وكأنه نائم. ولما عاد أخبرها بأن زوجها حي وفي صحة جيدة، وأنه لم يستطع الكتابة لها لأسباب متعددة شرحها لها. وقال في تلك اللحظة: إن الكابتن كان في مقهى في لندن وسيعود بعد فترة وجيزة.

ولم يمض وقت طويل حتى عاد الكابتن، وأكد ما ذكره لها المستشف من أسباب عدم الكتابة لها، وحينما قدمته زوجته لذلك الرجل المستشف تعرف عليه الزوج وذكر أنه رآه في لندن في المقهى ليلة سفره إلى أمريكا. وطبقاً لما قاله الكابتن أن ذلك الرجل تحدث معه وسأله عن أسباب عدم الكتابة لزوجته، ثم اختفى تماماً وسط الزحام».

هذه الحكاية عن قدرة المستشف أن يظهر نفسه على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي تعيد إلى الذهن حكايات مشابهة لها رواها سويدنبرج عن حملة الرسائل من الموتى. وتتكرر مثل هذه الحكاية في كتاب «الصور الذهنية للأحياء» الذي وضعه أعضاء جمعية البحوث النفسانية خلال العقد الثامن من القرن الماضي، ولعل ما يبدو أنه هراء هنا هو أن الكابتن قد تحدث إليه وشرح له الأسباب التي منعته من الكتابة لزوجته. وهناك مئات من الحالات التي سجلت عن الظهور في مكان آخر ولكن القليل جداً منها (أذكر واحدة فقط[1]) تحكي أن الصورة الذهنية تكلمت فعلاً مع شخص آخر. وحينما نعلم أن هذه الحوادث قد وقعت جدلاً في عام ١٧٤٠ وهي السنة التي ولد فيها جونج ستيلنج، يصبح من الواضح لنا أن القصة - حتى لو كانت صحيحة - فربما تطورت مع تواتر الرواية. ولم يكن لدى مسز كرو الوسيلة للتعرف عما إذا كانت الحكاية مؤكدة للنمط العام للصورة الذهنية للاحياء، وذلك لعدم وجود بحوث كافية آنذاك للتوصل إلى نمط واضح.

في ضوء هذه الصعوبة تعتبر مسز كرو قد أحسنت في عملها، وأن كتابها

---

(١) كتاب سيرة يوجي تأليف باراهانسا يوجاناندا Autobiography of a Yogi by Parahansa Yogananda فيه يصف المؤلف كيف أن اليوجي الزائر أخبره بأن له صديقاً في الطريق إليه، وحينما وصل الصديق ذكر كيف أن اليوجي ظهر له في الشارع وأشار إلى أن براهانسا كان في انتظاره في حجرته. وفي الوقت الذي حدث فيه ذلك كان اليوجي مع براهانسا. ومن وجهة نظر الباحث النفساني تعتبر هذه الحكاية مشكوكاً فيها ومختلقة لعدم وجود أي شيء آخر يثبتها سوى قول المؤلف.

استحق فعلاً تلك السمعة، فمعظم حدسها وتخميناتها أصبحت من الموضوعات الممتازة التي تناولها الباحثون المحدثون. مثال ذلك ما جاء في الفصل الثاني عن الشبح المزعج عند الألمان والذي تشرح فيه حالة معاصرة لفتاة فرنسية تسمى انجليك كونين، كانت في عام ١٨٤٦ تنسج قفازات حريرية وأخذت بكرة الخيط تهتز بشدة، ويبدو أن انجليكا - التي كانت آنذاك في الرابعة عشرة من عمرها - قد تحولت إلى مغناطيس بشري ربما جذبت ما بجوارها من أشياء أخذت تتطاير في الهواء وتلتصق بها. والغريب أنه لم يكن بالفتاة أي جاذبية للمعادن. وأصبح واضحاً أن ذلك نوع من أنواع الكهربية، لأنها كانت تسبب رعشة كهربية لمن يلمسها، وكان الناس يمتنعون عن لمسها إذا كانت واقفة فوق شيء اسفنجي سميك. قدمت مسز كرو تفسيراً معقولاً لذلك، بأن ظاهرة الشبح المزعج ربما كانت ظاهرة كهربائية في الطبيعة، وفي ذلك منظور مستنير واضح في الوقت الذي زعم فيه معظم الكتاب الذين تناولوا الموضوع أن الأشباح المزعجة هي أشباح حاقدة.

ومن جهة أخرى كان سرعة التصديق عند مسز كرو متجاوزاً زمانها، فهي تروي حكاية عن باحث آخر من الأوائل هو جوزيف اينرموسر J. Ennermoser:

يبدو أن ڤان هيلمونت، بعد أن أكد إمكانية الانسان أن يقضي على حياة الحيوان بمجرد نظرة (نظرة متعمدة مقصودة)، فإن روسو الواقعي قام بتجربة مماثلة حينما كان في الشرق، فقتل بهذه الطريقة الكثير من الضفادع. ولكن في تجربة أخرى تالية في ليون، أدرك الحيوان أنه لن يستطيع التهرب من النظرة فثبت عينيه دون حراك، وسقط من الاغماء، وظن أنه مات.

هذه من أمثلة الحكايات التي تثير الضحك سخرية منها، فنحن نعلم أن حكايات القوة الايحائية للثعابين وغيرها من المخلوقات من حكايات العجائز، ومع ذلك فقد كرس الباحث دكتور فيرنك اندراس فوجيس بعض سنين حياته لدراسة الايحاء عند الانسان والحيوان، وتوصل إلى بعض النتائج الهامة. فلاحظ والتقط صوراً لعشرات الحالات التي فاجأت فيها الثعابين فرائسها من الأرانب والفئران ثم أكلتها. ولاحظ أيضاً معارك الحياة والموت بين الثعبان وضحيته المنتظرة. ويشتمل كتابه على صور فوتوغرافية لأفاعي الأناكوندا تباغت الفئران وثعبان الأصلة تستدرج أرنباً بريًاً. ولكن هناك صوراً أخرى للمعارك الفاصلة بين أفعى الجرس والنسر. ويذكر أن المعركة تبدأ بتثبيت العيون تثبيتاً متبادلاً تنتهي عادة بانتصار الطائر. وهناك صور أخرى تبين انتصار الضفدع على أفعى الكوبرا. ويصف فوجيسي معركة بين ضبّين

واجه كل منهما الآخر نحو عشر دقائق يحدق كل منهما في عيني الآخر بتركيز شديد (وهي كما تذكر مسز كرو نظرة متعمدة) وبعدها أكل أحدهما الآخر الذي ظل ثابتاً دون حراك[1]. وقد تكون حكايات هيلمونت عن قتل الحيوانات بالنظرة مبالغاً فيها ولكنها كانت مبنية على ملاحظات واقعية.

تؤيد الكثير من المؤلفات الخاصة بالتنويم المغناطيسي رأي مسز كرو عن الاستخدام الإرادي لبعض القوى العقلية، ففي عام ١٨٨٥ راقت لعالم النفس الفرنسي بيير جانيت التجارب التي يجريها طبيب يدعى جيبرت الذي كان باستطاعته أن ينوم إحدى مرضاه واسمها ليوني بمجرد تركيز تفكيره فيها، وأن يدعوها من الجانب الأخر من الهافر بنفس الطريقة. وخلال العقد العاشر من القرن التاسع عشر استطاع الدكتور بول جوار Paul Joir أن يسيطر على إرادة مرضاه وينومهم مغناطيسياً فيجعلهم يطيعون أوامر عقله. وتكرَّرت نفس التجربة خلال العشرينات على يد العالم الروسي فاسيليف I..L.. Vaseliev الذي وصف تلك التجارب في كتاب بعنوان «تجارب في التأثير على البعد» ولم يدع مجالاً للشك في أن هناك نوعاً من القدرة العقلية يمكن ممارستها عن بعد.

ولعل مما أدهش مسز كرو أن التأثير الواضح للقوى البشرية كان أشد مما يمكن تصوره، فلو استطاع الناس أن يغادروا أجسامهم ويشاهدوا ما يحدث في مكان آخر، وإذا كان الخاضع للتنويم المغناطيسي قادراً على وصف الأشياء التي تحدث في الشارع، وإذا كانت الفتاة قادرة على أن تتحول إلى مغناطيس بشري، وإذا استطاع رجل أن يحلم بالمستقبل، إذن فإن العلوم المادية لا بد وأن تكون خاطئة في نظرتها لطاقات الانسان على أنها محدودة. وحينما ترجمت مسز كرو كتاب شاهدة بريغورست اتضح لها أن هناك شيئاً غريباً يحدث حتى لو كان كيرنر كذاباً. فهي ليست تقارير منقولة عن حكايات الأشباح والأطياف كما في دراسة الروحانيات التي قام بها جونج ستيلنج، بل إنها معلومات مباشرة يقدمها رجل ليست له مصلحة وليس لديه سبب معين ليقول كذباً أو يخدع نفسه. يصف كيرنر كما تذكر مسز كرو في كتابها «الجانب الليلي من الطبيعة» كيف أن فردريكا استيقظت يوماً تصيح «يا إلهي . . . !» وكيف أن طبيباً كان

---

(١) Ferav Andras Volgyesi, Menchen and Tierhypnose ترجمت عام ١٩٦٦ تحت عنوان Hypnosies of Man and Animals, London, 1966.

يجلس بجوار جثة أبيها على بعد أميال منها وسمع صيحتها، فاندفع إلى الحجرة ليرى ما إذا كانت الروح قد عادت إلى الجسد. تلك الحادثة ليست مسألة أرواح، بل إنها نوع من القوة الفضولية عند فردريكا نفسها. وإذا ما كانت مثل هذه القوى تبدو خارجة عن نطاق سيطرة الشخص الذي يمارسها، فإن مسز كرو استطاعت أن ترى عدم وجود أي تعليل أرضي لسبب حدوث ذلك بصفة متكررة هكذا. لهذا السبب فإن الفيكتوريين المتصلبين وجدوا أن كتابها مدهش. وكان الرواد منهم يتوغلون في قارات جديدة ويمدون السكك الحديدية إلى أماكن بعيدة من الأرض، وكانت صناعاتهم تدر ثروات جديدة، وكانت علومهم تكشف عن أسرار الكون. ولو أن مسز كرو كانت صادقة، فإن علماً جديداً هو علم خوارق الطبيعة أو خوارق العادات أصبح يصور لنا أن الانسان نفسه مخلوق أعجب مما كنا نظن. لم يكن كتابها مجرد مجموعة من الحكايات المزيلة التي يقشعر لها البدن، بل كان عملاً تفاؤلياً عن القدرات البشرية.

ولسوء الحظ لم تكن الكاتبة الروائية الفيكتورية هي الشخصية القادرة على إقناع العلماء بتجاهلهم لموضوع هام، بل أن الفيكتوريين أنفسهم كانوا يجاهدون لتحقيق حريتهم الفكرية، وظلت أحكام الاعدام تنفذ في السحرة ابتداء من العقد الأخير من القرن السابع عشر حتى نهاية العقد السادس من القرن الثامن عشر، وارغمت الكنيسة عالم الطبيعة بوفون Buffon أن يعلن سحب عباراته التي قالها عن أن الأرض كانت جزءاً من الشمس وأن الحفريات بقايا للأسلاف البدائيين للمخلوقات الحالية. وفي عام ١٨٥٠ كان المفكرون قد ضاقوا ذرعاً بسلطة الكنيسة التي تمارسها منذ قرون عديدة، وكانوا يتطلعون لأن يشهدوا سقوط حماة الاكليريكية، ولذلك ففي كل مرة كان يجرؤ فيها أي شخص أن يتحدى السلطة الفكرية للكنيسة كان ذلك يجد صدى من الترحيب يتردد في كل أنحاء أوروبا. ففي عام ١٨٣٠ بعد سنتين من ظهور كتاب الجانب الليلي من الطبيعة أصدر عالم اللاهوت الألماني لودفيج فيورباخ Ludvig Feuerbach كتاباً بعنوان «أفكار عن الموت والخلود» رفض فيه فكرة وجود إله شخصي، وسخر من الراغبين في الخلود على أنه نوع من الأنانية الغبية، ولقد اضطهدته الشرطة وأرغم على ترك منصبه في الجامعة. وبعد ذلك بعشر سنوات نشر فيورباخ كتاباً ثورياً آخر بعنوان «جوهر المسيحية» نزل كالقنبلة وأرهب حتى أحرار المفكرين، أعلن فيه أن الإله والخلود ما هي إلا أوهام خطيرة، وإن على الانسان أن

يتعلم كيف يعيش في الحاضر بدلاً من أن يضيع وقته في أحلام عن الجنة التي ليس لها وجود (وكان للكتاب تأثير كبير على كارل ماركس الذي وصف الدين بأنه أفيون الشعوب). وفي رواية هينريك الأخضر التي كتبها الشاعر السويسري جوتفريد كيلر Gottfried Keller وصف ڤيورباخ على أنه «ساحر في صورة طائر مغرد يخرج الإلّه من قلوب الآلاف». وفي نفس الكتاب أيضاً تصوير لمدرس فقد وظيفته لأنه ملحد، وسافر في كل أنحاء المانيا يصيح قائلاً: «أليس من دواعي السرور أن يكون الانسان حياً؟ وأن يظل دائماً يفخر بأنه متحرر من أغلال الإلّه».

ذلك هو السبب في أن العلماء والفلاسفة لم يكونوا مستعدين للاهتمام ببراهين خوارق العادات، إذ كان يغلب عليهم السرور أن يروا الكنيسة تغمض أعينها، ولم تكن لديهم النية في أن يتركوا الدين يتسلل مرة أخرى من الباب الخلفي. لذلك حينما بدأت كاترين كرو كتابها بأنها تريد أن تثبت حقيقة وجود روح خالدة للانسان فإن معظمهم لم يقرأوا منه كلمة بعد ذلك. وإن كانت مسز كرو بقصد أو بدون قصد قد ساعدت العدو وأراحته في نفس الوقت.

والحقيقة أنه في السنة التي ظهر فيها كتاب الجانب الليلي من الطبيعة، كان ذلك العدو بالذات يستعد للدخول في مواجهة عنيفة.

بالفحص الدقيق المتأني نرى أن أهم ما في كتاب الجانب الليلي من الطبيعة هي الصفحات المتعلقة بسكنى الأرواح في منزل يملكه أحد رجال الصناعة ويدعى جوشوا بروكتور. تقدم لنا مسز كرو في تلك الصفحات قصة موثقة توثيقاً دقيقاً ربما كانت هي الدافع لأن قام باحثو جمعية البحوث النفسانية يتوجهون بالاهتمام إلى هذا الكتاب على أنه مادة حقيقية للبحث النفساني. وهي تقدم للقصة بخطاب من جوشوا بروكتور وجهه إليها يشهد فيه بصحة الحدث في التقرير التالي:

كان ذلك البيت المسكون بالأرواح طاحونة قديمة بنيت عام ١٨٠٠ أي منذ أربعين عاماً فقط، وأصبح خط السكة الحديدية الذي يصل بين نيوكاس وشيلر يمر أمامه فوق جسر مرتفع. وفي يونيه سنة ١٨٤٠ شاعت الأخبار في الخارج بأن أسرة بروكتور التي كانت من الكويكرز يتعرضون لإقلاق بسبب ضوضاء تدق عليهم، وأنهم رأوا أشياء غير سارة. سمع الدكتور دروري الجراح الماهر في مدينة ساندرلاند بالخبر من المزارعين المحليين، وكان شديد التشكك في مثل هذه الأشياء، ولكن

حكايات الشبح المزعج الذي ظهر في أيبوبرث في مقر كنيسة صمويل ويسلي جد مؤسس الكنيسة الاصلاحية كانت قد شاعت حيث كان هناك شبح يسمى جيفري العجوز يئن ويصيح بصوت رنان حول مقر إقامة القسيس لمدى شهرين عام ١٧١٦، وكانت تسمع أصوات أنفاس ثقيلة، وزجاج يتكسر ووقع أقدام وأصوات أخرى غير مميزة. ولاحظ القسيس صمويل أن هذه الاضطرابات لها صلة معينة بابنته هيتي البالغة من العمر تسعة عشر عاماً، فكانت ترتعش أثناء نومها قبل بدء الأصوات. وبحث العلامة جوزيف بريستلي الحالة، وقرر أنها خدعة. وكان الدكتور دروري يميل إلى تأييد هذا الرأي، لذلك حينما سمع بسكنى الأرواح في طاحونة ويلنجتون كتب إلى صاحب البيت الدكتور جوشوا بروكتور يعرض عليه أن يقوم بمحاولة اكتشاف السر (أي كشف الخدعة)، فرد عليه المستر بروكتور بأدب جم يقول بأن أسرته سوف تذهب إلى زيارة في نفس الموعد الذي حدده وأن أحد العاملين عنده سيكون في خدمته أثناء غيابه، ومع ذلك لو أراد أن يحضر ليقيم معه ليلة فإنه يرحب به.

قرر الدكتور دروري أن يصحب معه أحد الأصدقاء على سبيل التشجيع المعنوي له، وأخذ مجموعة مسدسات قاصداً أن يسقط أحدها على الأرض بالصدفة كي يتراجع أي شخص يكون مازحاً. ولكنه حينما وصل وجد أن جوشوا بروكتور عاد وحده من الاجازة، وكان بروكتور رجلاً صادقاً بحيث أن دكتور دروري قرر أن الأمر غير مقصود للايقاع به.

أدى ما حدث لادوارد دروري في تلك الليلة إلى اقتناعه بوجود خوارق للطبيعة، وامتلأ بخوف جعله يفقد السمع في إحدى أذنيه وأصبح يعاني من تدهور في صحته آنذاك. ويبدو أنه كان منهاراً لدرجة لم تجعله يروي ما حدث بصورة صريحة ولكنه وعد بأن يكتب لمستر بروكتور خطاباً بكل الحكاية، وكتب الخطاب فعلاً في ١٣ يوليه ١٨٤٠ بعد مضي عشرة أيام من الليلة التي قضاها في ذلك البيت المسكون.

وصل مع صديقه د. هادسون واستقبلهما المستر بروكتور بالترحاب وطاف بهما في أنحاء المنزل. وفي الساعة الحادية عشرة قبع دكتور دروري وصديقه هادسون في الطابق الثالث خارج الحجرة المسكونة (رغم قوله إن المتوقع أن يحكي عن أي ضوضاء ربما يسمعها «بطريقة حكيمة» فيبدو أنه قرر أن الصمت هو أفضل جزء من الشجاعة) وبعد ساعة سمعا ضوضاء مثيرة «كما لو كان هناك عدد من الناس يدقون بأقدامهم

الحافية» ثم ظهر صوت دق شديد كما لو أن شخصاً يقرع بمرفقه، ثم سمعا بعد ذلك سعالاً خشناً داخل الحجرة المسكونة. ويبدو أنهما قررا ألا يبحثا الأمر، ثم سمعا حفيفاً كأنّ شخصاً يصعد الدرج.

وفي الساعة الواحدة إلا ربعاً شعر دكتور دروري ببرودة شديدة فقال إنه سوف يذهب إلى الفراش، أما المستر هادسون فقرر أن يبقى هناك حتى الفجر. ونظر دروري في ساعته ليتعرف على الوقت، ثم نظر إلى أعلى فرأى مصراع الدولاب يفتح ويظهر منه شكل أنثى مكسوة بثوب رمادي، رأسها مُنْحنٍ إلى أسفل وتضغط على صدرها بإحدى يديها كما لو كانت تتألم. وخرجت متجهة نحوه. كان المستر هادسون يغط في نوم عميق، ولكنه استيقظ على صيحة الفزع التي صدرت من دروري، واندفع دروري نحو الشخص «ولكن بدلاً من أن أمسك به سقطت فوق صديقي وفقدت الوعي، ولم أدرك شيئاً لمدة ثلاث ساعات. وبعد ذلك علمت أنهم حملوني منذ ذلك الوقت إلى أسفل وأنا أعاني من الخوف والرعب الشديد».

لم يقتصر ما نشرته مسز كرو على المراسلات الكاملة بين دكتور دروري وجوشوا بروكتور، بل نشرت أيضاً حكاية عن مؤرخ محلي، ورواية أخرى نقلاً عن صاحب جريدة محلية، وأوصافاً من أربعة أشخاص آخرين ممن رأوا ذلك الشبح. ويبدو في حقيقة الأمر أن هناك أكثر من شبح واحد، فقد ظهر أيضاً رجل في ثياب الكهنوت متسللاً في إحدى حجرات الطابق الثاني على ارتفاع بضعة أقدام من سطح الأرض. وأضاف المؤرخ المحلي إلى حكايته التي رواها معلومة عن أن المستر بروكتور اكتشف أخيراً كتاباً قديماً جاء فيه أن سكنى الأرواح هذه قد حدثت في منزل آخر أقدم من هذا المنزل كان قد بني على نفس البقعة قبل ذلك بمائتي عام. وتختم مسز كرو حكايتها بالإشارة إلى أن المستر بروكتور قرر منذ ذلك الوقت أن يترك المنزل ويعود إلى شقة قديمة ليمارس عمله العادي فيها.

مما يجعل لهذه الحكاية أهمية خاصة أنها تشبه من نواح كثيرة حكاية عن سكنى الأرواح حدثت بعد ذلك بثماني سنوات في هايدزفيل بنيويورك مما يدل على رواج الحركة الروحانية في القرن التاسع عشر. ففي ويلنجتون، وكذلك في هايدزفيل كان هناك مزج بين ظاهرة الشبح المزعج ونوعية سكنى الأرواح التي كانت أكثر شيوعاً. ولو أن الدكتور دروري قد أظهر نفس التماسك والفضولية كما ظهر على مسز مارجريت

فوكس في هايدزفيل فربما كان له فضل السبق في بدء الحركة الروحانية في انجلترا قبلها بعشر سنوات.

أما حكاية هايدزفيل فقد بدأت في ٣١ مارس سنة ١٨٤٨ في بيت لـه دعامـات خشبية يسكنه مـزارع ينتمي للمذهب الاصـلاحي واسمه جيمس فـوكس مع زوجتـه وابنتيـه مارجـريتا البـالغـة من العمـر ١٤ سنـة وكـاتي البـالغـة من العمـر ١٢ سنـة. وهايدزفيـل هذه مدينة صغيرة غير بعيدة من روشستر في ولايـة نيويـورك. كان جيمس فوكس قد انتقل إلى ذلك المنزل في ديسمبر السابق، وكان القـاطن السابق فيـه ميشيل ويكمان قد تركه بسبب مضايقات الأصوات العالية المتعددة التي تتردد فيه.

ظلت أسرة فوكس مستيقظة يوم آخر ديسمبر سنة ١٨٤٨ بسبب ضـوضاء وقـع أقدام، ولكن نظراً لأن الوقت كان خلال الفصل العاصف بالـرياح قـررت الأسرة أن تنـام مبكراً كي تعـوض القلق الذي يحـدث. وتجـول مسـتر فـوكس في أنحـاء المنـزل يفحص الاقفال ومصاريع النوافذ، ولاحظت الطفلتان أن هناك صدى يسمع عند هز مصاريع النوافذ مردداً الصوت.

كانت الأسرة كلها تنام في فراشين بحجرة واحـدة. وقبل أن يـأتي الوالـدان إلى فراشيهما مباشرة بدأ وقع الأقدام يسمـع مرة أخـرى، فقالت كـاتي هازلـة «يا صـاحب الأقدام المقلقة افعل مثلما أفعل» وبدأت تطقطق بأصابعها، ولشدة دهشة الفتاتين أخذ دق الأقدام يقلد طقطقة الأصابع فقاطعت مرجريت وقع الأقدام وقـالت: «افعل كـما أفعـل»، وأخذت تصفق، فقلدتهـا الأصوات هي الأخـرى. وكـان اليـوم التـالي أول ابريل فظنوا أنها فكاهة تلعب عليهم. وكتبت مسز فوكس في روايتهـا تقول: «فكـرت بعد ذلك أن أقوم باختبار الأمر حينما لا يتواجد أحد بـالمنزل، وطلبت من الصـوت أن يقلد أصوات طفليّ طبقاً لسنّهما بالترتيب، وفي الحال سمعت أصـوات كل طفـل من طفلتي في مراحل أعمارهما المختلفة تتردد عـلى فترات يسـود أثناءهـا صمت يكفي لأن اتبينها وأدرك أنها صحيحة حتى وصلت إلى الصوت السابع يتردد ثـلاث مرات وتبينت أنه يمثل صوت طفلي الصغير الراحل.

حينئذ غلب عليها الخوف، وكان واضحاً أن الأمر لم يكن هـزلاً، وسألت مسز فوكس عما إذا كان من يردد تلك الأصوات إنسانـاً، فلم تجد إجـابة، ثم قـالت: «ولو أن فاعل الصـوت روح فلتدق دقتـين» تبع ذلـك دقتان عـاصفتان بلغتـا درجة جعلت

المنزل كله يهتز، وتساءلت عما إذا كانت الروح مجروحة، فاهتز المنزل بأصوات عالية مرة أخرى. وكشفت الأسئلة الأخرى التي رددتها أن قارع الأصوات كان رجلاً مات في الحادية والثلاثين من عمره مقتولاً في هذا المنزل، وكانت له زوجة وخمسة أطفال، فسألته مسز فوكس عما إذا كان لدى الروح أي اعتراض على أن تخبر جيرانها فأجاب الصوت: «لا».

دعت أسرة فوكس نحو أربعة عشر شخصاً من الجيران للمشاهدة، فأكد أحد هؤلاء الجيران واسمه وليام ديوسلر لزوجته أن هذا أمر مضحك وأن ليس هناك أي أسرار وراء تلك الأصوات. ولكنه حينما أتى إلى الجلسة وجد بعض الجيران الحاضرين في حالة عصبية محجمين عن دخول الحجرة، ولكن ديوسلر دخل بلا اكتراث وجلس على الفراش، ودهش حينما سمع إجابات على أسئلة مسز فوكس في شكل أصوات دقات مزعجة جعلت الفراش يهتز (أصر بعض الكتاب فيما بعد على أن الأطفال هم الذين كانوا يعملون تلك الأصوات بطقطقة مفاصل أصابعهم، ولكن من الصعب أن نتصور كيف تؤدي طقطقة الأصابع إلى اهتزاز المنزل واهتزاز الفراش).

تولى ديوسلر بعد ذلك إلقاء الأسئلة على الروح، وكان الرد عليه بالدق، فكون من هذه الردود فكرة على أن هذا الكيان رجل قتل في المنزل، كان بائعاً متجولاً اسمه تشارلز روزما، وأنه هوجم للاستيلاء على ٥٠٠ جنيه كان يحملها معه. وقعت حادثة القتل قبل ذلك الوقت بنحو خمسة أعوام ومرتكبها هو المستر بيل الذي كان يقطن المنزل آنذاك. وأكدت خادمة تدعى لوكريتيا بوليفر فيما بعد أن ذلك البائع قضى الليلة في المنزل، وأن صاحب البيت سمح لها في تلك الليلة أن تبيت في منزلها. وحينما عادت في اليوم التالي كان البائع المتجول قد اختفى.

بمجرد أن شاع الخبر وسط الجماعة جاء مئات من الناس للمنزل، وفي الثاني من ابريل علم ديوسلر من القتيل أن جثته قد دفنت في داخل قبو، فكانت فرصة للتأكد من الحادث، وأخذ جون فوكس وبعض جيرانه فؤوسهم واتجهوا إلى القبو الذي كانت أرضيته من التراب، وبدأوا الحفر، وعلى عمق ثلاثة أقدام وصلوا إلى الماء، فأجلوا المحاولة. لكن في شهر يوليه حينما انخفض مستوى الماء بدأوا الحفر ثانية حتى عمق خمسة أقدام فوجدوا لوح خشب ثقيلاً تحت ذلك المكان في الجير الحي، وعثروا على بعض الشعر وقليل من العظام.

حينما سمع مستر بيل أن الشبح اتهمه بالقتـل، أنكـر ذلك وقـدم شهادة بحسن السير والسلوك من جاره الجديد في ليون بنيويورك، وكانت الروح قد أكدت أن القاتل لن يمثل أبداً أمام القضاء.

وقال الكاتب المتشكك تراتك بادمـور في كتابـه «الروحـانية الجـديدة» Modern Sprituallis إنـه لم يعثر عـلى أي دليل واضـح على حـادثة القتـل المـزعـومـة ولا حتى عن وجـود رجل يفـترض أنه قتـل. كتب ذلك في عـام ١٩٠٢، وبعد سنتـين أي في عـام ١٩٠٤ سقط حائط في ذلك القبو بالمنزل، فانكشف وجود حائط آخر خلفه، وبـالحفر فيما بين الحائطين اكتشف وجود هيكل عظمي وصندوق معـدني مما كـان يحمله الباعـة المتجولون عادة. وتبين كما لو أن أحداً قد أخرج الجثة من قـبرها الأصـلي وأعاد دفنهـا بجوار الحائط ثم بنى حائطاً آخر للتمويه على من يفتش المكان.

حينئذ تكونت لجنة لتجمع أقـوال الشهود، ولم يكن جميـع المحققين عـلى اقتناع بأن الصوت صادر من شيء خارق للعادة، ولكن لم يتهم أحد أسرة فـوكس بأنهم هم الـذين يعملون تلك الأصـوات. ذلـك أن أسرة تعيش بـأكملهـا في حجـرة واحـدة يستحيل أن يسبب أي من الآباء أو الأبناء إحداث مثل تلك الأصوات.

لاحظ الجميع أن الأصوات لا تحـدث إلا إذا كان الأطفـال بالمنـزل، وبخاصـة كاتي، وجاءت لجنة من أهالي وشستر كانت تشك في الأمر للتحقيق فيه، وأكدوا جميعـاً أن مارجريت لم تكن مسئولة عما يحدث، وجاءت لجنة ثانية وثـالثة وقـرر الجميع نفس الشيء وخلعوا ملابس الأطفـال تحسباً لحملهم لبعض الأجهـزة الميكانيكيـة التي تحدث أصـواتاً فلم يعـثر على شيء، وطلب منهـا أن يقفا فـوق الوسـادات مقيّدتي الأيـدي والأرجل، ولكن الأصوات والدقات ظلت تتردد.

وانفصـل الأطفـال، فذهبت كـاتي لتعيش مـع أختهـا ليًـا في روشسـتر وذهبت مرجريت إلى بيت شقيقها في أوبرين، وتبعتهما الأشباح فكانت الدقـات تسمع، وشعر النـاس أنفسهم بوجـود أشياء غـير مرئيـة تلمسهم. ففي منزل ليًـا كان أحـد الجـيران ويسمى كالفن يسخر من فكرة الأرواح، ولكن الأرواح أخذت تعـاكسه بـإلقاء بعض الأشياء عليه، ورفع غطاء رأس مسز فوكس وحمل المشط ورفع شعرها به. وبينما كـان أهل المنزل يركعون للدعـاء يحسون بـوخز دبـابيس. وحدثت أشيـاء مشابهـة في منزل دافيد. كان من الواضح أن البـائع المتجـول المقتول لم يكن مسئـولاً عن كل ذلـك. فقد

عاد مرة أخرى إلى منزل هايدزفيل يردد ضجة على شكل حشرجة، ويصدر أصواتاً مخيفة، فيها صوت جسم يجره على الأرض. وابيضّ شعر مسز فوكس من الرعب. وكانت هناك روح تتصل مع كاتي أخبرتها بأنها روح أحد الأقارب ويسمى جاكوب سميث، واكتشفت الأخت ليًا أنها قادرة هي الأخرى على أن تتصل مع الأرواح، وبدأت تحمل الرسائل، وهناك فتاة عمرها ستة عشر عاماً تسمى هاربت بيتي زارت منزل أوبرن وشاهدت الأصوات الدقاقة وعادت إلى منزلها الذي يبعد نحو عشرين ميلاً فوجدت الأصوات قد تبعتها إلى هناك.

انتقلت الأسرة إلى روشستر، ولكن ظهور الأرواح استمر، وكانت أصوات الدقات أحياناً عالية لدرجة تجعلها تسمع على بعد أميال. ويبدو أن الأشباح المزعجة قد تولت الأمر نيابة عن الروح المجروحة الأصلية، ففي يوم من الأيام أخذ أحد الزوّار، ويسمّى إسحاق بوست، يستجوب الروح التي كانت تردّ بصوت قرقعة عاصفة، وباستخدام شيفرة أبجدية أملت الروح رسالة هذا نصها: «أصدقائي: يجب أن تعلنوا الحقيقة للعالم: فإن هذه بداية عهد جديد وعليكم ألا تستمروا هكذا منكرين للحقيقة»، ومنذ ذلك الوقت بدأت سلسلة من ظهور الأرواح طبقاً لما ذكر عن الروحانية(١). كانت الموائد تتحرك وتسمع أصوات دقات بالأقدام، وآلات موسيقية تعزف دون أن تكون هناك أصابع مرئية، وأشياء تتحرك حول الحجرة. كانت الأرواح تصر على أن تظهر في الظلام مما أثار الشك حولها، ولكن بعض المعتقدين الآخرين في الأرواح قرروا أن «ذلك هو الوقت المناسب للاعتراف بقضية الروح، وإعلان ذلك لكل العالم». وفي ١٤ نوفمبر سنة ١٨٤٩ انعقد الاجتماع الروحاني الأول بقاعة كورينتيافي روشستر.

ويتضمن التقرير الذي كتبه ولنجتون ميل عن سكنى الأرواح ما قاله المؤرخ المحلي ريتشاردسون M.A. Richardson.

لو أننا استخرجنا النتائج من الحالات المتعددة التي رويت عن الزيارات الآتية من العالم غير المرئي والتي شاعت أخيراً، فقد يؤدي بنا ذلك إلى أن نتصور أن أيام وسطاء خوارق العادات على وشك البداية وأن الأشباح والغيلان سيعودون ليمارسوا تخويفهم للبشر.

---

(١) حينما تذكر الروحانية فالمقصود بها هو المذهب الذي يحمل هذا الاسم. أمّا الروحانيات فتعني ببساطة الإيمان بالأرواح أو عقيدة البقاء بعد الموت.

وفي عام ١٨٤٠ كانت هناك ملاحظة تصورية هامة، هي وإن كانت ترجع إلى تقدّم المواصلات وزيادة عدد الصحف، فإنه لم يبد واضحاً زيادة في نسبة ظهور الأشباح خلال تلك الفترة. وإذا ما استعدنا الذكرى لتبين لنا «أنه أمر شاذ، كما لو أن الأرواح قررت أن الوقت قد حان لتظهر نفسها»، طبعاً كان هناك مثل هذا الظهور للأشباح لمدى قرون عديدة، وقد ألف الدكتور جون لي John Lee المنجّم الذي يرجع إلى العصر الفيكتوري كتاباً كبيراً سجل فيه اتصالاته مع الأرواح عن طريق الوسيط الذي يدعى ادوارد كيلي. فللحالات المماثلة للشبح المزعج الذي ظهر في أبورت، وذلك الذي ظهر في ستوكويل (ووصفتها مسز كرو) وشبح كوك لين، والطبال تيدروث السرابي[1] كلها قد أثارت الدهشة على نطاق واسع، وأصبحت موضوعاً للنشرات والكتيبات المعاصرة. وفي سنة ١٨٤٧ أمكن وضع أندروجاكسون دايفيز صانع الأحذية تحت تأثير الإيحاء فكتب لنا كتاباً مدهشاً مليئاً بالمعارف تحت عنوان «مبادىء الطبيعة» أثار المشاعر، وفيه يتنبأ ديفيز بأن الحقيقة عن الأرواح سوف يأتي عصرها عما قريب في شكل استعراض حي، وسوف يمتلىء العالم بهجة بدخول ذلك العصر حينما تنفتح داخلية الانسان، وبعد أربع سنوات من ظهور الكتاب انتشر مذهب الروحانية في أنحاء أمريكا. وأخذ يزحف على أوروبا.

ومهما كان السبب فإن الأختين فوكس قد بدأتا هذه الانطلاقة لمذهب الروحانية، واكتشف الناس أن كل ما يتطلبه الأمر هو أن يجلسوا في حجرة مظلمة، ويفضل أن يكون هناك وسيط حاضر من الأشخاص الذين سبق لهم الاتصال بالأرواح، فتظهر الأرواح فوراً دون حاجة لأي جهاز سوى بعض الآلات الموسيقية. وفي منطقة روشستر وحدها ظهر أكثر من مائة وسيط عام ١٨٥٠ وفي بافالو بنيويورك حضر الاخوان دافينبورت واجهتهما جلسة كانت فيها الاختان فوكس ليعرضا لهم الأرواح، فقرروا أن يقوموا ثلاثتهم بالمحاولة، وفي الواقع حدثت أصوات وضجة كبيرة في منزلهم عام ١٨٤٦ أي قبل ظهور شبح هايدزفيل بسنتين، فحينما جلس الاخوة ايرا وويليام واليزابيث دافنبورت في حجرة مظلمة واضعين أيديهم على المائدة، بدأت المائدة تهتز. وسمعت أصوات إيقاعات في كل أنحاء الحجرة وحينها أمسك ايرا بالقلم في يده بدأ القلم يكتب تلقائياً. وبعد ذلك بليالٍ قليلة، وفي حضور شهود

(١) للرجوع إلى التفاصيل عن ذلك انظر كتابي Poltergiest الشبح المزعج (١٩٨١).

كثيرين رؤى الأطفال الثلاثة يرتفعون في الهواء. وفي جلستهم الخامسة تلقى ايرا بواسطة الايقاعات أمراً بأن يطلق طلقة من مسدسه نحو ركن الغرفة. وفي لحظة الانفجار أخذ المسدس من يده وشوهد شبح إنسان يحمله على ضوء بطارية واختفى بعد لحظة، وسقط المسدس على الأرض. وقدم الرجل نفسه عن طريق شيفرة الايقاعات على أنه جون كينج - كان أول مثال للمراقب (أو رئيس المراسيم) الذي يعمل كموصل بين الوسيط والأرواح. وحلت روح جون كينج في الأخوة دافينيورت واصبح يتكلم من خلال شفاههم، وأصبح الأخوة الثلاثة دافنيورت أشهر بكثير من الأختين فوكس.

وفي دوفز بولاية أوهايو اكتشف مزارع ثري يدعى جوناثان كونز أن له قدرات شخصية كوسيط، فكان يجلس في حجرة مظلمة ويذهب في غشية أو غيبوبة، وأخبرته الأرواح التي تكلمت من خلاله بأن أبناءه الثمانية جميعهم وسطاء موهوبون. وأمروه بأن يبني منزلاً خاصاً من الألواح الخشبية وطوله وعرضه ١٦ قدماً وعرضه ١٢ قدماً لاستخدامه فقط في الأنشطة الروحانية. ووضعت به العديد من الآلات الموسيقية من طبول ودفوف وأوكورديونات وبانجو وهارب وجيتار وغيرها. وكانت الإضاءة في تلك الحجرة خافتة تنبعث من شرائط الورق المبللة والملطخة بالفوسفور. وحينما يأخذ الوسطاء أماكنهم أمام المائدة الصغيرة، وكانوا في العادة كونز وابنه ناحوم البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً، يبدأ كونز في عزف الكمان، فتسارع الأرواح بالانضمام إلى العزف مما يعطي تأثير أوركسترا كاملاً. وتحدث المشاهدون عن استماعهم لجوقة إنشاد ثقيلة تنضم إلى الموسيقى أحياناً. كان الايقاع شديد التأثير يسمع على بعد أميال، وقد يسمع بعد ذلك صوت أغنية دينية باستخدام الترومبيت أو المزمار الناطق الذي تطفو أصواته وتنتشر في الهواء، وتتحرك يد روحانية تطوف كل أنحاء الغرفة تصافح الحاضرين وتلمسهم. وأتى الناس من كل الأنحاء لمشاهدة هذه الأعاجيب، وتركت الأرواح عند كل شخص رآها انطباعاً خاصاً لأنها كانت تخبر بمعلومات عن الغرباء الذين لا يعرفهم أحد من المتفرجين المحليين.

كانت القدرة على الإدلاء بمعلومات من كل الأنواع في حقيقة الأمر هي أكثر الأمور اقناعاً بالأرواح. ففي بوسطن قامت زوجة أحد رؤساء تحرير الصحف هي المسز هايدن W. R. Hayden بمفاجأة زوجة عالم الرياضيات الانجليزي أوغسطس

دي مورجان بأن أبلغتها رسائل من أصدقاء راحلين لم تكن مسز هايدن تعلم عنهم شيئاً من قبل، وكانت النتيجة أن مسز مورجان دعتها إلى انجلترا حيث عقدت لها جلسات اختبار في منزل المستر هايدن. ولئن كانت الصحف الانجليزية تناولت الموضوع بسخرية وتهكم شديد حيث كانت تلك الصحف تعتقد في أن هذه البدعة الأمريكية الجديدة تنبني على الغش والخداع (الذي كان من الصعب على البريطانيين ابتلاعه)، إلا أنها أقنعت كل من شاهدها بالفعل، وحينما شاهدها عدد كبير من أبناء الطبقة المتوسطة الذين كانوا يتسلون في لياليهم بمشاهدة تحرك المنضدة كجزء من قضاء أمسياتهم سروا لذلك حينما وجدوا فيها شيئاً من الحقيقة. «وكتب في ذلك الوقت واحد من الصحفيين يقول: «كنت تدعى في تلك الأيام إلى «الشاي والمنضدة المتحركة» كنوع من المفاجأة الجديدة، كنا نهتز مع العائلة، مع الاهتزازات المجنونة لقطع الأثاث المستديرة» حتى الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت أيضاً شهدا التجربة في أوسبرن وتحركت المائدة بصورة واضحة جداً حتى أن الملكة ساورها الشك بأن في الأمر خدعة، ووجدت أن الاجابة على هذا الشك لا بد تكمن في شكل من أشكال الكهربية أو المغناطيسية.

كان الفرنسيون أكثر استعداداً لتبني هذا النوع من التسلية، فقد ظلوا لمدى نصف قرن يعيشون في جدل مستمر حول مسمار الذي كان يدعو بأن الشفاء والاستشفاف وأمثالها من الأمور الغامضة ترجع إلى ما يسمى «المغناطيسية الحيوانية». وكانوا قد اعتادوا مثل تلك الظواهر الغريبة. وفي عام ١٨٥١ أصبح تحريك المائدة هو آخر المدهشات، وسرعان ما أحدثت الأرواح انقلاباً قوي التأثير. كان هناك رجل من رجال التعليم في الخمسين من عمره يدعى دينيزار هيبولايت ليون ريفيل اشتهر فيها بعد بإسم ألان كارديك Allan Kardec، وكان من تلاميذ المربي الشهير بستالوزي Pestalozzi. فتح ريفيل مدرسة خاصة وهو في الرابعة والعشرين من عمره، وألف كتباً مشهورة منها الحساب والقواعد اللغوية، والهجاء، وكيف تحسب في رأسك، والاصلاح التعليمي، وكان يقدم دراسات ناجحة في محاضرات مجانية عن الفلك والكيمياء والطبيعة والتشريح، ودرس أصول علم فراسة الدماغ والمغناطيسية الحيوانية.

حضر ريفيل في مايو سنة ١٨٥٥ جلسة تنويم مغناطيسي مع سيدة معينة هي

مدام روجر، حيث قام المنوم المغناطيسي فورتييه M. Fortier بوضعها في الغشية التنويمية، فاستطاعت أن تقرأ الأفكار وتقوم ببعض الأعمال الفذة. وهناك قابل ريفيل سيدة أخرى معينة هي مدام بلينميزون Mcme Plainmaison التي أخبرته بأن هناك ظواهر غريبة تحدث بصورة منتظمة حتى في منزلها بشارع جرانج باتيلييه، ووافق ريفيل أن يذهب إلى منزلها، ودهش حينما رأى الموائد لا تدور فقط بل تقفز وتجري في أنحاء الغرفة. وشعر ريفيل تلميذ مسمار بأن هذه الظواهر تتحدى قوى العقل التي كرس حياته لها، ومن ثم قرر أن يحاول الخوض إلى أعماقها وقابل عند مدام بلين ميسون رجلاً أخبره بأن هناك أختين تمارسان الكتابة التلقائية، يبدو أنهما اكتشفتا قوتهما بالصدفة في معرض تسلية الأصدقاء بعملية تدوير المائدة، وقال عنهما أحد المعلقين «إنهما كانتا ذات مزاج دنيوي ولعوبتين» ولكن ذلك لم يحول اتجاه ريفيل بعقليته الحادة، فأخذ يسأل المائدة أسئلة فلسفية، سأل عما إذا كان الانسان سيدرك يوماً البداية الأولى للكون؟ فأجابته «لا، فهناك أشياء لا يمكن للانسان أن يفهمها في هذا العالم»، وحينما سأل عما إذا كانت المادة موجودة دائماً، أجابت المائدة (باستهتار وضجر ظاهر) «الله وحده يعلم».

تبين ريفيل من ذلك أن الكيانات التي كان يتصل بها أرواح حقيقية وأنها ليست العقل الباطن لهاتين الفتاتين (رغم أن مفهوم العقل الباطن كان مقبولاً في تلك الأيام). وفي الحقيقة عرّف المتصلون به أنفسهم على أنهم «أرواح من الجان»، وقال إن بعضهم (وليس جميعهم) أرواح من كانوا يعيشون على الأرض.

وتحقق ريفيل مدهوشاً من أن هذه المادة تمتاز بالتملسك الداخلي المؤثر، وأن النمط بأكمله يكشف عن النظام الفلسفي الذي يجمع الكون كله. وقدم أصدقاء آخرون ممن كانوا يجمعون النصوص المكتوبة تلقائياً بما فيهم الكاتب المسرحي ساردو إلى ريفيل مادتهم الخاصة التي بلغت أكثر من خمسين كراسة. واقترح البعض على ريفيل أن يجمع تلك المادة في كتاب يسميه «كتاب الأرواح»، بل وإن الأرواح نفسها أعطت لريفيل اسمه المستعار الذي يصدر به الكتاب وهو ألان كارديك، وكان الاسمان طبقاً لما ذكرته الأرواح تسميات له عند حلول روحه في ولادات سابقة لشخصه. وحينما ظهر الكتاب عام ١٨٥٦ تحت عنوان «كتاب الأرواح» حقق من فوره شهرة واسعة، وسرعان ما أصبح هو الكتاب التقليدي للروحانية (أو الروحية كما كان يفضل كارداك تسميتها).

وتتلخص الـرسالـة التي يحملها كتـاب الأرواح ببسـاطـة في أن الانسـان كـائن رباعي التكوين، يتكـون من جسم وعنصر حيوي (الهـالة) والنفس الـذكية، والنفس الـروحية. وهـو نفس التقسيم الذي وجـدناه في كتـاب شهود بريغـورست، وكـذلك تقسيمات شتاينـر. والأرواح كائنـات ذكية هي التي تشكـل «سكان الكـون» والانسان عبـارة عن روح محبوسـة في جسد مـادي. وهناك ثـلاث طبقـات من الروح: «الـروح الـدنيا» وهي التي تنغمس في المادية و«روح الـدرجة الثـانيـة» التي ارتفعت طبيعتهـا المعنـوية إلى حـد يجعلها تـرغب في الخير، و«الـروح السـويـة» التي وصلت إلى قمـة تطورها.

وتتراوح الأرواح الدنيا بين أرواح شريرة يحكم نشاطها الحقد، والأرواح المؤذيـة التي تستمتع بممارسة الإيذاء وهي التي تسمى الأشباح المؤذية. وتقضي الروح في الموت بعض الوقت في عالم الـروح ثم تعود لتحـل في الأرض أو في أي عالم آخـر. والغرض من الحياة الأرضية هو أن تتمكن الروح من السمو، والروح إلى حـد ما قـادرة على أن تختـار نوع المحـاكمة التي تجـري لها في الحيـاة الأخـرى (وهـذا يعني أنـه لا داعي لأن نتحسر على نصيبنا ما دمنا قد اخترناه لأنفسنا).

اتفقت تعاليم كارديك في كل عناصرها مع معظم تعاليم الروحـانيين الآخـرين ابتـداء من سـويدنبـرج ما عـدا في عنصر واحـد هو عنصر التنـاسخ الـذي أصبـح من مـواضيع الجـدل العنيف في داخل الحـركة الـروحانيـة الفرنسيـة. وكـانت الكتب عن الأرواح قد أخذت تتوالى بالفعل بعد ظهور كتاب «كشف النقـاب عن أسرار مستقبل الحيـاة» الذي ألّفه ألفونس كـاهـاجنيت Alphonse Cahagnet ونشر عـام ١٨٤٨ (نشر الجزء الثاني والثالث منه فيما بعد). وكان كاهاجنيت يعمل صـانع كبـائن وقد استهـواه التنـويم المغناطيسي من أواسط العقـد الثـالث وقـام بـوضـع عـدة وسـطاء في الغشيـة التنويمية، ومن أشهرهم سيدة تدعى أديلي مـاجينو، وسجـل ما أخـبروه به عن الحيـاة بعد الموت. كانت السيدة اديـلي مشهورة بمـا نقلته من رسـائل الأمـوات، ومن بعض الأحياء الذين اختفوا أحياناً، وبذلك كانت مفعمة بأدلّة الإقناع. بدأ كاهاجنيت إصدار صحيفـة تسمى «المنوم المغنـاطيسي الروحـاني» تحولت فيـها بعـد إلى مجلة «الـروحـاني» ورأس تحريرها بيرار Z. Pierart، بيد أن كاهاجنيت الذي كان من أتباع سـويـدنبـرج لم يكن يؤمن بالتناسخ، وسرعان ما انقسمت الحركة الروحانية في فـرنسا نتيجـة حرب

الكلمات بين أتباع كاهاجنيت وأتباع كارديك، كان كارديك موضع انتقاد لأن وسطاءه مثل أدبلي كانوا يفتقرون إلى ما يقولونه عن التناسخ . ونظر كاهاجنيت وأتباعه إلى الكتابة التلقائية بشيء من الشك والازدراء. ولكن مات كارديك الذي كان مصاباً باضطراب في القلب عام ١٨٦٩ بعد ثلاثة عشر عاماً فقط من ظهور كتاب الأرواح، بينما عاش كاهاجنيت حتى عام ١٨٨٥ وازدهر بعد نشره كتباً أخرى كثيرة كان لها تأثيرها، ولذلك فإن صيغة كارديك الروحانية أخذت تتضاءل وتخبو أهميتها في الوقت الذي كانت الحركة تكسب قوة على قوة. ولم تتأصل جذور صيغة كارديك إلا في البرازيل حيث كان الأطباء السحرة يستدعون الأرواح كثيراً للاستعانة بهم في سحرهم، وهنالك ازدهرت الروحانية وأصبحت أحد المعتقدات الرئيسية في تلك البلاد.

ربما كان من المستحسن أن نقف عند هذه النقطة ونتساءل عن معنى ذلك . . فهناك شيء غريب عن الروحانية يسبب الاثارة وهناك شيء مسلم به أن بعض الناس مثل روزاليند هايوود تمتلك قوى شفافية غريبة وهناك من يبتلع التعاليم الروحية كما يفعل المدرس غير الملهم في مدارس الأحد. ألا يعني ذلك أن مبادىء سويدنبرج وكارديك غير مقبولة في حد ذاتها؟ بل إن فكرة تكوين الانسان من جسم حيوي وجسم نوراني وجسم ذاتي تبدو معقولة بدرجة كافية وقد يدركها البعض من خلال ملاحظة النفس كي يميز بين دوافع النفس الدنيا وبين الملاحظات الحرة التي يبديها الجزء الرفيع منا فينظر بأسى إلى معاناتنا وقهرنا؟ لكن حينما يخبرنا كارديك ، بأن الله هو الذي خلق الأرواح ثم عين لها مهمتها لتتجه نحو الكمال - حينما يخبرنا بذلك نرى أن فيه تجريداً يدعو إلى الضجر، فلماذا أخذ الرب على عاتقه أن يخلق الروح أوّلاً؟ ولماذا لم يخلقها على مستوى الكمال من أول الأمر؟ ليس من شك في أن مهمة الأرواح لا بد وأن تكون أفضل من مجرد الاتصال بالأقارب الأحياء من خلال الوسطاء وتوصيل رسالات مهدئة ومرضية عن متع الحياة الأخرة وتفاهة مشكلات الحياة الدنيا؟ إذا قارنا المستوحى من الروحانية بما يوحيه العلم والفلسفة أو صيغ الغوامض العظمى، فسوف نجد أنها مبتذلة إلى حدٍّ كبير.

يفسر لنا هذا السبب الذي جعل الروحانية تثير عداوة دائمة ضدها لدى العلماء والفلاسفة، لدرجة تفجر الضجر من العقيدة كالبركان. وكان رد العلماء عليها موجة متدافعة قوية من الشك أشبه ما تكون بتيّار من الماء البارد، وترتب على امتزاج اللاقا المندفعة

من البركان بالماء البارد تكوين سحابة كثيفة من البخار أدّت إلى غموض كل شيء. لم يقتصر الأمر على أن معظم العلماء رفضوا قبول الدلائل فحسب بل إنهم رفضوا أيضاً أن ينظروا فيها، وعبر هكسلي T.H. Huxley عن هذا الشعور العام بملاحظته التي قال فيها «ربما كان كل شيء صحيحاً بالنسبة لأي شيء مضاد له أعرفه، ولكن في الواقع لا أستطيع أن أوجُه أي اهتمام للموضوع».

لا يمكن الدفاع عن مثل هذا الرأي على أنه علمي، لأن أي إنسان لديه ساعة فراغ واحدة سيجد الدليل أمامه دامغاً، فهناك مئات، بل آلاف من أوصاف التواجد خارج الجسد، ومن الأشباح المزعجة وظهور الأصوات، والمنظورات السرفيقة للمستقبل. وعلى أي شخص معتدل أن يكون مستعداً لأن يصل من ذلك إلى نتيجة ما، لا أن يرفضها بتعليق يقول فيه «في الواقع لا أستطيع أن أوجه أي اهتمام للموضوع».

فهل يمكننا أن نصل إلى نتائج بشأن هذه الأمور دون أن نلتزم تجاه الحياة بعد الموت أو تواجد الأرواح؟ هذا ممكن. لنأخذ مثلاً سكنى الأرواح في طاحونة ويلنجتون؛ تظهر هنا نقطة هامة هي أن الرجل الميت يسير عبر الحجرة على ارتفاع بضعة أقدام من الأرض، على مستوى فتحة النافذة. هذا يوحي بأنه كان يسير على أرض هدمت، ونحن نعلم أن بيت الطاحونة كان مبنياً على نفس موقع بيت أقدم منه. ويبدو هنا كما لو أن نظرية أوليفر لودج عن الشرائط المسجلة تفسير لهذا الشبح بالذات. ونلاحظ أيضاً أن المنزل كان مقاماً في قاع الوادي بجوار المجرى مباشرة. ومن ثم كانت تغلب عليه الرطوبة، ويرى ليتبريدج T. C. Lethbridge أن الأشباح هي تسجيلات على المجال الكهربي للماء وهي ظاهرة توجد بكثرة في الأماكن الشديدة الرطوبة.

وقد نلاحظ أيضاً تعليق المؤرخ المحلي بأن الطاحونة - رغم أنها بنيت حوالي عام ١٨٠٠ - إلا أنه لم يسجل أي سكنى للأرواح فيها حتى بدأت أسرة المستر بروكتور التي تضم أطفالاً صغاراً تشهد تلك المضايقات. وفيما بعد خلال القرن التاسع عشر لاحظ مراقبو الشبح المزعج أن الأطفال عادة ما يكونوا حاضرين، وأن أحدهم كان دائماً موضع المضايقة، وربما نتذكر أن القس صامويل ويسلي لاحظ أن ابنته هيتي ترتعش في نومها قبل أن يبدأ جيفري العجوز في إحداث ضجته المعهودة. ونحن نعلم من فسيولوجيا انشطار المخ أن لكل منا شخصين في داخل رأسه. فهل يحتمل أن يكون

جيفري العجوز نوعاً من ظهور العقل الباطن أو سيطرة الشطر الأيمن من فخ هيتي ويسلي عليها؟

هذه النظرة المعقولة عن الظواهر النفسية ظهرت في الواقع فيما بعد خلال القرن التاسع عشر على يد المحرر الصحفي الذكي تومسون جلي هادسون في كتاب اسمه: «قانون الظاهرة النفسانية» (١٨٩٣). وكان هادسون مدهوشاً بالتنويم المغناطيسي، وبالقوى غير العادية التي تتولد أثناء التنويم، وأصبح مقتنعاً تماماً بأن لكل إنسان ذاتين اثنتين هما العقل الذاتي والعقل الموضوعي. أما العقل الموضوعي فهو الجزء الذي يتولى أمور المشاكل اليومية، وهو الشطر الأيسر من المخ، أما العقل الشخصي فهو متوجه إلى داخليتنا، ويتحكم في وجودنا الداخلي الذي يتجه إلى أعماقنا الداخلية. وعادة ما يتأثر العقل الذاتي ويخاف من العقل الموضوعي، ولذا نادراً ما يجرؤ على التعبير عن نفسه بسهولة، ولكن حينما يوضع العقل الموضوع موضع النوم بالتنويم المغناطيسي يستطيع العقل الذاتي أن يظهر قواه الخفية. وفي خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر كان هناك منوم مغناطيسي يدعى كارل هانسون، اعتاد أن يجوب أنحاء أمريكا، وكانت خدعته المفضلة هي أن يجعل الشخص جامداً يمكن وضعه على مقعدين متقابلين مثل اللوح الخشبي برأسه على أحدهما وقدميه على الآخر، ثم يقوم هانسون بوزنه الثقيل بالقفز فوق بطنه. وكما قال هانسون تعقد مثل هذه الأشياء من أدنى أو أقل قدرات العقل الذاتي (أو كما يقال الشطر الأيمن من المخ) فباستطاعة العقل الذاتي أن يفعل الأعاجيب، وفي الحقيقة أن معجزات المسيح قد تكون مجرد إظهار لعقله الذاتي. ويقول هانسون إن العقل الذاتي هو المسئول عن كل تلك الظواهر الغامضة مثل التخاطر والاستشفاف.

وجه هانسون اهتمامه فيما بعد إلى الروحانيات، التي تعتبر على حد اعترافاته «ظواهر لا يمكن انكارها، ولكنها لا تتأتى بواسطة أرواح الموتى، وأن ما يأتي بها هو أساساً الذكاء البشري إذ أنها لا ترتفع أو لا تنخفض عن المستوى العادي لذكاء البشرية». وهذا هو السبب في أن مذهب الروحانية كان شاذاً لدرجة تسبب الضجر وتخيب الأمال لأنها كما يقول نيتشه «إنسانية... غاية في الانسانية...» «فلقد رأينا بالفعل ما للعقل الذاتي من قوى ملموسة في مجالات معينة من النشاط الفكري، وعرفنا الحدود التي يحاط بها، ووجدنا أن الأعمال العقلية للوسطاء تتميز بكل الصفات التي تنتمي إلى العقل الذاتي... نفس القوى العجيبة ونفس الحدود».

إنها نظرية مقنعة، والأعجب من ذلك أنها تعتبر جديدة في نوعها خلال كل السنين التي مضت. منذ ظهور كتاب «قانون الظواهر النفسانية»، لم يظهر ما هو علمي معقول. ولكن هل نغطي بالفعل كل الحقائق؟ هناك حل وضعه هادسون لمسألة الأرواح هو «أن العقل الذاتي للوسيط الذي يحكمه الإلهام يعتقد في نفسه أنه روح لشخص من الموتى ويقترح اسمه»، بيد أن هذا الحل يفشل في تفسير حالات عديدة مثل الدرج السري الذي أخبر به سويدنبرج كما ذكرنا في الفصل الأول، حيث كان الوسيط هنا قادراً على الاتيان بمعلومات لا يعرفها إلا الشخص الميت. كما لا يفسر مثالاً آخر: كيف عرف السير الكسندر أوجستون (الذي جاء ذكره في الفصل الثاني) عن موت الجراح في قسم آخر من المستشفى مالم يكن عقله، بطريقة ما، قد ترك جسمه وتجول في أنحاء المستشفى؟ يمكن تفسير مثل هذه الحالات وكثير من أمثالها: بأنها نوع من التخاطر: فربما التقط عقل أوجستون نزعات سكرات موت الجراح، وربما اتصل سويدنبرج بعقل النجّار الذي صنع المكتب وفيه الدرج السرّي . . . ولكن هذه التفسيرات تصبح شديدة التعقيد، وتخالف المبدأ المعروف في الفلسفة باسم شيفرة أوكام (Occam's razor) التي تنص على أنه في محاولة حل أي مسألة فمن الأفضل البحث عن أبسط التفاسير وأكثرها اقتصاداً، وبعامة يبدو أنه من الأوفق قبول إمكانية وجود حياة بعد الموت، أو تحرر الروح من الجسد كفرضية يؤخذ بها.

والاعتراض الثاني على مذهب الروحانية، والذي يخفض من مكانة الروح بعض الشيء إلى المستوى المادي، فهو الذي عبر عنه دين انج Dean Inge في قوله: «في اللحظة التي يطلب منا أن نقبل الدليل العلمي على الحقيقة الروحية، لا تصبح الحقيقة الروحية المزعومة روحية ولا حقيقية، وإنما تنحدر إلى حدث في عالم الظواهر»[1]. والغريب بحق أن رودلف شتاينر يوافقه على ذلك ويعلق بقوله: «إن الروحانيين هم أعظم الماديين جميعاً». يبدو هذا محيراً في ضوء الحقيقة بأن شتاينر لم يقتصر على قبول فكرة الحياة بعد الموت فحسب بل إنه قبل أيضاً فكرة التناسخ.

لهذا النقاش أهميته، وهو يفسر شعور العداء العام الذي غالباً ما كان يثيره مذهب الروحانية. ومن بين مبادىء شتاينر الأساسية أن العالم الفائق الحساسية يظهر

---

(١) Outspoken Essays, Vol I, P. 269 as quoted by David Lorimer in Survival p. 160.

أمامنا بطريقة تشبه ما ندركه عن العالم المحسوس[1] ولذلك يقول عن سويدنبرج:

كان رجلاً اعتاد في الزمن الذي يتم فيه تخطيط العلم الطبيعي أن يعترف فقط بالمعقول المرئي والمحسوس. . . .

ونظراً لأنه أصر على الاعتراف بأن ما يستطيع أن يحسه ويدركه بحواسه هو فقط الحقيقة. . فقد انزل العالم الفائق الحساسية إلى مجال أدنى تحت تأثير اعتياده للعلم الطبيعي[2].

يقصد شتاينر من قوله هذا أنه شيء يستلفت أنظار معظم قراء الحكايات عن تجارب سكرات الموت. فبعضهم احسوا بأنهم يسيرون نحو مدينة سماوية، والبعض رأوا أنفسهم يسيرون في بساتين مزهرة، والبعض يتجهون نحو بوابة سماوية أو دوامة من النور. وبدا الأمر كما لو أن كل شخص أصبح يفسر التجربة على أساس المفاهيم المألوفة له. ويرى شتاينر أن المبصرين الذين لمحوا شيئاً من «عالم الحساسية الفائقة» من أمثال سويدنبرج قادرون على تفسيره طبقاً للعادات الثابتة في عقولهم. ويعطينا هذا تفسيراً للأسباب التي جعلت الايحاءات الروحانية تبدو في أغلب الأحيان مدعاة للسخرية.

ومن الغريب أن شتاينر قد حظي بموافقه كارديك الذي أخذ مادة كتبه من الكتابات التلقائية، وهذا يوضح أن ما كان يكرهه شتاينر بشدة من الروحانية هو العقلية المهنية ممثلة في أصوات المزامير والأكورديونات التي تنبعث خلال الجو، والموائد التي تتراقص وتدور في أرجاء الحجرة، والأرواح التي تكون هالة ضوء خارجية. ويمكننا مقارنة رأيه هذا برأي المسيحي المتأمل الذي يريد أن يشرح كيف أن السموات ليست مليئة بالملائكة الجالسين فوق السحاب يعزفون الموسيقى على المارب.

وفي نفس الوقت، لا بد من وجود عنصر حائر في هذا الرأي؛ فكثير من الوسطاء الذين بدأوا يقدمون الكتابة التلقائية أصبحوا فيما بعد «وسطاء ناطقين»، بل أصبح بعضهم «وسطاء ماديين». ومن الصعب وضع حد فاصل دقيق بينهم. فلم يكن شتاينر بالفعل ينتقد الروحانية بل ينتقد الروحانيين، ولو أدركنا ذلك تختفي كل المشاكل الرئيسية أو على الأقل ينكشف أمامنا أنها مجرد سوء فهم.

---

(١) «The History of Spritualism», Lecture delivèred in Berlin, 30 May, 1904.

(٢) المرجع السابق.

أدى سوء الفهم إلى الكثير من الخلط والمرارة في الأيام الأولى لظهور الروحانية، وكان من الصعب أن يتوقع باحثون من أمثال كاترين كرو وآلان كارديك سماع ما يتصف «خوارق العادات». فلقد شعر العلماء والمفكرون أن المطلوب منهم هو أن يبتعلوا ذلك المزيج الذي يتكون من تفاهات طفولية، وأشاروا بغضب شديد إلى كنائس أو معابد المذهب الروحاني التي أخذت تنتشر في كل أنحاء أمريكا، وتساءلوا عن الكيفية التي يمكن أن تجعل الإنسان جاداً في عقيدة أو مذهب يبدأ بفتاتين تافهتين. وتبين أن شكوكهم في محلها في أبريل عام ١٨٥١ حينما صرح أحد أقارب عائلة فوكس لجريدة نيويورك هيرالد بأنه عرف من كاتي ومرجريتا الطريقة التي كانا يحدثان بها أصوات الفرقعة بركبتيهما وأصابع أقدامهما. ربما كان ذلك صدقاً أو كذباً، ولكن الفتاتين وأمهما استهترن وأصبحن يقضين أوقاتاً طويلة في سفر متصل من مناطق الساحل الشرقي لتقديم العروض، فلقد نقلهم الحظ من المدينة الصغيرة المملة الواقعة في أعالي ولاية نيويورك إلى ما يشبه عالم النجومية. ولو كانت الأرواح غير متعاونة في بعض الأحيان فقد يكون من الغريب ألا يستخدمن قليلاً من الخداع. كان واضحاً أن الظاهرة الرئيسية وهي الدوي الذي يؤدي إلى اهتزاز المنزل لا يمكن أن يترتب على طقطقة الأصابع والركب، ولم تستطع أي من كاتي أو مرجريتا الإجابة على كل الأسئلة عن الناس الذين يتواجدون بالحجرة، وكانت الاتهامات بالخداع من المبررات لرفض النظرة المتعاطفة مع البرهان.

ولعل الشيء المحزن حقاً في كل ذلك هو أن سحابة الجدل العدواني قد غطت على الكثير من البحوث الجادة في خوارق العادات، ففي العقد الرابع من القرن التاسع عشر تمكن عالم ألماني يدعى بارون كارل فون رايشنباخ من إعادة اكتشاف ما سبق أن اعترف به مسمار عن إمكان تأثر الكائنات البشرية بالمغناطيسية فقد وجد رايشنباخ أن المرضى يكونون أكثر حساسية للمغناطيسية من الأصحاء، وبالحساسية المرضية يمكن رؤية الوان مختلفة تنبعث من عمود مغناطيسي: لون أحمر من القطب الجنوبي، ولون أزرق من القطب الشمالي، ويمكنهم أن يميزوا نفس الانبعاثات من الكريستالات. والأهم من ذلك أنهم استطاعوا رؤية الألوان تنبعث من أطراف أصابع الإنسان. وأطلق رايشنباخ على هذه الظاهرة اسم «أوديلي» أو القوة الإلهية. وأدى اكتشافه هذا إلى إثارة دهشة واسعة الانتشار حينما أعلنه لأول مرة عام ١٨٤٥. وكان ما اكتشفه رايشنباخ في حقيقة الأمر هو «مجال حياة» الإنسان وهو الموضوع الذي قام

بدراسته أيضاً كل من هارولد بير Harold Burr ونورثروب F.S.C. Northrop خلال ثلاثينات هذا القرن. بيد أن ظهور مذهب الروحانية جعل العلماء عام ١٨٥٠ يشككون في أي نوع من القوى غير المنظورة. وفجأة وجد رايشنباخ نفسه مشوه السمعة مثله مثل مسمار من قبل.

جذب اهتمام جوزيف رودس بيوكانان Joseph Rodes Bucnan أستاذ الطب في كنتاكي ما كان أحد القساوسة قد أخبره به من أنه يتذوق طعام النحاس حينما يلمسه حتى في الظلام، وأن النحاس له مذاق مر في الفم. فقام الدكتور بيوكانان باختبار تلاميذه مستخدماً مواد كيماوية مختلفة ملفوفة في ورق بني. فوجد أن الكثير منهم استطاعوا أن يميزوها باللمس. فاستنتج من ذلك أن لنا هالة عصبية تنساب من أطراف أصابعنا، وأن هذه الهالة العصبية تستطيع أن تتذوق الأشياء كما يتذوقها اللسان تماماً. ثم اكتشف أن أفضل أتباعه يستطيعون الإمساك بأي رسالة في أيديهم ويتحسسون منها طباع كاتبها، واستطاع بعضهم أن يصف كاتب الرسالة ببعض الدقة.

أصبح كل ذلك الآن متفقاً مع نظرية السير أوليفرلودج عن الشرائط المسجلة للأشباح، بمعنى أن المشاعر القوية تستطيع أن تطبع نفسها في المواضيع المحيطة بها. وأن بعض الأفراد الحساسين يستطيعون أن يتبينوا تلك التسجيلات. وكان اتباع بيوكانان بحق أشبه ما يكونون بكلاب استطلاع بشرية. وأطلق على هذه الظاهرة الفريدة اسم القياس والتكهن النفسي، وأدى كتابه الذي ألفه في الموضوع إلى إثارة الاهتمام الكبير عام ١٨٤٨، وأدى إلى أن أحد أساتذة الجيولوجيا ويدعى وليام دنتون أخذ يحاول إجراء تجارب على تلاميذه مستخدماً عينات جيولوجية، وكانت نتائج ذلك مدهشة[١]. إذ أن لمس قطع اللافا البركانية كان يؤدي إلى أن تتراءى الجبال المتفجرة، وأسنان الفيلة، ومشاهدة الغابات الحفرية وأعماق الفضاء. واعتقد دينتون أنه بذلك قد اكتشف منظاراً يتعمق به في الماضي، وهو قدرة غير معروفة يستطيع الإنسان من خلالها أن يسافر في الزمن الماضي. ولكن مع الأسف لم يلق كتاب دانتون «روح الأشياء» اهتماماً كبيراً مثله في ذلك مثل كتاب بيوكانان عن التكهن النفسي. لأن هذه

---

(١) لمزيد من المعلومات عن رايشنباخ بيوكانان أنظر كتابي: The Psyeic Detectives: The Story of Psycomtry.

الأشياء بدت وكأنها روحانيات، ولو تناولها أي عالم بشيء من الجدية فربما يدين نفسه بالسفه.

كان الروحانيون أنفسهم هم الملومين إلى حد ما، إذ أنهم كانوا ينخدعون بسهولة، ويميلون إلى تصديق أي تفاهات ويعتبرونها ضرباً من الرسائل الآتية من الخارج أو من الآخرة. وانتهز الكثير من الوسطاء الغشّاشين فرصة السذاجة وسرعة التصديق لترويج خدعهم المكشوفة. وكلما ضبط أحدهم متلبساً بالغش كان العلماء يهزون رؤوسهم ويعقدون المقارنات بين هذه التصرفات وبين ظاهرة السحر التي شاعت في العصور الوسطى، حتى أن بعض هؤلاء العلماء كانوا يستنكفون أن ينطقوا بعبارة «سبق أن قلنا ذلك». أما الوسطاء الصادقون مثل الأخوة ديغنبورت فقد أساءوا إلى أنفسهم أيضاً بالظهور في دور العرض. وبممارسة خدعة توقيف الشعر التي ربما أكسبت هوديني شهرته، إذ سمحوا لأنفسهم بأن يربطوا بحبال موثقة على أجسامهم بشدة ثم يخطون خارجها بعد فترة متخلصين من هذا الوثاق. ولقد جلس أحد أعضاء لجان التحقيق وهو البروفسور بنجامين بيرس B. Pierce وسطهم في الكابينه، وبمجرد أن أغلقت أبوابها دخلت بسرعة يد، فتصلب الأخوان كالمومياء، وأحس الأستاذ بتلك اليد تلمسه قبل أن تمتد لتفك وثاق الأخوين. واعترف البروفسور لوميس Loomes الأستاذ بكلية الطب في جورجتاون بأن العروض كانت تقدم عن طريق قوة غير عادية، ولكن هذا النوع من الشهادة لا يعني شيئاً إذا قورن بظهور الاخوان في كل عروض التنويم المغناطيسي وعروض الأكروبات.

يقدّم لنا ذلك كله تفسيراً عن السبب في تحقيق القليل من الأشياء في كل الأوقات. على أن أشهر وسطاء القرن التاسع عشر، وربما أشهرهم على مدى العصور هو دانييل دونجلاس هوم Daniel Donglas Home. احتفظ هوم بقواه مدى ربع قرن تقريباً، فيما عدا سنة واحدة قرّرت خلالها الأرواح - كما سنعرف بعد - أن تعاقبه، فكان يمارس أعمالاً مدهشة في وضح النهار، فيجعل قطع أثاث ثقيلة ترتفع إلى السقف، ويطير هو خارجاً من أحد النوافذ ليعود فيدخل من نافذة أخرى، ويلون وجهه بلون الجمر المتوهج، وكان باستطاعته أن يطيل قامته بضعة بوصات وفقاً لإرادته. اختبر عشرات المرات بمعرفة لجان من المتشككين، ولم يمكنهم ضبطه متلبساً بأي شيء مما يشبه الخداع. ومع ذلك فإن الأجيال التالية اعتبرته هو الرجل الذي وصفه ديكنز بعبارته

المشهورة «ذلك المتسول المدعو هوم»، وكتب عنه الشاعر روبرت براون قصيدة هجاء بذيئة عنوانها «المستر سلوج الوسيط» أي الوسيط الملوث.

ومن الجلسات المتميزة التي عقدها هوم جلسة وصفها كاتب سيرته جان برتون وصفاً رائعاً. عقدت تلك الجلسة في إحدى ليالي يناير سنة ١٨٦٣ في منزل مدام جوفين داتنفيل الفاخر. وكان من بين ضيوفها الأميرة ميترنيخ وزوجها السفير النمساوي. وبلغ عدد الضيوف خمسة عشر شخصاً فقط. جلس هوم في مقعد كبير على بعد ثلاثة أو أربعة ياردات منهم، وحينما استعد الجميع أسند ظهره إلى المقعد، وزاد شحوب لونه ودخل في غشية تنويمية خفيفة وسأل دليله الروحي يريان: «يريان» هل أنت هنا؟» فسمعت دقات حادة من تحت المائدة، وبدأت الشمعدانات تتراقص، وتحرّكت إحدى الكراسي من مكانها عبر الحجرة وتوقّفت أمام الحاضرين. في تلك اللحظة صاحت الأميرة ميترنيخ حينما أحست بيد قوية غير مرئية تمسك بيدها، وشعر الآخرون أيضاً بأيدي تلمسهم لمساً خفيفاً (كان ذلك كله في حجرة تتلألأ فيها أضواء الشموع). ثم ارتفع غطاء المائدة المزركش وبدا كأن شيئاً يتحرك من تحته مثل يد حيوان صغير، وأخذ الغطاء يتحرّك نحوهم. كان هذا كثيراً جداً في نظر الرجال الذين كان أغلبهم من المتشككين، فقفز السفير ميترنيخ تحت المفرش وحاول الإمساك بالحيوان، وجذب أحد الرجال المفرش ولكنه لم يجد شيئاً، بينما سارع الآخرون واتجهوا إلى تحت المائدة ليكتشفوا مصدر الدقات، ولم يعثروا أيضاً على أي شيء. وحينما ندفعوا متكالبين في المرة الثانية سمعوا دقات عاصفة كما لو كانت قهقهات تسخر منهم. واقتنع الأمير ميترنيخ بأن الأصوات تأتي من تحت المائدة، حيث ظلت الأصوات تسمع، فصاح بسخط شديد قائلاً «أرجوكم لا داعي للحرج» ولكن الجميع أكدوا أنهم لم يصدروا أي أصوات.

أشار هوم، وهو بادي الغشية، إلى باقة من زهور البنفسج موضوعة فوق البيانو وطلب حضورها إليهم. فتحركت الباقة من فوق البيانو وطافت مهتزة واستقرت على حجر الأميرة، ومال الأمير إلى الأمام وتقدم بنفسه فأمسك بها ثم أخذ يبحث عن الخيط الذي ربما كان مربوطاً بها فلم يجد شيئاً.

ثم طلب هوم بعد ذلك بصوت خافت حضور الأوكورديون الذي كان شائعاً آنذاك. ولما حضر الأوكورديون طلب من الأميرة أن تقف وحدها وسط الحجرة وتمسك

بالجهاز معلّقاً فوق رأسها. وحينما وقفت ويداها في الهواء ممتدتان فوق رأسها ممسكتان بالأوكورديون ظهرت على وجهها ملامح الدهشة، كان هناك شد للأوكورديون، وبدأ العزف والأوكورديون يتحرك إلى الداخل والخارج. ومما أعجب الجميع أن ذلك كان من العروض الجميلة وكان العزف بلحن حزين اغرورقت له عيون الحاضرين بالدموع. وبعد ذلك ارتد كل شيء إلى حالته الطبيعية وانتهت بذلك الجلسة. ولكن بدأ الرجال يفكرون فعلاً في كيفية حدوث كل ذلك، ولم يشك أي منهم في وجود خدعة تحضير الأرواح. وتحدث بعضهم عن الكهرباء البيولوجية أو الحيوية والتنويم المغناطيسي الجماعي. واعترفت الأميرة بأنها لم تشعر بأي نوع من التنويم.

ولد دانييل دونجلاس هوم قرب أدنبره في مارس ١٨٣٣. كانت أمه من سكان الجبال وتشتهر بأنها عرافة. ربما كان ابناً غير شرعي، وهو يزعم أن أباه هو اللورد هوم. وحينما بلغ التاسعة من عمره انتقل إلى أمريكا مع خالته ماري كوك وزوجها، وكانت والدته ووالده واخوانه الست هناك بالفعل. عانى فترة من مرض السل، وكان يتعرض لنوبات إغماء متعددة نتيجة الحساسية المرضية. وكان أقرب أصدقائه له صبي يدعى ادوين، اعتاد أن يذهب معه في جولات على الأقدام إلى غابات كونكتيكت، وعقدا اتفاقاً صبيانياً أن الذي يموت منهما قبل الآخر لا بد أن يظهر للآخر. وفي عام ١٨٤٦ وهو في الثالثة عشرة من عمره أخبر خالته وزوجها أنه رأى من فوره ادوين يقف إلى جوار فراشه وأن هذا الخيال رسم في الهواء ثلاث دوائر بيده، وقد أدى ذلك إلى اعتقاد دانييل بأن صديقه ادوين مات منذ ثلاثة أيام، وثبت صحة ذلك بالفعل.

لم تمر به أي تجربة من خوارق العادات مدى السنوات الأربع التالية، ثم رأى هوم أمه، فعلم أنها ماتت. وبعد ذلك بقليل كان يهرش شعره فرأى في زجاج النافذة مقعداً يتحرك عبر الحجرة متجهاً إليه. فأصابه الرعب وجرى إلى خارج المنزل. وبينما هو في فراشه يوماً أيقظته ثلاث دقات على لوحة الفراش الأمامية، وفي اليوم التالي أثناء الإفطار، وحينما كانت خالته تلومه على أنه يتعب نفسه بحضور الكثير من الصلوات (كان هوم صبياً متديناً) سمعت أصوات دقات تأتي من جميع جوانب المائدة. فأحست بالتهديد وصاحت قائلة: «هكذا أحضرت الشيطان إلى بيتي.. اليس كذلك؟» وألقت عليه بأحد المقاعد، ودعت كبير القساوسة ليطرد الشيطان، ولكن صعب عليه أن يفرض نفسه وأخذ يستمع إلى الدقات المتوالية. لم تكن خالته

تعرف أن ظاهرة الشبح المزعج تكون عادة غير مؤذية فطلبت إليه أن يغادر المنزل، وبهذا أصبح هوم مستقلاً بنفسه من سن السابعة عشرة.

بيد أن هوم كان شخصاً رقيقاً مرحاً لدرجة جعلت العشرات من معارفه يسعدون لاستقباله وإكرامه. منحته الأرواح كل المعونة فكان يروح في الغشية بسهولة، وحينئذ يتكلم الفرنسية والإيطالية دون أن يحصل على أي كفاءة من أي منهما، ولم يكن هناك وقت يختاره لإظهار نفسه أفضل من الوقت الذي كان كل فرد في الولايات المتحدة يتكلم عن الأرواح. والتقى بأحد الإنجيليين واسمه دكتور جورج بوش كان يعمل استاذاً للغات الشرقية فشجعه على أن يكون سويدنبرج آخر، وأن يستخدم قدرته الوعظية في منبر الكنيسة، فوافق هوم، ثم عاد بعد يومين ليقول إن أمه الراحلة منعته بشدة من أن يفعل ذلك وأخبرته بأن عليه رسالة أكثر اتساعاً وشمولاً.

كانت الأرواح ترعاه، وكان شغوفاً بالمعرفة فاستطاع أن يتجول في كل أنحاء نيوانجلند، حيث كان يلقى الترحيب دائماً في بيوت الأثرياء من أبناء الطبقة المتوسطة، وكان شحوب ملامحه وجمالها يستدر عليه الحماية من جانب متوسطات السن من السيدات. وفي مدينة سبرنجفيلد في ولاية ماساسوشتس نزل في منزل أحد المواطنين الأثرياء ويسمى روفوش ألمر. ووافق هوم على أن يقوم ألمر بالتحقيق معه بمشاركة ممثلين من جامعة هارفادر من بينهم الشاعر وليام بولين بريانت. ولم يكن أعضاء اللجنة كغيرهم من اللجان يتشككون في أصالة الظواهر، إذ لم يقتصر الأمر على أن المائدة تهتز وتعلو فوق الأرض، بل كانت أيضاً تقف على رجلين فقط مثل حصان السيرك بينما يجلس عليها ثلاثة من أعضاء الوفد في محاولة لإعادتها إلى وضعها. وكانت الأرض تهتز وتبلغ درجة الصدمات التي تشبه انطلاقات المدفع. كان كل ذلك يقع في وضح النهار. وأمسك أعضاء البعثة بيدي وقدمي هوم أثناء وقوع تلك الظواهر، وذكروا في تقريرهم الذي أسموه الأعجوبة الجديدة: «نحن نعلم تماماً أننا لم نكن نتعرض لأي إرغام أو خداع». وكأن إعجاب روفوس ألمر بهوم شديداً حتى أنه عرض أن يتبناه ويجعله وريثاً له، فاعتذر هوم مع الشكر.

وفي أغسطس سنة ١٨٥٢ كان هوم جالساً في حلقة، فارتفع في الهواء حتى السقف، وهو عمل فذ اختص به. واستمرت أعماله الفذة الأخرى تحظى بالإعجاب.

فأجهزة البيانو الضخمة تطفو في الهواء وتسير عبر الحجرة، وقد تدق الأجراس وتتصادم الصنج، وربما تظهر أصوات طيور مغردة وصياح حيوانات متنوعة. وفي يوم من الأيام مالت منضدة المائدة وعليها شمعدان مال أيضاً وشعلات الشموع ظلت ممتدة في الهواء بنفس الرؤية. كما لو كانت موضوعة في وضع أفقي. وفي مناسبة أخرى بمنزل القس بريتان Rev. S.B. Brittan دخل هوم في غشية وإذا بصوت يعلن: «هانا بريتان هنا» ثم بدأ يشد على يد بالسلام، وظل طوال النصف ساعة التالية يتكلم عن الطريقة الفظيعة لعذاب الجحيم. كانت تلك مفاجأة شديدة للقس بريتان لأنه كان واثقاً أن تلك السيدة وهي قريبته كانت مصابة بهوس ديني، وماتت مجنونة، وقد استحوذت عليها رؤى عذاب الآخرة (في ظهورها مرة أخرى أخبرتهم هانابريتان بأن حياتها الحالية هادئة آمنة وجميلة، وأن عذاب جهنم كان وهماً من عقلها المختل).

لقي هيوم شغف النساء لجاذبيته ونظراته الحالمة. وكان يحب أن يتلقى منهن الزهور في المناسبات، أما الرجال فبعضهم أحبه وبعضهم احتقره. وكانت له سلوكيات أشبه بسلوكيات النساء، وشك الكثيرون في أنه من المصابين بالشذوذ الجنسي (المدهش أن عدداً كبيراً من الوسطاء هكذا) وكان بلا شك مزهوّاً ببشرته الشاحبة الجميلة وشعره الحريري المحمر، وكان يهوى الملابس الغالية الثمن، وامتاز بسرعة الغضب، ويمتعه صعوبة وصول الناس إليه (كان يتنازل ويتعرف بالناس إذا ما قدمهم له معارف من مستواهم الرفيع)، وكان يغضبه بشدة أن يقدم له أي أحد نقوداً، ويرفض أن يعامله الناس كمقدم عروض. فقد كان يعتبر نفسه نداً اجتماعياً لأي شخص يلقاه بما في ذلك الملوك. ولكنه كان يظهر تواضعاً بالنسبة لإنجازاته، ويصر على أن ليس له أي دور في تلك الظواهر، وأن كل ما يفعله هو أنه يسترخي ويسلم نفسه للحالة الصحيحة (وربما كانت كلمته الصحيحة هنا كلمة مناسبة للوضع) وحينئذ تحدث الأشياء ببساطة.

وفي عام ١٨٥٥ اشتدت إصابته بالسعال لحد الخطورة، وقرر أن ينتقل إلى مكان ذي مناخ صحي، ولسبب لم يذكره اختار انجلترا. ودفع له المعجبون ثمن تذكرة السفر، وودعوه ملوحين له بأيديهم وهو يبحر من ميناء بوسطن في مارس وكان قد بلغ لتوه الثانية والعشرين من عمره.

وكالعادة، كانت الأرواح ترعى هوم، فنزل بلندن في فندق كوكس بشارع

جيرمين، وكـان صاحب الفنـدق نفسه المسـتر وليام كـوكس ممن يعتنقون الـروحانيـة، فرحب به ترحيب الأب بابنه، وهكذا وجـد هوم مسكنـاً مجانيـاً، وفرصـة لتقديمـه إلى وجهاء لندن الذين يترددون بانتظام على ذلك الفندق. ولم يمض وقت طويل حتى تلقى دعوات من زوجات البـارونات والمـارشيونـات، وذهب لزيـارة الكاتب الـروائي لورد ليتون الذي استخدم الكثير من تلك الظواهر التي تشاهد أثناء جلسات هـوم في بعض كتاباته، مثل الشكل المضيء الذي يتحـول إلى كرة، واليـد الخفية، والـدقات العـالية والومضات النارية وبخاصة في روايتـه المشهورة «العفـريت والصيادون». ولكن ليتـون أنكر أنه يؤمن بأن الأرواح مسئولـة عن ذلك بـل كان يعتقـد أن تلك الظواهـر كانت نتيجة لفعل العقل الباطن عند هوم. وأصبح هوم صديقاً لعالم الاجتماع روبـرت أوين الذي اعتنق الروحانية، وقدمه لصديقه القـديم اللورد هنري بـراوهام الـذي كان من المتشككين على طريقة ڤولتير. وعقد اللورد براوهام والسير دافيد برويستر جلسة خاصة مع هوم حدث أثناءها صعود مائدة إلى الهواء، ومر جرس يدق عـبر الحجرة، ووصف برويستر هذه الأشياء في يومياته، وأخبر بها أصدقاءه، ولكن اعترف فيما بعد أن المائدة كانت تبدو فقط مرتفعة، وأن هوم ربمـا كان يحـرك الجرس بـواسطة جهـاز خفي، وكانت في هذا التناقض دعاية واسعة لهوم، زودت المعتقـدين في الروحـانية بسـلاح يستخدمـونه ضد إصرار العلماء حيث كانت مذكرات برويستر تؤيد هوم.

كتب براونج قصيدته الهجائية الدامغة «المستر سلوج الوسيط» وربمـا كان متـأثراً فيها بما حدث في جلسة أخرى من جلسات هوم حينما انتقلت باقة الـزهور واستقـرت على فخذي زوجة الشاعر، وكان برونج غيوراً على زوجته. وقام هوم بأعمال أسوأ من ذلك حينما أخبر هوم النـاس بأن المسـتر براونـج حينما حـاول أن يقف موقف المهـاجم الغاضب ظهر ذلك مضيئاً على حاجبيه.

وبناء على المطلب الشعبي للمجتمع الانجليـزي انتقل هـوم إلى فلورنس حيث كانت عروضه أقوى مما سبق، وهناك تحرك جهاز بيانو وطاف في الهـواء وظل هكـذا معلقاً في الهواء والكونتيسة تعزف عليه. وتحدثت روح من الأرواح مع كونتيسة بولندية بلغتها، وفي أحد الأديـرة المسكونـة تخاطب هـوم مع روح القديس الذي كان قـد قتل وجعله يظهر يـده الهزيلة المصفـرة. وحينما جـاء الكاتب الـروائي ناتـانييل هـوثـورن Nathaniel Howthorn إلى فلورنس بعـد ذلك بثـلاث سنوات وجـد الناس مـا زالوا

يتكلمون عن هوم، وجمع هورشون عشرات من الحكايات الموثوق بها عن الظواهر وذكر ملاحظته الهامة الواضحة:

كانت هذه الأعاجيب الحقيقية كثيرة لدرجة أنني نسيت تسعة أعشارها، وثبت تماماً أنها حقائق واقعة بالبرهان الذي يرضينا ويجعلنا نقبل الزعم بأنها حقيقية، ومع ذلك فلا أستطيع أن أرغم عقلي على أن يوليها اهتماماً.

ربما كان ذلك أهم التعليقات عن هوم أو عن الروحانية بصفة عامة.

ولسوء الحظ بدأ نجاح هوم يملأ رأسه، إذ لم يكن ذا شخصية قوية، وكونه يتلقى معاملة الآلهة على أنه مراسلة كان كافياً لإخلال توازنه كشخصية ذات طبيعة استقلالية، فحينما ذهب ليقيم في ڤيلا امرأة انجليزية منحرفة ومنفصلة عن زوجها بدأ المعجبون السابقون بها يفضحون الأمر، وأدّى ضبط النفس الإنجليزي المعهود إلى فتنة مرضية تتعلق بالفضائح الجنسية، وهنالك بدأ يشعر بجو عدواني، فهوجم وهو في طريقه عائد إلى الفندق، وأصيب بجروح طفيفة، فكان ذلك دليلاً على أن الأرواح أصبحت متكاسلة عنه. وفي ١٠ فبراير سنة ١٨٥٦ أخبرته الأرواح بأن سلوكه الحالي لا يلقى الاحترام في العالم الآخر. وأن قواه الخاصة على وشك أن ترحل عنه لمدة عام كامل. ولما دعاه كونت بولندي للحضور إلى نابولي وروما شعر بأنه مضطر للاعتراف له بأن قواه قد هجرته، ولكن الحظ كان معه، فأصر الكونت على أن الأمر سواء عنده، وصحبه هوم إلى نابولي، ورغم فقدانه لقواه فقد ظل هو الأسد الاجتماعي وعادت له قواه ثانية كما تنبأت الأرواح بعد سنة تماماً، وفاجأته في منتصف الليل.

كان آنذاك في باريس وكان عليه أن يحذر، ويؤمّن نفسه ضدّ معارضة الكنيسة وذلك بأن أصبح كاثوليكياً. ولم يكن الأب الذي تلقى اعترافه بتكليف من البابا غير متحمس تماماً لعودة الأرواح التي زعم بأنها أرواح شيطانية، ولكن لم يمكنه عمل شيء كثير بشأنها. كما لم يكن هوم يرغب فيها لأنه كان آنذاك أحد المحظيين عند الامبراطور نابليون الثالث والامبراطورة يوجين، وأدى حظه هذا إلى إثارة الكثير من الغيرة والعداوات ضده، ولكن بعد ذلك العام الذي هجرته فيه الأرواح لم يسمح لها بأن تملأ رأسه.

وبعد جولة في شمال أوروبا عاد هوم إلى روما حيث قابل كونتيسه روسية جميلة في السابعة عشرة من عمرها اسمها ساشا، ورافقها إلى سانت بيترزبرج (بصحبة الروائي

داماس) وأقام لها أهلها حفل عرس مشهوراً وقابلته الأسرة الحاكمة الروسية بمثل ما قابله به نابليون الثالث من حفاوة ولكن لسوء الحظ أصيبت ساشا بمرض السل وماتت بعد ولادة ابنه، ولم يكن موتها انفصالاً كاملاً بل كان هوم قادراً على متابعة الاتصال بروحها.

يبدو أن الحظ قد تركه مرة أخرى عام ١٨٦٢ إذ أمرته الشرطة بمغادرة روما وأعلنت أنه ساحر (فقد أساءت الأرواح بأن كانت تدق على مكتب رئيس الشرطة). واستمر الأربعة الأعوام التالية هائماً على وجهه حتى قابل في عام ١٨٦٦ امرأة عجوزاً قبيحة بشعة تتكلم بلهجة الطبقة العاملة هي مسز جان ليون، أخبرته أنها تريد أن تتبناه، وتتخذه ولدها، وزودته بعدد من الشيكات. وغير هوم اسمه إلى هوم ليون. ولكن لم يقم بينهما تآلف فسرعان ما بدأت العلاقة بينهما تسوء، وشعر بأنها شديدة الانفعالية مملة، كما شعرت هي بأنه إنسان بارد. وأصيب بانهيار ولجأ إلى أماكن كثيرة التماساً للشفاء من أزمته. وحينما عاد إلى لندن تبين أن مسز ليون نقلت ولاءها إلى سيدة وسيطة أخرى، وكانت تحاول استرداد أموالها، وتريد استرجاع ثلاثين ألف جنيه منه، وهي التي تمثل فقط نحو نصف ما أعطته له. واتهمته بالابتزاز، وقبض على هوم. وفي محاكمته التي تمت في أبريل ١٨٦٨ ادعت أنها أعطته النقود لأنه أتى لها بتعليمات من روح زوجها الميت تأمرها بذلك. وكان دفاع هوم عن نفسه هو أنها حاولت بشدة أن تغريه بنفسها بعد أن أصبح ابنها. كانت مسز ليون بلا شك ـ كما أعلن هوم، مدعية وكاذبة، وانكشفت الكثير من أكاذيبها أمام المحكمة. ولئن كانت الأرواح قد بذلت جهداً لكي تكون المحاكمة غير متحيزة إلا أن القاضي أعلن أن السماح بإعادة أي نقود تعطى لغرض ديني فإن في ذلك اختلالاً واضحاً، ومع ذلك فإني مضطر لأن الروحانية كانت غشاً وخداعاً وفي هذه الحالة فقط يصدر حكم استثنائي. وصدر الحكم بأن يعيد هوم النقود. أدت هذه المحاكمة إلى تدمير هوم تدميراً بالغاً، كما أدت إلى تقوية الانطباع الذي تركته قصيدة الهواء التي كتبها الشاعر براوننج بعنوان مستر سلوج (أي الملوث) وبأن هوم مدلس وأفاك كبير، ولكن كان لهذه السمعة السيئة التي لحقت به فائدة واحدة، فإن جولته التي قام بها في أنحاء إنجلترا اجتذبت الكثير من المشاهدين مما ساعده على استرجاع خسائره.

وفي أثناء استشفائه في مالفيرن قابله ارستقراطي شاب يدعى لورد أداري Lord Adare، فقضى السنتين التاليتين بصحبته، ثم نشر أداري عام ١٨٧٠ كتاباً بعنوان

تجارب في الروحانية مع مستر د. د. هوم، ربما كان واحداً من أفضل الكتب التي نشرت عن الوساطة أثراً، فقد كان أداري انجليزياً عادياً يوجه كل اهتماماته لصيد البر وصيد الأسماك أكثر من اهتمامه بالأشباح، وكان اداري هو الذي رأى هوم يطفو خارجاً من أحد النوافذ في شقة عالية ليدخل من نافذة أخرى، ورآه أيضاً يجسم الأرواح بما فيها روح ساشا والممثلة الأميريكية آدامينيكين، وغير ذلك من الظواهر التي كان يقدمها هوم خلال العشرين سنة السابقة. ورأى هوم وهو يذكي النار في الفحم ثم يلتقط الجمرات ويمسح بها وجهه دون أن يحترق وجهه أو شعره، وشاهد أيضاً هوم واقفاً بجوار الحائط وقاس طوله (خمس أقدام وعشر بوصات) وبعدها أطال هوم قامته إلى ست أقدام وأربع بوصات.

وفي عام ١٨٧١ وافق هوم على أن يجري معه عالم شاب يدعى وليام كروكس (فيما بعد السير والیام) تحقيقاً. حينئذ علت الابتسامة وجوه أعداء الروحانية لأنهم لم يشكّوا في أن كروكس سوف ينتهي إلى هدم كل الادعاءات الشائعة، ولكن على العكس اقتنع كروكس تماماً أثناء التحقيق ونشر تقريراً بذلك. غير أن اشمئزاز زملائه العلماء من هذا التقرير جعلهم يقررون أنه كان فريسة الخداع. وفي المظاهرة التي حدثت بعد ذلك انطلق مستر كروكس بشجاعة قائلاً: «لم أقل إنه ممكن بل قلت إنه حقيقي».

وفي السنة التالية في عام ١٨٧٢ قرر هوم أن يتقاعد، وكانت قضية ميراث مزرعة زوجته قد حسمت لصالحه وأصبح مالكاً لأرض روسية، وعاش بعد ذلك أربعة عشر عاماً حتى الثالثة والخمسين من عمره متنقلاً بين روسيا والرفييرا الفرنسية مضيعاً وقته، ولكن مع زوجة جميلة أخرى ودخل وفير وأصدقاء من المعجبين يستضيفونه، ولا يمكن القول إنه عاش تعيساً في آخر عمره.

جاء في المقال المكتوب بالموسوعة البريطانية عن هوم بأنه «اللغز الذي لم يتم حله» وهي حقيقة لكنها ليست كما قصدها الكاتب، فمن ناحية هوم كان هناك لغز بالفعل، إذ أنه ورث قوى نفسانية غير عادية عن أمه (ونقل هذه الصفة أيضاً إلى ابنه جريشا) وهكذا استطاعت الأرواح أن تعمل من خلاله.

وكما رأينا لم ينجح في إقناع بعض من شاهدوا أعماله الفذّة، فقد ظنّ اللورد ليتون أن هوم هو الذي يسبب الظواهر بنفسه بطريقة ما. وربما يوافق معظم الباحثين المحدثين على قبول نظرية الروح، ولكن هناك شيء واحد يظل واضحاً لكل

من يقرأ تلك الحكايات عن ظواهر هوم كما سجلها لورد اداري والسير وليام كوكس وهي أن الأرواح ليست فقط التفسير البسيط، ولكنها في كثير من الحالات هي التفسير الوحيد. ويمكن أن نفسر نسبة كبيرة من الظواهر فقط إذا ما زعمنا وجود ذكاء غير منظور، وهنا فلا بد أن نعترف بأن معظم الباحثين في خوارق العادات سوف يصلون في يوم من الأيام قريب أو بعيد إلى نتيجة نهائية بأن الأرواح موجودة بالتأكيد. إنهم يفعلون ذلك بتردد كبير، وقد يكون من الأنسب أو الأكثر تمشياً مع المنطق لو أننا استطعنا أن نفسر كل الظواهر في ضوء وجود قوى غير معروفة في عقل الإنسان. ولعل الأمانة تقتضينا التسليم بأن ذلك غير ممكن، وأن تلك القوى لا توجد إلا في حالة دانييل دونجلاس هوم.

٤
البحث النفساني يبلغ الرشد

إذا ألقينا نظرة على التاريخ الماضي للروحانية فسيظهر لنا بلا شك أن الأرواح بذلت جهداً فائقاً متفقاً عليه لإقناع الفيكتوريين بأنها حقيقة. وإذا كان هذا هو الوضع فبالتالي سيتضح أن الأرواح قد أخطأت أيضاً في حساباتها، ذلك أن قادة الرأي العام في العصر الفيكتوري من السياسيين والمفكرين ورجال الكنيسة ظلوا غير مكترثين بها، كما أن معظم العلماء كانوا على عداء شديد لها. وفي العقد التالي لوقوع «الدقات في هوزفيل» حاولوا بإصرار هدم فكرة الروحانية بالسخرية منها.

وكان من الصعب توجيه اللوم إليهم، فلو أنهم اتبعوا مسلكاً آخر لما وصفوا بأنهم فيكتوريون، فإن أفضل مميزاتهم الممثلة في شعورهم بالقلق على المستقبل وعلى التقدم العلمي والتقني الهائل، وإمكانية إدخال إصلاحات اجتماعية، جعلتهم يدبرون ظهورهم لخوارق العادات. وكان هكسلي T.H. Huxly يعبر عن هذه الروح بعاصفة من السخط البالغ كلما حاول أحد أن يستدرجه لحضور جلسة من تلك الجلسات فيقول: «إذا حاول أي شخص أن يمنحني موهبة الاستماع إلى ثرثرة العجائز، ورعاة الأبروشيات فقد يجدونها مدهشة على غير ما يتوقعون. وحينما بدأ ألفريد راسل والاس عمله كمدرِّس كان متشكِّكاً ومن أتباع فولتير، ولكن حينما ذهب ليستمع إلى محاضرة عن المسمرية وجد في نفسه الرغبة أن يجرِّبها في تلاميذه. واثبت أحد التلاميذ أنه تابع جيد بصورة غير عادية، فحينما وضع نفسه موضع الغشية أخذ يردِّد ما في عقل والاس، فحينما كان والاس يَخِز نفسه بدبوس، يصيح التلميذ من الألم ويضع إصبعه على نفس موضع الوخز، وحينما يمص بعض بلورات السكر يقوم الصبي بحركات المص أيضاً. وبعد خمسة عشر عاماً أصبح والاس نفسه من المشاهير، فقد شارك في اكتشاف التطور بالانتخاب الطبيعي مع داروين، بل إنه هو

الذي سمح لداروين أن يسبقه في إعلان ذلك. وفي عام ١٨٦٥ حضر والاس جلسة في منزل أحد أصدقائه من المتشككين. شاهد المائدة الثقيلة تتحرك وتهتز في وضح النهار. بينما تتعالى أصوات الدقات في أرجاء الحجرة، فأقنعه ذلك، وبعد مضي عام قابل سيدة شابة ضخمة الجسم تسمى أنجي نيكولاس. راقبها بدهشة وهي تطفو طائرة في الهواء. وكانت أنجي أيضاً قادرة على إلقاء أشياء من الهواء. وحينما تساءل والاس عما إذا كانت الأرواح باستطاعتها أن تقدم زهرة عباد الشمس سقط أمامه على المائدة عود عامل من نبات عباد الشمس طوله ست أقدام بالتربة العالقة بجذوره. ولم تكن أرواح أنجي تفعل أشياء غير كاملة، ففي مناسبة أخرى حينما طلب منها شخص بعض الزهور تساقط من الهواء شلال من الزهور كما لو كان محتوى محل زهور كامل. وحدثت أروع أعمال الأرواح في عام ١٨٧١ حينما أصبحت أنجي ذاتها (وكانت متزوجة من رجل يدعى جوبي) هي الشيء الذي يسقط من الهواء. كانت جالسة أمام مائدة الطعام تعمل حساباتها، فاختفت فجأة، كما لو أن الأرض ابتلعتها. وعلى بعد أربعة أميال كان بعض الروحانيين المتحمسين جالسين أمام مائدة وأعينهم معلّقة يستجدون الأرواح أن تتعطف عليهم بدليل صغير. فإذا بتصادم عنيف أمامهم أدى إلى صيحات عالية، وحينما اشعل أحدهم عود ثقاب وجدت مسز جوبي ممددة كالجبل على المائدة: وكانت كراسة الحسابات في يدها. ولكن الأرواح أخطأت هنا أيضاً، فانتقال مسز جوبي لمسافة أربعة أميال طافية في الهواء أدت إلى صخب شديد، ولكنها كانت تجتذب آلاف الناس للتجمّع حول معابد الروحانية.

كان والاس واثقاً من أن باستطاعة مسز جوبي أن تقنع المتشككين، ولذا دعي عدد من أكثر الأشخاص عداوة للروحانية هم البروفسور كاربنتر W.B. Carpenter والبروفسور جون تيندال John Tyndall ولويس S.H. Louiss كما دعي جورج أليوت زوج الكاتبة الروائية. وجاء كاربنتر وجلس صامتاً وسط قصف الدقات ثم مضى دون أن يعلق، ولم يحضر ثانية، كما لم يحضر تيندال الذي اقتصر تعليقه على قوله «فليعرض لنا شيء آخر». أما لويس فقد رفض الحضور كما فعل هكسلي من قبل، وكانت هذه هي المناسبة التي قال فيها هكسلي إنه لا يستطيع أن يوجه اهتماماً للموضوع.

ورغم رفض العلماء أن يصدقوا أعينهم وآذانهم ظلت الظواهر النفسانية متربعة على عرشها في لحم المفكرين الفيكتوريين، فأولاً وقبل كل شيء كان على العلم أن يفسر الغوامض لا أن يتجاهلها، فبعض العلماء من أمثال وليام كروكس مكتشف عنصر

الثاليوم كون شعوراً سيئاً عنها، وقرر أن يبحثها بنفسه. وحينها رأى الكونشرتينا في داخل قفص تعزف الموسيقى التي يطلبها في حين يمسك دانييل هوم بها من أحد جانبيها فقط، علم أنه يتعامل مع قوى غير معروفة. وأدى سرعة تصديقه إلى أن يهز أولاده رؤوسهم عجباً، ثم فيما بعد حينها أقر بأن السيدة التي تسمى فلورانس كوك والتي تخضع للمنوم كاتي كيخ قد حُسمت في أنحاء الحجرة كانت حقيقة أشاع البعض عنها أنها أصبحت عشيقته كثمن لتعاونه معها.

وشعر عالم الرياضيات تشارلز دوجسون الذي كتب قصة «أليس في بلاد العجائب» بضرورة وجود تفسير ظاهر، وأنه لا يمكن إهمال الظاهرة هكذا، وكتب في عام ١٨٨٢ لأحد أصدقائه يقول:

إن عملية الخداع لا يمكن أن تقدم كتفسير كامل لكل الظواهر... وإني لأكثر من مقتنع بذلك، وفي الوقت نفسه أرى أن لا حاجة بنا أن نرفض الاعتقاد بأن الأرواح غير المجسدة ليس لها شأن بتلك الظواهر... كل شيء يبدو كأنه قوى طبيعية موجودة ترتبط بالكهربية والقوى العصبية التي تجعل المخ قادراً على أن يؤثر في المخ، وأعتقد أننا نقترب جداً من اليوم الذي سوف تصنف فيه ضمن القوى الطبيعية.

كان ذلك هو الهدف المثالي: أن نتعقب تلك القوى غير المعروفة ونعطيها صفتها، وكانت هذه هي الطريقة الفيكتورية لمنع إحياء الشعوذة. والمشكلة الرئيسية هي أن الأرواح غالباً ما حولت أنظار المتشككين الذين حاولوا إثبات عدم وجودها. فمثلاً كانت هناك حالة معقدة خاصة بعضو الكونجرس الأمريكي روبرت ديل أوين نجل المصلح الإجتماعي العظيم روبرت أوين. وكان روبرت أوين مفكراً حراً طوال حياته حتى قابل الوسيط الأمريكي مسز هايدين، ثم أعلن وهو في الثالثة والثمانين من عمره انتماءه للروحانية. أما ابنه الذي كان كذلك مفكراً حراً ومصلحاً اجتماعياً فقد غضب غضباً شديداً وقرر أن الرجل العجوز قد أصبح مخرفاً. آنذاك كان يشغل وظيفة القائم بالأعمال الأمريكي في نابلي. وفي عام ١٨٥٦ استدرجه السفير البرازيلي ليحضر إحدى الجلسات التي يقيمها في مسكنه. وهنالك شاهد أوين المائدة وهي تتحرك بدون فعل آدمي، وقرر ببساطة أنها مجرد «ظاهرة كهربائية نفسية»، ولكن أراد أن يعرف كيف تعمل، ولذلك شغل خلال السنتين التاليتين بقراءة كتب عن المسمارية والمغناطيسية الحيوانية، وواصل حضور الجلسات، وقابل هوم الذي كان آنذاك فاقداً لقواه، ولكن الحكايات عنه جعلته يشعر بضرورة اعتبار إمكانية مسئولية الأرواح

عن هذه الظواهر. نتيجة لذلك اقتنع فكتب كتاباً بعنوان «وقع أقدام على حدود عالم آخر» واكتسب هذا الكتاب شهرة كالتي اكتسبها كتاب مسز كرو «الجانب الليلي من الطبيعة». كان كتاب أوين شاملاً. يضم مناقشات دقيقة. مليئاً بأحداث الاكتشافات في العلوم الحديثة. ويتضمن بعضاً من أرفع حالات الاستشفاف المقنعة، والمعرفة المسبقة، والأشباح المزعجة، والصور الذهنية للأحياء الغائبين، ولكن من المشكوك فيه أنها اقتنعت العلماء.

ولم يكن الدليل العلمي هو الشيء الذي غير الاتجاه لصالح الروحانية، وإنما كان السبب في ذلك هو نضال الفيكتوريين للتوصل إلى اليقين الديني. ففي ذلك الوقت كان المفكرون مصابين بشيء يسمى «انغست» Angst، وهو نوع من الجزع الذي يطفو بحرية فيحوم حول الإنسان. تميز العصر الفيكتوري بوجود الشك بمعناه الحقيقي، وكان من أكثر الكتب انتشاراً رواية بعنوان روبرت اليسمير Robert Elesmere للكاتبة همفري وارد تدور أحداثها حول أحد رجال الإكليروس يمر بتجربة الشكوك ويشعر بالتزام بأن يترك حياته. قد نرى في هذه الفكرة شيئاً من الهزلية لتقوم ايفيلين ووغ E. Waugh بإثارة السخرية في كتاب الانهيار والسقوط - ولكن سبب ذلك هو أننا نأخذ الشك على أنه قضية مسلمة، ويصعب أن نتصور ما يمكن أن تكون عليه السعادة المؤكدة للمولود في المنزل الفيكتوري المحترم من حيث الخلاص، ومن ناحية الهامات الكتاب المقدس وحقيقة التعاليم التسع وثلاثين. فالأطفال في العصر الفيكتوري كانوا ينشأون على الاعتقاد في أن آدم خلق بالتحديد سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد، وأن أي تشكك في أمور الدين أمر مشين تماماً كأن يكون الرجل سكيراً أو المرأة مومساً. لذلك حينما كتب سير تشارلز ليل Sir Charles Lylle كتابه عن مبادىء الجيولوجيا عام ١٨٣٠، وذكر أن عمر الأرض يبلغ ملايين السنين شعر الفيكتوريون بصدمة كثورة بركان وسط ميدان الطرف الأغر، وبدأ يساورهم الشك.

وكان من بين المتسائلين الأشقياء البروفسور هنري سيدجويك Proff. Henry Sidgwik الذي كان يعمل في كلية التثليث في كمبردج، إذ أقلقه الشك كألم الضرس طوال حياته. وفي عام ١٩٦٩ حينما بلغ الحادية والثلاثين من عمره أحس برغبة في الاستقالة من منصب الزمالة في كلية التثليث لأنه لا يستطيع إلا أن يقر التعاليم التسعة والثلاثين للكنيسة الإنجليزية، وكان زملاؤه متعاطفين معه. وفي اللحظة التي سقطت فيها الاختبارات الدينية عادوا فعينوه في منصبه، وأخذ يكتب كتابه المشهور

عن الأخلاق الذي أنهاه بعبارة أن محاولات الإنسان للعثور على أساس عقلاني للسلوك الإنساني مصيرها الفشل.

وأصبح تلاميذ سيدجويك ينظرون إليه على أنه سقراط آخر، وكان من بينهم شبان لامعون منهم آرثر بلفور الذي أصبح فيما بعد وزيراً، وإدموند جارثي وريث أحد الصحاب (الكويكرز)، وفردريك مايرز نجل أحد رجال الإكليروس، وكان من زملاء كلية التثليث الذين شعروا بلزوم الاستقالة بسبب الشك الذي ساوره.

وفي إحدى أمسيات ديسمبر ١٨٦٩ زار مايرز أستاذه القديم وخرج معه للنزهة في الهواء الطلق، كان ذلك في السنة التي استقال أثناءها سيدجويك من منصب الزمالة. لا شك أن الدين كان هو الموضوع المثار آنذاك، ورغم أن أيا منهما لم يستطع أن يعتبر نفسه مسيحياً إلا أنهما لم يقبلا أيضاً أن يكون الكون آلة عظيمة، أو أن الجنس البشري قد خلق بمحض الصدفة. وكان مايرز هو الذي طرح التساؤل مع شيء من التسليم عما إذا كانت الفلسفة قد عجزت عن حل لغز الكون، وربما لم تكن هناك فرصة للإجابة بالبرهان على موضوع الأشباح والأرواح، ولئن لم يشعر أي منهما بتفاؤل كبير، إلا أن سيدجويك واصل تأملاته الطويلة في الفكرة وبخاصة حينما أعلن كروكس في السنة التالية أنه شارك في تحقيق دانييل دونجلاس هوم فقد أدى الهجوم على كروكس إلى إثارة الإحساس عندهما بأن يلعبا دوراً عادلاً، ففي عام ١٨٧٣ كوّنا شبه جمعية للتحقيق في الروحانية وخوارق العادات، وكان مايرز قد أصبح مفتشاً في التعليم مما هيأ له وقتاً لحضور الجلسات، ولكنه وجد العمل غير مشجع في أول الأمر، إذ بدأ يشك في أن في ذاته شيئاً يجعل الأرواح تبتعد، ثم مر بتجربة أدت إلى إقناعه. ففي جلسة حضرها مع الوسيط تشارلز وليامز، وهي من الجلسات التي استقرت فيها مسز جوبي على المائدة، ظهرت في الهواء يد مجسمة أمسك بها مايرز وأحس بها وهي تصغر وتصغر حتى اختفت دون أن تترك أثراً. لا يمكن أن يكون ذلك نوعاً من الخداع، ومن هنا بدأ مايرز يبحث بجد عن مزيد من الأدلة، وكرس جهده كله للبحوث النفسانية مع غيره من أمثال أدمون جورني E. Gurney، وآرثر بلفور، وسيدجويك، ولورد رايلي Rayleigh العالم الذي اكتشف عنصر الأرجوان. وانضم إليهم رجل الإكليروس ستانتون موزيس Stanton Moses الذي كان يعمل أيضاً كوسيط للكتابة التلقائية، وساعدت عبقريته الظاهرة على إقناع مايرز.

وكانت هناك دفعة جديدة من جانب أستاذ الطبيعة الإيرلندي وليام باريت الذي

كان يدرس في الكلية الملكية للعلوم في دبلن. وعلى مثال راسل والاس أصبح باريت من المهتمين بالمسمارية. وحينما كان يقيم مع صديقه في مركز وستميث استدرج بعض أطفال القرية ليخضعهم للتنويم المغناطيسي، وأثبت إثنان منهم قدرتهم على أن يكونوا وسطاء مختارين. ولاحظ باريت في تجاربه مع أحدهما مثل ما سبق أن خبره والاس مع تلاميذه أو أتباعه قبل ذلك بعقدين من الزمان وهي «المشاركة في الإحساس»، فحينما وضع صديقه يده على مصباح مشتعل سحبت الفتاة الصغيرة يدها كما لو كانت تخشى الاحتراق، وحينما تذوق بلسانه قطعة من السكر ابتسمت الفتاة، وحينما تذوق الملح امتعضت. وأثبتت تلك الفتاة أيضاً أنها قادرة على قراءة أفكار باريت. وفسر الأستاذ المتشكك كابنتر هذه الظاهرة بقوله «إن الناس تحت تأثير التنويم المغناطيسي يصبحون على درجة غير عادية من الحساسية، ولذا يمكنهم أن يتعرفوا على الأصوات والروائح غير المحسوسة». ولكن هذا لا يفسر كيف أن الفتاة استطاعت أن تحمل فوق رأسها كتاباً بداخله ورقة من أوراق اللعب وتصف تلك الورقة بدقة.

وكتب باريت بحثاً عن هذه الحالة وأرسله إلى الجمعية البريطانية في لندن، وكان متوقعاً ألا يلقى هذا البحث اهتماماً، ولكن الذي حدث أن والاس الذي كان رئيساً للجنة النسر ألقى بثقلة لتأييد باريت، ورغم رفض اللجنة للبحث إلا أن والاس تأكد تماماً من أن الأستاذ مايرز قد اطلع عليه.

وجد باريت آنذاك حالة أخرى أدهشته، هي أسرة أحد رجال الإكليروس واسمه كريري، كان يعيش في باكستون بمقاطعة دربي شاير. له بنات تميزن بأن لعبتهن المفضلة هي «لعبة الإرادة» بأن يخرج أحد الأشخاص من الحجرة، ويقرر الآخرون في أنفسهم ما يريدون أن يعمله هذا الشخص، وفي حضور باريت قدمت بنات كريري الأربع «لعبة الإرادة» عدة مرات دون حدوث أي فشل.

تقابل باريت مع مايرز وزملائه المحققين في لندن، واقترحوا أن ينشئوا جمعية للتحقيق في هذه الغوامض. وكان كل من مايرز وجورني مترددين لأنهما اعتقدا بأنهما يبذلان قصارى جهدهما، ولكن رغبة باريت تغلبت وتكونت جمعية البحوث النفسانية التي عقدت أول اجتماعاتها في فبراير سنة ١٨٨٢. وكان معظم أعضائها المؤسسين من مجموعة كمبريدج وهم مايرز وجورني وسيدجويك (وزوجته اليانور) وبلفور وباريت ورايلي ووالاس. وسرعان ما انضم إليهم العديد من الفيكتوريين المشهورين مثل

تنيسـون وجلادستـون وتومسـون (مكتشف الإلكترون) ومـارك توين وجـون روسكين والسير أولفرلودج والرسام فردريك لايتون وج واتسي.

لم يكن لـدى الجمعية أي اعـتراض على أن يتشكـل أعضاؤها لأن هدفهـا هو تطبيق المنهج العلمي على «عالم النفس» ومحاولة إثبات تواجده أو إنكاره نهائياً. وكـان من أهم نتائج تكـوينها أن وافق مـايرز وجـورني على قبـول الخدمـة التي عرضهـا أحد موظفي البريد من المتشككين ويسمى فرانك بودمور الذي كان إيمـانه بـالروحـانية قـد اهتز اهتزازاً شديداً عام ١٨٧٦ نتيجة للمحـاولة التي قـام بها كـاتب الألواح الـوسيط هنـري سليد Henry Slade (وكـان السير راي لانكسـتر المعادي للروحـانية قـد استطاع أن يمسك باللوح قبل أن تقوم الأرواح بإملاء الرسالـة ووجد أن عليـه رسالـة مكتوبـة بالفعل. ورغم أن الأدلة كانت لصالح سليد إلا أنه أدين على أساس أن الكتابة بمعرفة الأرواح تعتبر انتهاكاً لقوانين الطبيعة واعتبر بذلك من (المحتالين).

وكانت نتيجة المشاركة في العمل بين الاتجاهات الثلاثة ظهور كتـاب كلاسيكي بعنـوان «خيـالات الإحيـاء The Phantasm of the living» الـذي ظهـر عـام ١٨٨٦ واستغرق تأليفه أربع سنوات. وأصدرت الجمعية أيضاً إحصاء لأسباب الهلوسة أثبتت فيه أن من بين كل عشرة أشخاص شخصاً واحداً على الأقل تمر به تجارب الهلوسة.

وأخيراً أصبح بإمكان الأرواح أن تكسب اعتقاد الغالبيـة العظمى من الجمهـور البريطاني، ولقد رأينا فيما سبق أن الوسيط هوم، ومسز هايدن ومسز جوبي لم يـواجهوا مشكلة إقنـاع العلماء لأن الفرصـة كانت أمـامهم مواتيـة. والحقيقة أن الجمعيـة قامت بعمل جيد بأن أثبتت واقعية وجود الهلوسة البصرية والاستشفاف والتخـاطر والتـواجد خـارج الجسد دون مـدعاة للشـك. ويجمع في ذلـك المؤلـف الذي ظهـر في وقت مبكـر كأحد إبداعات مايرز وعنوانه «الشخصية الإنسانية وبقاؤها بعد الموت» والذي سنتناوله بالدراسة الفاحصة في الفصل التالي.

لكن، من العجيب أن ذلك كله لم يؤثر إلا تأثيراً بسيـطاً أو لم يكن له أي تـأثير إطلاقاً على الرأي العام، ذلك لأن كثرة المشاهدين الذين اشتروا كتاب «الجانب الليلي من الـطبيعة» وكتـاب «وقع أقـدام على حـدود العالم الآخـر» لم يهتمـوا بقـراءة المؤلفـات الضخمة المليئة بالاعترافات الموقعـة من أصحابهـا والفحص التفصيلي لـلأدلة، وشعـر

بعض المتشككين مثل هكسي والسير راي لانكستر بأنه لا لـزوم لقراءتـه نظراً لأن أي شخص يعتقد في ذلك الهراء لا بد وأن يكون مغفلاً يصدق الأمور بسهولة.

كان هناك مع الأسف عامـل آخر منـع عامـة الناس من أن ينـظروا بجدية إلى جمعية البحوث النفسـانية. فخـلال العشرين عامـاً الأولى من تكوينهـا ظهرت سلسلة كاملة من العروض زودت المتشككين بكل الأسلحة التي يريدونها، وكانت النتيجة أنه في حوالي عام ١٩٠٢ أصبحت الجمعية أشبه ما تكون بفكاهة أكثر من كونها جمعيـة لها مكانتها على الأرض.

وكان من أكثر الاستعراضات تأثيراً هداماً ما حدث سنة ١٨٨٠ أي قبل تكوين الجمعية بسنتين. وذلـك بأن ضبـطت الوسيـطة فلورانس كوك التي كـانت تعمل مـع وليـام كوكس في محـاولة خـداع على يـد السير جـورج سيتـويـل والـد كـل من أديت وأوسـبرت وشاشيفـريل. كـانت فلورانس وسيطة تجسيـد وجلست في حجـرة خـافتـة الأضـواء فوق دولاب، وبعـد دقائق قليلة ظهـر من الدولاب جسم مـدثر بثـوب أبيض شفاف أخذ يتحدث مع الحـاضرين، وقدم نفسه بأنـه ماري التي تجسـد نفسها بمـادة مأخوذة من جسم الوسيطة. وفي أثناء مرورها أمام مقعـد ستيويل قبض عليها بشدة، وأضـاء أحد الأشخـاص الأنوار فتبـين أن مـاري هـذه هي فلورانـس كـوك بمـلابسهـا الداخلية وفوقها ذلك الرداء الشفاف الأبيض، ثم عثر بعد ذلك على الملابس الأصليـة لفلورانس داخل الدولاب.

رغم أن انكشاف الحقيقة كـان أمراً واضحـاً إلا أن الروحـانيين قبلوا التعليـل الـذي ذكرتـه فلورانس للموقف وهـو أنها كانت آنـذاك في غيبوبـة، وأنها لا تعلم مـا حدث لها. وسرعان ما وقف السير وليام كـوكس يدافـع عنها، وكـان قد ذكـر في عام ١٨٧٣ أن رجـلاً يدعى فـولكهان أمسـك فجأة بـروح كـانت تمشي في أرجـاء الحجـرة وتعـرف نفسهـا بـأنها السيـدة كـاتي كينـج التي كـانت معـروفـة آنـذاك، وزعم أحـد الحاضرين أن ساقي كاتي وقدميها اختفت وهربت من قبضة فولكهان بالصعود إلى أعلى كالمتسربة، وسارع الحاضرون نحـو الدولاب فـوجدوا أن فلورانـس مـا زالت في داخل الـدولاب بملابسهـا السوداء وأزرارهـا محكمة، ولم يعثروا على أي أثـر في الـدولاب للرداء الشفاف الأبيض الذي كانت تلبسه كاتي.

ووصف كـروكس أيضـاً كيف أنـه ذات مـرة أمسـك بـذراع كـاتي في إحـدى

الجلسات ووجدها مجسمة كأي امرأة عادية. ومن منطق الشك سألها عما إذا كانت فلورانس في الدولاب فوافقته كاتي ودخل كروكس إلى الدولاب ووجد فلورانس في غشية تنويمية. كان ذلك بالنسبة لكروكس دليلاً كافياً، أما بالنسبة للمتشككين فإن ذلك كان يثبت أمرين: إما أن كاتي كانت أيضاً وسيطة أو أن كروكس كان كاذباً.

بعد هذا العرض الذي قدمه سيتويل جلست مؤلفة تسمى فلورانس ماريات مع الوسيطة فلورانس داخل الدولاب، وربطتها بحبل وظهرت ماري كالعادة وسارت وسط المشاهدين، ولكن فلورانس تأثرت بذلك وتقاعدت لفترة من الزمن.

خدع كروكس بلا شك على يد ابنة أحد الجنرالات المحترمين وتسمى روزينا شاورز. لم يكن هناك مايدعوه إلى التشكك في أمرها إذ كانت ترفض أن تتقاضى أي أجور عن الجلسات التي تنظمها وتظهر أثناءها شخصية في ثياب بيضاء. وكان كروكس قد ابتكر اختباراً بسيطاً ليمنع فلورانس كوك من المخادعة بأن تغمس يديها في صبغ ملون قبل الجلسة ثم يفحص يد كاتي كينج حينما تظهر. ولقد مرت كاتي كينج في الاختبار بنجاح دون صعوبة، ولما طبق هذا الاختبار على روزينا كانت يداها مصبوغتين، وأراد كروكس أن يتغاضى عن ذلك، فربما كانت الشخصية التي ظهرت قد حلت في مادة روزينا، ولكن روزينا لم تستطع أن تكتم سرها طويلاً وأخبرت الوسيطة الأمريكية آني فاي بأنها قد غشت بالفعل، وأخبرت كاتي فاي بدورها كروكس الذي طلب أن يخاطب روزينا على انفراد فاعترفت بخدعتها ووعدت بألا تكرر ذلك مرة أخرى ووعدها كروكس بألا يذيع السر. بيد أن هذا السر سبب له الضيق الشديد. وعرفت والدة روزينا بهذا الاجتماع السري فوضعت لها قيوداً سيئة، وكان على كروكس أن يتقبل فضيحته بهدوء حيث أن مسز شاوزر أذاعت الأمر بين أصدقائها واتهمته بأنه يتصرف مثل كازانوفا ويغتصب الوسيطات، وانتشرت الإشاعة بأنه ضاجع فلورانس كوك حينما كان يستجوبها في منزله فاضطر كروكس أخيراً أن يعلن قراره بأن البحث النفساني يسبب من المتاعب أكثر مما يستحق وتخلى عن نشاطه.

وفي عام ١٨٨٨ وقعت فضيحة مزدوجة، فقد حدث أن بنات كريري الأربع اللائي كن يمارسن لعبة الإرادة ونلن بها إعجاب باريت الذي جعله ينشيء جمعية البحوث النفسانية ضبطن في عملية خداع خاصة وأنهن كن دائماً موضع اختبار منذ اكتشفهن باريت، فسبب ذلك في مضايقة شديدة لهن فاعترفن بابتكارهن لنوع من

الرموز والإشارات البسيطة المتعددة التي تساعدهن في التخمين على ورق اللعب مثلاً، إشارة إلى أعلى للورق وعلاقة القلب وإشارة إلى أسفل للإسباني وهكذا. واعترفن بإصرار بأنهن قررن القيام بذلك الخداع مؤخراً، فصدقهن كل من مايرز وجورني واعتبراهن لم يمارسن الخداع في الاختبارات الأولى، ولم يصدقهن أي أحد من الآخرين.

ولعلَّ الأسوأ من ذلك كله أن الأختين فوكس اللتين بدأت الحركة الروحانية بعروضهما اعترفتا أمام جمهور من الناس بأنهما مخادعتان. وفي عام ١٨٨٨ كانتا أرملتين في الخمسينات من عمرهما، تشربان الخمور بكثرة، ولم تعد دقات الأرواح تجتذب اهتمام الناس كما كانت من قبل. ومن جهة أخرى كانت الأخت لياه Leah تمارس بإجادة، إذ كانت هي وأخواتها على اتصال كلامي، والحقيقة الجديرة بالذكر هنا هو أن لياه هي أول من مارس تقليعة التجسيم حينما عرضت نفسها في جلسة حضرها روبرت ديل أوين عام ١٨٦٠ في نقاب كامل من قماش أبيض وأخذت تمشي في أرجاء الحجرة. وكان من الصعب أن تفشل مع وجود بعض المؤيدين لها من أمثال أوين. أما أخواتها فقد لقين صعوبات جمة في حياتهن، ونزع المجتمع أطفال كيت منها حماية لهم من قسوتها ونتيجة لاستغراقها في الشراب. وأرادت مارجريتا أن تهرب إلى انجلترا أو تلجأ إلى شخص يكفلها، ولكن دفعتها المرارة إلى محاولة الانتحار فقفزت من السفينة أثناء رحلة عودتها، وكانت أقوى رغبة عندها هي أن تستند بظهرها على أختها الكبرى لياه. فلما عادت إلى أمريكا انتهزت فرصة حديث أحد المراسلين الصحفيين معها لتعلن أن كل أصوات الدقات كانت خداعاً. وفي ٢١ أكتوبر سنة ١٨٨٨ ظهرت هي وكاتي في ساحة أكاديمية الموسيقى في نيويورك واعترفت مرجريتا أنها كانت تعمل أصوات الدقات بواسطة مفصل مزدوج في إصبع قدمها. وعرضت نماذج من أصوات الدقات البارعة، ولم يكن بأي حال من الأحوال مثل تلك الدقات الرعدية التي كانت تهز حجرة النوم في منزلهم في هايدزفيل، ولكن المشاهدين كانوا على استعداد للتصديق، واستطاعت مرجريتا وكيت أن يقتسما الإيراد البالغ ١٥٠٠ دولار بينهما. وخرج المراسل الصحفي روبين دافنبورت الذي نظم الاعتراف ليكتب كتاباً أسماه «الضربة القاضية للروحانية». وأنفقت الأختان مبلغ الألف وخمسمائة دولار على الخمور. وبعد فترة قصيرة كتبت مرجريتا إعلاناً تسحب فيه الاعتراف وأعطته لأحد الروحانيين الأثرياء الذي سمح لها بأن تعيش في شقة يملكها. وجعلها إدمان الخمور

غير محتملة كقاطنة في شقة، وأصبح عليها أن تخلي الشقة ثم ماتت عام ١٨٩٥ ودفنت في جبانة الفقراء، وسرعان ما لحقت بها أختها كيت. واستعادة لذكرى الأحداث كان أهم شيء في الاعتراف أن كيت كانت جالسة إلى جوار أختها على المسرح صامتة تماماً، فلم تنكر الاعتراف ولم تقدم أي معلومات عن الطريقة التي اتبعتها لخداع الجمهور خلال الثلاثين عاماً الماضية. ونستنتج من ذلك بوضوح أنها وافقت على المشاركة في المنصّة من أجل السبعمائة وخمسين دولاراً، ولكنها رفضت أن تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك.

ومن الاحتياطات الأخرى التي واجهت البحوث النفسانية المنظمة الوسيطة الإيطالية المعروفة أيوسابيا بالادينو. كانت فلاحة أمية ضخمة الجسم (مثل كثير من الوسيطات). اكتشف أمرها في نابلي عام ١٨٧٢ وكانت في الثامنة عشرة من عمرها وتعتبر أقوى وسيطة عرفت بعد دانييل دونجلاس هوم. عرفت بأن المقاعد كانت تتحرك نحوها أو تتراجع أمامها حينما تكشر فيها أو تومىء لها، أو تتعلق في الهواء، وكانت قادرة على الارتفاع في الهواء والاستلقاء كما لو كانت فوق فراش. ولقد قام المحقق الجنائي لومبروزو بالتحقيق معها لأنه كان يشكك في أصالة عملها، ولكنها كانت شخصية غير مستقرة تتصف بالعنف والاندفاع والخبث، وكانت إذا خرجت من غشيتها التنويمية تمارس الجنس علناً مع أي رجل يستهويها. وأسوأ من ذلك أنها كانت تمارس الخداع، وما هو أسوأ أن خداعها كان ظاهراً لا يصعب اكتشافه على أي باحث حتى لو كان غير مدقق. وزعمت أيوسابيا نفسها أن مصدر ذلك الخداع كان الأرواح المعادية. وربما صدق ذلك أو كذب (لأنها في أغلب الأحيان تكون مستيقظة أثناء قيامها بالأعمال) بيد أن الظواهر الأخرى كانت مدهشة لا تترك مجالاً للشك في ان فيها خداعاً وغشاً واضحين. ولقد وجد المنجّم الفرنسي كاميل فلاماريون تفسيراً أفضل لذلك الخداع الذي كانت تمارسه بعد أن ظل يراقبها فترة من الزمن. فبعد الجلسات التي تحدث فيها ظواهر حقيقية قبل طواف آلات موسيقية في أنحاء الحجرة في الوقت الذي تكون فيه أيوسوبيا مربوطة في مقعد لاحظ أنها تكون معتلة بشدة، وقد يستمر اعتلالها مدة تمتد يومين، فلا يبقى في معدتها أي طعام تأكله، ولا عجب في ذلك فإنها كانت تحاول أن تمارس خداعها. وحينما ذهبت أيوسوبيا إلى انجلترا عام ١٨٩٥ اختبرتها جمعية البحوث النفسانية في كمبريدج بحضور محضّر الأرواح ماسكيلين. ولم يكن

مضيفوها في انجلترا أقل تساهلاً في موقفهم معها إزاء الخداع المفرط من موقف لامبروزو ولذا قدموا ضدها تقريراً دقيقاً أقنع كل المتشككين بأن الجمعية لا مصلحة لها في حماية المحتالين. وأدى ذلك التقرير إلى انتشار انطباع عن أن معظم الوسطاء مخادعون، وأن أي إنسان عاقل لا يصح أن يضيع وقته معهم.

عانت الجمعية عام ١٨٨٨ من ضربة قوية أخرى هي موت واحد من أذكى باحثيها هو ادموند جورني، كان قد ذهب في يونيه إلى بريتون في مهمة غامضة وعثر عليه ميتاً في فراشه بالفندق صبيحة اليوم التالي وكانت بجواره زجاجة كلوروفورم وفوق وجهه كيس اسفنجي. وتقرر من التحقيق أن وفاته حادثة وقعت حينما كان يتناول الكلولوفورم لتهدئة ألم في أسنانه، غير أن هناك إشاعات ذاعت في جمعية البحوث النفسانية أنه انتحر. كان جورني منشغلاً باختبار ظاهرة تخاطر بعض الشباب في بريتون، وأعجبه ذلك. وكان على أحد المتخاطرين معه أن يسافر بسرعة إلى جنوب أفريقيا بسبب قضية طلاق. وبعد عشرين عاماً من ذلك نشر اعترافاً يعلن فيه أنه كان يخادع باستمرار. ويقال إن جورني اكتشف أنه كان مخدوعاً فيه مدى سنين طويلة، فلو كان صادقاً، فلا بد أن ذلك يؤدي إلى هدم كل البحوث النفسانية(١). وأياً ما كانت الحقيقة كان موته خسارة كبيرة للجمعية.

وفي عام ١٨٩٨ تورط مايرز في فضيحة صغيرة كان لها تأثيرها على درجة احترام جمعية البحوث النفسانية، قابل مايرز في أواخر الثمانينات فتاة جذابة تسمى اداجور دريتش فايرز، زعمت أنها تنتمي إلى أسرة من الطبقة الراقية تعيش في المرتفعات، وأنها مستشفّه. لمح مايرز فتنتها بعين فاحصة، وسرعان ما كان هناك اقتناع لديه ولدى الفتاة بأنها رفيقا روح، وظهرت أدلة تؤكد المضاجعة بينهما، إذ أن مايرز استدرجها في محاولة الكشف البللوري، وأحس أنها أتت بنتيجة حاسمة، حيث زعمت أنها استطاعت بالنظر إلى الكرة (البللورية) أن تحدد مكان المفتاح المفقود، وتذكرة دواء، واستخرجت من البللورة عنواناً كانت قد قطعته من قبل. وكتب مايرز بحثاً عن ذلك ظهر في مجلة الجمعية (وسماها فيه مسز اكس). لم يكن لدى الجميعة ما يدعو للشك في هذه الفتاة ذات المنشأ الطيب لأنها من أسرة طيبة، وأولاً وقبل كل شيء لم يكن لديها

---

(١) Trevor H. Hall; The Strange Case of Edward Gurney (1964).

دافع للكذب. ولعل ما لم يعرفه مايرز أن هذه الأنسة الرفيعة النسب جودريتش فراير كانت ابنة طبيب بيطري يعمل في ابنجهام وكان اسمها فراير، وكانت في الثلاثين من عمرها حينما قابلها مايرز، ولم تكن مراهقة كما ادعت، وكان الكذب مرضها، ولم تظهر دوافعها أبداً ولكن ربما كان كذبها لمجرد اجتذاب الأنظار إليها.

أرسلت الجمعية الأنسة جورديتش - فراير إلى الهايلاندر (المرتفعات) من أجل نظرة فاحصة أخرى على الموضوع كله، وتبين فيما بعد أنها استعارت مخطوطة من قسيس يجمع الأدب الشعبي، ونشرت مادته باسمها. وحينما أرسلت للتحقيق في أمر منزل مسكون بالأرواح في منطقة سوري أخبرت ملاك المنزل بأنها لم تشاهد شيئاً، ولكنها ذكرت لجمعية البحوث النفسانية أنها رأت شبح امرأة مقنعة حينما كانت تضع ملابسها لتخرج إلى العشاء، فأدى ذلك إلى إثارة الشك عندهم، ولكن يبدو أن الأنسة جودريتش فراير بجاذبيتها وحسن سلوكها كانت فوق الشكوك.

وفي عام ١٨٩٧ انتشرت الإشاعات عن أن قصر باليشين في اسكتلندا مسكون، وأقنعت عدداً من أعضاء جمعية البحوث النفسانية بتأجيره لها كي تقوم بالاصطياد فيه، وزعمت أنها حينما كانت هناك شاهدت كل أنواع الظواهر غير الأرضية من دقات ثقيلة وإيقاع دقات، وصيحات أشباح، وخطوات سرابية وموجودات غير مرئية، وأنه كان هناك شبح مزعج يمزق أغطية الفراش، وشبح راهبة تابعها وهي تتجول من وادي قريب من المنزل. والغريب حقاً هو أن الضيوف الذين كانوا يأتون للإقامة مع مس جودريتش فراير لم يقابلوا أياً من هذه الظواهر المخيفة، ولكنهم سمعوا دقات انفرادية ووقع أقدام. وحينما عادت إلى لندن أخذت تؤلف كتابها بعنوان «الأرواح المزعومة في منزل باليشين»، ولكنها أقامت حينما فاجأها أحد من استضافتهم وهو كالندر روس J. Callender Ross من خلال البريد بمقالة منشورة في جريدة التايمز بعنوان «في أعقاب الشبح». كانت لهجة المقال مليئة بالتشكك ولم تخل من السخرية، وفيها تسلل المراسل الغاضب بين أعمدة التايمز التي أصبح واضحاً من خلالها أن تأجير الجمعية للبيت من أجل الأنسة جودريتش فراير كان مظهرية كاذبة، وكان من الطبيعي أن يغضب مالك المنزل لما أصابه من سمعة سيئة نتيجة تلك الدعايات. أما مايرز الذي كان من الزوار المنتظمين لمنزل باليشين فقد وجد نفسه ملزماً بتأييد موقف الأنسة جودريتش فراير، ولكن حينما وجهت زوجة صاحب المنزل

الاتهام على صفحات جريدة التايمز ضد جمعية البحوث النفسانية سارع وأعلن أنه كان منذ مدة طويلة يعارض في نشر ملاحظاته. وسرعان ما كتب أحد الزوار الآخرين يعارض ذلك ويقول إن مايرز أبدى عزمه على أن يؤكد سكنى الأرواح في المنزل. وغضبت الآنسة جودريتش فراير بشدة حينما شعرت بذلك التخلي غير الرجولي من جانب مايرز. وعبر مستر كالندر روس عن الشعور العام حينما أشار إلى وجود «شك واشمئزاز يثيره الاتصال الوثيق بجمعية البحوث النفسانية». وحينما نشرت جودريتش فراير كتابها عن باليشين كان الشعور السيء ما زال قائماً.

ربما كانت هذه الفضيحة هي التي سببت مرض مايرز الذي قتله عام ١٩٠١ كما أن جودريتش فراير نفسها شعرت ببرود من جانب الأعضاء الآخرين في جمعية البحوث النفسانية. وفي التعليق الذي كتبه فرانك يادمور عن كتابها، سماها الكاذبة. وهناك دليل[1] على أنها ضبطت تخادع في جلسة من جلسات دقات المائدة عام ١٩٠١، وقررت أن تترك انجلترا إلى القدس حيث تزوجت برجل يصغرها بستة عشر عاماً استطاعت أن تقنعه بأنها أصغر منه بسنتين، وماتت عام ١٩٣٠ وهي في الرابعة والسبعين من عمرها، ولكنها ظلّت تكذب حتى النهاية، حتى في شهادة وفاتها ذكرت أنها ٥٦ عاماً.

هذه الفضائح غير المقبولة من وسيطات يكتشفن بملابسهن الداخلية وأشباح بمفاصل مزدوجة في إصبع القدم، وغير ذلك، كان لها بكل أسف تأثيرها الذي أدى إلى وصف جمعية البحوث النفسانية بأنها جماعة من البلهاء غريبي الأطوار، ولكن إذا ما نظرنا إلى الوراء إلى القرن الماضي لاستطعنا أن نرى أن إنجازاتها خلال العقدين الأخيرين من الزمان كانت إنجازات مدهشة، فقد بدأت تجيب على السؤال: هل يمكن أن نأخذ خوارق العادات بجدية أم أنها مجرد مجموعة من روايات العجائز والأوهام؟ ولعل الذي يسبب الدهشة بلا شك أن الرواد الأوائل أصبحوا يؤكدون الدليل الواضح على أن هناك شخصاً واحداً على الأقل من بين كل عشرة أشخاص مصاب بالهلوسة، وأن الكثير من الناس قد شهدوا ظهور الأقارب الراحلين، ومارسوا تجربة التواجد خارج الجسد.

وحينما تحدث كالندر روس عن الشك والاشمئزاز الذي تثيره جمعية البحوث

(١) John & Campbell and travor Hall, Strange Things, 1968, P. 211.

النفسانية إنما كان يعبر عن مشاعر معظم أصحاب العقول السوية من الناس تجاه موضوع مرض البحوث النفسانية، ولكن كون الأمر مرضياً أمر لا يمكن استبعاده. ولقد أدى المجتمع إلى صعوبة تجاهل الأمر نتيجة لتراكم الكثير جداً من الأدلة الإيجابية. ولعل كتاب «الصور الذهنية للأحياء» يعتبر من بين أكثر الكتب التي كتبت تعمقاً، ولكن صفحاته البالغة ألفي صفحة مليئة بالحالات التي تضطر العقل أن يعترف بأن الأمر ظاهرة يجب مواجهتها.

ونظراً لأننا خصصنا مساحة كبيرة للفضائح وكشف الحالات فمن المناسب أيضاً أن نلقي نظرة فاحصة على بعض نوعيات من البراهين التي أدت في النهاية إلى إقناع الرواد الأوائل بأنهم كانوا يتعاملون مع حقائق.

في الحادي والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٩٣ ذهب الأمير فيكتور دوليب سنغ ابن المهراجا إلى فراشه في فندق في برلين كان يقيم فيه مع لورد كارنارفون. وقبل أن يطفىء الأنوار نظر في أرجاء الحجرة فرأى في الجانب الآخر منها صورة معلقة في إطارها. ولشدة دهشته رأى فيها وجه أبيه ينظر إليه وفي ملامحه صرامة، واعتقاداً منه أن الصورة تشبه صورة أبيه قام من فراشه ليتأملها فوجد أنها في الحقيقة صورة فتاة تحمل زهرة وهي واقفة في شرفة. وفي صبيحة اليوم التالي وصف الأمير فيكتور، ذلك للورد كارنارفون. وكان الأمير قد رأى صورة أبيه الذي كان مهراجا في ذلك الوقت الذي كان فيه على فراشه فاقد الوعي بعد إصابته بصدمة ومات بعد ذلك بساعات قليلة.

وفي ليلة السادس عشر من اكتوبر سنة ١٩٠٢ استيقظت زوجة أحد حراس السكة الحديد من نومها في الثالثة صباحاً لتشرب الماء، وكانت وحيدة في فراشها لأن زوجها كان في نوبة ليلية، وكانت الحجرة مضاءة إضاءة خافتة بمصباح زيتي. وبينما هي تنظر في الماء رأت صورة عربات بضائع تتصادم مع بعضها، ولاحظت أن واحدة منها دمرت تدميراً شديداً. فقلقت على زوجها فربما وقعت له حادثة. وفي التاسعة صباحاً عاد الزوج إلى المنزل فأخبرته بما رأت فأخبرها بأن حادثة وقعت بالفعل أثناء الليل في الخط الحديدي وأنها بالضبط كما رأت.

ولعل النقطة الغريبة في هذه الحالة هي أن الزوج مر على موقع الحادثة مرتين إحداهما كانت في الوقت الذي رأت فيه الزوجة الصورة في كوب المياه ثم رأها مرة

أخرى بعد أربع ساعات حينما كان القطار الذي يستقله عائداً. ولكن حينما مر بها في المرة الأولى كان الظلام مخيماً فلم يشاهد ما حدث، وكانت الدنيا أضاءت في الساعة السابعة صباحاً فاستطاع أن يرى منظر الحادث بوضوح كما رأته زوجته على صفحة الماء في الكوب. طبعاً ربما يكون الزوج قد شاهده في اللاوعي وليس وهو واع، ولكن إذا كان ذلك نوعاً من التخاطر إذن يكون قد استطاع أن يوصل إلى زوجته أشياء أكثر مما كان يراه بوعيه.

ربما كانت أشهر الحالات هي التي سجلتها جمعية البحوث النفسانية في ٩ يوليه سنة ١٩٠٤ حينما عانى الكاتب الروائي رايدر هاجارد Rider Haggard من كابوس أو حلم مزعج حتى أن زوجته هزته ليستيقظ. رأى في ذلك الكابوس أن كلب ابنته الأسود بوب مستلق على جانبه وسط الحشائش بجوار بعض الماء، ورأسه في وضع غير طبيعي بزاوية يبدو منها أنه كان يحاول أن يخبره أنه يموت.

أخبر هاجارد أنجيلا بهذا الحلم في اليوم التالي فلم يزعجها الأمر لأنها كانت قد رأت الكلب بوب مساء اليوم السابق سليماً معافى. ولكن فيما بعد أثناء النهار تبين أن الكلب قد اختفى. وعثر على جثة الكلب طافية في نهر قريب بعد ذلك بأربعة أيام إذ صدمه بالصدفة قطار نصف الليل من تلك الليلة التي رأى فيها هاجارد الحلم، واستطاع فيما بعد أن يكتشف أن الحادث وقع بالضبط قبل أن يستيقظ ببضع ساعات.

وفي مارس سنة ١٩١٧ كانت مسز دوروثي سبيرمان في حجرتها بالفندق في كلكتا تطعم وليدها، وكانت ابنتها الأخرى أيضاً معها في الحجرة. وأحست بوجود شخص وراءها فنظرت إليه فوجدت أخاها لأمها ألدريد بويار بوار واقفاً خلفها وكان ضابطاً في سلاح الطيران الملكي. بدا طبيعياً للغاية، وظنت مسز سبيرمان أنه عين في الهند وجاء ليراها ويتحدث معها طويلاً، ولكنها حينما انتهت من ارضاع وليدها وجدت أن أخاها قد اختفى، ومن الواضح أن ابنتها لم تره. ثم علمت مسز سبيرمان فيما بعد بقتل أخيها برصاصة فوق الخطوط الألمانية وكان ذلك بالتقريب في نفس الوقت الذي رأته فيه.

. وفي ديسمبر ١٩١٨ كان الملازم لاركن Larken. ل.ل. الضابط في القوات الجوية يكتب خطاباً في كراس الخطابات حينما سمع وقع أقدام شخص يسير في الممر

الخارجي، ثم فتح الباب وظهر صديقه الملازم دافيدماك كونيل يصيح: «هالو يا صديقي»، والتفت لاركن فرأى ماك كونيل واقفاً وممسكاً بمقبض الباب فقال له مرحباً»، فأجابه ماك كونيل «أجل رحلة سعيدة» وكان مكلفاً بقيادة طائرة إلى مطار قريب، ثم اختفى ماك كونيل بعد أن أغلق الباب بخفة شديدة.

وحينما علم لاركن بعد ذلك ببضع ساعات أن ماك كونيل قتل في حادث تصادم ذلك المساء، اعتقد أن ذلك قد وقع له بعد أن رآه، وفي الحقيقة كان ماك كونيل قد قتل تقريباً في نفس اللحظة التي رآه فيها لاركين يغلق الباب.

ولقد أصبحت الحادثة التالية أيضاً من الحوادث الشهيرة، وتعتبر واحدة من أحسن الأدلة على الحياة بعد الموت. ففي يونيه سنة ١٩٢٥ رأى جيمس شافين الذي يقطن في مقاطعة كونتي بولاية كارولينا الشمالية حلماً مؤداه أن أباه واقف بجواره بمعطفه الأسود القديم ويقول له: «ستجد الوصية في جيب معطفي» كان والد جيمس شافين قد مات منذ أربع سنوات تاركاً مزرعته لابنه الثالث مارشال، ولم يترك شيئاً لزوجته أو لأولاده الثلاثة الأخرين الذين لم يجدوا مبرراً للمطالبة بشيء.

في اليوم التالي أسرع جيمس شافين إلى أمه، وسألها عن معطف الوالد الأسود القديم فأخبرته بأن أخاه جون أخذه. ووجد المعطف في منزل جون ولما فحصه جيداً وجد ورقة مطوية ومخيطة داخل الجيب الذي أشار إليه والده في المنام. وفيها عبارة «اقرأ الأصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين في الكتاب المقدس القديم الذي تركه أبي».

وأخذ أحد الجيران كشاهد، وعاد جيمس شافين إلى أمه بالمنزل، ووجد في صفحة الإصحاح المشار إليه وصية أخرى كتبت في تاريخ تال لتاريخ الوصية الأولى التي أعطت كل شيء لمارشال شافين، وفي هذه الوصية تقسيم للممتلكات على الزوجة والأخوة الأربعة. كان رد الفعل الأول من جانب مارشال هو إنكار الوصية بزعم أنها مزورة، ولكن بمجرد أن فحصها ما كان منه إلا الاعتراف بصحتها، وشهد عشرة شهود بأنها مكتوبة بخط شافين الراحل، وبذلك أعيد تقسيم الممتلكات وفقاً للوصية الجديدة.

ولعل الانطباع الأول لدى القارىء سيكون مشابهاً لرد الفعل الذي حدث لمارشال وهو التشكك في وجود خدعة. ولكن الأعضاء الكثيرين لجمعية البحوث

النفسانية الذين سمعوا بالحادثة، استأجروا محامياً للتحقيق في الموضوع وتحققت أصالة الوصية وبعدها عن أي شكوك. أما عن دلالة الأصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين فهي أن هذا الاصحاح يشتمل على قصة يعقوب وكيف خدع أباه الأعمى إسحاق وجعله يعطيه ميراث أخيه عيساو. ويبدو أن هذه الفكرة قد طرأت على ذهن شافين العجوز قبيل وفاته بمدة قصيرة فكتب الوصية الجديدة، ولكن بدلاً من أن يشهد عليها الشهود وضعها داخل الكتاب المقدس معتقداً بلا شك أنها سوف يعثر عليها بعد وفاته مع ما توقعه من موقف ابنه مارسال. ولسوء الحظ أهملت نسخة الكتاب المقدس تلك ربما لأن الأسرة لم تكن متدينة، ومن ثم يبدو أن المزارع العجوز أراد بعد أربع سنوات أن يلفت النظر إلى تغيير ما كان في قلبه...

خصصت مسز كرو فصلاً كاملاً في كتابها «الجانب الليلي من الطبيعة» لمثل هذه الحالات، فضمنته رسائل مهمة وصلت عن طريق الهلوسة البصرية في أحلام يظهر فيها أشخاص. فتذكر على سبيل المثال جزّاراً رأى في منامه أنه سيتعرَّض للاعتداء عليه ويقتل وهو في طريقه إلى السوق على يد رجلين في ملابس زرقاء، فقرر أن يذهب إلى السوق برفقة جار له. وحينما وصل إلى المكان الذي رأى في منامه أن الحادث وقع فيه رأى فعلاً رجلين في ثياب زرقاء ينتظران هناك، وكل ما تخبرنا به مسز كرو عن تفاصيل الحادث هو أن الجزار اسمه هوبون، وأنه كان يسكن في هولي تاون، ويصعب علينا أن نعتبر أن هذه تفصيلات مؤكدة. أما تقارير جمعية البحوث النفسانية فإنها تحتوي على مثل هذه الحالات المأساوية ولكن مع اهتمام خاص بالحصول على توقيعات على الاعترافات من كل من لهم صلة بالحالات مما يجعل الأمر أكثر إقناعاً.
ففي إحدى الحالات المثالية التي وقعت عام ١٨٦٩ حالة زوجين عرّفا باسم مستر ومسز «ب»، كانا مستلقيين في الفراش بحجرة خافتة الأضواء حينما رأت مسز «ب» رجلاً في ثياب كثياب الضابط البحري واقفاً بجوار الفراش، وكان النعاس قد غلب زوجها، فلمست ذراعه ونادت «ويلي، من هذا الشخص؟» فرد زوجها غاضباً: «ماذا تفعل هنا يا سيدي؟» فرد البحار منادياً «ويلي». وقفز مستر «ب» من الفراش وإذا بالرجل يسير عبر الحجرة ويختفي في الجدار. قالت مسز «ب» إنه يشبه الإنسان المجسم، وأن ظله ظهر حينما مر بجوار المصباح.

ولتاكدهما أنهما قد شاهدا شبحاً فإن مسز «ب» بدأت تفكر فيما إذا كانت كارثة

قد أصابت شقيقها الذي يعمل في البحرية، وحينها ذكرت ذلك لزوجها قال لها «لا»، بل إنه أبي»، وكان والد مستر «ب» قد مات منذ سنوات.

بعد هذه الزيارة أصيب المستر «ب» بمرض خطير لعدة أسابيع، ولما شفي أخبر زوجته بأنه كان في ضائقة مالية، وأنه قبل أن يرى هذه الظاهرة كان قد قرر أن يلتمس النصيحة من شخص معين أدرك الآن أنه ربما تسبب في القضاء عليه، وربما أسلمه الأمر إلى السجن، وكان مقتنعاً بأن الشبح جاء ليحذره من ذلك الفعل.

لا تعتبر هذه الحالة في مضمونها أكثر إقناعاً من الحالة التي وقعت للمستر بون في هولي تاون، ولكن جمعية البحوث النفسانية حصلت على اعترافات مكتوبة من مستر ومسز «ب» ومن صديقين آخرين. كانت مسز «ب» قد أخبرتها بالحكاية بعد وقوعها مباشرة. ما زال بالإمكان أن نرفض اعتبار هذه الحالة حلماً أو هلوسة مشتركة أو حتى ببساطة مجرد كذبة، ولكن الاعترافات الموقعة تجعل الأمر يبدو على الأقل خلاف ذلك.

ومن النقاط الهامة بالنسبة لهذه الواقعة تعليق مسز «ب» عن أن الشكل الذي ظهر به كان يشبه الإنسان المجسم العادي - كما تفعل معظم الأشباح - وإن لها ظلاً ظاهراً، فمن الواضح أن هذا التعليق يوحي بأنه كان مكوناً من مادة صلبة مثل التجسيم الذي يظهر به في الحجرات التي تعقد فيها الجلسات.

وهناك إنذار من نوع آخر يبدو أنه دخل بوضوح في الحالة المعروفة باسم «الخدشة الحمراء» وهي حالة خاصة بتاجر متنقل عرف باسم «ف.ج»، كان في حجرته بالفندق في مدينة سانت جوزيف بولاية ميسوري سنة ١٨٧٦، وأدرك بأن هناك شخصاً يجلس أمام المائدة. كان ذلك الشخص هو أخته آني التي ماتت منذ تسع سنوات بالكوليرا، كانت تبدو تماماً كأنها حية، عدا خدشة حمراء على خدها الأيمن. واختفت حينها قفز ف.ج واقفاً على قدميه.

صدمه هذا الحادث حتى أنه ركب القطار من فوره عائداً إلى منزل والديه في سنت لويس، وحينها أخبرهما بالخدشة الحمراء سقطت أمه مغشياً عليها. ثم أفاقت فأخبرتهم بأنها قد خدشت وجه الجثة بالصدفة ثم غطّتها بالمساحيق وأنها لم تذكر ذلك لأحد.

بعد أسابيع قليلة. ماتت الأم وهي سعيدة، معتقدة أنها سوف تنضم إلى رفقة ابنتها المفضلة. ومن الواضح أن الابن اعتقد أن ظهور الأخت هكذا متمثلة أمامه

كان نوعاً من تهيئة الأم للموت. ويعتبر هذا موضوعاً آخر يساير تماماً التقارير الخاصة بظهور الموتى ورؤيتهم في الفراش التي جمعتها جمعية البحوث النفسانية. ولقد خصص السير وليام باريت فيها بعد كتاباً كاملاً لهذه الحالات. كانت أول حالة افتتح بها ذلك الكتاب بمثابة نموذج للدقة التي كانت جمعية البحوث النفسانية تلتزم بها في تحقيقاتها.

كانت زوجة باريت تعمل في جراحة التوليد بمستشفى الولادة في كليبتاون بشمال لندن، وكانت هناك امرأة أطلقت عليها اسم مسز «ب» تحت الجراحة، وتعاني من هبوط في القلب. قالت لليدي باريت وهي تمسك بيدها «الدنيا تظلم» وكانوا قد أرسلوا لاستدعاء والدتها وزوجها. ثم نظرت مسز «ب» إلى جانب آخر من الحجرة وقالت «شيء جميل...» فسألتها ليدي باريت: «ما هو الجميل؟» فردت قائلة: «الشعاع الجميل... أشياء مدهشة» ثم صاحت «ما هذا، إنه أبي» وأحضروا لها وليدها لتراه، فسألت: هل تعتقد أن بقائي ضروري من أجل الوليد؟ توجهت إلى أبيها وقالت «لا أستطيع البقاء»، وحينما وصل زوجها نظرت إلى الجانب الآخر من الحجرة وقالت: «ماذا؟ فيديا هناك»، وفيديا هي أختها الصغيرة التي ماتت قبل ذلك بأسبوعين، ولكن أُخفي أمر موتها عن مسز «ب» لعدم إثارة أحزانها، ثم ماتت بعد مسز «ب» بعد ذلك مباشرة.

أجمعت كل من ليدي باريت والممرضة والزوج والأم على أنها كانت واعية بأقاربها من الموتى حتى لحظة وفاتها. وبالدقة المعهودة من باريت حصل على خطاب من أمها تؤكد فيه كل ذلك وكانت هذه هي أول حالة ذكرها باريت عن أناس على حافة الموت يرون أقاربهم الذين لا يعلمون بموتهم، ويشير باريت إلى عدم وجود أي حالة معروفة عن شخص في سكرة الموت يرى شخصاً ما زال حياً.

قدم السير أوليفر لودج الذي تولى رئاسة جمعية البحوث النفسانية مرتين، حالة من أكثر الحالات إقناعاً عن الاتصال بالموتى، وقد سجلت في كتابه بعنوان «رايموند».

ففي ٨ أغسطس سنة ١٩١٥ تلقى السير أوليفر لودج رسالة من وسيط في بوسطن هو ليونور بايبر Leonore Piper تتضمن إشارة غامضة إلى قصيدة شعر للشاعر الرومانسي هوراس عن شجرة أصابتها الصاعقة. وكان تفسير لودج لذلك بأنها إنذار لوقوع كارثة. وتبين من فحوى الرسالة أنها جاءت من فردريك مايرز الذي مات

منذ أربعة عشر عاماً. وبعد أسبوع من ذلك سمع لودج أن ابنه الأصغر رايموند قد قتل في معركة ايبريس.

أظهر عدد من الوسطاء بعد ذلك عدداً من الرسائل التي يقال إنها جاءت من رايموند، ولكن ظل لودج غير مقتنع، فمعظمها من النوع الذي يحمل أخباراً عن قضائه أوقاتاً سعيدة في عالمه. ولكن حدث بعد شهر من ذلك أن زوجة لودج صحبت صديقة لها إلى جلسة من الجلسات التي تعقدها إحدى مشاهير الوسيطات وهي مسز أوسبرن ليونارد. لم يكن هناك أي تعارف سابق بين ليدي لودج وبين تلك الوسيطة، ومع ذلك فإن مسز ليونارد أعلنت أنها تحمل رسالتين من رايموند ويقول فيهما إنه منذ وفاته وهو يقاتل عدداً من أصدقاء أبيه. ولما طلب منه ذكر اسم أحدهم أجاب باسم «مايرز».

ووصلت رسالة أخرى من رايموند إلى ليدي لودج عن طريق وسيط آخر يسمى فاوت بترز، وفيها أن رايموند يتحدث عن صورة فوتوغرافية يظهر فيها مع مجموعة من الناس ويذكران فيها عكازاً. ولم تكن أسرة لودج تعرف شيئاً عن هذه الصورة. وبعد شهرين كتبت السيدة والدة أحد الضباط زملاء رايموند رسالة تقول فيها أن لديها صورة جماعية يظهر فيها رايموند، وعرضت أن ترسل نسخة منها. وقبل أن تصل الصورة، قام لودج بنفسه بزيارة مسز ليونارد الوسيطة، ولما تم لمنومها السيطرة عليها أعلنت فيدا عن حضور رايموند، انتهز الفرصة ليسأل عن الصورة الفوتوغرافية، فشرحت له أنها صورة ملتقطة في الهواء الطلق، وأن أحد الأشخاص الموجودين بالصورة أراد أن ينحني فوق رايموند. وحينما وصلت الصورة بعد ذلك ببضع سنوات ظهرت فيها مجموعة من الأصدقاء خارج الثكنات، ورايموند جالس أمام الصف بعصى وضعها فوق رجله. وكان الضابط الجالس خلفه متكئاً على كتفه.

هذا ويعطي لودج في كتابه أمثلة أكثر تدل على بقاء رايموند، ولكن هذا الدليل كما يذكر ليس دليلاً مقنعاً لأنه أتى عن طريق وسيطين كلاهما تحدث عن الصورة قبل أن يعرف لودج شيئاً عن وجودها، وبذلك رفض وجود أي نوع من التخاطر في الأمر.

ولكي نصل إلى خلاصة لهذا الفصل نقدم هنا مثالاً أخيراً عن نوعية الظاهرة التي أحبتها مسز كرو وغيرها من الكتاب الأوائل في موضوع من موضوعات خوارق الطبيعة وهو موضوع التلبس الكامل بالروح.

في فبراير سنة ١٩٣٢ رفض أبناء منظف المداخن صمويل بول أن يذهبوا إلى فراشهم للنوم، وهم مصرون على أن هناك شخصاً خارج باب المنزل الصغير. (كانوا ينامون في حجرة بالدور الأرضي في ذلك الوقت التماساً للشفاء من نزلة البرد التي حاقت بهم). ونظرت والدتهم ماري إدوارد خارج الباب ولكنها لم تجد أحداً. وبعد ذلك مباشرة شاهدت هي والأطفال شكل صمويل بول الذي كان قد توفي في يوليه السابق. . رأوه يسير عبر الحجرة ويصعد الدرج (وكان مغلقاً) فصاحوا. كانت هذه مرة من مرات عديدة ظهر فيها الرجل الميت في كوخه بشارع اكسفورد في مدينة رامسبري بمقاطعة ويلشاير. ويبدو أن الشبح كان يدرك وجود أسرته، لأنه وضع يده مرتين على جبين زوجته جين بل ونطق باسمها في إحدى المرات. كان صمويل بول الذي مات بالسرطان يظهر مجسداً بحيث يشاهد بوضوح لدرجة أن أطفاله لاحظوا بياضاً في مفاصله التي كانت ظاهرة من تحت الجلد الشاحب، ولاحظوا أيضاً سمات الحزن على وجهه. وبعد ظهوره الأول لم تعد الأسرة تشعر بأي تهديد، ويبدو أن الأطفال صاروا مدهوشين لا خائفين، وزعموا أن الشبح يبدو حزيناً بسبب الحالة السيئة التي يعيشون فيها. فالكوخ تأكله الرطوبة وبعض حجراته غير صالح للسكن، وفي المرتين الأخيرتين من ظهوره لم يعد الحزن بادياً على وجه صمويل بول، وأرجعت مسز إدوارد ذلك المظهر الجديد إلى أن الأسرة كانت بسبيلها إلى الانتقال إلى منزل من منازل مجلس المدينة.

كانت الأسرة على وشك الرحيل حينما جاء باحثان محققان من جمعية البحوث النفسانية. وكان نائب الأسقف قد استجوب الأسرة من قبل وسجل تقريراً بما حدث، وبدا الغضب على وجهي المحققين لعدم إخطارهما بالحالة في وقت مبكر، ولكن حديثهما مع الشهود، والدليل الذي أخذوه من تقرير نائب الأسقف جعلهم لا يتشككون في أن المنزل كان مسكوناً بالروح حقاً.

إن حقيقة وجود نوعيات متعددة من المشاهدات والظهور، يلفت النظر إلى تنوع الحالات التي تم التحقيق فيها وبحثها بمعرفة جمعية البحوث النفسانية خلال القرن الأول من وجودها. ولا يوجد من بينها ما هو أعجب من الحالات التي ذكرها جونج ستيلنج أو كاترين كرو أو روبرت ديل أوين، بيد أنها كانت أكثر إقناعاً لأن الأعضاء من الباحثين المحققين بذلوا ما أمكنهم من جهود ليثبتوا أصالة تلك الحالات.

وإذا ما رغب أحد في أن يقضي الساعات الطوال يقلب صفحات المجلدات التي تضم محاضر جلسات جمعية البحوث النفسانية (الفرع الأمريكي منها) فلا بد وأن ينتهي إلى الشعور بأن المزيد من الشك مضيعة للوقت. فلو ثبت أن نصف الحالات المذكورة ملفقة أو مروية بطريقة خاطئة فسيظل النصف الآخر وهو كبير الكمية، ومن السهل أن ندرك ما كان يسبب الضيق للبروفسور جيمس هايسلوب حينها كتب يقول:

أنظر إلى وجود الأرواح التي تحل بذاتها على أنها أمر ثابت علمياً، كما أنني لا أشير إلى أن للمتشكك أي حق في أن يتكلم عن الموضوع لأن أي إنسان لا يتقبل فكرة وجود الأرواح التي تحل بذاتها في أجسام، يعطينا دليلاً على أنه إما جاهل أو جبان، وأنا لا أغفر له، ولا أرى مناقشة أي افتراض أو نظرية معه على الإطلاق على افتراض أنه لا يعلم شيئاً عن الموضوع.

من الواضح أن للبروفسور هايسلوب مقصدين بالنسبة للمتشككين. فقد قال السير جون بلاند ساتون الجراح المشهور «إن الموت هو نهاية كل شيء. وأعلم من خبرتي بكل من درسوا الموضوع علمياً أنهم توصلوا إلى نفس النتيجة». تفتقر مثل هذه العبارة ببساطة إلى روح الحقيقة، فهناك الكثير من المحققين الذين كانوا في أصلهم متشككين، ومن بينهم هايسلوب نفسه امتازوا بصلابة الرأي لحد كبير، وكان هايسلوب مكروهاً من زملائه أعضاء جمعية البحوث النفسانية لأنهم اعتبروه شخصاً متشككاً لا يمكن تقويمه. بيد أنه في كل حالة فردية أصر أحد المتشككين على الشك فيها أثناء دراسة التحقيق كان الأمر ينتهي إلى اقتناع لدرجة ما بوجود حياة بعد الموت. وأقول هنا لدرجة ما لأن القليل من الباحثين المحققين مثل دكتور جاردنر مورفي والمسز لويزا راين قد شعروا بأن معظم الحقائق يمكن أن تفسر أيضاً بما قد يسمى ما فوق الإدراك المتجاوز للحواس (Super E.S.P.) وقراءة الأفكار، والاستشفاف وغير ذلك. ولقد ألغى هايسلوب نفسه في نهاية الأمر نظرية ما فوق الإدراك أو الإدراك المتجاوز للحواس من خلال تجربة عرفت باسم «حالة البيجاما الحمراء». إذ أنه تلقى رسالة من وسيط في إيرلندا مؤداها أن روحاً تسمي نفسها وليام جيمس طلبت إليه أن يوصل إليه رسالة يسأله فيها عما إذا كان يتذكر بعض البيجامات الحمراء. كان وليام جيمس الذي مات منذ عام ١٩١٠ قد اتفق مع هايسلوب على أن من يموت منهما قبل الآخر لا بد أن يتصل، .وأن الرسالة الخاصة بالبيجامات الحمراء لم تكن تعني شيئاً عند هايسلوب في أول الأمر، ولكنه تذكر فجأة أنه حينما كان هو وجيمس في شبابهما ذهبا إلى باريس معاً، واكتشفا أن حقائبهما لم

تصل، فذهب هـايسلوب لشراء بعض البيجامـات، ولكنه لم يجـد إلا بيجامتـين لونهما أحمر فاقع. نسي هايسلوب تلك الواقعة التي كـان قد مضى عليهـا زمن طويـل، وعلى حد ما تراءى له لم تكن هناك أي طريقة لشرح رسالة البيجاما الحمراء سـوى في ضوء افتراض أن وليام جيمس هو الذي بعث الرسالة حقيقة.

وبعد ست وعشرين عامـاً من وفاة هـايسلوب. نقل عـالم النفس كارل جـونج عنه رسالة من رسائله. فقد كان جونج يفسِّر شخصية الأرواح التي تتصل من خلال الأرواح قائلاً:

ذات مرة ناقشت برهان الهوية طويلا مع صديق من أصدقاء وليـام جيمس أستاذ هـايسلوب في نيويورك، فـاعترف بـأن كل الأمور تؤخذ في الاعتبـار وأن كل الـظواهر الغـامضة يمكن أن تفسر عن طـريق نظريـة الأرواح بصورة أفضـل من تفسيرهـا في ضوء نـوعية وخـواص العقل البـاطن. وهنـا، أجدني، من واقع خبرتي، ملزماً بأن أسلم بأنه كان عـلى حق. فلا بـد أن أتشكك في كـل حالـة على حدة، ولكن لا بد لي على المدى الطويل أن أسلم بـأن نظريـة الروح تأتي في الـواقع العلمي بنتـائج أفضل من غيرها[1].

مع ذلك فمن الواضح أن جونج لم يعلن هذا التسليم في أي عمل منشـور له، وظـل متمسكاً بـأن الحقائق الخـاصة بخـوارق العادات يمكن تفسـيرها في ضـوء قوى العقل البـاطن[2].

أما فيما يتعلق بالبـحث الذي بين أيدينا فسوف ننتقل إلى افتراضـات جونـج بأن نظرية الروح أكثر منـاسبة للحقـائق من غيرهـا. أما التسـاؤل عما إذا كـان ذلك حقـاً مطلقاً بالضرورة فإنه سيبقى حالياً موضوعاً مفتوحاً.

---

(١) Collected Letters, Vol I., P. 431.

(٢) Jung, The Lord of the Underworld, (1984).

٥
إعادة اكتشاف تحفة فريدة

في خريف عام ١٨٦٣ مرت سيدة اسمها سارة هول بتجربة هامة إذ شاهدت نفسها كشبح. كانت جالسة على مائدة العشاء مع زوجها وزوجين آخرين، فشاهد الأربعة جميعهم مسز هول أخرى واقفة في الطرف الآخر من المائدة. وكانت في ثوب منقط يختلف تماماً عما كانت تلبسه مسز هول. قال زوجها: «لماذا هذا يا سارة؟» وبينما الجميع يحدقون فيها اختفت.

حالة مثيرة للدهشة لعدم وجود أي معقبات لها. وكانت مسز هول ما زالت في صحة جيدة حينما كتبت إلى جورني تخبره بالحكاية بعد وقوعها بنحو عشرين عاماً، ومن ثم لم يكن الأمر نذير شؤم. وبعد بضع سنوات من ذلك يبدو أن مسز هول حصلت على ثوب منقط مثل الثوب الذي كان شبحها يرتديه، ولم يكن لذلك أيضاً أي دلالة من أي نوع كان. ولكن العنصر الوحيد الذي كان له معنى هو تعليق مسز هول بأن المنزل الذي يسكنونه آنذاك كان فيما مضى مستخدماً للكنيسة. وسبق أن رأينا الكثير من الكنائس المسيحية غالباً ما كانت تقام فوق مواقع العبادات الوثنية، كما لو أن للأرض ذاتها سلطة ذاتية أو قوة جعلت القدماء يعتبرونها مقدسة. ولكن حتى هذه الحقيقة لا تقربنا من تفسير رؤية الأشخاص الأربعة لمثيل المسز هول.

ولو أن هذه الحالة كانت فريدة من نوعها فلربما أدى ذلك إلى التغاضي عنها باعتبارها رواية فيها مراوغة، إلا أن هناك مئات التقارير عن وجود المثيل الآخر في كتب البحوث النفسانية. وليس ذلك أقل أهمية مما سجله الشاعر جوته عن رؤية مثيله راكباً ومتجهاً نحوه في طريق الألزاس وفي فراقه لعشيقته. وكان المثيل يلبس حلّة رمادية مذهبة، وبعد ذلك بثماني سنوات كان جوته في طريقه لزيارة تلك الفتاة فمر بنفس النقطة وأدرك فجأة أنه يرتدي آنذاك حلة رمادية مذهبة. ولقد سجل روبرت

ديل أوين تفاصيل عن حالة خاصة بإحدى المعلمات واسمها اميلي ساجي، كانت ترى مثيلتها تظهر في كثير من الأحيان واقفة بجوارها في الفصل. ولاحظ أحد التلاميذ أن إميلي الأصلية كانت تبدو شاحبة ومعتلة حينما تظهر مثيلتها كما لو أن مادة المثيل قد أخذت من جسم إميلي ذاتها.

أمثال هذه الحالات تكشف لنا بوضوح أنه مع وجود بعض نظريات مقبولة شكلاً عن الأشباح والصور الذهنية أو الهلوسة البصرية وأمثالها توضح لنا أننا ما زلنا نفتقر إلى نظرية شاملة تفسر ذلك كله. فحتى الاعتقاد في الأرواح لا يقربنا من تفسير التجربة الخاصة التي مرت بها مسز هول.

كان فردريك مايرز الذي كون جمعية البحوث النفسانية يدرك تماماً هذا النقص، فمنذ السادسة والعشرين من عمره بدأ مسيرته النجومية مع هنري سير جويك حتى وفاته بعد ذلك باثنين وثلاثين عاماً لم يتوقف أثناءها عن محاولة إيجاد نمط واحد تطبق عليه كل ظواهر خوارق العادات، وظهرت نتيجة تلك الجهود بعد موته بسنتين في كتاب مؤلف بعنوان: «الشخصية البشرية وبقاؤها بعد موتها الجسدي» ويعتبر هذا الكتاب تحفة رائعة، ربما كان أشمل الكتب التي تناولت موضوع خوارق العادات، ولكنه مع الأسف لم يكن معروفاً للقارىء العام بسبب عنوانه الخاص الذي يجعله يبدو وكأنه مليء بحكايات من جلسات الأرواح ورسائل الأموات. لا شيء يمتنع على الحقيق، فهي محاولة طموحة لتصوير القوى الغريبة التي يمتاز بها العقل البشري، فمسألة الحياة بعد الموت قد قاربت التوصل إلى نهاية بشأنها.

ونظراً لأن هذا الكتاب غير معروف على نطاق واسع، ولأن ما توصل إليه من أمور مهمة للغاية سنتناوله بشيء من التفصيل. يبدأ مايرز في هذا الكتاب بمناقشة حالات مرضية مما نسميها اليوم حالات «تعدد الشخصية». ففي ٧ سبتمبر ١٨٢٤ قتل رجال ألماني كان مصاباً بالصرع اسمه سورجيل. كان حطاباً يقطع الأخشاب في إحدى الغابات. قام القاتل بقطع رأس الحطاب وقدميه بفأسه ثم شرب من دمائه، وحينما عاد إلى المدينة أخذ يتحدث بصراحة عما فعله، وذكر أن شرب الدماء يشفي من داء الصرع. كان معروفاً أن لسورجيل شخصية دكتور جيكل ومستر هايد الذي تنمو وتظهر عنده ميول إجرامية أثناء النوبات التي تصيبه. وبعد أسبوع من ذلك الحادث حينما وقف أمام القاضي كان قد عاد إلى شخصية دكتور جيكل الهادئة

المهذبة. لم يكن يذكر أي شيء عن جريمة القتل وخرج بريئاً من التهمة. وأودع في مصحة أمراض عقلية.

حكاية أخرى أوردها مايرز تعطينا على الأقل مفتاحاً لحل أسرار الشخصية المتعددة هي حكاية لويس فيفي، الذي كان في العاشرة من عمره حينما أرسل إلى دار الطفولة عام ١٨٧٣، كان لويس بادي الهدوء والطاعة، ثم دخل بعد أربع سنوات في معركة رهيبة مع أفعى مما تسبب له في صدمة ظهرت عليه بعدها نوبات الصرع التي يحدث له أثناءها شلل هيستيري في أرجله. وأرسل إلى مصحة بونيفال حيث وضع تحت الملاحظة. واشتغل خلال الشهرين التاليين بهدوء كامل في أعمال الحياكة. ثم مرّت به نوبة استمرّت يومين كاملين صحبتها تشنّجات عنيفة وحالات من التشوّه. وحينما أفاق اختفى الشلل، وأصبح شخصاً مختلفاً تماماً عن ذي قبل، وفقد ذاكرة ما حدث له من هجوم الأفعى. كان عنيفاً غشّاشاً سيء السلوك، وبينما كان لويس السابق لا يتعاطى الخمور لم يقتصر الأمر مع لويس الجديد على أن أصبح سكيراً فحسب بل إنه أصبح أيضاً يسرق الخمر من المرضى الآخرين.

وبعد أداء الخدمة في البحرية وقضاء فترة في السجن بسبب السرقة أدخل إلى مصحة روشفورت، فلفتت حالته أنظار ثلاثة أطباء. أصبح آنذاك يعاني من شلل في النصف الأيمن من جسمه، ومن صعوبات في النطق جعلته ينطق بألفاظ سيئة. ورغم صعوبات النطق لم يتوقف عن الثرثرة، وكان ميالاً للدعوة إلى الإلحاد والعنف.

وشهدت ثمانينات القرن الماضي صحوة في الاهتمامات بمبادىء مسمار بماقي ذلك اعتقاده في وجود قوى حيوية يمكن أن تتحرك حول جسم الإنسان بواسطة مجالات مغناطيسية، وكان الأطباء الذين يعالجون فيفي مهتمين بهذه النوعية من المبادىء، وأصبح بالإمكان التخلص من الشلل باستخدام أنواع من المعادن، فحينما جرّبوا ضرب ذراع فيفي الأيمن بالصلب ترك ذلك أثراً مدهشاً حيث انتقل الشلل إلى الجانب الأيسر من الجسم، وبمجرد أن حدث ذلك عاد لويس فيفي السابق إلى رقته ودماثته السابقة وفقد من ذاكرته تلك الشخصية التي تحول إليها بعد نوبة الصراع الطويلة.

أصبح لدينا هنا حل للغز الذي لم يكن معروفاً لأطباء فيفي وهو أن ضوابط الشطر الأيسر من مخه تتحكم في الجانب الأيمن من الجسم، والعكس صحيح، لذا

فحينما كان الجانب الأيمن لمخ المجرم فيفي مشلولاً تأثر الجانب الأيسر من مخه، وأصبحت شخصيته هي المنبثقة من الشطر الأيمن من مخ فيفي. ولما كان الشطر الأيسر من المخ هو نصف الكرة المخية الخاص بالكلام أصبح فيفي يثرثر ويفأفئ، وأصبحت مشكلة فيفي معروفة بوضوح، فلقد كانت طفولته صعبة، كانت أمه سكيرة عنيفة التصرفات مما حوله إلى شخصية مقهورة تتصف بالجبن، أما الأنا الاجتماعي عنده فيعيش في الشطر الأيسر من المخ، وذاته الموجودة في الجانب الأيمن أو الحدس لديه لم يكن له فرصة للتعبير عن العدوان والقهر. ثم أدت صدمة الصراع مع الأفعى إلى تراجع كلي لصفة الجبن وهي الموجودة في ذات الشطر الأيسر من المخ وتركت فيفي الآخر يعبر عن نفسه، ومنذ ذلك الحين تحول فيفي إلى حالة كلاسيكية من حالات تعدد الشخصية.

هذه الرواية التي قدمها مايرز عن هذه الحالة (وهي رواية تعطي انطباعاً على أنه قد استجوب لويس فيفي بنفسه) تنتهي بتعليق هام في الهامش، فهو يشير إلى أنه حينما وضع المغناطيس على رأس فيفي عاد إلى حالته المعتادة مرة أخرى إلا أن ذاكرته توقفت عند اليوم السابق لصراعه مع الأفعى. ويبدو واضحاً تماماً أن المغناطيس كان له مفعول، وأن العلم الحديث ربما أهمل اتجاهاً هاماً من اتجاهات البحث.

ويواصل مايرز مناقشة أمثلة أخرى لتعدد الشخصية. فهناك حالة شهيرة لرجل يسمى آنسل بورن، كان واقفاً في ركن في شارع بروفيدانس في رودآيلند وفقد ذاكرته. وكان الشيء التالي الذي أدركه هو الاتجاه نحو حجرة غريبة وفراش غريب. وبعد شهرين كان في نوريس تاون بولاية بنسلفانيا. وفي الوقت الذي ذهب بورن إلى نوريس استأجر محل حلواني وأدار العمل تحت اسم ج. براون، ولم يشك أحد في أن هذه الحالة هي حالة وَهَل أو فقدان ذاكرة.

ولعل الأغرب من هذه الحالة حالة كلارا فولر التي وصفها المعالج النفساني مورتون برنس وأطلق عليها اسم كريستين بوشامب. وفي محاولته لشفاء كلارا من الاكتئاب الشديد وإخضاعها للتنويم المغناطيسي ظهرت منها شخصية أخرى مختلفة: شخصية طفلة ذكية لعوب أطلقت على نفسها اسم سالي، واستطاعت سالي أن تحل محل كلارا كلما شعرت بميل إلى ذلك. واعتادت أن تمتع نفسها بهذا الخداع فكانت تذهب في نزهات طويلة إلى الريف. كانت سالي قوية شديدة التحمل كالبغل وتخرج

فجأة من جسدها لتترك كلارا منهكة عائدة إلى منزلها. وفي إحدى المناسبات استعارت سالي جسد كلارا عدة أسابيع، وذهبت إلى مدينة أخرى، وهناك حصلت على وظيفة مضيفة في محل ثم في النهاية خرجت عنه وتركت كلارا لتعود بنفسها إلى بوسطن، وكانت سالي على مثال لويس فيفي تثرثر بطريقة سيئة.

بيد أن حالة كلارا فولر تمتاز بأنها أكثر تعقيداً من ذلك. فعندما تكون تحت تأثير التنويم المغناطيسي تظهر شخصية ثالثة أكثر نضجاً واتزاناً من كل من كلارا وسالي. ومن هنا بدا أن تفسير الأمر بانقسام المخ إلى شطرين، وهو التفسير الذي طبق على لويس فيفي، لا يمكن تطبيقه على هذه الحالة. ويحاول مايرز في الفصل الذي خصّصه للتنويم المغناطيسي أن يجد تفسيراً جديداً، فهو يصف سلسلة من التجارب التي أجراها ادموند جورني ثم المسز سيدجويك فيما بعد وكشفت عن أن بالإمكان إخضاع معظم الناس للتنويم المغناطيسي على مستويين أو عمقين مختلفين، وأن التابع الواحد يمكن أن يتم تنويمه من خلال تسع أعماق مختلفة، فقد يوضع تحت تأثير التنويم ويُلقن بعض الحقائق، مثلاً تلقينه أن الفندق المحلي احترق من توه، ثم ينوّم بدرجة أعمق ويُلقن حقيقة أخرى، كأن يقال له عن وقوع حادثة سكة حديد، ثم ينزل به التنويم إلى عمق ثالث يتلقى فيه حقيقة أو خبراً ثالثاً كأن يقال له أن امبراطور المانيا قطع زيارته للملكة فيكتوريا لأن أحد أقاربه مات، وهكذا. وحينما يستعاد التابع من التنويم فإنه يتذكر كلاً من هذه الحقائق حينما يصل إلى المستوى الصحيح لها، ولكن لن تبقى في ذاكرته أي من الحقائق الأخرى التي لقنها له المنوم. فاستنبط مايرز أن هذا قد يكون التفسير الخاص بتعدد الشخصية، فلكل منا طبقات أو مستويات مختلفة، وأن أي صدمة ـ مثل التي حدثت للويس فيفي ـ يمكن أن ينجم عنها تأثير يشبه تأثير التنويم المغناطيسي بنقل المريض إلى مستوى آخر من الشخصية. ربما يكون هذا التفسير صحيحاً أو غير صحيح، ولكنه يكشف لنا عن مدى إصرار مايرز في محاولته لإيجاد مفتاح لغوامض العقل الباطن.

يظهر ذلك بصورة أكثر وضوحاً في الفصل الخاص بالعبقرية، فهو يقول: «إن العبقرية يجب أن تعتبر بمثابة قوة الاستخدام الواسعة النطاق للقدرات التي هي إلى حد ما موروثة لدى الجميع». وهذا هو ما أدهش مايرز، فإن مثل هذه القوى ليست مصادفة، ولكن من المحتمل أن تكون موجودة في كل منا. ويواصل ذكر الكثير من

الروايات عن الأعمال العقلية الفذة غير العادية، فهناك صبي في الخامسة من عمره اسمه بنيامين بلايث، كان يسير مع والده فسأل عن الوقت، فرد عليه أبوه بأن الساعة السابعة والنصف، وبعد دقائق قال الصبي: «في هذه الحالة أكون قد عشت مدة كذا. . .» وذكر عدد الثواني التي مرت به منذ ولادته. وحينما عاد إلى المنزل أخذ الوالد ورقة وقام بحسابها وقال لابنه «لقد أخطأت فهناك ١٧٢٨٠٠ دقيقة زيادة»، فرد الطفل قائلاً: «لا لم أخطىء، ولكنك نسيت الستين الكبيستين ١٨٢٠ و ١٨٢٤». وتحدث مايرز أيضاً عن الأستاذ ترومان هنري سافورد الذي استطاع وهو في سن العاشرة أن يقوم بعمليات حسابية في رأسه تصل إجابتها إلى ست وثلاثين رقماً، وكذلك عن طفل من أبناء المزارعين اسمه فيتومانجيا ميلي كان يستغرق في التفكير نصف دقيقة ليستخرج الجذر التربيعي لأي رقم كبير مثل ٣٧٩٦٤١٦.

وهناك حالة حديثة يمكن أن تصور لنا القصة التي بين أيدينا بوضوح شديد، هي حالة التوأمين جون وميشيل اللذين كانا يقومان بحسابات التقويم ثم قضيا معظم حياتهما في مستشفى للأمراض العقلية في أمريكا. وصفهما المعالج النفسي أوليفر ساكس(١). فرغم أن التوأمين كانا من الناحية العقلية أقل من المتوسط. أي في درجة ٦٠ في اختبارات الذكاء، فقد كانا قادرين على تحديد يوم الأسبوع لأي تاريخ يعطى لهما في الماضي أو المستقبل على مدى ٤٠ ألف سنة. سئلا مرة عن يوم ٦ مارس ١٨٧٧ فنطقا معاً الخميس، ولم تكن لديهما أي مشكلة بالنسبة لأي تاريخ حتى لو كان سابقاً لبناء الأهرام، ومع ذلك فمن الغريب جداً أن التوأمين كانا يعانيان من صعوبة كبيرة في عمليات الضرب والقسمة العادية، ولقد أجمع العلماء الذين درسوا حالتهما على أن لديهما صيغة أو معادلة مبسطة. ولكن الدكتور ساكس توصل إلى نتيجة مختلفة تماماً. فقد كان حاضراً في أحد الأيام حينما سقطت علبة ثقاب على الأرض فقال التوأمان معاً في صوت واحد مائة وأحد عشر، وحينما قام ساكس بعدّ أعواد الثقاب تبين أن عددها كما ذكر التوأمان، فسألهما «كيف عرفتما ذلك؟» وكانت إجابتهما «رأيناها». هكذا قام التوأمان بعدّ أعواد الثقاب وهي تتساقط، وأجابا نفس الإجابة حينما سألهما ساكس «كيف حسبتما أن ٣٧ هي ثلث رقم مائة واحد عشر، يبدو أنهما قد شاهدا المائة وأحد عشر تنقسم إلى ثلاثة أقسام.

(١) New York Review, 28 February 1985, P. 16.

وفي فرصة أخرى تبعهما ساكس وهما يسيران. كانا يرددان أعداداً، فيذكر أحدهما عدداً من ستة أرقام يحفظه الثاني في الوقت الذي ينطق فيه بعدد آخر من ستة أرقام، وقام ساكس بتدوين هذه الأرقام، وحينما عاد إلى منزله قام بدراستها بدقة، فاكتشف أنها جميعاً أعداد أولية (أي لا تقبل القسمة على أي رقم آخر بدون كسور أو بواق مثل خمسة وسبعة وأحد عشر... وهكذا).

وجدير بنا أن نذكر هنا شيئاً طريفاً عن الأعداد الأولية: لا توجد أي وسيلة لمعرفة أن العدد المكون من عدة أرقام عدد أولي إلا بقسمته على أعداد معينة (وكان ساكس يستخدم كتاب جداول عددية لذلك).

كيف كان هذان التوأمان يعملان ذلك؟ لا يمكن أن يقوما بحساب هذه الأرقام لأن قدراتهما الحسابية محدودة. ذهب ساكس إليهما في اليوم التالي وهو يحمل كتاباً عن الأعداد الأولية، وكانا مستمرين في لعبتهما، وانضم إليهما ساكس، ومضت فترة نصف دقيقة وهما ينظران إليه بدهشة شديدة ثم ابتسم الاثنان، وبدأ كل منهما يتدفق بذكر أعداد أولية مكونة من ثمانية أرقام، وبعد مضي ساعة وصلا إلى التباري بأعداد أولية مكونة من أربعة وعشرين رقماً بسرعة كبيرة، هذا بينما يحتاج أي عقل ألكتروني إلى بعض الوقت لتكوين مثل هذه الأعداد ومعرفة ما إذا كانت أعداداً أولية أو قابلة للقسمة.

استنتج ساكس بطريقة غير عادية أن التوأمين كان يشاهدان الأعداد في حينها تماماً كما شاهدا أعواد الثقاب التي سقطت من العلبة، أو بمعنى آخر كانا يستخدمان الشطر الأيمن من المخ بطريقة ما بدلا من الشطر الأيسر الذي نستخدمه جميعاً في العمليات الحسابية. ومع ذلك يبدو أن ظاهرة كونهما غير ذكيين تكشف لنا أن هذا لا يعتبر نوعاً من العبقرية بل الأغلب أنه قوة قد تتأتى لكل فرد، ولكن معظمنا لم يرغم على تطوير وعي الشطر الأيسر من المخ.

لم يكن مايرز يعلم أي شيء عن نصف الكرة الأيمن ونصف الكرة الأيسر من المخ، ولكنه كان يعرف فقط أن القوى أو الطاقات تنبعث من العقل الباطن، أو كان يفضل أن يسميه العقل دون الواعي أو العقل الناقص. وهو لا يساوي اللاوعي الحديث المأخوذ عن فرويد وجونج، فالعقل دون الواعي عند مايرز ليس صندوق

القـامة الـذي يحتوي عـلى الكبت والعصاب والشعـور بـالـذنب المجرمي أو الـذنب لغشيان المحرمات، بل إنه مصدر لومضات تأتي بالحدس وهي التي نسميها العبقـرية، ويمكن لذلك أن نعتبرها نـوعاً من المـزيج بـين العقل البـاطن في سيكولـوجيا فـرويد والنفس العليا عند كاهانوس كما وصفهـا ماكس فريـدوم لـونج. ولقـد عبر الـدوس هكسلي عن هذه الفكرة بدقـة ووضوح في مقـدمة كتبهـا للطبعة الأمـريكية من كتـاب مايرز فقال: «هل تكـون النفس أشبه بمجـرد منزل مكـون من غرف؟ أم أن له طابقاً علوياً فـوق الأرض من الإدراك، ومكاناً لتخـزين المهملات تحت الطابق الأرضيّ».
ويتابع قوله بأن مايرز يميل إلى الـرأي القائـل بأن نفس الإنسـان لها طـابق خفي فوق الوعي العادي، وآخر كقاعـدة من تحته، وأن الشخصيـة البشرية واستمـراريتها بعـد المـوت الجسدي «تعتـبر المستـودع الضخم المـلىء بـالمعلومـات من الأحـداث الغـريبـة والمـدهشـة التي تجـري في الـطوابق العليـا من منـزل النفس الإنسـانيـة»، هـذا حقـاً وبالتحديد هو ما يجعل لكتاب مايرز تلك القيمة المرموقة.

وكل ما يثبته طبقاً لما يذكره مايرز هو أن قوانا أو طاقاتنـا أعظم بكثـير مما نعلمـه عنها، فإذا ما بدا ذلك أمراً مألوفاً، فإنما لأننا قد سبق أن واجهناه في كتـاب كاتـرين كرو «الجانب الليلي من الطبيعة»، والفرق بينهما أن مسـز كرو تـذكر الحقـائق وتترك الحـرية للقارىء أن يأخذ بها أو يرفضها، أما مايرز فإنه يعمد إلى أن يـذعن القارىء ويعـترف بـأنها حقائق. فتـذكر مسـز كـرو بعض التجـارب المبهمـة عن منـومـين مغنـاطيسيـين يدخلون في معركة للإرادة مع حيوان، أما مايرز فإنه يتحمل المشـاق فيقوم بـرحلة إلى الهافر ليشاهد تجربة يقوم فيها الدكتور جيبرت بتنويم مريضة تسمى ليوني متواجدة على بعد اثني عشر ميلاً لبرغمها على الدخـول في غشية. والـواقع أن ليـوني قاومت ذلـك العمل، وقالت لعالم النفس بيير جانيت: «إنني أعلم تمامـاً أن مستر جيـبرت حاول أن ينـومني، ولكنني حينما شعـرت به بحثت عن بعض المـاء ووضعت يدي في مـاء بارد. فإنني لا أريد أن ينومني من ذلك البعد لأن ذلك يصمنـي بالغباء الشديـد». ويواصـل مايرز ذكر التجارب ومنهـا تجربـة ناجحـة: بعد أن حـاول جيبرت تنـويم ليوني ذهبـوا جميعاً واختبأوا بجـوار منزلهـا ليراقبوها وهي تسـير خارجـة من باب الحـديقة وعينـاها مغمضتان وتمشي في اتجاه منزل جيبرت.

وفي الكتـاب الصغير الـذي ألفته مسـز كرو بعنـوان «الروحـانية والعصر الـذي تعيش فيه» والذي نشر عام ١٨٥٩، ذكرت:

. . . إن هناك قسماً من المعرفة، هو كما نعلم غير خاضع للتجارب العلمية . . . وأقصد . . . أن هنا معرفتنا أو علمنا بأنفسنا، فمن أجسامنا أمكننا خلال فترة قصيرة من الزمن أن نعرف الكثير، ولكن أنفسنا تتكون من كيانات معقدة لا نعرف عنها شيئاً إطلاقاً، ولم نضف أي شيء على معلومات القدامى عنها، وربما فقدنا ما عرفوه أو نشككوا فيه من أسرها. تعطينا الميتافيزيقا الكلمات دون أي أفكار محددة، والسيكولوجيا أو علم النفس هو اسم بلا علم . . .

بعد عشرين سنة لم يصبح ذلك صواباً، فسرعان ما اكتسب علم النفس صفة العلم الحقيقي، وكان بسبيله إلى كشف أسرار نفوسنا، الأمر الذي اعتبرته مسز كاترين كرو أهم المعارف جميعاً. وتفسر هذا لنا تلك التيارات التحتية الباعثة على الدهشة والتفاؤل التي انسابت من خلال كتاب مايرز، فقد كان مقتنعاً تماماً، كما يقول كثيراً في الصفحات الأخيرة من كتابه ـ بأن الإنسان كان في نقطة تحول حاسمة من تاريخه، وأن هذا العلم الجديد عن أنفسنا قد يحول الوجود الإنساني تحولاً كاملاً كما حوله العلم الذي قدمه جاليليو ونيوتن منذ القرن السابع عشر.

ويرى مايرز أن الأمر غير العادي الذي تعلمناه من علم النفس هو أن عقولنا أغنى بكثير وأغرب مما نتصور، حتى أن تصور الدوس هكسلي لمنزل العقل المكون من طابق علوي يفشل في إعطائنا صورة عادلة عن رؤية مايرز للشخصية الإنسانية، فهو أكثر شبهاً بناطحة السحاب التي تضم عشرة طوابق فوق السطح وعشرات أخرى تحت السطح. ويبدو أن تجاربه أو خبراته مع المستويات المختلفة للإدراك كشفت أن للإنسان سلسلة من القواعد الأساسية توجد تحت نفسه اليومية، وبالتالي يبدو أن له سلسلة أخرى من المستويات تسمو عن إدراكاته اليومية أو تعلو عليها. فضلاً عن ذلك، إذا فكرنا في حالة مثل حالة لويس فيفي فسوف نرى أن ذاته المتغيرة إلى الإجرام كانت شخصاً أكثر بدائية وعنفاً من شخص لويس المهذب الحسن السلوك. يوحي لنا هذا أيضاً بأن المستويات العليا لم تتطور عند مايرز بحيث تعتبر خطوة في الاتجاه العكسي نحو الإله الخالق.

أما عن الحالات الأخرى التي ناقشناها في أول هذا الفصل، وهي حالة السيدة التي رأت مثيلتها واقفة على جانب المائدة، والمدرسة التي كانت تجد مثيلتها واقفة بجوارها في الفصل، فإن هذه الحالات لا تعتبر عند مايرز مجرد أوهام نفسية أو حالات شاذة بل إنها دليل على وجود قوة معينة لا ندرك كنهها. ويشير مايرز إلى حالات مثالية من الصورة الذهنية للأحياء مأخوذة عن إحصاءات جمعية البحوث

النفسانية عن حالات الهلوسة. منها ما حدث في مساء يوم من أيام الأحد في شهر أغسطس عام ١٨٨٩ حيث غيرت فتاة اسمها مسز كي رأيها في الذهاب إلى الكنيسة وقررت قضاء ذلك المساء في مكتبة خالها لتدرس خريطة شجرة النسب. بيد أن شقيقتيها اللتين ذهبتا إلى الكنيسة شاهدتاها تمشي في ممر الكنيسة وتحت ذراعها لفافة ورق (من الواضح أنها خريطة شجرة النسب). وكتبت الأخوات الثلاث مذكرة بهذا الحدث الغريب.

حالة ليست غريبة كما تبدو، فهناك مئات الحالات المشابهة لها، في إحصاءات الهلوسة، وفي كتاب خيالات الأحياء، ويبدو واضحاً في معظمها أن الشخص الذي يتكون شبحه البديل عنه في ذهنه لا بد كان يفكر في المكان الذي رأى فيه ذلك الشبح البديل. ويصف لنا الكاتب المسرحي ستريندبرج Strindberg في سيرته الذاتية المنشورة تحت عنوان «حكايات خيالية» كيف أنه خلال مرضه الخطير الذي أصيب به في باريس مرت به تجربة الإحساس بالشوق إلى الرجوع لألمانيا مع أسرة زوجته، وشعر في لحظة من اللحظات أنه في داخل المنزل وأنه يرى والدة زوجته تعزف البيانو، وبعد ذلك بقليل تلقى رسالة من والدة زوجته تقول فيها: «كيف صحتك؟» كنت أعزف البيانو في يوم كذا (ذلك اليوم) ونظرت إلى أعلى فرأيتك واقفاً هنا». من المهم هنا أن نلاحظ أن مستر يندبرج كان آنذاك في شدة المرض مما يوحي بأن ميكانيكية الأمر أقرب ما تكون للحالات التي يكون فيها الإنسان على حافة الموت فيرون أقاربهم الأقربين.

يوجد حقاً دليل على أن الظهور النفساني يمكن أن يتم وفقاً للإرادة، بيد أن أدموند جورني كان بلا شك مخدوعاً بالعدد الضخم من المراهقين الذين يزعم كل منهم انه زار فتاته وهو تحت تأثير التنويم المغناطيسي[1]. وإن كانت هناك بعض هذه التجارب التي تمتاز بالأصالة. ففي عام ١٨٨١ قرر تلميذ يسمى س. هـ. بيرد أن يحاول إظهار نفسه على بعد ثلاثة أميال في منزل خطيبته مس ل. س. فيريتي، وقام بهذه المحاولة بعد أن دخل فراشه مساء الأحد. وفي يوم الخميس التالي ذهب إليها فأخبرته بأنها أصيبت برعب شديد حينما رأته واقفاً أمامها بجوار الفرش مساء الأحد السابق، وأنها حينما رأت تلك الصورة «الذهنية» تتحرك نحوها صاحت فأيقظت

---

(١) أنظر ص ١٣٣.

أختها البالغة من العمر أحد عشر عاماً، وشاركتها في رؤية تلك الصورة الذهنية. وذكر بيرد في اعترافه:

. . إلى جانب ممارسة قوة الإرادة بشدّة، بذلت مجهوداً لا أجد من الكلمات ما أعبّر بها عنه. كنت واعياً تماماً بوجود تأثير غامض لنوع من الجسم القادر على الاختراق، وغمرني انطباع متميز بأنني أمارس بعضاً من قوى الدفع التي لم أكن آنذاك قد اعتدتها، ولكنني أستطيع أن أحركها بإرادتي.

بعد أن درس مايرز التنويم المغناطيسي وجد أن من السهل جداً الاعتقاد في مثل تلك القوى، فإذا كان الدكتور جيبرت قد استطاع أن ينوم ليوني على بعد نصف ميل، فلا بد أنه كان بصورة ما، يعكس نفسه أمامها، أو في ظروف أخرى ربما كان يجعلها تراه. وكان مايرز، مثله في ذلك مثل تومسون راي هدسون، مدهوشاً بالقوى غير العادية للعقل الناقص (ما دون عتبة الإدراك)، فقد أمر أحد المنومين المغناطيسيين أحد المرضى بأن تعمل صليباً بعد مضي ٢٠١٨٠ دقيقة من استيقاظها من الغشية التنويمية، وفعلاً نفذت ذلك. ورغم أن الفتاة المريضة. لم تكن ماهرة في الحساب فإن شيئاً ما بداخلها قام بحساب أكثر من ٢٠ ألف دقيقة (حوالي أربعة عشر يوماً) ثم أطاع الأمر بعمل الصليب، فهذا نوع آخر من القوة التي يمتلكها كل منا، وهي أن تقرر أن تصحو بعد فترة محددة من الزمن فتصحو بالفعل في اللحظة المحددة كما لو كان هناك منبه يدق. فإذا كان بالعقل الناقص ساعة منبهة تستطيع أن تعمل خلال نومنا، وتعد الدقائق في أربعة عشر يوماً، فإن القدرة على إظهار صورة الشخص في مكان آخر تبدو أقل غرابة. وفي زماننا هذا حيث أجهزة الإرسال التليفزيونية ترسل صوراً إلى القمر، فإنه من السهل أن نتقبل تلك الظاهرة أكثر مما كانوا يتقبلونها أيام مايرز.

ويرى الدكتور برود C.D Broad الذي وصف حالة سارة هول[1] التي شاهدت مثيلتها بجوار المنضدة الجانبية إن ما رأته سارة ربما كان جسماً نورانياً، ولكن ذلك التعليل يبدو غير مقبول. أولاً لأن معظم الروايات عن الأجسام النورانية تذكر أن الآخرين لا يمكنهم مشاهدتها، وثانياً أن الكثير من الحالات التي تشتمل على ظهور المثيل أو الشبح البديل تشتمل أيضاً على أشياء مثل خريطة شجرة النسب التي كان يحملها شبح مسز كي في الكنيسة، فلا يوجد أي سبب يدعو لأن تكون لفافة الورق

---

(١) Lecture on Psychical Research, P. 173.

جسم نوراني. وفي حالة من الحالات الأخرى التي ذكرها مايرز اشتمل الشبح البديل أو المثيل على حصان وعربة وشخصين آخرين. إذ وصف قسيس بوسطن الأسقف مونتفورد كيف أنه كان واقفاً أمام النافذة في منزل أحد أصدقائه فوصلت أمامه عربة بحصان، ودارت العربة حول المنزل إلى المدخل الأمامي، ولكن لم يصل أي زوار. وبدلاً من ذلك وصلت ماري ابنة أخي المضيف يعلو وجهها القلق، وكانت قد وصلت لتوها من منزل أبويها تاركة إياهما جالسين أمام المدفأة. ولكنها وهي في طريقها إلى منزل عمها مرت أمامها عربتها وتجاهلاها لأنهما كانا ينظران إلى الأمام.

وحدث بعد عشر دقائق أن سمع مونتفورد صوت عربة، وقال: «انظر ها هما قادمان في الطريق الثانية»، في هذه المرة كانت العربة حقيقية ودهش ركابها حينما قيل لهم إن العربة قد وصلت منذ ربع ساعة، وأنهما مرا على ابنتهما في الطريق.

السؤال الذي تبادر إلى ذهن مونتفورد حينئذ هو: هل كان أحدهما مستغرقاً في حلم يقظة وهما جالسان أمام المدفأة وتصوراه يقود العربة إلى منزل أخيه؟ لا بد أن الإجابة على ذلك هي بالإيجاب.

ويبدو أن مضمون ذلك هو أن العقل الناقص فيه نوع من المرسل التلفازي، ونوع من جهاز الاستقبال، فكل من مونتفورد ومضيفه وابنة أخيه رأوا العربة، وكل من أختي مسز كي شاهدتاها تسير في ممر الكنيسة وهي تمسك بلفافة الورق، وفي كلتا الحالتين بدت الصورة كالحقيقية والعادية.

هناك نقطة أخرى لها أهميتها عن حالة بيرد التي سبق ذكرها، فبعد محاولته الناجحة الأولى أدرك أنه تعلم خدعة، وأنه يستطيع منذ ذلك الوقت أن ينفذها حسبما يريد. وطلب جارني من بيرد أن يخبره في المرة التالية التي يحاول فيها التجربة. وقام بيرد بالتجربة مرة أخرى في ٢٢ مارس ١٨٨٤، ووقعت مسز فيريتي على اعتراف كتابي بأن بيرد ظهر في حجرتها في منتصف الليل تقريباً وتحسس شعرها، وأنها أخبرت أختها الصغرى التي أكدت ذلك أيضاً.

اهتم أخصائي القلب الأمريكي الدكتور ميشيل سابوم بحالات مرضى القلب وهم على حافة الموت، وكتب كتاباً بعنوان «تذكرات الموت» نشر عام ١٩٨٢ وقد أشار فيه إلى أن المرضى الذين يمرون بتجربة الظهور خارج الجسد كانوا في أغلب الأحيان قادرين

على تكرارها وفعل الإرادة. وصفت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها كيف أن سيارة صدمتها وهي تعبر خطوط المشاة، وكيف أنها أصبحت من فورها تشاهد الحادثة من أعلى فترقب رجال الإسعاف عند وصولهم، وحرصهم الشديد على تحديد الطريقة الصحيحة التي يحملونها بها على النقالة، واستيقظت أوأفاقت بعد ذلك في المستشفى وحينما استجوبها سابوم بعد الحادث بثلاث عشر عاماً أخبرته بما يلي: «أعرف أنني خرجت من جسدي لأن ذلك أصبح أمراً أستطيع أن أفعله غالباً حسبما أريد. وأدركت أنني تعلمت أن أفعل ذلك في الوقت الذي اقتربت فيه من حافة الموت». وواصلت وصفها كيف أنها وهي وحيدة في المقطورة أثناء الليل (زوجها يعمل نوبات ليلية) قد تترك جسدها وتذهب لتفحص أجزاء المقطورة وأنها في إحدى الليالي لاحظت أن الباب الخلفي للمقطورة مفتوح فعادت إلى جسدها وقامت فأغلقته.

ما نستنبطه من هذا قد يكون أن لدينا جميعاً إمكانية هذه القوة، ولكننا ببساطة لم نتعلم كيف نستخدمها. فلو صح ما قاله مايرز، فلن يكون هناك غموض أو ميتافزيقا تتعلق بهذا الشيء المؤكد، بل إن الأمر لا يخرج عن الاعتراف أو معرفة الحقيقة على أساس من البراهين العلمية.

نصل الآن إلى نقطة حرجة حقاً في مناقشتنا عن مايرز، وقبل أن نواصل نعود بنظرنا إلى الوراء لننظر إلى الخطوات التي أوصلتنا إلى هذه النقطة.

الاعتراض الوحيد على بقاء الشخصية هو أن الشخصية نوع من العنصر الصناعي، إذ أن بناءها يتم شيئاً فشيئاً بواسطة خبراتنا، ولذا فليس هناك مبرر لعدم بقاء شخصيتي بعد موتي يختلف عن مبرر بقاء منزلي بعد أن يهدم.

يجيب مايرز على هذا بالإشارة إلى أسرار تعدد الشخصية، فلقد كان كل من لويس فيفي وكلارا فولر يظهران أكثر من شخص واحد، ومع ذلك كان واضحاً جلياً وجود طبقة تحتية دائمة تختفي تحت تلك الشخصية، هي كائن كانت شخصياته أقنعة متنوعة. ويصف الفريد راسيل تجاربه في التنويم المغناطيسي مع تلاميذه في سيرته الشخصية. ويتحدث عن أحدهم قائلاً:

... ما زال هناك ما هو أعجب من ذلك، أن تنزع الذاكرة تماماً لدرجة أن الشخص لا يستطيع حتى ذكر اسمه ويصبح مستعداً لتقبل أي اسم آخر يملى عليه، وربما لاحظنا مدى غبائه في أن ينسى اسمه. وقد يتكرر ذلك عدة مرات مع إعطائه أسماء مختلفة يقبلها جميعاً ضمنياً، ثم إذا قلت

له: «أنت الآن تتذكر اسمك ثانية، فما هو؟» تمر عليه لحظات من الارتياح الذي لا يعدله شيء وقد يقول لماذا «ب». . . ؟ وهو يشعر بشيء من اللوم والإدانة لنفسه.

ولكن «ب» الأصلي كان موجوداً بصفة دائمة رغم أنه نسي اسمه.

والذي يقوي هذه النقطة بعض الحالات الحديثة لتعدد الشخصية، ففي مدينة سيبيل مريضة هي فلوراريتا شرايبر كان لها أربع عشرة شخصية متعددة بعضها لذكور، كما أثبت زير النساء بيلي ميليجان أن له ثلاثاً وعشرين شخصية فرعية بعضهم أذكى وأكثر موهبة من بيلي نفسه[1]، وكذلك كريستين سيزامور موضوع كتاب «أوجه حوّاء الثلاثة» وهي التي وصلت إلى رقم قياسي لا يصدّق إذ كان لها أربعون ذاتاً بديلة. وتؤكد لنا حالة إيف هذه أن الشخصية قد تتواجد بطريقة ما خارج الجسم. كانت كريستين سيزامور حساسة لأقمشة النايلون، ولكن بمجرد أن تحل ذاتها البديلة يختفي أثر تلك الحساسية. كانت قصيرة النظر، ولكن ذاتها البديلة كانت تستطيع أن ترى بلا نظارات، ففي ذات مرة كانت تحت تأثير المخدر، ولكن حينما حلت ذاتها البديلة زال تأثير المخدر تماماً. فإذا صح ذلك نجد أن زعمنا المعتاد أن الشخصية تعتمد إلى حد ما على الجسم يصبح أمراً غير مقبول للفهم، فقد يكون الجسم فقط أداة تستجيب لمطالب الشخصية بنفس الطريقة التي تستجيب بها السيارة لقائدها. ولكن استجابة الجسم لمطالب الشخصية يكون أعظم درجة من استجابة السيارة لقائدها، وهذا بدوره يوحي لنا بأن المرض العضوي قد يعتمد على الشخصية وليس على الجسم، فبينما يكون الشخص محني الظهر عاجزاً ومقعداً فإن الشخصية هي التي تكون عاجزة ومقعدة. وإذا كانت هناك شخصية أخرى قادرة على الحلول فيه، مثل سالي البائسة التي حلّت في جسم كلارا، فإن الشخصية ستتحوّل من فورها.

كل ذلك نجده في مناقشة مايرز للموضوع، فضلاً عن أنه قال إننا قد نمتلك قدرات كانت توصف في وقت من الأوقات بأنها سحرية مثل القدرة على نقل أفكارنا إلى شخص من الجانب الآخر من العالم، بل وقد ننقل صورة مجسمة لأنفسنا إلى عقول أناس آخرين. وتزعم الإجابة العلمية على ذلك أن كل قدراتنا تطورت على مدى ملايين السنين كاستجابة لتحديات التطور، وعلى ذلك نتساءل: لماذا يجب أن تكون لنا تلك القوى التي يزعمها مايرز؟

---

(١) Daniel Keyes, The Minds of Billy Milligan.

قد تكون إجابته إشارة إلى قدرات العباقرة مثل موزارت الذي يعزف كونشرتو كامل بعد الاستماع إليه مرة واحدة، والطفل بنيامين بلايت البالغ من العمر خمس سنوات ويستطيع أن يحسب عدد الثواني التي مضت من عمره. من المؤكد أننا لم نكن في حاجة إلى أي من هذه القدرات أثناء تطورنا. ويشير مايرز أيضاً إلى أن أفذاذ العمليات الحسابية مثل البروفسور سافورد والقس هواتلي قد تختفي قدراتهم غير العادية في سن البلوغ فيصبحون مثل بقية الناس. فإذا ما أمكن لكل من هواتلي وسافورد أن يصبحا مثل بقية الناس فإن ذلك يعني بوضوح أن باستطاعة بقية الناس، مع بذل بعض المجهود أن يصبحوا أفذاذاً في العمليات الحسابية مثلهما، أو قد نتعلم كيف نخرج من أجسامنا بإرادتنا، مثل ميشيل سابوم، لكي نتأكد أننا قد أغلقنا الأبواب والنوافذ (ومن السهل أن تدرك فائدة مثل هذه القدرة عند إنسان الكهوف كي لا يتعرّض لافتراس الضواري له).

يمكن استخدام النقاش حول التطور كدليل يساعد كلاً من الطرفين، فهناك أدلة كثيرة تثبت أن الإنسان الأول كان أكثر نفسانية منا، إذ كان باستطاعة بعض الاستراليين الأصليين أن يكتشفوا وجود المياه الجوفية دون استخدام أي أجهزة ولو عامود لجس الأرض. ومن الأمثلة الأخرى التي ذكرها البروفسور هورتيل هارت(1) فقال الرياضي الاسكتلندي بيدي دافيد ليسلي الذي كان شغوفاً بمعرفة ما حدث لثمانية من الكافير التابعين له والذين صحبوه في رحلة صيد على بعد مائتي ميل، واستطاع أحد الأطباء السحرة من الزولو أن يخبره بما حدث لهم، وتبينت فيها بعد صحة المعلومات في كل صغيرة وكبيرة منها، كذلك الكوماندوز جوكس هوجز الذي كان يخدم في منطقة الترانسكي وتلقى تعليقاً سريعاً من أحد المواطنين المحليين عن معركة قائمة على بعد ثلاثمائة ميل وثبت أيضاً صحة تلك المعلومات.

على أي حال يبدو واضحاً أنه خلال أكثر من مليون سنة من التطور تقدمت القدرات والقوى ثم اختفت أو تراجعت ثانية حينما توقفت الحاجة إليها، ولكن رغم أنها مختفية إلا أنها ما زالت موجودة في الجينات أو الخلايا الوراثية. فحينما وصل داروين إلى جزيرة جالاباجوس اكتشف وجود الكثير من أنواع العصافير التي حملتها الرياح من الأراضي الأصلية لأمريكا الجنوبية وعاشت هناك لمدى قرون عديدة، وفي أوائل العقد

---

(1) The Engina of Survival, P. 15.

الرابع من هذا القرن نقلت بعض هـذه الطيـور إلى كاليفـورنيا، فـأظهرت من فـورها تخـوفاً من الصقـور والنسـور وغـيرهـا من الجـوارح التي لم تكن مـوجـودة في جـزيـرة جالاباجوس ولم ترها العصافير التي عاشت هناك أزماناً طويلة، مثلها في ذلك مثل ربة البيت التي يجعلها التطور لا تلقي أي شيء قد يكون له نفع في يـوم من الأيام. وعـلى امتداد ثلاثة قرون استطاع الإنسان أن يكون لنفسه حضـارة، ولكنه في أعـماق وجوده الواسع المغرق في الزمن هناك آلاف من الصفات التي طوّرها في فترات الجفاف العظيم، وعصـور الجليد الـزاحف التي مرّت خـلال الثلاثـة مـلايين المـاضيـة من السنـين والتي جمعت في مستودعات التخـزين صفات وراثيـة متراكمـة تحسباً لمجيء وقت تكـون فيه ذات فائدة للإنسان.

ويقول مايرز: «هكذا يبدو أننا قـد كشفنا عن وجـود نوع من الـطبقة التحتيـة في الإنسان هي أقوى من أي شخصيـة في الحياة اليـومية، ويبـدو أن لهذه النفس الأعمق بعض القـوى والطاقـات غـير العـاديـة التي قـد تـدهش النفس التي تعمـل في الحيـاة اليومية». بالوصول إلى هذه النقـطة نصل إلى الجـزء الواقعي المهم من المناقشة، وهـو وجود أدلة تثبت أن هذه الطبقة التحتية تتجاوز الموت، وأن بإمكانها أن تمـارس بعض القوى حسب الإرادة.

ويبدأ مايرز بذكر واحدة من أهم الحالات وأكثرها تكراراً وهي حـالة الاقـتراب من الموت؛ مثل حالة الطبيب الأمريكي ويلتس A.S. Wiltse الذي مات في سكيـدي بولاية كانساس في صيف عـام ١٨٨٩ وعاد إلى الحيـاة بعد بضعـة ساعـات. ونشرت الرواية التي رواها ويلتس ذاته في مجلة سـانت لويس للطب والجـراحة في عـدد فبرايـر سنة ١٨٩٠.

مات ويلتس بحمّى التيفود، بعد أن حصل عـلى إجازة من زوجتـه وأصدقـائه، استيقظ بعد أن فقد وعيه. وربما كـان ذلك في داخليـة جسده، ولكن مـع شعور تـام بعدم الاتصال بذلك الجسد. واستطاع أن يستلقي هناك ويلاحظ كيف تعمل وتتفاعل أجهزة جسمه مع روحه، وقال «أنا أعلم أن الـطبقة السـطحية من الجلد تمثـل الحدود الخارجية لكل الأنسجة أو بمعنى آخر النفس» ثم شعر بأنه يهـتز إلى الأمام وإلى الخلف بينما ينفصل عن جسمه، ثم جاء شعور باهتزازات حقيقية في كـل الأربطة الصغـيرة، وأحس كما لو أنه يتراجع إلى خارج جسمه بدءاً من أقدامه نحو رأسه. ثم رأى نفسـه

ينظر من خلال جمجمته، كما شعر كما لو أن شكله أصبح مثل السمكة الهلامية الملونة «بينما كنت أطفو من رأسي إلى أعلى وأسفل مثل فقاعة الصابون. . حتى تحررت في النهاية من الجسم وسقطت كشيء خفيف على الأرض حيث قمت ببطء وتمددت في شكل رجل كامل» كانت هناك سيدتان في الحجرة، لذلك أغضبه أنه كان عارياً، ولكنه بمجرد أن وصل إلى الباب وجد نفسه مكتسياً بالملابس، واستدار فإذا بمرفقه يصطدم برجل آخر، ولشدة دهشته أن مرفقه مر من خلال ذلك الرجل.

ثم بدأ يشاهد الجانب الهولي من الموقف، بجسمه الميت المستلقي على الفراش، فينحني عليه مداعباً، ثم ضحك ضحكة عالية لم يسمعها أحد، وخرج من الباب ولاحظ خيوطاً رفيعة تشبه خيوط العنكبوت تمتد من كتفيه وظهره إلى الجسد الميت المستلقي على الفراش.

وسار في الطريق الذي ذكر أنه كان يراه بوضوح، ثم فقد الوعي مرة أخرى، وحينما أفاق يبدو أنه كان تحت ضغط من الأمام بواسطة أيدٍ غير مرئية، وأمامه ثلاثة صخور ضخمة بينها وجدت سحابة ثقيلة متراكمة خلف رأسه، وإذا بصوت يتكلم مباشرة داخل رأسه ويخبره بأنه إذا ما تخطى الصخور فسيدخل إلى عالم الخلود. ولكن إذا أراد يمكن أن يرجع إلى جسمه. وكان على وشك المرور في ممر تحت سقف مقرنص بين الصخور، ولكنه حينما حاول أن يدقق النظر في خط الحدود رأى سحابة سوداء صغيرة، وعرف أن شيئاً قد أوقفه، واستيقظ فجأة وهو مستلق في فراشه، وأصر على أن يخبر جميع الحاضرين بما حدث رغم أنهم حاولوا منعه من ذلك حفاظاً على قوته المتبقية.

من السهل ـ كما يذكر مايرز، أن نرفض هذه التجربة على أنها نوع من الرؤيا أو الأحلام، ولكن هناك نقطة جديرة بالملاحظة هي أن ويلست توقف تنفسه وأعلن الأطباء موته، وطبعاً ربما كان فاقد الوعي. وظلّ كذلك لمدة أربع ساعات ثم استيقظ ثانية، ولكن الغريب أن كانت لديه مثل تلك التفاصيل الدقيقة عن رؤيا الموت بينما كان نبضه متوقّفاً.

أما فيما يتعلق بالبقاء، فمن الواضح أن أكثر الحالات أهمية هي التي لا يمكن رفضها على أنها أحلام أو هلوسات. ويشير مايرز إلى حالة الندبة الحمراء (التي ذكرناها في الفصل السابق) وأتبعها بذكر حالة أخرى مقنعة مثلها قامت جمعية البحوث

النفسانية بدراستها، وهي حالة الفلاح المدعو ميشيل كونلي من أيونا بمقاطعة شيكاساو، وقد وجد ميتاً في فناء منزل أناس مسنّين ونقل جثمانه إلى المشرحة في دويوك بولاية ايوا، ونظراً لأن ملابس الشغل التي كان يرتديها قذرة فقد ألقوها خارج باب المشرحة، وحينما أبلغت ابنة الفلاح بموت أبيها أصيبت بإغماء، ولما أفاقت ذكرت بإصرار أن أباها ظهر لها، وأنه أخبرها بأنه خاط صرة من الدولارات في بطانة قميصه الرمادي، ووصفت بدقة الملابس التي كان يلبسها بما في ذلك نعله، وقالت إن النقود ملفوفة في قطعة قماش حمراء من أحد أثوابها القديمة.

لم يؤخذ هذا الحلم مأخذ الجد، رغم أنها كانت شديدة الحزن على موت أبيها، ولكن الطبيب نصح بأن يريحوا عقلها بالبحث عن الملابس، لم يكن لدى أي من أفراد الأسرة فكرة عن ملابس الفلاح وقت وفاته، ولكن الحانوتي أكد أن الملابس كانت كما وصفتها ابنته. وفي بطاقة القميص الرمادي الذي كان ملقى في الفناء، وجدت صرة النقود في القماشة الحمراء مخيطة فيها من الخلف.

قام مايرز بنفسه بالتحقيق في كثير من هذه الحالات، وأخذ من الشهود إقرارات موقعة، ولعل هذا الإصرار الذي تورط فيه هو الذي أدى به في النهاية إلى الاقتناع بوجود حياة بعد الموت. ويبدو واضحاً أن كل فرد من أفراد مجموعة كامبريدج الشديدة التشكك ممن درسوا الأدلة على وجود حياة بعد الموت قد انتهوا أيضاً إلى الاقتناع. إذ أن مايرز نفسه بدأ من نفس الفرضية التي بدأ بها تومسون جاي هدسون وهي أن كل الظواهر الخارقة للعادة قد تكون قوى غير عادية (للعقل الشخصي أو العقل الناقص كما يفضل مايرز تسميته). واستخدم هدسون التنويم المغناطيسي كبرهان، كما هو الحال في حالة المريضة التي قامت بعمل الصليب بعد نهاية نحو عشرين ألف دقيقة التي أخذها ليدلل بها على أن للعقل الباطن قدرات غير محدودة في مجال الملاحظة والتذكر، كذلك قدرات التخاطر والاستشفاف، وطبقاً لما ذكر هدسون فإن روح الميت هي في الواقع عقل باطن يلعب ألعابه. يمكن لهذا التفسير أن يمتد لينطبق على معظم الحقائق. فمثلاً في حالة الندبة الحمراء ربما يقول هدسون بأنه رغم أن الأم قد غطت الندبة بالمكياج فإن شقيق الفتاة الميتة لاحظه من اللاوعي وهي ملقاة في داخل التابوت. إن المعرفة التي تأتت له من اللاوعي بأن الموت كان قريباً من أمه جعلت عقله الناقص يستحضر رؤية شبح أخته كاملاً بالندبة الحمراء لكي يزود أمه بالارتياح وهي تواجه الموت...

. . . (هذا النوع من الملاحظة اللاوعية نظرية تعرف باسم الذاكرة الموقوتة). ولكن من الصعب أن تمتد نظرية الملاحظة اللاواعية لتنطبق على حالات مثل حالة ميشيل كولني، فقد كان هذا الفلاح بعيداً عن أسرته حينما مات، ولم تكن لديهم أي فكرة عن ملابسه، والتفسير الوحيد الذي يتمشى مع نظرية العقل الناقص أو ما تحت عتبة الوعي هو أن ابنته استخدمت نوعاً من الاستشفاف أو الرؤية الثانية كي تتعرف على ما كان يلبسه أبوها والنقود التي كانت مخيطة في بطانة القميص، ولكن ذلك لا يعتبر تفسيراً علمياً، وهو احتمال بعيد عن فرضية أن روح ميشيل كولني ظهرت لابنته في المنام.

حاول صديقان حميمان أن يقوما بدور رئيسي في إقناع مايرز أن البشر يبقون بعد موت الجسد هما القس ستينتون موزيس Stainton Moses ووليام جيمس، والغريب أن كليهما كان أشد تشككاً من مايرز نفسه.

كان وليام ستينتون موزيس يمثل بصور مختلفة نموذجاً للحساسية المرضية، فصحته دائماً معتلة، وكان على وشك الوفاة في سن الخامسة والثلاثين، واضطر إلى التخلي عن كثير من مباهج الحياة بسبب انهيار صحته. كان انفعاله الأول إزاء الروحانية عدوانياً، إذ أعلن أن كتاب لورد أداري عن دانييل دونجلاس هوم هو أسوأ ثرثرة رآها في حياته، ولكن كتاب روبريل ويل أوين الثاني عن خوارق العادات وهو كتاب «الأرض المتنازع عليها» أعجبه كثيراً. وفي النهاية استدرجه طبيب اسمه سبيرس ليحضر إحدى الجلسات عام ١٨٧٢، وأعجبه الأمر حينما تلقى وصفاً دقيقاً عن صديق له كان قد توفي في شمال انجترا. ومنذ ذلك الوقت أخذ يحضر جلسات دانييل دونجلاس هوم واقتنع أخيراً بظواهر هوم العجيبة. وبعد ذلك أدرك أنه هو ذاته وسيط منذ بدأت تحدث له أحداث غريبة، سمع أصوات دقات حول حجرته، وكانت الأدوات الموجودة في حجرة النوم تعلو وتطفو في الهواء وتكوّن شكل صليب ثم يسقط بعضها مثل زجاجات الروائح والدبابيس. وحدث أن ارتفع موزيس نفسه في الهواء فكانت هذه علامة إنذار. وفي المرة الثالثة التي حدث فيها ذلك سقط فوق المائدة ثم فوق المقعد، وبدأ هو نفسه يعقد جلسات تطفو أثناءها المائدة في الهواء وتعزف الآلات الموسيقية وتفوح العطور من مختلف الأنواع في أرجاء الحجرة. كانت أمانته واحترامه لنفسه أمراً واضحاً لدرجة أنه لم يحتج إلى المزيد لإقناع مايرز بحقيقة كونه وسيطاً.

ونظراً لأن الدقات على المائدة كانت تستمر لمدة طويلة، قرر موزيس أن يجرب الكتابة التلقائية، فيكتب سؤاله على رأس الصفحة ثم يجلس والقلم في يده حتى تبدأ الكتابة. وكانت الكتابة تظهر صغيرة ومرتبة وتختلف تماماً عن الخط المعتاد الذي يكتبه موزيس، واستطاع أخيراً أن يجمع أربعة وعشرين مجلداً من تلك الكتابات التلقائية، وبعد وفاته انتقلت إلى مايرز الذي قام بعمل مختارات منها لكتاب أسماه «تعاليم الروح»، الذي أصبح مع «كتاب الأرواح» تأليف آلان كارديك أهم ما تم تأليفه عن الكتابة التلقائية بين المؤلفات الخاصة بالروحانيات.

كان ستينتون موزيس على مثال مايرز ميالاً للاعتقاد بأن كل الكتابات تأتي من العقل الباطن. وفي إحدى المرات طلب من الروح التي بدا أنها كانت متعلمة وذكية أن تقتبس الشطر الأول من قصيدة ابنيد للشاعر فرجيل، فكتبت الروح السطر صحيحاً مما دعا موزيس أن يعتقد أنه ربما استعاده وتذكره من أيام الدراسة رغم أنه هو نفسه لا يعرف ذلك السطر وهو في وعيه الكامل. لذلك طلب من الروح أن تتجه إلى الكتاب الأخير في الرف الثاني وتقرأ منه ص ٩٤، يبدو أن الروح فعلت ذلك دون أن تأخذ الكتاب من الرف، ولم يكن لدى موزيس نفسه أي فكرة عن ذلك الكتاب ولكن الروح اقتبست الفقرة كلمة كلمة.

طبعاً يمكن تفسير ذلك على أساس نظرية الذاكرة المدفونة على أن موزيس قرأ الفقرة في وقت من الأوقات، وأن ما دون الوعي في العقل الخفي استطاع أن يتذكر الفقرة كلمة كلمة. هكذا عن طريق إقناعه قررت الروح أن تختار كتابها الخاص، وأملت فقرة عن الشاعر بوب ثم أخبرت موزيس أنه قد يجدها على نفس الرف في كتاب اسمه الشعر والرومانسية والبلاغة، وحينما أخذ موزيس الكتاب من الرف فتحته الروح على الصفحة الصحيحة.

يعتبر كتاب تعاليم الروح من الكتب المدهشة لأنه يتعارض مع فكرة ستينتون موزيس في كثير من الأمور، فبالنسبة لرجل دين مسيحي نشأ في الاعتقاد بأن المسيح إله، فإن الأمر لا ينسجم مع القول بأن المسيح كان مجرد معلم عظيم مثله مثل الآخرين، وربما جرد نفسه عن الخيال المبالغ فيه بأن الناس أكرهوه على ذلك، ففي اليوم الذي حدثت فيه هذه الاتصالات المذهلة دخل موزيس في مناقشات طويلة ومريرة يهاجم فيها تعاليم الروحانية ويصفها بالغباء والتفاهة إن لم يكن مجرد عبث.

أمـا المعلمون (من الأرواح وكـانوا تسعة وأربعين) فقـد رفضوا أن يـتراجعوا إطـلاقـاً وأخـذوا يشرحون لـموزيس أن التاريـخ البشري «وحي منـزل متـطور من نفس الإلـه الواحد» أو بمعنى آخر إن فكرة المسيح على أنه هو الابن الوحيد للاله مـا هي إلا فكرة بشرية خالصة.

في كتـاب تعاليم الـروح تأليف مـوزيس كما في كتـاب الأرواح تأليف كـارديك إصرار على وجود الكثـير من الأرواح المؤذية حـولنا، معـظمها مـرتبطة بـالأرض وهي لأنـاس إما قـد ماتـوا أو لا يريـدون مغادرة الأرض إلى مكـان آخر. ويـذكر مـوزيس ملاحظة هامة عن أنه من الغباء عقـاب المجرمـين بالإعـدام، نظراً لأن ذلـك يترك في الأرض أرواحاً انتقامية أو قتالة تعمل قـدر إمكانها للتأثير المؤذي عـلى الأحياء. وعـلى مثال ما جاء في كتاب كارديك جـاء في كتاب تعـاليم الروح أن الأرواح قـادرة على أن تدخل إلى عقولنا، وأننا غالباً ما نتأثر بها دون أن نعرفها.

ولعل من أكثر الأمور قيمة في تعاليم الأرواح هو أن لـدى موزيس نفسه شعوراً متناقضاً بشأنها، فقـد نشر بعض مقتـطفـات من مجلة الضـوء وهي مجلة كليـة العلوم النفسانية، ولكنه عمد إلى تجاهل بعض المبادلات المزعجة، فحقاً هنـاك دليل عـلى أنه أعـدم إحدى كـراسات المـذكرات التي سجلهـا لأن الأرواح كانت غـير راضية عنـه. فضـلاً عن ذلك تعـرض لمتاعب جمة في سبيل تحـديد هـوية المتصلين بـه من المعلمين التسعة والأربعين لإحساسه بأن كشفهم سوف يظهر أن من بينهم ستة من أنبياء العهـد القديم فضلاً عن أفلاطون وأرسطو، وهذا قـد يؤدي إلى أن معظم النـاس سيعتبرونـه مجنـوناً أو سيقـولون إن الأرواح قـد جرت قدميـه وأوقعتـه. ثم انكشفت أسماء هؤلاء المتصلين به فيما بعد، وذلك بعد مضي أكثر من نصف قرن على وفـاته، وجـاء كشفهم على يد باحث يسمى ترائيواي A.W. Tretheway.

أمـا وليام جيمس وهـوالشخص الثاني الـذي كان لـه تأثـير كبير عـلى فردريـك مايرز، فقد كان ابنـاً لأحد أتباع سويـدنبرج. ورغم ذلـك أو ربما بسبب ذلـك كانت نظرته «الأصليّة» للأرواح نظرة عدم اكتراث. وقد بدأ جيمس حياته كعالم طبيعي مثله في ذلك مثل الفريد راسيـل والاس وتشارلـز داروين، وذهب في بعثات لارتيـاد أعالي الأمازون، ولكن اعتلال صحته اضطره إلى العودة إلى بوسطن ثم قام بـدراسة الـطب في ألمـانيا وأصبـح طبيبـاً. وكمفكـر لم يصـبر وليـام جيمس عـلى الاستمـرار في مجـال

الميتافيزيقا بل طور مذهبه المعروف بالبراجماتية (أو المنفعية) وهو نوع من طريقة التفكير التي سبقت مرحلة المنطق الوضعي، وخلاصة المذهب ببساطة «لا يهم ما تعتقدونه ما دام بالإمكان تطبيقه» ويعبر وليام جيمس عن ذلك بقوله: «إن لنا الحق في أن نعتقد ـ على مسؤوليتنا الخاصة ـ في أي نظرية فيها حيوية كافية لدفع إرادتنا». وهو مذهب يقر بأن ضحايا النازية أمر يجب أن يؤخذ ببساطة. ولقد أدى كتابه الذي ألفه بعنوان مبادىء علم النفس إلى اكتسابه شهرة كعالم نفس يعتقد في أن انفعالاتنا ما هي إلا مجرد إحساسات طبيعية، (وهو المذهب المعروف باسم نظرية جيمس ولانج في الانفعالات).

يمكننا أن نتصور بسهولة أن رجلاً براجماتياً مثل جيمس ـ وقد ابتكر تعبير الجمود العقلي ـ قد تكون لديه مثابرة كافية مع مذاهب الروحانيات، فبمراجعة كتابه المسمى «اللوحة الصغيرة» الذي ألفه حينما كان يدرس الطب نجد أن جيمس يشكو فيقول «نحن نفشل في أن نكتشف من بين كل الحقائق (الخاصة بالظواهر الطبيعية) حقيقة واحدة لها قيمة جمالية أو أصالة فكرية أو استخدام مادي».

وحينما حضر وليام جيمس إلى انجلترا عام ١٨٨٢ تقابل مع مايرز وجورني وبادمور، ولكنه بالنسبة لخوارق العادات ظل من المتشككين. وفي عام ١٨٨٥ سمعت أليزا جيبنز والدة زوجته عن وسيطة شابة مرموقة تسمى ليونور بايبر، فذهبت لتراها. وراحت مسز ليونور في غشية تنويمية ثم أخذت تخبر مسز جيبنز كل الحقائق عن أفراد أسرتها مع ذكر أسمائهم الأصلية. وحينما قصت مسز جيبنز ذلك لابنتها وزوج ابنتها وليام جيمس أثار الموضوع اهتمامه، ومن منطلق تشككه المطبوع عليه زعم بأن مسز بايبر قد تكلمت بعبارات عامة غامضة بدت وكأنها حقائق، أو أنها، كافتراض بديل، قرأت أفكار مسز جيبنز. وفي اليوم التالي ذهبت شقيقة زوجة جيمس إلى مسز ليانور ومعها خطاب مكتوب بالإيطالية، فوضعت مسز ليانور الخطاب على جبهتها ثم وصفت كاتب الخطاب بدقة، مما زاد اهتمام وليامس جيمس برؤية مسز ليانور بايبر بنفسه.

كانت مسز بايبر قد اكتشفت قدراتها النفسانية حينما كانت تستشير أحد المعالجين النفسانيين في بوسطن واسمه كوك J.R. Coke، وهنالك دخلت في غشية تنويمية، ومرة أخرى ذهبت لترى المستر كوك وكان عنده أناس آخرون من بينهم القاضي

فروست، فبمجرد أن وضع المستر كوك يده على جبهتها راحت مسز بايبر في غشية تنويمية واتجهت إلى المائدة وكتبت رسالة تلقائية على ورقة وأعطتها للقاضي. ويبدو أنها كانت رسالة من نجله الراحل، وأعلن أنها «أهم ما تلقى في حياته»، ومنذ ذلك الوقت اصبح لمسز بايبر شهرة محلية كبيرة.

ذهب وليام جيمس ليراها بعقلية ناقدة بصحبة زوجته الجميلة الذكية أليس، وحرص جيمس وزوجته على ألّا تعرف مسز بايبر شخصيتهما، أو اتصالهما بأخوات أليس اللاتي سبقنها إليها. وراحت مسز بايبر في الغشية التنويمية حيث تلبستها شخصية رجل فرنسي يسمى فينوي Phinuit. ولشدة دهشة جيمس أشار فينوي من خلالها إلى العديد من أفراد الأسرة الذين سبق أن وصفهم لمسز جيبنز، وتحدث عن والد أليس على أنه «جيبلين» كما تحدث عن طفل لجيمس فقده في العام السابق، وكان يسمى هيرمان وذكر اسمه هيرين وهو قريب جداً من الاسم الحقيقي للطفل.

خرج جيمس من الجلسة وهو مليء بالدهشة، إما لأن مسز بايبر عرفت أسرة زوجته عن طريق الرؤيا، أو أنها علمت «بالصدفة والحظ» كل التفاصيل الدقيقة عنهم، أو ربما كانت خاضعة لنوع من الاستحواذ عليها بواسطة قوى خارقة للعادة. وواصل جيمس زيارته لمسز بايبر، وبعد أن راقبها لمدة طويلة قرر أنها بلا شك عبقرية. ولكن: هل كانت الأرواح عبقرية؟ يشعر جيمس بأن من الصعب التوصل إلى نظرية تحكم أمر الأرواح مع كل تلك الاتصالات البالغة التفاهة». بالإضافة إلى ذلك فإن فينوي الذي زعم بأنه رجل فرنسي كانت معرفته بالفرنسية سطحية للغاية. وقرر جيمس أن أقرب نظرية لتفسير الظاهرة هي أن فينوي كان عنصراً من عناصر شخصية مسز بايبر، أو بمعنى آخر أن مسز بايبر كانت ذات شخصية منقسمة مثل كريس فيفي. ومع فشل جيمس في إيجاد تفسير للطريقة التي استطاع بها فينوي أن يحصل على مثل تلك المعلومات الكثيرة فقد استمر جيمس يرسل اصدقاءه إليها تحت أسماء مستعارة، واستمرت مسز بايبر تقدم لهم معلومات دقيقة عن أقاربهم الموتى.

سمح جيمس لنفسه بأن يقتنع، وقال فيما بعد «إذا أردت أن تنتهك القانون الذي يقول بأن الغربان سوداء فلا داعي لأن تثبت أن ليس هناك غربان سوداء، بل يكفي أن تثبت أن هناك غراباً واحداً أبيض اللون». كانت هذه واحدة من أهم الملاحظات التي علقت على الروحانية حكمه. فإن «الغراب» الذي في ذهن جيمس كان هو مسز ليونور بايبر.

وفي عام ١٨٨٥ تأسس الفرع الأمريكي لجمعية البحوث النفسانية في فيلادلفيا على يد البروفسور وليام باريت، وأرسلت جمعية لندن أحد باحثيها الشبان المنتظر لهم مستقبل باهر وهو ريتشارد هودجسون، وكان شخصاً صلب الرأي، عمل في الهند في التحقيق مع مدام بلافاتسكي وقرر أنها مخادعة. دعا هودجسون مسز بايبر من فوره ودهش حينما تحدثت معه عن فتاة اسمها جيسي كانت مخطوبة له في استراليا وماتت أثناء وجوده بالخارج. ومما أدى إلى اقتناع هودجسون حتى بأكثر من الوصف الذي قدمه فينوي عن جيمس التقرير الذي سمعه عن محادثة لا يعرف أحد عنها شيئاً سوى هودجسون نفسه، لم يصبح لدى هودجسون الذي عرف بتشككه الكبير حول الظواهر النفسانية أي شك في أصالة مسز بايبر، فتعاقد معها على أن تخدم جمعية البحوث النفسانية نظير مائتي جنيه في السنة. وذهبت إلى انجلترا. وبلغ حرص هودجسون درجة أنه كان يراقبها بواسطة مخبرين لمعرفة ما إذا كانت لها شبكة اتصال خاصة لجمع المعلومات، واختبرها كل من مايرز ولودج وسير جويك اختبارات دقيقة وقرروا أنه مهما كانت طبيعة القوى التي تمتلكها، فإنها لا شك أصيلة، ولكنها تعتمد كلياً على التخاطر.

ولعل ما أقنع هودجسون أخيراً هي حالة شاب يدعى جورج بيليو، قتل نتيجة سقوطه عام ١٨٩٢ . واصطحب هودجسون الذي كان يعرف بيليو مع أحد أصدقائه للجلوس مع مسز بايبر، وعرف عن طريق فينوي من فوره أنه كان صديقاً لبيليو أو بالأحرى أن روح بيليو قد عرفته ونادته باسمه الحقيقي. وخلع الصديق زراير القميص التي كان يلبسها وأعطاها لفينوي، وقال جورج بيليو من فوره (خلال فينوي) . «إنها أزراري وأمي هي التي أعطتها لك». أنكر الصديق ذلك، ولكن تبين فيما بعد أنه خاطىء، ذلك أن والدة زوجه بيليو خلعت الأزرار من قميصه وهو ميت، وحينها طلب منها ذلك الصديق شيئاً من ذكرى الراحل، اقترحت أن ترسلها له وهذه حقيقة لم تعرفها مسز بايبر عن طريق التخاطر.

وواصل فينوي كلامه عن جيمس وزوجته وعن ماري هوارد الذي عاش معهم بيليو فترة في نيويورك. وكان ذلك الصديق يعرف القليل عن هوارد، ولكن بيليو واصل حديثه موجهاً الكلام إلى ابنتها كاترين وبعث لها برسالة يقول فيها «قل لها إنها سوف تعرف، وسوف أحل مشكلة كاترين». ولم يكن لهذا أي معنى بالنسبة

لهودجسون أو لصديق بيليو، ولكن عرف جيمس هوارد في اليوم التالي أن تلك الرسالة قد جاءت بلا شك من بيليو الذي اعتاد أن يناقشه عن الزمان والمكان والفضاء والخلود مناقشات طويلة تشترك فيها كاترين هوارد، وكان يستخدم أثناء حياته عبارة معينة يكررها هي «سوف أحل المشكلة يا كاترين».

أخيراً اقتنع كل من مايرز وهودجسون بأن رسالة مسز بايبر جاءت فعلاً من الأرواح، ولكن جيمس استمر يشعر بأن نظرية مايرز عن العقل الخفي كانت نظرية جيِّدة مثل غيرها من النظريات ومضت أربع عشرة سنة أخرى قبل أن يعترف بأن العقل الخفي لا يفسر كل الظواهر، ففي ديسمبر ١٩٠٥ كان هودجسون يلعب كرة اليد في نادي بوسطن فانهار ومات، وفي تلك الليلة رأت مسز بايبر في منامها أنها كانت تحاول الدخول في نفق مظلم، وأن رجلاً ملتحياً يشبه هودجسون كان يحاول منعها من ذلك. وفي صبيحة اليوم التالي علمت بوفاته. وبعد ثهانية أيام من ذلك كانت تمسك بالقلم وفجأة كتبت اسم هودجسون، ومنذ ذلك الوقت بدأ هودجسون يتصل عن طريق مسز بايبر، وحضر وليام جيمس وابنه جلسة من الجلسات، واضطر جيمس إلى الاعتراف بأنها كانت بالفعل شخصية هودجسون. مع ذلك، ورغم أنه كان مستعداً للتسليم بالأمر لم يكن مستعداً للتصديق بأن روح هودجسون قد بقيت بعد موته بصورة من الصور، وزعم أنه كان يواجه نوعاً مما يسمى «الصورة البعدية» أو التصوير المتأخر مثل الفيلم أو مشغل الأسطوانات، وما لم يشرحه جيمس هو كيف أن الفيلم أو مشغل الأسطوانات يمكن أن يكون إجابة على التساؤل عن حياة هودجسون بعد الموت ويقنع عدداً من الناس بأن هودجسون كان هو المتكلم. ولقد مات جيمس نفسه عام ١٩١٠، وكما عرفنا في الفصل السابق ربما أقنع البروفسور جيمس هايسلوب ببقائه بعد الموت عن طريق رسالة بالألغاز عن البيجاما الحمراء عن طريق وسيط لم يسبق أن سمع عن جيمس أو عن هايسلوب...

ويقدم لنا كتاب «الشخصية الإنسانية والبقاء بعد الموت الجسدي» خلاصة طويلة عن مسز بايبر، فقد كانت كما تبدو مثل الغراب الأبيض في نظر مايرز وكذلك في نظر جيمس، ولم يعش مايرز ليشاهد إنتاجه الرائع مطبوعاً، فقد بدأت صحته تعتلّ بعد أن تورَّط في عملية أدا جورديتش فراير (كانت مسز جورديتش قد ذكرت بتشاؤمها المعهود أن كل من يمر بها سوف تكون نهايته سيئة). وكتب وليام جيمس

تعليقاً طويلاً عن الكتاب حينما ظهر أخيراً بعد سنتين من وفاة مؤلفه مايرز، لم يخرج التعليق عن كونه تعاطفاً معه: «إن الكتاب، رغم ما به من نقاط ضعف قد أعجبني كتحفة فريدة رائعة من التنسيق والوحدة. إن ما احتواه من حشد الحالات قد تؤدي بأي عالم طبيعة أو مؤرخ أن يحسده». ويبدو من المنظور العام أن جيمس كان في ذلك أقل من أن يوصف بالكرم، حقاً أن بالكتاب نقاط ضعف ربما كان مايرز يفضل أن يستبعدها لو علم بها مثل إشارته إلى تجربة أدا جودريتش فراير الخاصة بالتحديق في الكرة البللورية، ونحن نعلم ما فيه الكفاية عن تلك السيدة مما يجعلنا نشعر بأن معظم مزاعمها لا بد وأن ينظر إليها بعين الشك. ولم يعلم مايرز كذلك عن سكرتيره الذي عمل معه سنوات عديدة وهو جورج ألبرت سميث، المنوم الذي كان يستعرض تسع درجات مختلفة من ذاكرة الغشية التنويمية، فقد اتهم يوماً بأنه كان يخادع في تجاربه الأولى التي عرضها في برايتون مع الشاب المسمى دوجلاس بلاكبرن (حقاً لم يوجد سبب حقيقي يدعو سميث لأن يواصل الغش حينما بدأ يعمل مع مايرز، واعترف أشد ناقديه بأنه منوم مغناطيسي أصيل ولكن لا بد أن تذكره مرة ثانية فإن أقل درجة من التشكك يجعل الدليل فاقداً لعرضه العلمي). ومع ذكرنا لكل ذلك لا بد لنا أن نعترف بأن كتاب الشخصية الإنسانية يرقى على جميع كتب البحوث النفسانية الأخرى مثل الجبل وسط السفوح.

أما فيما يتعلق «بالغراب الأبيض» ليونور بايبر فهناك سؤال يطرح نفسه: إذا لم يكن فينوي رجلاً فرنسياً أصيلاً فما هو إذن؟ درست اليانور سير جويك هذه المشكلة من قبل مدى ثلاثة وعشرين عاماً، وفي عام ١٩١٥ أعلنت خلاصة رأيها وهو أن فينوي عبارة عن أجزاء من شخصية بايبر، الشخصية المتعددة مثل سالي بديل شخصية كلارا فولر. وأجريت دراسات أخرى فيما بعد مع وسطاء آخرين مثل مسز أوسبورن ليونارد، وإيلين جاريت قادتنا إلى التأكد من أن ذلك واقعي. ففي سنة ١٩٣٥ قام الباحث المسمّى هواتلي كارينجتون بعمل اختبار كلمات المسز ليونارد، فيقول الكلمة وينتظر مسز ليونارد لتجيب بكلمة تربطها بها فانتهى إلى اكتشاف هام هو أن مسز ليونارد والمتحكمة فيها «فيدا» كانتا مثل صورتي المرآة بمعنى الكلمة، فكانت انعكاسات وردود فعل فيدا سريعة وعكسية، ووجد مثل ذلك تماماً بالنسبة لمسز مرجريت والمتحكمة فيها «يوفاني». لا يمكن أن يكون ذلك مجرد صدفة، فحتى في دراسات تعدد الشخصية لاحظ الباحثون أن المريض وذاته البديلة لها صفات

عكسيـة متقابلة. ففي عـام ١٩١١ كانت هنـاك فتاة اسمهـا ماري رينـولدز تعيش في بنسلفـانيا، غشيهـا نـوم عميق لمدة عشرين سـاعة وحينـما استيقظت كـانت شخصيـة أخـرى. فماري الأصليـة فتاة غبيـة، شديـدة الحرص والحـذر. معرضـة لنوبـات من الاكتئاب. أما ماري الجديدة فكانت مرحة مستهترة للغايـة، وظلت لمدة عشرين سنـة تتردد بين الشخصيتين ثم استطاعت بعد ذلك وببطء أن تمزج بين الشخصيتـين لتخلق شخصية جديدة جيدة، كما لو أن شخصية ماري كانت مصنوعة غالباً من لعبة تركيبية من لعب الأطفال فكانت مـاري رقم ١ تستخدم مجمـوعة من القـطع، وماري رقم ٢ تستخدم بقية القطع. أما مريضة جانيت المسماة ليوني والتي كان بـاستطاعتـه تنويمهـا من مسافة نصف ميل، فقد كانت لديها نفس صورة المرآة للذات البديلة. كانت تلك الذات البـديلة غبية سـاذجة. ولاحـظت ليدي أونـانروبـريدج التي نشرت دراسـة عن مسـز ليونارد عام ١٩٢٢ أن «فيدا» كان يشعر بازدراء للوسيط.

ولكن، لو أن شخصيات فونوي وفيدا ويوفاني وغيرها هي ببساطة جزئيـات من الوسيط، فكيف يمكن أن نأخذها بجدية؟ قد يتواجد الحل في حالة لويس فيفي الذي كانت ذاته البديلة هي أيضاً وبوضوح نفسـه المنبثقة من الشـطر الأيمن من المخ. وقـد عرفنا أن الشطر الأيمن من المخ هو الذي قصد به تومسون جاي هدسون المخ الذاتي، وهو الذي يقصد به مايرز المخ الخفي. فإذا صح قول كل من هادسـون ومايـرز يكون الشطر الأيمن من المخ هو مصدر القوى والطاقات النفسانية أو على الأقـل يكون نـوعاً من جهـاز الاستقبال ومكـبر الصوت. وتحت تـأثير التنـويم المغناطيسي يـوضع الشـطر الأيسر من المخ في حالة النوم، ويستطيع بذلك الشطر الأيمن أن يمارس قواه بدون أي تدقيق أو إنعام النظر من جانب الشطر الأيسر. ولقـد اهتم كل من والاس وبـاريت بخوارق العادات عندما راقبا التابع الخاضع للتنويم المغناطيسي وهو يشارك بأحاسيسه الخاصة، فيتمكن الشطر الأيمن من مخه أن يلتقط مشاعرهما تخاطرياً. فـإذا صحت هذه النـظرية فـإن فيدا وغـيرها كـانوا جميعـاً عناصر للمـخ الأيمن الذي كـان قـادراً عـلى أن يلتقط الرسائل من الأرواح.

يمكننـا بهذا أيضـاً أن نفسر فشلهم، فبعد تلبس مسـز بـايـبر بشخصيـة فينـوي أصبحت خاضعة لمجموعة كاملة من الأرواح التي زعمت أنها هي التي كرست نفسـها لستـانتـون مـوزيس، ولكن حينـما سئلت عن الأسماء التي اتصلت سراً مـع ستـانتـون

موزيس أعطت إجابات خاطئة. ولقد ابتكر عالم النفس ستانلي هول ابنة أخت أسماها بيس بيلر طلبت من المتحكمة في مسز ليونارد أن تتصل بها. فاضطرت الروح المتحكمة أن تبعث بأسرة بيلز المتخيلة بكل أنواع الرسائل، ذلك أن الشطر الأيمن من المخ، أو المخ الذاتي واسع التوهم ويستطيع أن يستحضر أي روح بنفس السهولة التي يستطيع بها الشخص المنوم مغناطيسياً أن يستحضر خيالاً لشخص ما يجلس على مقعد خال. أما عن استطاعة فينوي أن يقدم الكثير من المعلومات الدقيقة عن جورج بيليو بما في ذلك حقائق غير معروفة للحاضرين فهي تؤدي بنا إلى الزعم القوي بأنه كان روحاً حقيقية تستخدم الشطر الأيمن من مخ مسز بايبر كخط اتصال هاتفي.

لم ننته بعد من موضوع مايرز، فالحقيقة أن علينا أن نذكر أن الدور الذي أدّاه مايرز بعد وفاته أو بواسطة شخص سمى نفسه مايرز، كان أكثر أهمية من الدور الذي أداه في حياته.

غالباً ما كان مايرز يشير إلى أن أحدى الطرق التي يستخدمها «المتصلون» أو الموصلون لكي يثبتوا ـ بما لا يدع مجالاً للشك أنهم أرواح موق، هو توصيل أجزاء منفصلة من الرسائل لوسطاء متعددين، وبذا تصبح معقولة حينما تنضم إلى بعضها. يحدد لنا هذا الفرق بين التخاطر والذاكرة المدفونة أو بمعنى آخر استخراج ما في الشطر الأيمن من المخ. وإذا ما اعتقدنا في دليل لوجود تلك السلسلة من الاتصالات التي تعرف باسم المراسلات المتقاطعة فإن ذلك بالتحديد هو ما يحدث بالفعل.

مات مايرز في ١٧ يناير سنة ١٩٠١، وقبل وفاته بسنين قليلة سلم رسالة إلى أوليفرلودج في مظروف مغلق على أن يبقى مغلقاً إلى أن تأتي روح تزعم أنها مايرز وتدعي أنها تذكر ما في الرسالة.

وكان من أقرب المقربين إلى مايرز صديقه الدكتور آرثر فيرال أحد علماء الكلاسيكيات، وزوجته مارجريت التي كانت تحاضر في الكلاسيكيات في كلية نيوتهام. قررت مارجريت فيرال بعد وفاته أن تحاول الكتابة التلقائية لترى إذا ما كانت قادرة على الاتصال بمايرز أم لا. كانت سيدة عقلانية متشككة ولكنها رأت أن الأمر يستحق المحاولة. وسرعان ما كانت يدها تكتب بذاتها عبر الصفحة، ولكن بدا أن الرسالة مفككة ومجزأة، ثم وصلت في يوم من الأيام رسالة باللغة اللاتينية الركيكة موقعة من مايرز. ومنذ ذلك الوقت بدأت الرسائل تتوالى بشيء من الحرية،

واشتملت إحدى تلك الرسائل على العبارة التالية: «مايرز أغلق المظروف المتروك مع لودج... وفيه عبارة من كتاب المحاورات عن الحب وإزالة الخلافات». أرسلت الرسالة بسرعة إلى لودج الذي فتح المظروف ولكن لشدة أسفه لم يكن يحتوي شيئاً عن أفلاطون ووجد فيها النص التالي «إذا استطعت أن أعود لزيارة مسرح الأرض فسوف اتخذ موطني الوادي بأراضي هو لمستير في كمبرلاند». ثم تذكر شخص ما أن مايرز أشار إلى محاورات أفلاطون عن الحب في كتاب مطبوع طبعة خاصة تحت عنوان: «مقتطفات من الحياة الداخلية» كتبه تخليداً لذكرى آني مارشال زوجة والتراين عم مايرز التي كان يحبها مايرز، وقد انتحرت آني بإغراق نفسها في مياه نهر أوليس، وعاشت في هولستيد في كمبرلاند، وبذا وجدت صلة فعلية بين الرسالة المغلقة وبين محاورات افلاطون.

كان ريتشارد هودجسون بعد ذلك مباشرة يعقد مع مسز بايبر في بوسطن جلسة من الجلسات فاقترح أن تقوم الروح التي تسيطر على مسز بايبر، وكانت آنذاك روحاً تسمى ريكتور، بمحاولة الظهور لابنة مارجريت فيرال المسماة هيلين وهي تحمل حربة (وكانت هيلين فيرال أيضاً نفسانية موهوبة). لم يسمع ريكتور جيداً معنى كلمة (Spear حربة) فسأله لماذا (Sphere مجال)؟ فصحح له هودجسون الكلمة فوافقه ركتور ووعد بأن يحاول التجربة في الأسبوع التالي. وبعد ثلاثة أيام تلقت مرجريت فيرال رسالة تتضمن الكلمة الإغريقية سفيروس (Sphiros) ومعناها المقابل باللاتينية «الحديد الطائر»، وهو وصف فيرجيل للحربة. وفي المرة التالية جلس هودجسون مع مسز بايبر وقال ركتور إنه قد نفذ مطلبه وأظهر لمسز فيرال حربة.

وقبل أن نذهب إلى أبعد من ذلك علينا أن نعترف بأن معظم الدلائل عن المراسلات المتقاطعة لا تخرج عن كونها شيئاً شديد الغموض والإيهام مثل ذلك الذي ذكرناه، ولم يسبق نشره بصورة كاملة، كما لو أنها سوف تحتل مجلدات عديدة ضخمة. والذي لا شك فيه هو أن معظم الدلائل المقنعة على البقاء قد أخذت عن الوسطاء، ومعظمها أيضاً متكررة ومملة للغاية، ولذا فإن أي متشكك ربما يتساءل: إذا أراد مايرز أن يثبت أنه ما زال حياً فلماذا لم يخبر مسز فيرال بأن رسالته المغلقة تشير الى منطقة هولستير في كمبرلاند بدلاً من أن يتحدث بطريقة مضللة عن محاورات أفلاطون؟ وإذا كان يريد أن يعقد اتصالاً بين مسز بايبر ومرجريت فيرال فلماذا لم يكتب بالإنجليزية؟

«طلب مني هودجسون أن يجعلني أرى سهماً» هناك إجابة ممكنة قد تتأتى في عبارة من عبارات مايرز في النصوص المكتوبة.

إن أقرب تشبيه أجده لأعبر عن صعوبة إرسال رسائل هي أنني أظهر واقفاً خلف لوح من الزجاج مغطى بالضباب الذي يحجب الرؤية ويكتم الصوت، وأمليه بطريقة ضعيفة ليكتبه سكرتير متراخ ومتبلد الذهن إلى حد كبير.

وقد بلغ سانتون موزيس أيضاً أن الأرواح التي كتبت الرسائل كانت نوعاً من الكتبة والسكرتاريين.

إن الأذكياء الذين يستطيعون أن يمارسوا الكتابة المباشرة.. قليلون ففي كثير من الأحيان يقوم بالكتابة فعلاً شخص اعتاد ممارستها بهذه الطريقة بحيث يتصرف ككاتب للأرواح التي تريد أن تراسل، وفي كثير من الحالات يتعلق الأمر بالعديد من الأرواح.

وفي لحظة تفاقم الموقف اقترح وليام جيمس تفسيراً آخر يبرر به غموض الأرواح.

اعترف بأنني حاولت في وقت من الأوقات أن اعتقد في أن الخالق قرر بصفة أزلية أن تبقى خواص الطبيعة محيرة كي يستثير حب الاستطلاع والأمل والشك بصورة متساوية، فحتى وجود الأرواح والاستشفاف والدقات الخفية ورسائل الأرواح كلها لا يمكن أبداً أن تفسر تفسيراً كاملاً، كما لا يمكن أن نثق فيها ثقة مؤكدة.

أو بمعنى آخر تبدو كما لو أن الأرواح قد تلقت الأوامر بأن تقدم الأدلة في الحدود التي تكفي فقط لإقناع الذين يريدون الاقتناع، وليست الأدلة الكافية للانتصار على المتشككين. وهذا هو الرأي الذي يمكن أن نسميه قانون جيمس ـ فلا بد وأنه قد مر بذهن كل إنسان له اهتمام بخوارق العادات. فالأدلة كثيرة وغزيرة ولكنها دائماً تترك مجالاً للشك.

بقولنا هذا نحن نسلم بأن بعض الأدلة عن المراسلات المتقاطعة مقنعة جداً، ففي مرحلة مبكرة تلقت مسز فيرال جملة تقول:

«سجلي الجزئيات، وحينما تجتمع مع بعضها سوف تصبح كلاً متكاملاً. قررت روديارد كيبلنج شقيقة أليس فليمنج (التي كانت تعيش في الهند) أن تحاول تجربة الكتابة التلقائية، وسرعان ما تلقت رسالة تقول:

«عزيزتي مسز فيرال (يبدو أن سكرتاري مايرز اختلطوا مع بعضهم) انني شغوف بأن أتحدث إلى بعض الأصدقاء القدامى: إلى «مسز ج» وإلى «ا... و..» وهذا

يشير إلى أليس جونسون سكرتيرة جمعية البحوث النفسانية وآرثر. فيرال زوج مسز فيرال. واستمرت الرسالة في إعطاء وصف لمسز آرثر فيرال، وانتهت بما يلي: «أرسلي هذه إلى مسز فيرال في المنزل رقم ٥ حدائق سلوين ـ كمبريدج». وكان هذا هو العنوان الصحيح لمسز فيرال، ولكن لم تكن هناك وسيلة لتعريف مسز أليس فليمنج، لا بد أنها كانت تعرف اسم مسز فيرال ـ ولئن كانت قد قرأت كتاب الشخصية الإنسانية، فإنها لا تعرف أي شيء آخر كما لم يسبق لها الذهاب إلى كمبريدج. وكانت مسز فليمنج على اتصال مع مرجريتا فيرال في عنوانها رقم ٥ حدائق سلوين، وأصبحت هي الأخرى من الوسيطات اللاتي كن يتلقين المراسلات المتداخلة وأطلقت على نفسها اسم مسز هولاند لأن أهلها كانوا يعارضون في اشتغالها بالبحوث النفسانية). وكانت معظم الرسائل المبكرة التي تلقتها أليس فليمنج موقعة بالحرف «ف» وهو توقيع ظهر كثيراً.

وفي مناسبة أخرى تلقت أليس فليمنج وصفاً تفصيلياً عن الحجرة واعتبر هذا الوصف فيما بعد أدق وصف لحجرة جلوس مارجريت فيرال. والنقطة الوحيدة غير الدقيقة هي أن الوصف ذكر وجود تمثال نصفي في الركن. وحينما ذكرت مسز فيرال ذلك لأحد الأصدقاء قال لها: «لا بد أن هناك تمثالاً نصفياً في الحجرة»، وكان لدى مسز فيرال مرشح مياه له شكل معين بدا في ركن الحجرة أشبه بتمثال فوق قاعدة.

وانضمَّ مراسلان آخران إلى اللعبة زعما أنهما هنري سيدجويك وإدمون جورني، ولكن ظل اللغز معقداً لدرجة كبيرة، فقد طلبت إحدى أخوات مسز بايبر أن يبعث مايرز بمراسلات متداخلة برسم مثلث في داخل دائرة، وبعد أسبوع تلقت مرجريت فيرال رسالة انتهت بمثلث داخل دائرة ومثلث آخر في نصف دائرة. وبعد شهرين تحدث مايرز من خلال مسز بايبر وذكر أنه أعطى مسز فيرال دائرة، وحاول رسم مثلث ولكنه لم يظهر. وهنا يبدو الاضطراب الحقيقي الذي سببه لوح الزجاج المغطى بالضباب وكذلك السكرتارية المختلة.

حتى هذه الحالة البسيطة فيها أمور شديدة التعقيد، فبعد الاقتراح المباشر على مايرز أن يبعث بمثلث داخل دائرة سجلت مسز فيرال رسالة خطية تبدأ بما يلي: «. . . ربما رتبت مجموعة الحروف اللاتينية في كلمات أفضل (Star - tars - rats) أو (Stare - tears). وبعد خمسة أيام بدأت كتابة مسز فيرال أيضاً بمجموعة الحروف اللاتينية

المرتَّبة في كلمات لاتينية ويونـانية «Astar» الـلاتينية (لكلمـة Star أي نجم) و Teras باليونانية (لكلمة عجيبة). وتحدثت أيضاً عن الأمـل وتضمنت اقتباسـاً من براوننـج. وبعد أسبوعين جاء في كتابة مسـز بايـبر قولـه «أشرت أيضاً إلى الأمـل عند بـراوننج، وذكـرت كلمـة Star (بمعنى نجـم)». وبعـد أسبـوع من ذلـك تلقت هيلين فـيرال (الابنة) نصاً خطياً يبدأ برسم نجم واشتمـل هذا النص عـلى إشارة لكتـاب براوننـج بعنوان «بايبر الملونة في هاملتون». لا نلوم غالبية القراء هنا إذا ما شعروا بأن مثل هذه الألغاز المعقدة قد لا تفي بالفرض عندهم.

انضم إلى المجموعة أيضاً وسيطة أخرى من الهواة في عـام ١٨٠٩ هي وينفريـد كومبي ـ تينانت Winferd Combe - Tennant وهي من أقـارب مايـرز (كانت زوجـة مايرز شقيقـة زوج مسز كـومبي تينانت). وبـدأت تتلقى الرسـائل المـوقعة من مـايرز وجورني. وفي عام ١٩٠٩ شرح النص المكتوب أن مايرز وجورني كانا يقومان بتجـربة جديدة تجعل الكلمات تدخـل إلى عقل مسـز كومبي تينـانت تلقائيـاً. ولم يقتصر الأمر على سرعتها في التقاط الكلمات التي تحوم في عقلها بل كـانت أيضاً تتلقى انـطباعـات واضحة عن الشخصيات التي ترسل الرسائـل، وتحكم إذا كان المرسل هـو مايـرز أو جورني من فورها. وكانت المخاطبات في أول الأمر تخاطرية، فسألها صـوت مايـرز في داخل رأسها: «هل تفهمين مـا أقول؟» فـأجابتـه بعقلها «أجـل»، ثم استمرت كتـابة النص التلقائية. وغالباً ما كان النص يشتمل على كلمات تسمعهـا. وطلب منها مـايرز فيما بعد أن تستحضر السير أوليفر لودج في كتابتها التلقائية، ولئن كرهت مسـز كومبي تينانت هذه الفكـرة إلا أنها أذعنت في النهايـة. ثم سألهـا جورني عما إذا كانت تقبـل حضـور بالفـور G.W. Balfor ـ الذي كـان صديقـاً لجـورني وكـان يعلم الكثـير عن الفلسفة، وكانت النتيجة دائماً مرهقة لمسز كومبي تينـانت، فقد كـان عليها أن تجلس هناك تعمل كالسكرتيرة في جلسة مناقشة فلسفيـة لا تفهمها. وبعـد أن أعطى بـالفور محاضرته في كمبريدج دخل معه سير جويك في نقاش عن العـلاقة بـين الجسم والعقل ونـظرية المصـاحبة في العمليـات العقلية والتفـاعلية العقليـة. ورغم أن مسـز كـومبي تينانت (أو كما أصبحت تسمّى نفسها مسز ويليت) كـانت ذكية، إلا أنها كـانت تجهل تماماً عما يتحدثون عنه وحينـما وصل الأمـر إلى نقطة كـان فيها سير جويـك يحاول أن يضع الكلمات في عقلها فقدت أعصابهـا وصاحت فجـأة قائلة: «لا أستـطيع أن أدرك

لماذا يتكلم الناس في مثل هذه الأمور الغيبية». كانت هذه المضايقة التي أصابتها أكثر اقناعاً من حل أي عدد من الألغاز.

هذا، ويمكن القول بصفة عامة إن المراسلات المتداخلة والنصوص التي كتبتها مسز ويليت تعتبر من بين أكثر الأدلة إقناعاً بوجود حياة بعد الموت، لأن أي شخص لديه استعداد أن يقضي بضعة أسابيع في دراستها يثبت لهم بما لا يدع مجالاً للشك أن مايرز وجورني وسير جويك قد واصلوا اتصالاتهم بعد الموت. وتبقى مشكلة السبب في أنهم لم يقدموا دليلاً مباشراً مثل فكرة استخدام المثلث داخل الدائرة، مما قد يجعلهم أبسط وبالتالي أكثر إقناعاً للمتشككين. الإجابة على ذلك في ضوء قبولنا لقانون جيمس هو أنهم لم يهدفوا إلى إقناع العامة، وهذه طبعاً هي نوعية الإجابة التي تجعل المتشككين يهزون أكتافهم استنكاراً وازدراء...

لم يكن مايرز ليحصل على شيء لولا استمراريته، ففي نوفمبر سنة ١٩٢٤ دعيت وسيطة إيرلندية هي جيرالدين كومينز Geraldine Commins إلى حفل شاي في ضيافة قبطان متقاعد وزوجته، وكانت صديقتها الآنسة جيبس Miss E.B. Gibsمدعوة أيضاً. كانت جيرالدين كومينز ابنة البروفسور أسلي كومينز قد حاولت الكتابة التلقائية قبل ذلك بنحو عام كامل، وتبين لها أن لها موهبة وسيطة طبيعية. وكان القبطان وزوجته يأملان في الاتصال بأصدقائهما عن طريق أوي جا Ouija[1]، وتتكون من كأس زجاجية توضع فوق سطح أملس تحيط بها حروف الهجاء فحينما يلمس الجالسون حوله الكأس بأصابعهم تتحرك متنقلة من حرف إلى حرف فتكون كلمة. وفي هذا الحفل تحركت الكاس بسرعة لتكوين حروف الهجاء التي يتكون منها اسم فردريك مايرز، وسأله القبطان: «هل تعرف أصدقائي؟» فأجاب: «باريت وبالفور» ثم شرح أنه يريد أن يبعث برسالة متداخلة، فغضب القبطان وزوجته لهذا الاتصال الذي تم مع مايرز دون أصدقائهم، وانتهت الجلسة بذلك، ولكن مايرز واصل اتصاله، فبعد أسبوع أعلن تواجده في جلسة أخرى من جلسات الكتابة التلقائية التي تعقدها مسز كومينز. وبسؤال عن مشكلة الاتصال شرح أن طريقتهم هي أن يؤثروا في عقل الوسيط الداخلي بالرسالة التي يريدون إرسالها ثم يقوم ذلك العقل الداخلي

(١) كلمة مركبة من Oui الفرنسية و Ja الألمانية ومعناها معرفة خبر الأجل.

بإرسالها إلى المخ، والمخ مجرد جهاز ميكانيكي في حين أن العقل الداخلي مثل السمع المنصهر يتلقى أفكارنا ولكنه بدلاً من أن يصدر الكلمات يفلسف الأفكار، وذلك هو ما يجعل الاتصال المتداخل يبدو دائماً في اضطراب.

وأعلن مايرز من فوره مشروعاً جديداً يحاول فيه الاتصال من خلال فيدا المتحكمة في مسز ليونارد مباشرة بعد اتصاله السابق عن طريق جيرالدين كومينز، واقترح أن يصل موضوع الرسالة تخاطراً، وأن يكون متضمناً آراء صديقه لورد بالفور. وذكرت مسز جيبس أنها فكرة غير جيدة لأنها كانت منذ فترة في اجتماع كان بلفور يتكلم فيه عن التخاطر، وأن هذا الاجتماع قد نشر عنه في الصحف، فربما يكون هناك اعتراض على أن الوسيط فكر بالفعل في الموضوع. ووافق مايرز على ذلك. وفي هذه الحالة وافق على أن يتكلم عن كتاب يزمع كتابته قبل موته. . كتاب يعبر فيه عن اقتناعه بأن فكرة الحياة بعد الموت أمر ثابت لا يرقى إليه الشك.

وفي اليوم التالي أسرعت مسز جيبس لتقابل مسز أوسبورن ليونارد لتتأكد من أنها لم تتلق أي إشارة عن الغرض من حضورها، وذكرت فيدا المتلبسة في مسز ليونارد أن هناك أرواحاً متعددة معلقة حولها تنتظر الاتصال. وقالت مسز جيبس إن في ذهنها شخصاً معيناً مهماً، وفي محاولتها معرفة اسمه استطاعت فقط أن تتوصل إلى معرفة أول حرف منه وقالت إن الرجل يعرض عليها شعراً، إذ كان الشعر من اهتماماته الرئيسية، «ويبدو أنه كان ذكياً لدرجة أنه يفهم في الشعر القديم وبخاصة شعر فرجيل» ثم أضافت تعليقاً هاماً: «إنه يحافظ على موعده معك»، وبعد ذلك مباشرة أعلنت اسمه: «فريد. . أنا مستعدة يا فريد» (كان مايرز معروفاً بين أصدقائه بهذا الاسم). ثم أضافت أن مسز جيبس كانت على اتصال به في اليوم السابق.

وفي المرة التالية ظهر مايرز في الجلسة مع جيرالدين كومينز، واعتذر عن عدم حضوره حضوراً واضحاً، وذكر أنه كانت هناك مشكلة مع فيدا التي تميزت بالحيوية البالغة (واضح أنه يقصد بهذا الوصف أنها كانت مشتّتة الذهن)، وأن أفكاراً أخرى تتردد في الحجرة آنذاك. وحينما قالت مسز جيبس أنه جاء في أحسن صورة، أجاب مايرز «حسن، لقد فاجأتني». وعلى أي الأحوال قال إنه شعر بأن الجلسة كانت فاشلة،

وأن ما أراد توصيله هو أنه كان ينوي كتابة كتاب يعلن فيه إيمانه بالكامل بالحياة بعد الموت، ولكن فيدا لم تستطع ببساطة أن تلتقط ما كان يحاول إعلانه، وشعرت مسز جيبس بأن محاولات الاتصال عن طريق الوسيطتين خلال يومين مختلفين كانت ناجحة تماماً، ولكن من الصعب موافقتها على ذلك، وكان لهذه الجلسات أيضاً أهميتها لأنها تعطينا فكرة واضحة عن تداخل المشاكل التي يبدو أن الأرواح تواجهها حينما تحاول الاتصال بالأحياء، أو بالأحرى مثل شخص يريد أن يسمع في خط تليفوني فيه تشويش مستمر من خطوط أخرى.

أما عن الكتب التي جاء ذكرها خلال هذه الاتصالات فهي: الطريق إلى الخلود وفيما وراء الشخصية الإنسانية، وسوف يعجب بعض القرّاء بها وسوف يراها آخرون مملة وتافهة، وفيما يلي نموذج منها:

قد يتلخص الغرض من الوجود في عبارة واحدة هي أن تطور العقل يختلف في الدرجة والنوعية. وعلى ذلك فإن العقل يتطور من خلال ما يستعرضه في عالم متحدد باستمرار في قوته المتزايدة ومكاسبه فيما يتعلق بحقيقة مفاهيم الواقع.

يبدو الأمر وكأن هذا كلام بلا معنى صاغه المسيح الدجال، ولكن إذا ما فحصناه فحصاً دقيقاً فسنجد أنه معقول. بل معقول جداً. وهذه الفكرة عن أن العقل يحاول أن يقحم نفسه في المادة فكرة شائعة تنطبق على كل أفكار التطور الحيوي بدءاً من هيجل إلى برناردشو. وتذكرنا بأن المادة تختلف في صفتها ونوعيتها، بما في ذلك كونها مادة صلبة أو مادة تتجاوز مجالات الحواس (ويذكر مايرز في مكان آخر أنها مسألة معدلات الاهتزاز، وهي فكرة من الأفكار التي شاعت في الطبيعيات الحديثة). ويتطور العقل خلال عملية اقحام نفسه في المادة، فيطور القوة ببطء وبعمق الإحساس بالواقع، وحينما ننظر إليه مرة ثانية نستطيع أن نرى ان انطباع الغموض يرجع إلى عدم وجود علامات موضحة مما يسبب ذلك الغموض. وطبقاً لما ذكره مايرز لا بد للروح التي تقوم بالاتصال أن تستخدم الجهاز العقلي الخاص بالوسيطة (وبالطبع مفرداتها) وهذا هو السبب في أن الاتصال الكثير بالروح قد يؤدي إلى انطباع يضعف عقلها (كان مايرز هو أول من اعترف أن الكثير من الأرواح ضعيفة العقول).

ولنترك التساؤل عما يتم توصيله من رسائل إلى ما بعد، ونطرح الآن سؤالاً عما إذا أمكننا أن نتقبل رسائل الموتى بجدية. مهما كانت الاعتبارات فالإجابة بالإيجاب، فإذا كانت جيرالدين كومينز وجيبس يقولان الحقيقة عن ظروف تلقيهما المراسلات، إذن يتأكد لنا بذلك صحة الزعم بأن نفس الروح قد حاولت التحدث من خلال كل من مسز كومينز ومسز ليونارد.

ولعل هذا مما يقوي الإحساس بأصالة كتاب نشر فيها بعد عن النصوص التي كتبتها جيرالدين كومينز وعنوانه «بجعة فوق بحر أسود»، ويتضمن سلسلة من الاتصالات التي أتت من مسز ويليت وهي وينفريد كومبي تنانت متلقية الرسائل التلقائية التي تعلمت كيف تستمع إلى مايرز وجارني مباشرة. وماتت عام ١٩٥٦ في الحادية والثمانين من عمرها محتفظة بشخصيتها التي سمت نفسها بها سراً وهي مسز ويليت حتى النهاية. وبعد سنة واحدة من وفاتها طلب رئيس جمعية البحوث النفسانية من جيرالدين كومينز أن تحاول الاتصال بوالدة الميجور هنري كومبي تينانت ولم تكن جيرالدين تعلم شيئاً حتى عن مسز كومبي تينانت. وفي ٢٨ أغسطس سنة ١٩٥٧ احتجت «آستور» المسيطرة على جيرالدين كومينز لمضايقتها بهذه المهمة الشاقة وهي الاتصال بوالدة شخص لم تسمع عنه، ولكنها استطاعت عن خطاب سالتر أن تلتقط شعوراً «بضرورة الاحتفاظ بالكتابات والأسرار»، ثم أعلنت أن سيدة عجوزاً في الثمانين من عمرها اتصلت بها، وقالت آستور إنها سألت العجوز عما إذا كان اسمها وين أو واين، ومنذ ذلك الوقت تلبست فيها وينفريد كومبي تينانت، وأخذت تلقنها مجموعة مدهشة من الأخبار الشخصية مليئة بالعبارات الدقيقة عن حياة مسز كومبي تينانت. وتعتبر هذه أيضاً إحدى الوثائق الشخصية المباشرة التي أملتها ما تسمى الأرواح. ولو أن جيرالدين كومينز كانت مخادعة لكان مستحيلاً أن تجد كل ذلك القدر الكبير من التفاصيل الشخصية الدقيقة عن حياة سيدة لم يسبق أن قابلتها، وتصبح الفرضية البديلة المعقولة هي أن جيرالدين كومينز وأبناء مسز كومبي تينانت تعاونوا على تلفيق النصوص، ويبدو أن ذلك غير صحيح.

لكننا نقابل مرة أخرى ذلك التناقض الرئيسي حول مشكلة «البقاء بعد الموت»، فربما كان كتاب «بجعة فوق بحر أسود» من أكثر الأدلة إقناعاً بحقيقة وجود حياة بعد الموت من بين كل ما كتب عن الموضوع، ولكن مع ذلك لا يقدم لنا شيئاً ذا أهمية

كبيرة، لأن أي رسالة من العالم الآخر أو من عالم الموتى الغامض تأتي من العارفين منهم يبدو بوضوح أنها أمر مبتذل مثله مثل الثرثرة التي قد تحدث في بهو الكنيسة حول مسائل البيع والشراء، فلن يؤدي الكتاب إلى تغيير رأي أي متشكك في مبادىء الروحانية لأن أي متشكك لن يعنيه أن يقرأه. وهنا نواجه مرة أخرى قانون جيمس الذي ينص على أن ما يجري في الأمر هو أن الدليل المؤكد عن الحياة بعد الموت سوف يظل دائماً مؤكداً بالنسبة للمقتنع ولكنه لن يكون أبداً دليلاً كافياً له أقل تأثير على غير المعتقد.

٦
دكتور شتاينر ومسألة التناسخ

في مساء يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٩٠٠ قدَّم شاب رقيق نحيف نفسه إلى مكتبة جمعية الثيوصوفي في شارع القيصر فردريك في برلين تحت اسم دكتور رودولف شتاينر، فنظرت إليه الكونتيسة بروكدورف التي تعمل سكرتيرة لودج بدون اكتراث، وكان رودولف شتاينر آنذاك في الأربعين من عمره وفي نقطة تبدو لهجة فلاحي جنوب النمسا واضحة تركت النظارات المعلقة بسلسلة ومتدلية فوق أنفه انطباعاً على أنه مدرِّس غائب العقل. وكانت ابتسامته تحمل علائم الحب والخجل. علمت الكونتيسة أنه ألَّف كتاباً عن جوته. وأنه يلقي في الجمعية التربوية للعمال محاضرات في التاريخ السياسي، وأنه سيلقي في تلك الليلة محاضرة عن نيتشه، وهو موضوع لا يناسب الثيوصوفيين إطلاقاً إذ أنهم يعتقدون في أن أعمق حكمة العالم قد أتت من الهند القديمة وأن نيتشة أولاً وقبل كل شيء ملحد ثائر على الكنيسة.

وحينما بدأ الدكتور شتاينر محاضرته ثبتت صحة شكوك الكونتيسة فيه، فقد كان إلقاؤه مملاً بعض الشيء وكثيراً ما كانت عباراته تجريدية وضمنية، وبدا أن رأيه في نيتشه كان رأياً غريباً. وكان واضحاً أن دكتور شتاينر يعتقد في أن هناك حقيقة روحانية من وراء هذا الكون في حين لم يكن نيتشه يؤمن بشيء من هذا، فما الذي دعا الدكتور شتاينر إلى إلقاء محاضرة عنه؟ مع التعود على طريقة الإلقاء المملة قد يجد الإنسان في دكتور شتاينر شيئاً حميمياً، فعيناه تلمعان بالصداقة، وبينما هو يتكلم تبدو عليه الثقة في المستمعين وبعد المحاضرة، وأثناء إجاباته للأسئلة وصف شتاينر زيارته للفيلسوف نيتشه في بلدة وايمر، كان الفيلسوف آنذاك مصاباً بمس من الجنون، وكان على وشك الموت الذي حدث بعد هذه المحاضرة بثلاثة أيام، وتحدث شتاينر عن جبهته الجميلة وعينيه الهادئتين اللتين ينظر بهما في فراغ الفضاء، وفجأة قال شتاينر إنه يحس بتواجد نيتشه تواجداً حقيقياً كما لو أن روحه تحوم حول رأسه.

وبينما كانت الكونتيسة تودعه في ذلك المساء سألته عما إذا كان يقصد أنه رأى روح نيتشه بالفعل تحوم فوق رأسه، ولشدة دهشتها كانت إجابة شتاينر: «أن ما رأيت بعيني من روح نيتشة هي جسمه النوراني الذي يضغط على جسمه الطبيعي» فبادرته سائلة: «هل رأيتها حقاً؟» فابتسم وقال: «أجل، ولكن بعيني الطبيعيتين». وودعها ومضى لحاله. ليس من شك في أنه كان رجلاً غامضاً. وقد طلبت منه الكونتيسة باندفاع أن يعود في الأسبوع التالي ليتكلم عن تفسيراته الباطنية لرؤيا جوته المدهشة المسماة «قصة خيالية»، وفي هذه المرة تكلم في هدوء وثقة لدرجة أنه لم يدع مجالاً لأي من الحاضرين أن يتشكك في أنه يتكلم عن خبرة عميقة. وسُئل شتاينر عن إمكانية إلقائه سلسلة من المحاضرات في جمعية ثيوصوفيا، وحينما اقترح أن يكون موضوع السلسلة عن الباطنيين العظماء قبلت الجمعية ذلك بالترحاب.

وأصبح شتاينر خلال ذلك الشتاء هو الشخصية المفضلة عند جمعية الثيوصوفيا. حقاً كان بعض الأعضاء متحفظين من جهته لأنه كان كثيراً ما يتحدث بما يتناقض مع آراء الجمعية وعلى رأسهم مدام بلافاتسكي، وزعيمة الجمعية آنذاك التي كانت آني بيسانت. وكان حينما يسترعي نظره إلى ذلك التناقض يبتسم ويسأل سؤاله التقليدي «أحقاً ذلك؟»، مع ذلك كان واضحاً أنه يحضر ليتحدَّى أو ليصدم أحداً. كان يتحدث من منطلق الخبرة الشخصية المباشرة، وكانت معارفه واسعة النطاق لدرجة يظهر معها وكأنه قرأ لكل كتّاب القرون الثلاثة الماضية. وكانت هناك شابة جميلة تُدعى ماري فون سايفرز الممثلة التي كانت تدرس في باريس لم تخفِ هيامها به، وكان من الواضح أنها قد فتنته وأعرب دكتور شتاينر بتتبعها لاتجاهاته، فزاده ذلك تفتحاً وثقة في النفس، وهز بعض الأعضاء رؤوسهم لعلمهم أنه متزوج، ولم تكن الكونتيسة قد قابلت زوجته، ولكنه أخبرها بأنها فلاحة، وأنها تكبره بسنوات عديدة.

وحدث بعد ذلك أن أصبح دكتور شتاينر بين يوم وليلة رئيساً لمحفل الجمعية الثيوصوفية في برلين، وازداد عدد من اعتبروه داعية لها، وازداد عدد أعضاء الجمعية بشكل ملحوظ. وتقابلت مسز بيسانت مع شتاينر وأعجبت به، والظاهر أنها لم تكن شديدة الاهتمام بموضوع الباطنية المسيحية التي كان يدعو لها شتاينر، بينما كانت مدام بلافاتسكي آنذاك تنادي بأن كل الأديان طرق تؤدي إلى نفس الحقيقة، ومن ثم لم يكن هناك أي خطر من تعاليم شتاينر. ويبدو أن شتاينر تقبَّل فكرة مدام بلافاتسكي

بـأن الإنسان الحـالي يمثل الجـذر الخامس للجنس البشري (الجـذر الرابـع هم سكـان أطلانطس)، وأننا جميعاً نمر خلال التناسخ أو حلول الروح. وأعلن أيضاً أنه قادر على قراءة اللوح المحفوظ، وهو السجلات التاريخية الحقيقيـة المختزنـة في الكون الأثيري، وتكلم بثقـة بالغـة عن طفولـة المسيح، وعن الحـركات الـروحيـة المتعـددة في تـاريـخ الغرب.

أصبح شتاينـر خلال عشر سنـوات واحداً من أشهـر رجال أوروبـا وأصبح لـه أتباع كثيرون، وبعد فترة قصيرة انفصل عن الجمعيـة الثيوصـوفية حينـما حاولت مسـز بيسانت أن تقدم داعيةً جديداً هو جيرو كريشنا مورني الـذي كان آنـذاك مجرد صبي، وكان الثيوصوفيون الألمان ينظرون إلى شتـاينر بـاحترام بـالغ حتى أن معـظمهم فضلوا الالتحاق بتنظيمه الخاص الجديد الذي سماه الجمعية الأنثروبوصوفية أو جمعية الصـوفية الإنسانية، وفي عام ١٩١٢ اعتقد الكثير من أتباع شتاينر أنه عبارة عن تجسيـد للإلـه، أو حلول عنصر الإله فيه مثل بوذا أو المسيح، وأنه أرسل إلى الأرض ليأتي لها بالنـور، وأن الصوفيـة الإنسـانية أو الأنـثروبوصـوفية سـوف تصبح في يـوم من الأيام الـديانـة الجديدة التي تحل محل كل ما قبلها من ديانات.

انتهت كل الأمال التي تتطلع إلى إحياء دين جديد إلى لا شيء، فقد كان تفجر الحرب العالمية كالعاصفة، ومـرت أربع سنـوات أصبحت فيها أوروبـا مشغولـة تماماً بأشياء أخرى خلاف مجرد التفكير في الأنثروبوصوفية، بـل انتشرت الإشاعـات عن أن شتاينر هيأ لهزيمة ألمانيا بإعطائه نصيحـة خاطئـة للجنرال مـولتكي الذي كـانت زوجته واحدة من أتباع شتاينر. وقام شتاينر ببناء معبده بمدينة دورناسن في سويسرا، ولكنه لم يخرج عن كونه مركزاً للطقوس. ولما انتهت الحرب ظن شتـاينر أن فـرصته قـد حانت ليصبح مؤسساً للدين الجديد، فأخذ يتنقل ويلقي المحاضرات في كل مكان بلا كلل، ولكنـه أصيب بشيء من الإعياء ومـات في مارس سنـة ١٩٢٥ قبل أن يبلغ الخـامسـة والخمسين من عمره، وبقي اسمه معروفاً على نطاق واسع لأنه ارتبط بنوع جـديد من المدارس، وبالأساليب الثقافية الطبيعية.

وإلى جانب رودولف شتاينر كان في مسيرته داعية كالمسيح فيها بين سن الأربعين والخـامسة والخمسـين، فقد كـان أيضاً واحـداً من أشهر دعـاة الـروحـانيـة في القـرن

العشرين، هو الرجل الذي مزج مسيحية العصور الأولى بالروحانية الجديدة التي كانت تحاول أن تحل محلها.

ولكي نتفهم سبب كل ذلك لا بد لنا من كلمة عن مدام بلافاتسكي التي كانت تسمى عند مولدها سنة ١٨٣١ باسم هيلينا هان، أي قبل مولد شتاينر بثلاثين عاماً، وكانت هيلينا هي الرئيسة المرشحة للجمعية الثيوصوفية ابنة كاتبة قصة روسية، وكانت من صباها ممتلئة الجسم فارعة القوام، جلست في يوم من الأيام تحدق في الفضاء وبيدها قلم، ودهشت حينما رأت يدها تتحرك بالقلم وتبدأ الكتابة، قدمت الروح المتصلة نفسها على أنها تكلا ليبندروف خالة أحد ضباط الحامية التي يقودها والدها، دهش والد هيلينا من المعلومات التي أخبرت بها الخالة تكلا عن نفسها، فاستخدم بعضاً من سلطته لمراجعة تلك المعلومات في السجلات الحكومية، ولشدة دهشته ثبت أن كل ما قالته صحيح، وأصبح واضحاً بذلك أن الموتى يستطيعون الاتصال، ثم حدثت في أحد الأيام صدمة حينما قابلت هيلينا ذلك الضابط ابن شقيقة الخالة تكلا، وثبت أن المعلومات التي أعطتها لها عنه صحيحة، وتساءلت كيف ذلك؟.

من العجيب أن هذا التناقض الاستطلاعي يعتبر من الأدلة المقنعة على أن الإنسان قد يتواجد بعد الموت، وكان من أكبر الاعتراضات على البقاء أن النوم يتعارض مع ذلك. فبعد أن تنفصل كل أجسامنا النورانية عن الجسم الطبيعي أثناء النوم تماماً كما يحدث عند الموت لماذا إذن لا نشعر بأنفسنا نطوف خارج أجسامنا الطبيعية حينما نستغرق في النوم مثلما يحدث عند الموت؟ إجابة مذهب الروحانية على ذلك هي أن الجسم النوراني ينتقل فعلاً أثناء النوم، ولكن تمر بنا حالة من فقدان الذاكرة عن كل أنشطتنا، فيقال إن الوسيط أو الروح الأسرة قادرة على أن تجتذب روح الشخص النائم بنفس السهولة التي تجتذب بها روح الميت. يبدو أن ذلك غير صحيح. ولكن ذلك هو ما حدث فعلاً في حالة هيلينا بلافاتسكي. وحدث أيضاً في إحدى الحالات الموثوقة خلال القرن العشرين أنه بينما كانت الروح المساة جوردون دافيز تتصل من خلال الوسيط دكتور سول S.G. Soal أعطى دافيز معلومات وفيرة ودقيقة عن المكان الذي تعيش فيه أرملته، ووصف المنزل الواقع أمام البحر وصفاً تفصيلياً فيه كثير من الدقة، وحينما تعرف سول على مكان المنزل أخيراً من منطقة

ساوث إند على البحر وجد المنزل حسب ما وصفه دافيز تماماً. ولكن دافيز كان حيّاً وفي صحة جيدة جالساً أمام المدفأة. هذه إذن حالة تشبه حالة تكلا لبيندروف يبدو واضحاً أنها تعطينا نوعاً من البرهان على أن الجسم النوراني ينفصل بالفعل عن الجسم الطبيعي أثناء النوم كما يحدث تماماً عند الوفاة.

تزوجت هيلينا من رجل يدعى بلافاتسكي، ولم يكن زواجاً سعيداً إذ أنه لم يستطع افتضاض بكارتها وهرب من المنزل وكان عمرها آنذاك ثمانية عشر عاماً في سنة ١٨٤٩، وهي السنة التي أعقبت بدء أصوات الدقات العجيبة التي سمعت في منزل الأختين فوكس. ولما سافرت إلى نيويورك عام ١٨٧٣ كانت هيلين قد تحولت إلى وسيط وأصبحت قادرة على تقديم أصوات الدقات من كل أنحاء الحجرة. ولما أرسل المندوب الصحفي هنري ستيل ولكوت لعمل حديث معها أصبح من مريديها، وساعدها في مرحلة خطيرة من حياتها وهي الفترة التي كانت تسطر كتاباً بعنوان «إيريس بلا قناع» وهو الكتاب الذي جلب لها الشهرة. وبعد أن تحقّقت الشهرة لهيلينا قررت أن تتخذ من الهند وطنها الروحي. وأخذت جمعية الثيوصوفية التي كونتها معها إلى الهند. وفي عام ١٨٨٤ وقعت كارثة حينما أرسلت جمعية البحوث النفسانية ريتشارد هودجسون للتحقّق من مزاعمها، واستطاعت ربة البيت التي كانت تغار منها أن تقنعه بأن كل أعمالها خداع. لم تستطع بعد ذلك أن تستّرد سمعتها بسبب إعلان أدانها في محاضر جلسات جمعية البحوث النفسانية، وماتت بمرض قلبي وهي في الستين من عمرها وكان ذلك عام ١٨٩١. لكن مذهبها الجديد «الثيوصوفية» وهو مزيج من البوذية والروحانية استمر وكان له تأثيره على المستوى العالمي. ويمكننا القول بأن هذا الشكل الذي قدمته مدام بلافاتسكي من الروحانية حقق نجاحاً أعظم بكثير مما حققته الصيغة التي أخرجتها الأختان فوكس في روشستر عام ١٨٥٠ حيث لم تجتذب هذه الصيغة الأخيرة إلا القليل من المعجبين.

كان رودولف شتاينر من أبناء الطبقة العامة في النمسا، فوالده مشغل جهاز برق في محطة سكة حديد نمساوية، وكان من الناحية المادية محروماً في طفولته. لأنهم كانوا فقراء للغاية، ولكنه نشأ في وسط منطقة بديعة المناظر بها غابات، وجبال واستطاع بذكائه الطبيعي أن يقرأ معظم الكتب التي وقعت في يده.

في يوم من الأيام كان جالساً في المحطة بحجرة الانتظار حينما دخلت عليه امرأة

غريبة وقالت: «حاول أن تساعدني إذا استطعت الآن» وسارت نحو المدفأة واختفت فيها. امتاز الصبي بقدرته على تمالك نفسه، فلم يخبر أحداً بما رأى خاصة وأنهم كانوا من الكاثوليك، وربما عنفوه على هذه الخرافة. لكنه لاحظ أن أباه قد أصابه الحزن خلال الأيام التالية لذلك، ثم علم فيما بعد أن قريبة من أقربائه لم يسبق له أن رآها قد انتحرت، في نفس الوقت الذي رأى فيه المرأة الغريبة في حجرة الانتظار بالمحطة.. ونظراً لأنها طلبت منه العون فمعنى ذلك أنها ما زالت حية.

قص شتاينر هذه القصة في إحدى محاضراته فقال:

منذ ذلك الوقت بدأت حياة روحية تتطور في داخل الصبي جعلته يدرك عن عوالم لا تتكلم فيها الجبال الخارجية والأشجار الخارجية للروح البشرية فحسب بل والكائنات التي تعيش خلفها، ومنذ ذلك الوقت عاش الصبي مع أرواح الطبيعة التي يمكن ملاحظتها، وبخاصة في مثل تلك المنطقة التي عاش فيها، عاش مع الكائنات المبدعة التي هي من وراء الأشياء.

يبدو إذن أن شتاينر كان على مثال ووردزورث قادراً على الإحساس «بالأنماط غير المعروفة من الكائنات» عن الطبيعة المحيطة به، كما كان واضحاً أنه على مثال هيلينا هان، وسيطاً طبيعياً، ولكنه اختلف عن سائر الوسطاء الذين وجدوا في أواخر القرن التاسع عشر ناحية هامة هي قدراته الاستطلاعية العقلانية، فلقد أعاره أحد المدرسين مجلداً في حساب المثلثات، استطاع منه أن يكوّن أشكالاً لا ترى مائلة نحو الداخل فقط ومنفصلة عن شكلها الخارجي «... لأن تكون قادراً على الإمساك بشيء روحي فقط يغمرني سرور داخلي. وإني أعرف أنه من خلال حساب المثلثات مرت بي تجربة السعادة لأول مرة في حياتي».

ويصعد بنا الكلام عن حساب المثلثات على أنه من «الروحانيات الخالية» بحدّة إلى الروحانية مباشرة، ومع ذلك مثل هذا الاتجاه الجوهر الرئيسي لفكر شتاينر، ويعطيه أهمية خاصة تتسامى كثيراً عن أي روحانية في القرن التاسع عشر أو في القرن العشرين أيضاً. إن ما تعلمه شتاينر من الطبيعة، وكذلك من حساب المثلثات هو كيف ينحسر في داخل نفسه. قال الفيلسوف الدانمركي كيركجارد «إن الحقيقة ذاتية» يعني أنها خبيرة بالحقيقة، وبذلك فهي تتميّز عن مجرّد «المعرفة» بأن بها شيئاً حقيقياً وأنها نوع من النفوذ إلى العوالم الداخلية، وهي كما يذكر شسترتون «لو قلت إن

الأرض كروية فهي حقيقة ولكني لست أعنيها، ولكي أعنيها فإني أحتاج إلى أن أكون رائداً أجوب آفاق الفضاء». ينطبق نفس الشيء على حقائقنا، ولكن حينما أسترخي داخل حمام ساخن وأشعر بإحساس من السرور والارتياح يغمرني، فإنني أجرب بذلك أيضاً شكلاً من أشكال الحقيقة. قد يجرب الرائد الفضائي نفس هذا الشعور الداخلي بالتأكيد حينما ينظر إلى أسفل لأول مرة ويقول «يا إلهي إن الأرض كروية».

وطبقاً لما ذكره شتاينر، فإن هذا الشعور بالتواجد الداخلي يعتبر نقطة بداية في «الحياة الروحانية»، إن ما يجب أن نتعلّمه هو أن نربط أنفسنا هناك، وألا نسمح للعالم أن يجرنا إلى منطقة الشك والتنازلات. وهذا هو - بصورة ما - ما قصده شكسبير بقوله: «كن صادقاً تجاه نفسك». لكن الأمر لا يحتمل ما هو أبعد من ذلك، إنها تعني أن نتعلم كيف نستمع إلى الأصوات الداخلية، نتعلم لغاتها، وأن نستمع إلى صوت داخلي ليس مجرد تساؤل لتقرير ما إذا كنا نفعل شيئاً أو لا نفعله وفقاً لنصيحة النداء الداخلي، بل إنه أشبه ما يكون بدراسة بعض الحكم القديمة التي كتبت بلغة غير معروفة، وقد تستمر دراستها لمدى الحياة.

والآن يستطيع معظمنا أن يفهم كيف أن الانحسار في داخل النفس يؤدي بنا إلى تقدير أفضل لكل شيء. لكي تقدّر الموسيقى أغلق عينيك أو على الأقل ركّز نفسك كلّية على الموسيقى، وحينما نكون «في النغم» مع الطبيعة فإن ذلك لأننا نصل إلى حالة الانحسار داخل النفس، وتكون النقيضة أنه كلما زاد تعمقنا في «داخليتنا» زاد عمق تقديرنا لما هو «في الخارج».

يتجاوز شتاينر ذلك إلى ما هو أبعد بكثير، فهو يصر على أننا حينما نكون في حالة الاستبطان (في داخلية النفس) نصبح أيضاً على وعي بعالم خوارق العادات، فكلاهما من قبيل الروحانية ومن قبيل خوارق العادات. ربما بدا ذلك كما لو كان تجربة شخصية مر بها شتاينر، فهو يزعم أنه بعد أن رأى ابنة عم والده في حجرة الانتظار بالمحطة أصبح واعياً بأرواح الطبيعة، ولعله يقصد نفس نوع العناصر التي زعمت روزاليند هايوود أنها قابلتها في دارتمور، وكذلك أرواح الموتى (ربما نتذكر تعليق روزاليند هايوود ووصفها لمقابلتها التخاطرية مع صديقتها الميتة ڤيڤيان حيث قالت: «سرعان ما أصبحت مدركة أنني لا أستطيع أن أستمسك بحالة الذوبان التي يحتاجها الاتصال بڤيڤيان» باعتبار أن الاتصال مع الموتى يتطلب امتصاصاً داخلياً معيناً..).

ولقد زعم شتاينر في سيرته الشخصية حدوث اتصالين مع شخصين من الأموات لم يكن يعرف أياً منهما، لم تكن تجربة وسطاء بل إنها تضمنت نوعاً من الاندماج الداخلي، فقد حدث في ڤيينا، حينما كان شتاينر في أوائل العشرينيات من عمره، أن قدمه البعض لأسرة مثقفة من الطبقة المتوسطة، وفي ذلك يقول: «يستطيع الإنسان أن يحس وهو وسط هذه الأسرة بوجود شخص غير معروف لنا، هو الأب، ولم يسبق لنا [يقصد شتاينر نفسه وبعض الأصدقاء الآخرين] أن قابلناه، بيد أننا أحسسنا بوجوده»، كان ذلك الأب الراحل رجلاً غير عادي يتجنب الاتصال بالمجتمع ويعيش مثل الناسك، ومما قالته عنه أسرته ومما كتبه هو في مذكّرات، أخذ شتاينر يشعر تدريجياً أنه يعرفه، وأخيراً مات الراحل وطلب من شتاينر أن يلقي خطبة الجنازة، فتحدث عن الأب وكأنه يعرفه عن قرب حتى أن الأسرة أخبرته أنه كان يتكلم وكأنه يعرفه تماماً. .

يبدو أن معرفة شتاينر الظاهرة بالأب جاءت من شتات المعلومات التي سمعها من أفراد أسرته، ولكن فيما بعد أصبح واضحاً مما ذكره في سيرته الشخصية أنه كان يقصد أكثر من ذلك. فبعد عشر سنوات انتقل وايمر إلى العمل في أرشيف جوته لينشر كتابات جوته العلمية، وقدم لأرملة تسمى آنّا أيونيكا التي أصبحت فيما بعد زوجته، وقد أجّر شقة في منزلها، وأصبح مدركاً واعياً بعمق لشخصية زوجها الراحل. يذكر في سيرته الشخصية «أن قوى الرؤية الروحية التي أمتلكها قد مكنتني من الدخول في علاقات وثيقة مع روحين بعد موتهما الأرضي». والحقيقة أن ما زعمه شتاينر هو قدرته على متابعة تطور كلا الرجلين الراحلين في عالم الأرواح.

والآن بدأ يتّضح أمامنا لماذا كان شتاينر غير صابر على الروحانية ولماذا أعلن في إحدى المناسبات «أن الروحانيين هم أعظم الماديين جميعاً». يروح الوسيط في غشية تنويمية، أو يستخدم القلم لتتبع كلمات روح من الأرواح وهو لا يعلم شيئاً عن الطبيعة الحقيقية للميت أو حقيقته الداخلية. ونجد أن وصف روزاليند هايوود عن اتصالها بصديقها ڤيڤيان أوسبورن بعد وفاته قريب من ذلك للغاية، فهي تقول «دخلت مباشرة في أعماق ڤيڤيان نفسه بأقصى درجات السرور والحيوية» وأن ڤيڤيان «نقل إليها بطريقة حميمة أن أفضل كلمة في نظره هي كلمة الاندماج» وهذا هو ما أرادته من ذلك القول. وتحدثت مسز ويليت أيضاً عن استشعاره لكل من مايرز

وجورني بنفس الطريقة. وهذا هو ما يقصده شتاينر بعبارة الاتصال بالموتى، فهو يشعر بأن الروحانية بدّلتها باتصال أكثر سطحية ومادية من عنصر الداخلية.

وطبقاً لما ذكره شتاينر، كان للإنسان في الماضي السحيق قدرة مباشرة على الاتصال بالموتى، وهناك في الحقيقة دليل مدهش من قطعة أثرية قديمة، فالكائنات البشرية الحديثة تنتمي لسلالة تسمى «إنسان كرومانيون» ظهر على سطح الأرض منذ نحو خمسين ألف عام، والمعتقد أنه قضى على سابقيه من إنسان نياندرتال، إذ كان إنسان نياندرتال صغير الحجم أشبه ما يكون بالقردة العليا وطريقته في الاتصال كانت تقتصر على أصوات أنفية المخرج، ولكن قبوره احتوت على أحجار بيضاوية ربما كانت تصويراً للشمس وأشياء أخرى طقوسية تدل على أنه كان كالمصريين القدماء يعتقد في نوع من الحياة بعد الموت. ومن الصعب أن نعتقد أن مخلوقات أرقى قليلاً من القردة يمكنها أن تطور فكرة الحياة الأخرى، ولكن شتاينر مثله مثل عالم النفس الحديث ستان جروخ على حق في اعتقادهما بأن إنسان نياندرتال كان أكثر نفسانية من الإنسان الحديث، إذن كان اعتقاده في الحياة بعد الموت ليس مجرد مسألة فلسفية بل خبرة مباشرة.

لذلك فهو يقول:

«لو أننا نظرنا إلى الوراء نظرة روحانية ولو لقرون قليلة مضت لوجدنا شيئاً لا بد وأن يدهش أي شخص يجهل تلك الأشياء، سوف نجد أن الاتصال بين الأحياء والأموات يزداد صعوبة، وأنه منذ زمن قصير مضى كان هناك اتصال نشيط بينهم»(١).

ويحتاج الميت، كما ذكر شتاينر - إلى اتصال مع الأحياء كي يغذي وجوده، وفي الأزمنة الماضية كان هناك اتصال مباشر بين الأحياء والموتى، وكان باستطاعة الأحياء أن يتابعوا ما يحدث لأقاربهم الموتى فيما بعد الحياة، ولكن هذه القدرة الاستشفافية ضاعت بالتدريج. وحتى ذلك الوقت كان هناك نوع من شبه شعور بالوعي عن وجود الموتى، أما الآن حسب ما يقول، فقد اختفى ذلك تماماً، ولكن مع قدر ما يمكن للناس أن يتعلموا كيف ينفذون إلى العوالم الخارجية من خلال العلوم الروحانية، وسوف يستعيدون بذلك القدرة على الاتصال بالموتى.

---

(١) Description Sketches of Spritual World, 1913.

ووصف شتاينر ما يحدث للإنسان بعد الموت في واحد من أوائل مؤلفاته الهامة وهو كتاب «الثيوصوفية» (جدير بنا أن نضيف أنه حتى عام ١٩٠٤ كان مفهوم شتاينر عن الثيوصوفية قد تطور ويجاوز مفهوم مدام بلافاتسكي)، ويقبل شتاينر مثل الباطنيين فكرة أن الإنسان مكون من أربعة أجسام: الجسم الطبيعي، والجسم الأثيري والجسم النوراني والذات. وبعد الموت يخرج الجسم النوراني والذات من الجسم الطبيعي أما الجسم الأثيري فيبقى ثلاثة أيام ثم يزول. وخلال هذه الفترة تشاهد الروح (الجسم النوراني والذات) كل ما مضى من حياتها يسترجع أمامها ثم تدخل بعد ذلك في مجال سمي «كامالوكا» الذي يشبه الأعراف أو الصراط، ويفحص الإنسان كل حياته الماضية التي تمر عليه، ونظراً لأن الجسم النوراني يظل قادراً على الإحساس فسوف يعاني من الرغبات والشهوات التي لم تشبع، وحينها يتطهر بالمعاناة والعذاب يمكن في النهاية أن يذوب. وفي الكامالوكا يتلقى الجسم النوراني أيضاً خبراً عن كل أنواع العذاب التي صبُّها على الآخرين من وجهة نظره هو.

بعد ذلك ترتفع الذات إلى عالم الروح حيث يمكنها أن تختار حياتها التالية، تختار الشكل الذي تريد أن تولد به، والظروف التي تعيش فيها، (وهنا يؤكد شتاينر أن أي شخص لا يلام على نصيبه لأنه هو الذي اختاره بنفسه). وهذا الاختيار الدقيق يعطي الفرصة للتطور (وهو يفسِّر لماذا لا نختار جميعاً النجاح العظيم). وبعد فترة قصيرة تعود الروح إلى الأرض لتعيش حياة أخرى. ومن بين الكتب الهامة التي ألَّفها شتاينر كتاب من ثماني مجلدات يسمى علاقات الكارما، يضم محاضرات ألقاها قبيل وفاته بفترة قصيرة، وفيها زعم أنه استخدم قدراته في رؤية الروح ليتتبع التناسخ الماضي لكثير من عظماء الرجال. وهو يقدم حتى لمن يعتبرون الكتاب مجرد خيال رؤية مدهشة عن إدراك شتاينر للطريقة التي يتم بها تناسخ الأرواح.

ومن الأعضاء البارزين في جمعية البحوث النفسانية والتون كارينجتون الذي أصدر كتاباً هاماً نشر عام ١٩٢٠[1]. وعنوانه: «نظرية ميكانيكية البقاء» قدم لنا فيه نقداً لنظرية الثيوصوفية يقول فيه:

---

(١) صدر الكتاب تحت إسم Whately Smith.

في الكتابات الثيوصوفية. . . نواجه نظاماً لأشياء مبنيّة من اصطلاحات مثل المستوى النجمي أو النوراني، والمثيل الأثيري والجسم السببي، وكارما وغيرها، وبالرجوع إلى أصدقائي من الثيوصوفيين اعترفوا بأن ذلك لا يمكن أن يخضع للتفسيرات العلمية، ولا يمكن أن يكون كذلك ما لم يكن مفسروه مستعدين لإخبارنا عن العلاقة بين المستوى النوراني والعالم الطبيعي، وبين المثيل الأثيري والجسم كما هو معروف للفسيولوجيين.

هذه نقطة مقبولة، لكنها لا تنطبق على شتاينر بأقل مما تنطبق به على مدام بلافاتسكي، فضلاً عن أن تفسيرات شتاينر تشترك في كثير من أجزائها مع النظرية التي قدمها كارينجتون في كتابه، يبدأ كارينجتون من مفهوم الأبعاد الأربعة كما شرحها الرياضيون أمثال رايمان ولوباتشفسكي، وواصل جدله الطويل حول دليل البقاء بزعم أن الميت يبقى في عالم يوجد فيه بعد آخر زيادة فيه عن الأبعاد المألوفة في عالمنا (وتؤيد ذلك تجارب اقتراب الموت عند السير أوكلاند جيديس التي سبق وصفها في الفصل الثاني، حيث قال جيديس إنه أصبح حراً من بُعد زماني في المكان، بينما «الآن» كان بصورة ما مساوياً للكلمة «هنا من البعد الثلاثي للمكان») وفي محاضرة ألقيت عام ١٩١٨ تحت عنوان «الأموات معنا» شرح شتاينر:

إن الماضي في المعنى الروحاني لم يختفِ حقيقة، ولكنه يظل موجوداً هناك، ففي الحياة الطبيعية يكون للإنسان مفهوم يتعلق بالمكان فقط، فإذا وقفت أمام الشجرة ثم مضيت، ونظرت مرة ثانية، فلن تختفي الشجرة. . . نفس الشيء يصدق على اللحظة التالية من حيث الوعي الطبيعي بها، فإنها في منظور إدراكها الروحي قد مضت ويمكنك أن تنظر إلى الخلف إليها كما تنظر إلى الشجرة، ولقد بيّن لنا ريتشارد فاجنر أن لديه معرفة بذلك حينما قال عبارته المشهورة: «أصبح الزمان هنا مكاناً».

يعتبر الزمان في الطبيعيات الحديثة هو البعد الرابع، ويبدو أن ما يريد شتاينر أن يقول هو أن عالم الروح فيه في واقع الأمر بعد آخر يعني الزمان هو ثابت بصورة معينة (توصل باحث حديث إسمه ليثبريدج T.C. Lethbridge إلى نفس النتيجة تقريباً على أساس بعض التجارب الغريبة حول النعاس مستخدماً البترول)[1].

وبينما يميل بعض الناس إلى رفض حكاية شتاينر عن الحياة بعد الموت على أنها أمر لم يثبت بعد فلا يمكننا أن ننكر أن هناك نوعاً من التماسك المدهش في آرائه، وأن ذلك يدعو بقوة إلى البحث، وهو يكتب قائلاً:

---

(١) أنظر كتابي «خفايا الحياة» القسم الأول، الفصل الأول.

يجب أن نؤكد على نقطة هامة هي أن العالم، (عالم الأرواح) منسوج من المادة التي يتكون منها الفكر الإنساني، ولكن الفكر ـ كما يعيش في الإنسان هو مجرد ظل صورة، أو سراب يعكس وجوده الحقيقي ـ ولما كان الظل شيئاً على الحائط يعكس الشيء الحقيقي الذي يلقي بالظل، كذلك الفكر الذي ينبثق من الإنسان يرتبط مع التواجد في أرض الروح التي ترتبط بهذا الفكر.

لعل هذه الفكرة التي تقول بأن عالم العقل هو عالم الروح تكون أكثر إقناعاً. إنها بالتأكيد أكثر إثارة للتأمل من حكايات الحياة بعد الموت التي تجعل عالم الروح يبدو شديد الشبه بشيء مثل أرض الأحلام أو معسكرات الإجازات.

وطبقاً لرأي شتاينر في محاضرته عن الموتى معنا نحن نلاقي الأموات من لحظة ذهابنا إلى النوم، ونقابلهم مرة أخرى عند الإستيقاظ. . . . وتعتبر لحظات النوم والإستيقاظ هذه هي قمة الدلالة على اللقاء مع من يقال أنهم موتى، وكذلك مع الكائنات الروحية من العوالم العليا.

ولحظة الذهاب في النوم لحظة محببة لنا لتوجهنا فيها نحو الموتى، ولنفرض أننا نريد سؤال الميت عن شيء فيمكننا أن نحمله في روحنا، ونمسكه حتى لحظة الذهاب إلى النوم، وعندئذ نوجه سؤالنا إلى الميت، ومن جهة أخرى نعتبر لحظة الإستيقاظ هي أحسن لحظة للميت يتصل فيها بنا.

ويقول شتاينر إن ذلك يرجع إلى أنه لا يستيقظ أحد دون أن يأتي معه بأنباء لا عدد لها من الموتى، ويذكر أن هناك مشكلة أخرى أكثر تعقيداً، فحينما نتكلم مع الموتى فإن العلاقة تنعكس بصورة ما، وحينما نلقي سؤالاً على الميت فإن السؤال يأتي منه: «إنه هو الذي يستثير روحنا بما نسأله»، وحينما يجيبنا فإن تلك الإجابة تأتي من روحنا نحن»، ولكي نقيم اتصالاً مع الذين ماتوا فعلينا أن نهيىء أنفسنا للاستماع منهم لما نقوله نحن أنفسنا، وأن نتلقى من روحنا إجاباتهم».

ومن الطريف أن دكتور ويلسون فإن ديوسين يذكر في كتابه عن سويدنبرج السابق الإشارة إليه في الفصل الافتتاحي، أن مشاهدات سويدنبرج لعالم الروح جاءت في الشكل الذي نسميه «حالة النعاس المحكومة» حيث يكون النعاس هو الحد الفاصل بين النوم واليقظة، ويصف جاي توماس في كتابه «قانون الظواهر النفسانية» كيف أنه حاول استخدام طاقات العقل الشخصي الفائقة القوة لشفاء قريب له كان يعاني من حالة روماتيزم ميئوس منها، وكانت الطريقة التي اتبعها هي أن يركز على التخفيف عن قريبه الذي كان يعيش في مدينة أخرى عند لحظة النوم. وبدأ العلاج في منتصف مايو سنة ١٨٩٨، وبعد بضعة شهور تقابل أحد أصدقائه الذين يعرفون عن العلاج المقترح على ذلك المريض ووجدوا أن حالته قد تحسنت وأنه عاد إلى عمله. بدأ

تحسن الحالة في منتصف مايو، وطبقاً لما ذكره هدسون يعمل العقل الذاتي بصورة أفضل عند حافة النوم لأنه يكون آنذاك متحرراً من السيطرة المعتادة للعقل الموضوعي، ويمكن القول طبعاً بأن نصف الكرة المخية اليمنى تتحرر عند نقطة النوم من سيطرة ذات الشطر الأيسر من المخ.

وكما ذكر شتاينر «علينا ألا نبحث عن الموتى من خلال أمور خارجية، ولكن يجب أن ندرك أنهم موجودون دائماً. ومن بين المهام العملية للأنثروبوصوفيا إقامة البناء التدريجي للجسر أو المعبر الموصل بين الأحياء والأموات بواسطة علم الروحانيات». وهو مقتنع تماماً بأن «التحوّل الكبير سوف يحدث في حياة الإنسان حينما لا تصبح الأفكار الخاصة بالتناسخ والكارما مجرد نظريات يعتنقها القليل من الناس».

ولقد رأينا بالفعل أن الجدل حول التناسخ قد أدى إلى انقسام حركة الروحانيات منذ مراحلها الأولى المبكرة، وأن روحانيات كارديك التي تدعو إلى فكرة التناسخ كانت في حقيقة أمرها مدفوعة في السر بدعوة الروحانيات التي نشأت في أميركا، ونجد الآن أن المذاهب التي تنادي بالتناسخ غير مقبولة على نطاق واسع لدى الروحانيين رغم أن البعض يقبلونها كشيء ممكن الحدوث فقط. وحينما كنت أكتب كتابي عن الغيبيات في أوائل السبعينيات طلبت من صديق من الروحانيين هو البروفسور ولسون نايت لو أنه حضر جلسة في المرات التالية فليسأل الروح سؤالاً مباشراً عن هذا الموضوع تكون إجابته مباشرة نعم أو لا. وبعد فترة قصيرة أخبرني هذا الصديق بأن الإجابة لم تكن بالإيجاب ولا بالنفي. وطبقاً لما ذكره أتباع البروفسور نايت المتصلون، يحدث التناسخ أحياناً بصورة متقطعة، ولكن يجب ألا نعتبره قاعدة عامة.

وفي اتصالات مايرز مع جيرالدين كومينز التي نشرت تحت عنوان (الطريق إلى الخلود) نجد تفسيراً غير عادي لفكرة التناسخ، فهو يتكلم عن مفهوم يسمى «جماعة الروح» وهي مجموعة من الأرواح مرتبطة مع بعضها بواسطة روح واحدة اعتماداً على استمدادها الغذاء من تلك الروح الواحدة. ويذكر أنه هو نفسه كان ينتمي إلى «جماعة الروح» مماثلة حينما كان على الأرض، ويقول: «إذا ما ظهرنا أحياناً لنلقى العقوبة عن الخطايا التي ارتكبناها في تواجدنا السابق فذلك لأننا أصبحنا روحاً منتمية إلى جماعة أقامت من أجلي إطاراً لحياتي التي عشتها قبل أن أجتاز بوابات الميلاد».

دهش فردريك مايرز الحقيقي، مؤلف كتاب «الشخصية الإنسانية وتواجدها بعد الموت الجسدي» عندما تناول حالة من أغرب حالات التناسخ التي جمعتها جمعية البحوث النفسانية، وهي حالة لورانس فينوم، ويورد هذه الحالة في كتابه بالتفصيل في الفصل المخصص لدراسة تفكك الشخصية.

في ١١ يوليو سنة ١٨٧٧ أصيبت فتاة تدعى ماري لورانس فينوم من واتشيكا في إلينوا بنوبة وفقدت وعيها لمدة خمس ساعات، وحدثت لها النوبة مرة أخرى في اليوم التالي، ولكن كان من الواضح أنها راحت في غشية تنويمية لأنها أعلنت أثناء ذلك أنها ترى السماوات والملائكة، كما ترى شقيقها وشقيقتها الراحلين. وتكررت تلك الغشيات خلال الأشهر التالية، وكان واضحاً أن لورانس فينوم كانت خاضعة لاستحواذ عدد من الشخصيات السيئة عليها، ومن بينهم امرأة عجوز تسمى كاترينا هوجان، وقد أشار أقاربها على أبويها أن يدخلاها مستشفى أمراض نفسية، ولكن أحد الجيران ويدعى روف الذي كانت ابنته الراحلة تعاني من نوبات جنون كهذه أقنع فينوم بأن تعرض نفسها على الدكتور ستيفنز W.W. Stevens في جنزافيل بولاية ويسكونسن.

حينما رآها الدكتور ستيفنز لأول مرة في أول فبراير سنة ١٨٧٨ كانت الفتاة خاضعة لاستحواذ كاترينا هوجان (المرأة العجوز) وذلك في أثناء جلوسها منحنية على مقعد معلق في الهواء. وحينما أراد ستيفنز أن يقترب منها طلبت منه بشيء من الصرامة أن يبقى بعيداً. ويبدو أنها بدأت بعد ذلك تترفق معه فتحدثت عن نفسها وعن والديها (قالت إن أباها هو الديك الأسود العجوز) وسرعان ما تغيرت شخصيتها. ووصف القادم الجديد (المتلبس فيها) نفسه بأنه شاب يسمى ويلي كاننج، لكنه تكلم بطريقة متقطعة، وانتهى الأمر إلى نوبة، وحاول ستيفنسون أن ينومها مغناطيسياً، ونجح في ذلك، وظهرت لورانس فينوم أخرى شرحت له أنها خاضعة لاستحواذ أرواح شريرة، واستمرت في حالة الغشية وأخبرته بأنها محاطة بأرواح إحداها تسمى ماري روف.

وقالت مسز روف التي تواجدت في الحجرة آنذاك «هذه هي ابنتي» ونصحت لورانس بأن تقبل خضوعها لسيطرتها، وبعد مناقشات استمرت وقتاً طويلاً مع الأرواح

أعلنت لورانس أنها سوف تسمح لمسز روف بأن تسيطر عليهـا. واستيقظت بعـد ذلك بقليل.

في اليوم التالي دعـا والد ماري لورانس فينوم إلى مكتبـه رجلاً يـدعى آساروف الذي أخبره بأن لورانس فينـوم تزعم حـالياً بـأنها هي ماري روف، وأن مـاري روف تريد العودة إلى المنزل.

كان تاريخ ماري روف يشبه كثيراً تاريخ حياة لورانس فينـوم بل وكـانت أقرب ما تكون إلى حالة فردريك هوف الواردة في كتـاب شهود بريغورست. وبـدأت ماري كذلك تعاني من النوبات، وفي إحدى هـذه النوبـات جرحت ذراعهـا بسكين فـأغمي عليها وظلت تهذي خلال الأيام الخمسة التالية. ومع ذلك كانت قادرة على القراءة من خـلال الغماء. وبعـد فترة أخـرى من النوبـات مـاتت في يـوليـة عـام ١٨٦٥ قبـل أن تستحوذ على ماري لورانس فينوم باثني عشر عاماً. ولقد استطاع الكثـير من المواطنين البارزين في مدينة واتشيكا أن يلاحظوا ما لها من قوى استشفافية.

وقبل أخذ لورانس فينوم أو بالأحرى ماري إلى منزل روف حضرت مسـز روف وابنتها مينرفا لزيارة أسرة فينوم، وكانت ماري تـنظر من النافـذة وقالت: «لماذا تحضر أمي وأختي نيرفي» وحينها دخلتا المنزل عانقتهما واغرورقت عيناها بدموع الفرح.

ولقد ترددت أسرة فينـوم في ترك ابنتهـا تمضي هكذا، ولكن «مـاري» أصبحت مصابة بحنين للذهاب مما جعل أسرتها أخيراً توافق على ذهـابها، وفي ١١ فـبراير سنـة ١٨٧٨ ذهبت إلى منـزل روف، وفي طريقهـا إلى هنـاك مـروا بمنـزل كـانت روف قـد سكنته في فترة من فترات حياتها، وأصرت ماري على أن ذلك هـو منزلهـا، وكان عـلى أسرتها أن تحاول إقناعها بأنها لم تعد تسكن فيه الآن، وحينما وصلت إلى المنزل الجديد قالت: «لماذا أبقيتم عـلى البيانـو القديم ونفس الغـطاء القديم؟». وراقبهـا المتجمعون الذين كانوا في انتظارها بإشارات تحية معتـادة، وردت وكأنها تعـرفهم جميعاً. وكـانت مسز واجنر (التي تحمل اسم ماري لورد) مدرِّسة لماري روف في مدرسة الأحـد فحيتها مـاري بكلمات وقالت: «آه يـا مـاري لـورد، لقـد تغـيرت عـلى الأقـل عن غـيرك». وأخبرتهم بأن الملائكة سوف تسمح لها بأن تبقى للفـترة المتبقية من شهـر مايـو وثلاثـة أشهر بعده.

طبعاً كان أهلها شغوفين بفحصها، فطرحوا عليها كل أنـواع الأسئلة، وسرعان مـا أقنعتهم ماري بـأنها قادرة عـلى وصف مئات الأحـداث التي مرت بهـا في حيـاتهـا السابقة، ووصفت بالتفصيل إقامتها في منطقة ينابيع الاستشفاء في بيوريا، ولما سألوها عما إذا كانت تذكر أنبوبة الموقد التي سقطت وأحرقت فرانك، أخبرتهم بدقة عن مكان الحرق في ذراع فرانك، ولما سئلت عن كلبها السابق ذكـرت المكان الـذي مات فيـه، وحينما تكلمت عن حكاية جرح ذراعها بالسكين أخذت تـرفع كمّ ثـوبها لتعـرض على دكتور ستيفنز الندبة التي تركها الجرح ثم تذكرت بسرعة أنها لم تكن في نفس الجسم. وقالت: «ليس هذا الذراع بل الذراع الملقى على الأرض!» وبعـد موتهـا حاول أبـوها الإتصـال بها عن طـريق وسيط فاستـطاعت ماري أن تخـبرهـم برسـالة كتبتهـا لهم عن طريق يد الوسيط تحدد بدقة المكان والزمان.

ومن أكثر الحوادث إقناعاً أن وجدت مسز روف غطاء رأس مخملياً كـانت ماري تستخدمه في حياتها، واقترح الأب أن يترك عـلى شماعـة البهو، ودخلت مـاري فقالت من فـورها «لماذا؟ هـذا غـطاء رأسي القـديم الـذي كنت ألبسـه حينـما كـان شعـري قصيراً»، وذكّرها ذلك بصندوق الخطابات، فأحضرته لها أمها ووجدت فيه إحدى ياقاتها فقالت، أنظري هذه الياقة القديمة التي طرزتها بنفسي».

وأخـبرت ماري أسرتهـا بأنها تستـطيع أن تبقى معهم حتى ٢١ مـايـو، وفي ذلك الصباح كتبت لأمها: «سوف تترك ماري جسم رانسي حوالي الساعة الحـادية عشرة». وأخـذت ماري تمـر على الجـيران تودعهم وعـانقت أبويهـا وقبلتهـا ومضت إلى منـزل لورانس فينوم، وفي الطريق اختفت ماري وعادت لورانس فينوم.

وحدث بعد ذلك بأربع سنوات أن تزوجت ماري لورانس فينوم بمـزارع يدعى جورج بنينج، وقد حذرها أبوها من استخدام خـاصية الـوساطـة فيها في حـالة عـودة النوبات إليها. ولكن ماري روف كانت تأتي من وقت لآخر أثناء وجـود أبويهـا هناك، وكـانت تبدو وكـأنها لم تتغير عـما كانت عليـه في زيارتهـا السابقـة، ولما وضعت مـاري لـورانس فينوم طفلهـا الأول وضعتها مـاري في حالـة الغشيـة حتى لا تعـاني من آلام الولادة.

سمع الشاب الأسترالي المتشكك ريتشارد هودجسون الذي سبق أن كشف مدام بلافاتسكي عـام ١٨٨٥ بالحكـاية وكـان قد ذهب إلى أمـيركا لفحص حـالة مسـز بايـبر

في السنة التالية. وكان يرى لو أن حالة ماري كانت حالة أصيلة لأصبحت من الناحية العملية إثباتاً قاطعاً على الحياة بعد الموت. فناقشها في مقابلة معها عن كل الشخصيات الرئيسية التي تتلبسها ما عدا لورانس فينوم نفسها إذ أنها كانت قد رحلت إلى الغرب مع زوجها. ورغم هذه المشكلة انتهى هودجسون إلى الاقتناع الكامل بحقيقة الأحداث كما رواها دكتور ستيفنز والعديد من أفراد أسرتها وأصدقائها. ووافق على أنه من الممكن أن تكون حالة من حالات تعدد الشخصية. لكنه شعر بعامة أن كل الأدلة تشير إلى أصالة حالة الاستحواذ على لورانس فينوم بواسطة ماري روف الراحلة. وضع مايرز هذه الحالة في الفصل المخصص لتعدد الشخصية، ولكنه أضاف أنه في مرحلة أخرى تالية وحينما يصبح متجولون آخرون أكثر إلفة فربما نأخذ في اعتبارنا مرة أخرى ما قد تعلمه لنا هذه الحكاية من مزيد من الدروس. ومات مايرز قبل أن يقوم بشرح «المزيد من الدروس»، ولكن الواضح أنه اعتبر حالة فينوم دليلاً من أدله بقاء الشخصية بعد الموت.

ولو صح رأي هودجسون ومايرز فإن في ذلك تأييد للصورة التي ظهرت في الفصل الأول من هذا الكتاب من خلال كتاب آدم كاربتري وويلسون فان ديوسين. وإننا نميل إلى الاعتقاد في أن الموت نهاية أو بداية لنوع جديد تماماً من التواجد، وضع جديد غريب، حالة غامضة تعرف أثناءها كل أسرار الكون. وتؤكد لنا جميع الدلائل التي تناولها بأن ذلك مفهوم خاطىء، فيبدو أن الحياة على المستوى الأخروي ليست من أساسها غير مشابهة للحياة الدنيوية، وإن كانت تبدو مختلفة في بعض أحوالها. ووفقاً لما ذكره كثير من «المتصلين» هناك مستويات لا يمكن لنا إدراكها، وهي ليست من اختصاصنا، في ظل الظروف الحالية، ولكن ما لم تكن الدلائل مستقاة من البحوث النفسانية مجرد خدع متقنة تماماً ومترتبة على الإدراك الجماعي الذي يُشبع رغبة الإنسان الملحة في البقاء بعد الموت بصورة غير مختلفة كثيراً عن حالته الحاضرة.

وهناك طرق عديدة تكون فيها أدلة التناسخ أكثر إقناعاً من الأدلة التي تأتينا من الوسطاء عن الحياة بعد الموت. فأخيراً أقنعت المراسلات المتداخلة الباحثين بأن مايرز وجورني قد عاشا بعد الموت، ولكن لا بد وأن والدي ماري روف كانا واثقين من أنها ما زالت حية أثناء تحركها وهما عائدان إلى المنزل.

ومن الحالات الكلاسيكية التي لم تلق تحقيقاً مناسباً من جانب الباحثين المدربين من أمثال هودجسون حالة شخصية تسمى ألكسندرينا.

ماتت الفتاة المسماة ألكسندرينا يوم ١٥ مارس ١٩١٠ في بالرمو بجزيرة صقلية، وأدى الحزن الشديد إلى إصابة أمها أديل زوجة الدكتور كارميلو سامونا بشرود الذهن. ولكن بعد ثلاثة أيام من الوفاة رأت أديل في الحلم أن ألكسندرينا طلبت منها ألا تبكي وتنتحب لأنها سوف ترجع، وأظهرت لأمها رحماً، فاستنكرت الأم الحلم لأن العملية الجراحية التي سبق أن أجرتها في الرحم تمنع إمكانية إنجابها.

وبعد أيام قليلة كانت أديل تذكر إبنتها لزوجها سميث وهي شديدة الأسى فسمعت أثناء ذلك ثلاث دقات عالية، ومنذ ذلك الحين بدأ الوالدان يحضران الجلسات، وتحدثت روحان من خلال الوسيط إحداهما زعمت أنها الطفلة والثانية زعمت أنها عمّة كانت قد ماتت منذ زمن طويل، وأخبرت ألكسندرينا أمها بأنها سوف تولد من جديد قبل أعياد الميلاد كواحدة من توأمين. والواقع أن أديل سامونا وضعت توأمين في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٠ بعد نحو تسعة أشهر من وفاة ألكسندرينا، وكانت البنتان مختلفتين تماماً عن بعضهما، ولكن كان في إحداهما علامات في جسمها منذ ولادتها تشبه العلامات التي كانت في جسم الطفلة الراحلة ألكسندرينا. وكانت أيضاً عسراء تستخدم اليد اليسرى مثل ألكسندرينا، وأطلق عليها الأبوان اسم أختها الأولى التي ماتت.. أما من حيث الشخصية فإن ألكسندرينا الثانية كانت مثل الأولى منطوية على نفسها، منظّمة وميّالة لأن تقضي وقتها في طيّ ملابسها وفرشها.

ومما أقنع الوالدين بأن هذه الطفلة هي تناسخ لألكسندرينا ما حدث حينما كان التوأمان في سن العاشرة. أخبرهما والدهما أنهم ذاهبون في رحلة إلى مدينة مونتريال، ولم تكن أيهما قد ذهبت من قبل إلى تلك المدينة. ولكن ألكسندرينا ذكرت بإصرار أنها زارت تلك المدينة مع أمها وبصحبة سيدة لها قرون. ووصفت التمثال الموجود بسقف الكنيسة كما وصفت بعض القسس الحمر الذين كانوا هناك. وواقع الأمر أن أديل سامونا كانت قد أخذت ابنتها ألكسندرينا الأولى إلى مونتريال قبيل وفاتها بفترة قصيرة في صحبة سيدة كان لها أكياس غير مرئية في جبهتها، وذهبوا إلى الكنيسة لمقابلة بعض القسس الذين أتوا من اليونان وكانوا يلبسون أردية حمراء. دهش دكتور ساموا جداً لهذا الدليل الذي يثبت التناسخ وردّه إلى اعترافات الشهود العديدة ونشره في مجلة دورية علمية هي فلسفة العلوم.

والمشكلة هنا من وجهة نظر المحقق في الأمر هي أن الأمل الذي فكرت فيه الأم هو السبب في كل هذه الأحداث، فإن وفاة ألكسندرينا أدى إلى اكتئاب انتحاري ربما أحدث ردة فعل من جانب العقل الباطن بإرسال ذلك الحلم الذي وعدت الطفلة فيه بالعودة. وفي الوقت الذي رأت فيه الأم هذا الحلم، ربما كانت تدرك شيئاً عن التوأمين، وربما كان عقلها الباطن أيضاً قد عرف ذلك، ولذا فإن ألكسندرينا الثانية خلعت هوية أختها الراحلة على نفسها، وربما كانت الأم قد وصفت لها الرحلة إلى مونتريال ثم نسيت ذلك، وربما سمعت أمها تتحدَّث مع أبيها يوماً عن تلك الرحلة..

هذه بالطبع هي المشكلة في هذه الحالة التي وقعت قبل أن يفكر أي إنسان في إخضاعها للتدقيق العلمي. ولكن هذا الاعتراض لا ينطبق على حالة أخرى حديثة مماثلة وقعت في إنجلترا ووصفها أيان ويلسون في كتابه المسمى «هل العقل خارج الأرض». وهو كتاب ينظر إلى التناسخ نظرة شك، ويرفض معظم الحالات ويعتبرها حالات ذاكرة مدفونة أو ذاكرة غير واعية.

في مايو سنة ١٩٥٧ كانت الأختان جوانا وجاكلين بولوكس تسيران في طريق هكسهام في مقاطعة نورثمبرلاند حينما صعدت سيارة على الرصيف وقتلتهما، وقتل طفل آخر في التاسعة من عمره أيضاً. كانت قائدة تلك السيارة قد شربت جرعة مضاعفة من بعض العقاقير وخرجت بقصد الانتحار، وهي ابنة المستر جون بولوك الكاثوليكي الذي كان يؤمن بالتناسخ رغم أن الكنيسة ترفضه. شعر بأن موت الطفلتين كان من قبيل العقاب له بسبب ذلك الاعتقاد الخاطىء، ومع ذلك فقد ستحوذت عليه فكرة إعادة ولادة زوجته للطفلتين، حينما أعلنت زوجته بعد مضي سنة من ذلك بأنها حبلى أخبرها دون تردد بأنها سوف تلد توأمين من الإناث، وحينما كد لها الطبيب أنها تحمل طفلاً واحداً فقط أدركت بأن الفكرة التي استحوذت على زوجها قد خانته. ولكن ولدت التوأمين في ٤ أكتوبر سنة ١٩٥٨. تميَّزت جينيفر التوأم لثاني في ترتيب الولادة بخطٍّ أبيض في وجهها تماماً مثل الذي كان لأختها الراحلة جاكلين بسبب جرح أصابها لسقوطها من فوق الدراجة. كما كانت لها علامة ولدت بها في ردفها الأيسر مشابهة للعلامة التي كانت في جاكلين في نفس المكان، ولم يعثر على علامات مشابهة في التوأم الأخرى الأكبر جيليان. بدا هذا شيئاً غريباً حيث أن لتوأمين ولدا في مشيمة واحدة (أي تكوَّنا من بويضة واحدة).

وحينما بلغ التوأمان أربعة أشهر انتقلت الأسرة إلى هواتلي باي. وفي يوم من الأيام بعد مرور ثلاث سنوات أخذهما أبوهما جون بولوك في رحلة لقضاء يوم العطلة في هكسهام. كانتا تتصرفان هناك كأنهما تألفان المكان تماماً. فجأة قالت إحداهما للأخرى «المدرسة هناك في الركن حيث كنا نلهو في الملعب»، «أن الأراجيح والزلاقات هناك»، «هذا هو المنزل الذي كنا نسكن فيه»، وقيلت هذه الملاحظة الأخيرة أثناء مرورهم على منزلهم القديم.

وكانت لعب الطفلتين الراحلتين قد جمعت في صندوق وضع في المخزن، وحينما بلغ التوأمان الجديدتان سن الرابعة قرر والدهما أن يعطيهما تلك اللعب، فقالت جينيفر من فورها «هذه ماري، وهذه سوزان» وهما الاسمان الصحيحان للدميتين. ولم تكن فلورنس بولوك التي شهدت المنظر على استعداد أن تقبل الفكرة (لأنها كاثوليكية متمسكة بمذهبها)، فرفضت تماماً كل ما استحوذ على زوجها من أفكار التناسخ. ورفضت منه أن يقول أي شيء عن الطفلتين أو حتى أن يخبرهما بأي شيء عن أختيهما الراحلتين سوى أنهما في السماوات.

وفي يوم من الأيام سمعت الأم الطفلتين تصيحان فاندفعت نحوهما إلى الخارج فوجدتهما متماسكتين مع بعضهما وتصيحان قائلتين «السيارة آتية نحونا». وكانت سيارة في نهاية الحارة قد أدارت محركها استعداداً للانطلاق. وفي مناسبة أخرى وجدتهما أمهما تلعبان لعبة غريبة تقوم فيها جيلان بتضميد رأس جينيفر وهي تقول لها: «الدماء تسيل من عينيك لأن السيارة صدمتك». فازداد اضطراب مسز فلورنس بولوك نتيجة لهذه الواقعة، ولكنها ارتاحت حينما بلغت التوأمان سن الخامسة وأصبح واضحاً أنهما فقدتا كل ذاكرة عن أختيهما الراحلتين وأصبحتا طفلتين عاديتين.

يشير أيان ويلسون إلى أن إيمان الأب بفكرة التناسخ يضعف من كون هذه الحالة دليلاً عليه، ومع ذلك، فمن المستحيل أن تصل إلى الكيفية التي قام بها جون بولوك بتزوير هذا الدليل ما لم يكن قد درب الطفلتين على القيام بدورهما سراً في غياب زوجته. ولقد أنكرت التوأمان تماماً أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث، واعترف ويلسون نفسه بأن حالة طفلتي بولوك تعتبر واحدة من بين الحالات القليلة التي يظهر فيها الدليل واضحاً من أول وهلة مدعماً الفكرة حلول الروح أو التناسخ.

ولعل من أشهر الحالات الحديثة عن الزعم بالتناسخ هو ما وقع في الهند في

أوائل الثلاثينات، وقام بدراستها فيها بعد البروفسور هيمندرا يانـيرجي رئيس قسم علم نفس الخوارق في جامعة راجستان (ويعتبر هو والـبروفسور أيـان ستيفـانسـون أهم المحققـين في مثل هـذه الحالات). حـدث في ١٢ أكتوبـر سنة ١٩٢٦ أن ولـدت فتاة إسمها كوماري سانتي ديفي في دلهي بـالهند، وحينـما بلغت الرابعـة من عمرهـا بدأت تتكلم عن حياة سابقة عاشتها في مدينة موترا التي تبعد مائة ميل عن دلهي. قالت إنها كـانت من الخويـان المنبوذين، وأنها كـانت تعيش في منزل أصغر، وأن زوجهـا كـان يعمل تاجر أقمشة واسمه قادرنات تشويـاي. سمع نـاظر مـدرسة متقـاعد عـما قالتـه الطفلة فطلب مقابلتها، فأخبرته الفتاة عن العنـوان الذي كـانت تسكن فيه من مـدينة موترا، فأرسل خطاباً إلى هناك ولشدة دهشته تلقى الرد من قادرنات زوج شانتي ديفي أكّد فيه العديد من التفاصيل عن حياته مع زوجته السـابقة، وطلب أن يسمـح لأحد أقاربه في دلهي أن يتحدث مع الطفلة، وحينما وصل الرجل عرفته شانتي ديفي على أنه ابن خال زوجها واسمه كانجي مال، ومن فوره اعترف بأصـالة حـالتها، وحينـما أخبر قادرنات زوج شـانتي ديفي بالأمـر لم يتردد كثيـراً وسارع إلى دلهي ولم تـتردد الفتاة في إلقاء نفسها بين ذراعيه، واستـطاعت أن تجيب على كـل أسئلته بـإجابـات مقنعة عن حياتها السابقة كزوجة له. وأشارت إلى صندوق فيه بضع مئات من الـروبيات كـانت قد دفنته في إحدى حجرات المنزل.

وفي ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٣٥ انتقل الوالدان بالطفلة التي كانت قد بلغت التاسعة من عمرها إلى موترا وصحبهم ثـلاثة من المسؤولـين أحدهم صحفي، والثـاني سياسي والثالث محام ليكونوا شهوداً (كتبوا تقاريرهم عن الحـالة فيـما بعد)، وعنـدما اقـترب القـطار من رصيف محطة مـوترا تعـرفت شانتي ديفي عـلى الأخ الأكـبر للزوج السـابق قادرنات وكان ينتظرهم على المحطة، ثم ركبوا عربة وطلبوا من شانتي أن توجه السائق إلى حيث تشاء، وبينما العـربة تسـير بهم أشارت إلى المنـازل التي لم تكن موجـودة أيام كانت تعيش في موترا، ووجهتهم نحو المنـزل الأول الذي عـاشت فيه مـع زوجها من قبل وكان وقتئذ مؤجراً لرجل غريب وسألها بعض السكان المحليين عن موقـع «جاي رورور» أي الحمام، فأشارت أن الحمام واقع خارج المنزل. وواصلوا سيرهـم إلى المنزل الذي ماتت فيه، وهنالـك تعرفت عـلى الكثير من الأقـارب، وبدا واضحـاً أنها كانت تألف المكان، ثم قادتهم أخيراً إلى الحجرة التي دفنت فيها النقـود، وحفروا فـأخرجـوا

صفيحة خالية، واعترف قادرنات بأنه قد أخذ الصندوق. وفي مغادرتهم للمنزل تعرفت شانتي ديفي على ولديها السابقين.

لا يمكن القول بأن هذه الحالة موثوقة تماماً، لسبب بسيط هو أن مؤلف الكتيب لم ينجح في أخذ الاحتياطات اللازمة التي أصبحت أساسية بالنسبة لكل الباحثين والمحققين في جمعية البحوث النفسانية وهي الاعترافات والشهود لمطابقتها ومقارنة هذه الحالة بحالة الذاكرة المدفونة، أو غيرها من التفسيرات. ولكن بعد ثلاثة أجيال جاء باحث آخر وطبق طريقة جديدة من الاحتياطات على الحالات التي يقوم بالتحقيق فيها عن مزاعم التناسخ. والغريب من الحالات التي أوردها أيان ستيفنسون في تقريره بعنوان «عشرين حالة من مزاعم التناسخ»(١)، وفي الكتاب الذي أعقبه بعنوان «حالات متنوعة من التناسخ»(٢) هو كيف أن الكثير منها تكرر ما جاء في حالة شانتي ديفي أو تعتبر صدى لها. مثل حكاية سوار فلاتا ابنة أحد الموظفين التي ولدت عام ١٩٤٨، وبدأت تخبر أختها عن حياة سابقة لها في مدينة كاتني حيث كان اسمها آنذاك بيا، وزواجها من رجل يدعى سيري شيتامني باندي. وفي الثالثة والنصف من عمرها أخذها أبوها معه في رحلة تفتيش على المدارس. وبينما هما يمران بداخل مدينة كاتني التي تبعد مائة ميل عن موطنهم طلبت من السائق أن يتجه إلى طريق مؤدٍّ إلى منزلها، وعلم أبوها أنها كانت تحكي لأفراد الأسرة من وقت لآخر عن «حياة سابقة عاشتها»، وكانت تؤدي أمام أبويها بعض الرقصات والأغاني وتزعم أنها تعلمتها في حياتها السابقة. ولم تكن لديها فرصة فعلية لتتعلمها في حياتها الحالية. وحينما بلغت العاشرة من عمرها انتقلت الأسرة إلى مدينة تشاهاتاربور حيث قابلت سيدة اسمها سريماني أجنيهو تري زعمت أنها تعرفها منذ حياتها السابقة. ودُهش والدها لأن تلك السيدة أكّدت ما قالته ابنته عن كاتني التي كانت تعيش فيها، ولأول مرة بدأ يأخذ كلامها مأخذ الجد، وأخذ يكتب المذكرات، وذهب البروفسور هيميزرا بانيرجي لمقابلة سورنلاتا عام ١٩٥٩، واتجه رأساً إلى كاتني ليقارن مذكراتها مع المذكرات التي كتبتها أسرتها في كاتني، ووضع قائمة من تسع نقاط عن منزل الأسرة تبين أنها جميعاً دقيقة، كذلك كانت أوصاف سوارنلاتا عن حياتها كشخصية بيا الزوجة الراحلة دقيقة للغاية.

---

(١) الجمعية الأميركية للبحوث النفسانية سنة ١٩٦٦.
(٢) Universty of Verginia Press. 1975 - 80.

وحدث بعد ذلك بقليل أن ذهبت أسرتها إلى كاتني. وما جاء بعد ذلك كله أمور مشابهة لما حدث مع شانتي ديفي، وبناءً على تعليمات من البروفسور بانيرجي حرصت أسرتها على ألا تُعطى لها أي فرصة للتعرف على شيء وبالعكس حاولوا تضليلها في نقاط متعددة مثل إخبارها بأن رب الأسرة كان ميتاً ثم يأتون به في حضورها فتتعرف عليه فوراً. أما عن قوائم ستيفنسون التي أعدها من الناس والأحداث والتي وصفتها سوارنلاتا فتصل إلى ثماني صفحات تستحق القراءة، وكانت نتيجة ذلك كله هو أن أسرة كاتاني قبلت سوارنلاتا على أنها بيا الراحلة، فكانت تقضي وقتاً طويلاً معهم وتقيم علاقات قوية مع أخوتها السابقين وأطفالهم، وقام ستيفنس بنفسه بدراسة هذه الحالة عام ١٩٦١ مع كل ما تميزت به من توافر الوثائق التي كان البروفسور بانيرجي قد أعدها في مثل هذا لكي يثبت أن حالة التناسخ عند سوارنلاتا تعتبر من أكثر الحالات دقة وتماسكاً.

هناك حالة أخرى يعرضها ستيفنسون وتذكرنا بحالتي لورانس فينوم وماري روف، في عام ١٩٥٤ مات صبي اسمه جاسبر لال جات بمرض الجدري وهو في الثالثة عشرة من عمره، وقبل أن تُدفن جثته في اليوم التالي تحرَّكت الجثة ودبَّت فيها الحياة. ولم يستطع الطفل أن ينطق إلا بعد بضعة أسابيع، لكنه حينما تكلم دُهش والداه من التغير الكامل في شخصيته. كان جاسبر غبياً متبلد الطبع فأصبح فجأة مليئاً بالحيوية. وأعلن أنه ينتمي لأسرة براهماتية (من طبقة أعلى من طبقة أسرته الحالية) كانت تعيش في قرية فيهيري، ورفض أن يتناول أي طعام إلا إذا طبخه براهماتي، وذكر أنه قد تسمَّم بسبب حلوى الأطباء، وأنه سقط من فوق عربة فتهشَّم رأسه ومات. كانت أسرة جاسبر تنظر إلى الموقف بشيء من التشكك بزعم أن مرضه قد أثر في عقله. ولكنهم في عام ١٩٥٧ بدأوا يغيّرون رأيهم حينما جاءت سيِّدة براهماتية إلى قرية جاسبير، وتعرَّف عليها من فوره على أنها خالته. وكما حدث مع كل من شانتي ديفي وسورنلاتا أُعيد إلى مكانه القديم فأظهر مثلهما معرفة تفصيلية عن مسكنه السابق بينما كانت مجموعة من الناس تتبعه في جولته. كان اسمه في الحياة السابقة سوبهارام. وأدَّت معرفته بتفاصيل حياته إلى إقناع الجميع بأن جاسبير وسوبهارام هما نفس الشخصية ولكن لم تثبت صحة اتهامه المتعلِّق بالحلوى المسمومة وقيل إن سوبهارام قد مات بالجدري.

ولعل أكثر النقاط إثارة للدهشة في هذه الحالة هي بالطبع أن جاسبير كان فعلاً في

الثالثة عشرة من عمره حينها مات، وأن روحه قد حلت في سويهارام الذي مات في نفس الوقت، ومفهوم ذلك أن سويهارام استطاع أن يتسلل إلى الجسم قبل أن يحدث الموت الذهني، وجاء متخذاً سبيله إلى الحياة مرة أخرى.

بدون ذلك النوع من التحقيق الذي قام به ستيفانسون ويانيرجي لم تكن لتثبت صحة أية حالة من حالات التناسخ، لأن أي حالة منها تبدو مقنعة سطحياً ولكنها تنهار في لحظة التدقيق فيها. حقاً هناك دليل بأن ستيفانسون نفسه تعرض للغش والخداع في بحثه لبعض الحالات، مثل حالة إدوارد ريال الذي كان يقطن في بنفليت بولاية إسكس. فقد زعم ذلك الرجل أن ذاكرات من حياة سابقة قد تلبسته منذ كان طفلاً. فأصبح فلاحاً من سمرست يدعى جون فليتشر الذي قتل عام ١٦٨٥ حينها كان يقود جيش دوق مونماوث في هجومه على القوات الملكية في سيرجمور سنة ١٨٦٥، ورجع ليعيش فترة في مسقط رأسه أورمسكيرك في لانكشاير، وكانت زوجته التي اقترن بها وهو في الخدمة قد ماتت، وقرر أن يذهب إلى لندن لينضم إلى ابنه الذي كان يسمى أيضاً روبين. وهناك اشتغل بحاراً في قارب على أرصفة ميلوال، إلا أنه لم يكن سعيداً في وحدته حينها يقارنها بحياته في الجيش لأنه كان يحب الجندية. وفي أواخر حياته بالمدينة الغربية كان وحيداً في مسكنه مما أدى به إلى الاكتئاب، وذكر راي بريانت أن هذا التغير في شخصيته حينها تغير وضعه من جندي إلى بحار في قارب في نهر التايمز كان أمراً محزناً، وتوفي عام ١٨٦٥.

كانت فرص تتبع حياة رقيب سابق في حرب القرم أمراً صعب المنال، ولكن أندرو وماجريتا سالبي اللذين كانا يقطنان في ساوت هارو عرضا أن يقوما بعملية البحث. كان اندرو سالبي يعمل مهندساً مدنياً ثم وجه اهتمامه لموضوع الاسترجاع حينها سمع جو كيتون يذيع في محطة إذاعة لندن وأعلن عن طلب بعض الوسطاء الذين يقبلون الخضوع للتنويم المغناطيسي، ولكن من أين يبدآن؟ كانت البداية الطيبة في مكتبة جيلدهول في لندن حيث وجدا حظهما غير المنتظر. كان هناك كتاب يحتوي على قائمة ضحايا حرب القرم، وبالبحث في الأسماء التي تبدأ بحرفيْ «س و ت» اللذين نطقهما روبين من اسمه الثاني عثرا على اسم الرقيب روبين ستافورد الذي أصيب بجرح في يده في معركة كواريس وأنه حصل على ميدالية وترقية. ونظراً لوجود التواريخ في هذا السجل أصبحت لديهما الفرصة للبحث عما إذا كان روبين

س ت. . . هو الرقيب روبين ستافورد أم لا. وفي جلسة الاسترجاع التالية طلبا من راي بريانت أن يرجع قليلاً إلى ما وراء هذه التواريخ ثم سألاه عما حدث، فأجاب إجابات صحيحة.

على أن هذه لم تكن نهاية البحث، بل إن إنـدرو ومـاجـريت سلبي بحثا في مكتب السجلات العامة في كيبو في السجل العام للمواليد والوفيات والزيجات الذي يعرف باسم مركز سمرست (يسمى حالياً مركز سانت كاترين) فوجدا شهادة وفاة روبين التي ثبتت أنه مات غريقاً، وفيها عنوانه في جريفسون. كان روبين فقيراً جداً عند وفاته واكتشفا أنه دفن في المقابر الجماعية في جبانة ايستهام، وعبر راي برانت عن شدة تأثره حينما وقف في السجلات عند اسم روبين. وأزيلت عظام روبين من زمن طويل من المقبرة الجماعية لإفساح المجال لجثث أخرى بعد عشرين عاماً من وفاته.

وبالتدريج أصبحت تلك الذاكرات أكثر تفصيلاً، وأصبح قادراً على تذكر قدر كبير من حياته القديمة. وزعم ريال أنه في أثناء غزو إيطاليا عام ١٩٤٥ سمع صوت امرأة تهمس في أذنه أن يلتفت. وبدراسته للأرض التي أمامه وجد أنه كاد يخطو إلى داخل شرك منصوب.

وكتب ريال عام ١٩٥٠ خطاباً إلى جريدة ديلي إكسبريس عن هذه الخبرات التي مرت به، فأثارت اهتماماً واسع النطاق. والتقى أيان ستيفانسون مع ريال، وقرر بأنه على حق، وكان ستيفانسون قد أغرى ريال بأن يسطر كتاباً عن خبراته في الحياة السابقة سمّاه «الحياة مرة أخرى» ظهر عام ١٩٧٤ قبل وفاة ريال بسنتين فقط. أما المرأة التي كانت قد حذرت ريال من السير نحو الشرك فهي زوجة جون فليتشر التي كانت معه في ويستون ـ زويلاند.

بعد ظهور هذا الكتاب بشهرين قدم في تحقيق للإذاعة البريطانية، واصطحب معه مقدم البرنامج إلى كنيسة زُعم أنه تزوج فيها. وإلى مواقع أخرى كثيرة مرت في حياته كجون فليتشر، واعترف مقدم البرنامج بأنه مقتنع تماماً بما رواه ريال له وبتورطه الواضح في تناسخ من ماضيه.

لكن السجلات الأبروشية للكنيسة كانت محفوظة، وحينما رجع إليها أيان ويلسون لم يجد فيها أي دليل على وجود جون فليتشر أو أسرته، وزعم ريال أن والد فليتشر قتله ثور هائج عام ١٦٦٠. تبين أن القس توماس هولت كان قسيساً في

ويستون زومي لاند ولكن لم يعثر على شيء في سجلات الدفن عن والد فليتشر، كما لم يكن هناك ما يشير إلى زواج فليتشر أو تعميد طفليه رغم ادعائه بأنهما عمدا على يد القس الذي أتى بعد ذلك وكان يحتفظ بسجل دقيق عن التعميد (ما زال محفوظاً بمكتب سجلات المركز)، وأخيراً أظهر ريال حذراً شديداً وعدم تعاون في مراسلاته مع مؤرخ محلي أراد أن يساعده في تتبع أثر مزرعة جون فليتشر، رغم أن ريال زعم أنه يعرف موقعها بالتحديد. وقد انتهى تحليل أيان ويلسون إلى أن هذه القصة المقنعة في شكلها أخذت تبدو كخيال تاريخي.

تعتبر تفسيرات ويلسون لمثل هذه الحالات الغريبة هي نفس تحليلات وتفسيرات توماس جاي هدسون في كتابه «قانون الظواهر النفسانية» عن القوى غير العادية للعقل الذاتي، فيذكر حالة خاصة مدهشة نقلها عن كتاب السير الأدبية تأليف كلوريدج هي حالة فلاحة أمية أصيبت بحمى عصابية وبدأت تتحدث اللاتينية واليونانية والعبرية، وكان الأمر أشبه بنوع من الاستحواذ، ولكن استطاع طبيب شاب مثابر أن يتوصل إلى خال للفتاة كان حياً، وعلم أن والديها قد ماتا وهي طفلة. وأنها نقلت إلى منزل راع عجوز. وكشف البحث العميق أن ذلك الراعي العجوز اعتاد أن يتمشى وهو يقرأ بصوت مرتفع نصوصاً من كتب عبرية ويونانية ولاتينية لا تذكر الفتاة وهي في وعيها أي كلمة من هذه اللغات التي كانت تسمعها، ولكن عقلها الذاتي كان قد سجلها ليظهر حينما تكون تحت وطأة الحمى العصابية.

وفي عام ١٩٣٣ كان هناك طبيب أعصاب يدعى وايلدر بنفيلد يعالج مرضى الصرع، وبينما هو في عملية جراحية لسيدة مريضة لمس بمجسه الكهربي نقطة من غشاء المخ. وكانت المريضة يقظة دون أن يكون في مخها أي إحساس. ولم يكن يلزم استخدام (المخدر) فأخبرت دكتور بنفيلد أنه حينما لمسها وجدت نفسها فجأة في المطبخ تسمع صبيها الصغير الذي كان يلعب في الفناء. كانت هناك بكليتها تشعر مثلاً بأصوات السيارات المارة. وكان دكتور بنفيلد يجري تجربة على مريض آخر وجد نفسه في ساحة البيسبول في إحدى المدن الصغيرة يراقب الصبية وهم يتسللون من تحت السور، وآخر وجد نفسه في صالة الكونشرتو يستمع إلى عزف الأوركسترا بوضوح. ومرضى آخرون يسترجعون مشاهد من طفولتهم دقيقة بدقيقة وبالتفصيل كما لو أن الدكتور بنفليد قد أدار فجأة شريط فيديو مسجل النقط بالفعل كل خطوة (وربما كانت

حالات نوم أيضاً) من حياة المريض[1]. وخلاصة ذلك واضحة، ذلك أن لدى كل منا مكتبة تحتوي على كل شيء فعلناه وفكّرنا فيه، إذن فلماذا لا نصل إليها؟ لأننا مشغولون للغاية. فالحياة صعبة ومعقدة وليس لدينا الوقت الذي يسمح لنا بالتنقيب في المكتبة، ولـذلك فإننا مثل عباقرة الحسابات الذين فقدوا قدراتهم وهم في سن الرابعة عشرة. فببساطة ألغينا هذه القدرة من أنفسنا باعتبارها نوعاً من التطور الكمالي، ومع ذلك فقد كشفت تجارب بنفيلد أنه من الممكن استعادتها إذا ما أردنا ذلك فعلاً. وليس من الضروري استخدام المجس الكهربي، فإن أطباء النفس الـذين طوروا التقنية المعروفة باسم «العلاج بالتنفيس» قـد اكتشفوا أنـه مجرد اقتراح عادي عـلى المريض قـد يجعله يعيش تجربة صدمة مـرت به بكـل تفاصيلهـا الواقعيـة مرة أخـرى. وليس هناك مـا يمنع من استخدام هذه التقنية لتجعلنا نعيش مرة أخرى في أجمل تجارب حياتنا.

في مثـل هذه الحـالة لا يمكن التمسـك بالتفسـير على أسـاس نـظريـة الـذاكـرة المدفونة. فبمراجعة وضع روبين بالطريقتين المذكورتـين تبين أن التـواريخ التي ذكـرها صحيحة ومطابقة للسجلات. حقاً، يمكن الزعم بأن راي بريـانت تحت تأثـير التنويم المغناطيسي قرأ أفكار السائلين وأعطاهم الإجابـات التي يعرفـون أنها صحيحة. ولكن هذا لا يفسر معلومات راي بريانت الدقيقة عن روبين س.ت الذي جـرح في يده في معـركة كـواريس قرب سبـاستيول. (حينـما استرجعـوا روبين إلى تـواريخ تـلي إصـابتـه بالجرح، كان يحمل يده المشلولة متصلبة بطريقة غير عادية، وبمجرد أن استرجعـوه إلى ما قبل ذلـك اختفى مظهـر الشلل من يده). ويبـدو أنه لا تـوجد وسيلة لتفسـير ذلك سوى أنه كان الرقيب روبين ستافـورد من أورمسكيرك أثنـاء تواجـده السابق، أو أنـه كـان بصورة مـا على اتصـال بعقل روبـين ستافـورد. ويميل أنـدرو سلبي إلى نـظريـة اللاوعي الجماعي، أما راي برانت فإنه يفضل التفسير البسـيط بحدوث التناسخ.

إذا صـح ما قـاله فسيكـون للمضمون أهميـة كبيرة. وباديء ذي بدء علينـا أن نفترض أنه بعد موتـه في التايمـز عام ١٨٦٥ تنـاسخ روبـين في شخص عامـل زراعي يسمى روبرت سواير الذي ولد عام ١٩٣٨، وإذا ما قبلنا أن روبـرت سوايـر وروبين ستافورد كانا بشراً حقيقيين إذن سيكون من الواضح أن التنـاسخات الأربعـة السابقـة التي ظهـرت تحت تأثـير التنويم المغنـاطيسي هي أيضاً صحيحـة وهي تناسـخ أرواح:

---

(1) Wilder Penfield; Mystries of the Mind, Chapter 6.

ويلفريد اندرسون سائق العربة الذي يرجع إلى القرن الثامن عشر، وفتاة تسمى وينفريد ماتت وهي صغيرة جداً، وخادمة منزل اسمها اليزابيت ارتفع شأنها حتى أصبحت حاكمة في أواخر القرن السابع عشر، وشخصية لم يعرف اسمها يبدو أنها لم تكن تعرف الإنجليزية عاشت قبل ذلك بقرن تقريباً.

يثير هذا أيضاً بعض التساؤلات الرئيسية عما إذا كان هناك تجاوز لحدود الموت؟ من الواضح أننا لا نقصد هنا اختلاف الجنس، لأن راي برانت كان في تناسخاته الماضية ذكراً أو أنثى، إذن ما هي القاعدة الأساسية من وراء الشخصية التي كانت مشتركة بين كل الأشخاص السبعة الذين تناسخوا فيه؟ حينما طرحت هذا السؤال اعترف راي بريانت أن ليس لديه أي فكرة عن هذا الموضوع، ولكنه شعر بأن كل التناسخات السابقة قد أسهمت بشيء مما هو عليه الآن. أما بالنسبة لبريستون في ثكنات الحامية ٤٧ (التي تمكن راي بريانت بشأنها من فحص سجلات الحامية) فكان لديه شعور خاص بما رآه فعلاً في حينه، فيبدو أن معرفته بروبين هي التفسير لأحلامه الحالية التي يرى فيها نفسه يسقط من قارب، وكذلك شعوره بالأمن كلما كان في الماء أو بجواره سواء كان بحراً أو نهراً أو جدولاً، أو بحيرة. فالظاهر إذن أن هناك شيئاً يمكن أن ينتقل من فترة من فترات الحياة إلى فترة أخرى. ويبدو أيضاً أن هذا يدعم بطبيعة الحال إمكانية بقاء بعض عناصر الشخصية بعد الوفاة. ولكن أيضاً يعني أن ما بقي بعد الوفاة هو مايرز وجارني.. وغيرهما، لا يعتبر بقاء دائماً وإنما سوف يتحول هذا البقاء إلى شخص آخر. ويبدو في الحقيقة أن هذا هو أحد العوامل الثابتة في كل تعاليم الروح ابتداء من كارديك وستانتون موزيس وانتهاء بجيرالدين كومينز.

ويعتبر التناسخ عند الهندوس والبوذيين أحد عناصر العقيدة الدينية، كما أن الكلت القدماء كانوا يعتقدون في التناسخ، وكذا الإغريق. وينظر الكثير من آباء الكنيسة مثل جيروم وأوريجين بشيء من التعاطف إلى هذا المذهب، ولكنه أدين بصرامة في المجمع الثاني بالقسطنطينية الذي رأسه الأمبراطور جوستنيان، ومنذ ذلك الوقت أصبح التناسخ في نظر المسيحية بدعة، وفي كتيب نشرته جمعية الحق الكاثوليكية عن التناسخ يلخص الأب كريهان J.H. Crehan الموضوع بقوله: «... يجب أن يكون واضحاً أمام الكاثوليكي أن عقيدتنا ليس فيها مكان لنظريات مثل

نظرية التناسخ» (ربما يكون لتحول ايان ويلسون إلى الكاثوليكية مدلوله هنا، وقد لا يكون له أي مدلول).

لكن ربما كان من العدل أن نقول إن السبب الرئيسي الذي جعل التناسخ لم يدخل إلى الغرب في أيامنا هذه هو أن معظم الناس يشعرون بأنه ضرب من الخيال، ويمكننا أن نرى قوة الاعتراض في حالة سبقت مناقشتها بالتفصيل هي حالة الدكتور آرثر جيردهام[1]. فإن دكتور جيردهام كان المستشار الأول للعلاج النفساني في منطقة بات الطبية، وكان مدهوشاً بمذهب المتطهرين الذي ظهر في القرن الثالث عشر، فقد كان معتنقوه يعتقدون في أن الإله ليس لديه كل القوى لأن قوة الشر مستقلة عنه، وربما كانت على نفس درجة قوة الخير، وأن عالم المادة ملك للشيطان. وقد حكمت عليهم الكنيسة بالإعدام، واغتيل معظمهم عام ١٢٢٤ قرب تولوز. ويشعر جيردهام أن في تولوز وجهات أخرى من المنطقة توجد رؤية فعلية، فقد عانى أثناء سن المراهقة من الكوابيس والأحلام المزعجة التي رأى نفسه فيها وهو مستلق ويقترب منه رجل طويل فيصحو صائحاً من الفزع.

وفي عام ١٩٦٢ رأى جيردهام إحدى المرضى واسمها مسز سميث كانت تعاني من كوابيس مماثلة، وتوقفت أحلامها بمجرد أن أصبحت ضمن مرضاه ولعلها لم تذكر له أنها كانت تعرفه منذ البداية كواحد ممن تراءى لها في الأحلام مدى سنين طويلة. كانت تلك الأحلام قد بدأت عندها عن تواجدها السابق في فرنسا كفتاة في الثالثة عشرة من عمرها وذلك بعد سلسلة من هجمات اللاوعي عليها، وكانت ترى في أحلامها قساً شاباً من المتطهرين اسمه روجر دي جريزولز، جاء إلى كوخ والديها في إحدى الليالي أثناء عاصفة ثلجية، وضاجعته، ولما طردها والداها ذهبت لتعيش مع روجر في منزله. وازدادت التفاصيل عن ذلك المنزل في ذاكرات أحلامها حتى انتهى بحادثة قتل، ولم تكن متأكدة من شخصية القتيل ولكنها علمت أنه شخص يدعى بيار دي مازارولس، ومات روجر في السجن ثم تحرقت هي حية في منتزيجور، وقد تعرفت على جيردهام على أنه هو روجر.

ومضى على مسز سميث سنة كاملة قبل أن تتشجع وتخبر جيردهام عن أحلامها وكانت صدمة له لأن مسز سميث لم تكن تعلم شيئاً عن نظرية التطهير، ولكنه علم

(١) في كتابي «الإنسان وقواه الخفية» سنة ١٩٧٣.

أن إعدام واضطهاد المتطهرين بدأ بعد أن دبّر رجل يسمى بيير مازارولليس عملية قتل المخبرين الذين أرسلهم بابا تولوز. ثم بدأ جيردهام بفحص تفاصيل ما تذكره مسز سميث عن المتطهرين، فبدا له واضحاً أن بعض تلك التفاصيل غير صحيحة، مثال ذلك أن القسس المتطهرين كانوا يلبسون ملابس خضراء أو زرقاء، وكانت مسز سميث قد أبدت هذه الملاحظة عام ١٩٤٤، وفي عام ١٩٦٥ اكتشف عالم فرنسي يدعى جيان دوفير نوي أن بعض هؤلاء القسس كانوا يلبسون بالفعل ملابس خضراء أو زرقاء، وفي عام ١٩٦٩ اكتشف عالم آخر يدعى رينيه نيللي أن السكر كان يستورد من البلاد العربية على شكل أقماع وكان يعتبر دواء شائعاً. ومرة أخرى تأكدت بذلك على يد بعض العلماء تفاصيل من الأوصاف التي ذكرتها مسز سميث كمراسم العبادات، وعقائد المتطهرين.

على أي حال تبدو الحكاية مقبولة لأي شخص ينظر إلى التناسخ بعقلي مفتوح، فإن اكتشاف مسز سميث أن الدكتور جيردهام كان عشيقها أثناء تواجدها السابق يعتبر بمثابة مثال نموذجي لظاهرة التحول عند فرويد (حينما يقع المريض في حب الطبيب). أما عن الصدفة التي جعلت الإثنين يأتيان معاً في القرن العشرين فإنه أمر يصعب قبوله، غير أن تأكيدات العلماء للتفاصيل الخاصة بمذهب المتطهرين يحسم هذا الأمر. فلو أن فكرة هدسون عن أن العقل الذاتي هو المسئول عن تلك الظاهرة إذن فلا بد وأن تكون تلك القوى أكثر اتساعاً مما يفكّر فيه هدسون.

كتبت عن جيردهام في كتابي «الإنسان وقواه الخفية»، وذهبت للإقامة معه في منزله بضاحية باث، وقد أدى ذلك بالتأكيد إلى تبديد شكوكي في أنه اختراع حكاية شخص سميث بنفسه. فرغم أنني لم أقابلها إلا أنه كان واضحاً أن جيردهام شخص سويّ أمين متزن ليست له نزوات، وكانت زوجته ماري التي أكدت حقيقة التفاصيل الواردة في كتابه سيدة مثالية وعاقلة. وقد أطلعني على مراسلاته مع العديد من العلماء، وأصبح واضحاً جلياً أمامي أنه قد أهمل كمية من البراهين لم يذكرها في كتابه خشية أن تؤدي إلى تشويش على بعض القراء.

لكن الذي أقلق بالي حق في تلك المرحلة هي تطورات تورطه مع المتطهرين، فقد عرض عليّ مخطوطة كتاب بعنوان «نحن ذوات غيرنا» يبدأ باجتماع مع امرأة تسمى كلارا ميلز، فتاة جذّابة مندفعة طليقة سألته يوماً عما إذا كانت كلمتا رايموند

والبجنسان لها معنى بالنسبة له، وظلّ الأمر عالقاً في رأسها منذ ذلك الوقت، فقد كـان البيجنسان اسم آخر لحركة المتطهرين، وكان رايموند هو لقب كونتيسة تولوز. جاء ذلك كله قبل أن يسطر كتابه عن المسز سميث تحت عنوان «المتطهرون والتناسخ»، ولم يكن لديها وسيلة تتعرف بها على الموضوعات التي تهمه. وكان لكلارا ميلز أيضاً أحلامها التي رأت فيها نفسها وهي تحرق، وأدت الأسماء التي رددتها إلى الكشف عن أنها كانت ترى في أحلامها مذابح المتطهرين. فقد رأت في منامها مرة أنها أجبرت على السير نصف عارية نحو نار متأججة، وأنها كانت تضرب على ظهرها بعامود محمى، وكانت بها علامات منذ مولدها تبدو وكأنها سلسلة من القروح الشديدة. وقد استخلص جيردهام أنها كانت واحدة من المتطهرين الذين التقى بهم في حياته السابقة. ولم يكن هذا هو كل شيء. وعرضت والدة فتاة ميتة على جيردهام كراسة مذكرات ابنتها الراحلة كانت قد كتبتها وهي في السابعة من عمرها، وهي مليئة بأسماء بعض المتطهرين ورسوم تخطيطية لهم. فاعتقد جيردهام أن الأم وابنتها كانتا من المتطهرين. وفي اتصالات أخرى تورط جيردهام في قصص غريبة، فكان عليه أن يدرس حالة التناسخ الجماعي (وهو مذهب دعا مايرز كما نذكر أن تؤمن به جيرالدين كومينز).

هناك المزيد مما جاء بعد ذلك. ففي كتاب «البحيرة والقلعة» يصف جيردهام كيف اقتنع بأن المجموعة نفسها قد اشتركت مع بعضها في عصر سابق كأعضاء في الكنيسة الكلتية التناسخية، وأنهم لاقوا معاً مصيرهم وهو الاستشهاد. وكأنه كان يشعر بأن القارىء الذي قد يقبل صغار الأمور قد يقبل أيضاً كبارها، فواصل حكاياته عن الكيفية التي اجتمعت فيها تلك الجماعة مع بعضها في عهد بريطانية الرومانية في القرن الرابع، وكذا في العصر النابليوني.

كنت صديقاً شخصياً لآرثر جيردهام منذ أوائل السبعينيات، وغالباً ما كنت أقضي معه في منزله أوقاتاً طويلة، فهو الأب الروحي لابنتي، ولذا فإنني أعتقد أني أعرفه جيداً. ولقد اصطحبت كلارا ميلز معي يوماً للعشاء (مع أسرة جيردهام أيضاً) فأكدت كل ما سبق أن قالته، ولم يكن لدي أي سبب للاعتقاد بأنه أفّاق يغري مرضاه ليتعاونوا معه في خيالاته عن الحياة السابقة، أو أن كتبه كانت اختراعات أو إبداعات تكسبه الشهرة. وكان واضحاً أنه يعتقد في كل كلمة كتبها في تلك الكتب، فضلاً عن

أنه كان أذكى من أن يسمح لخياله أن يجره معه. ويشير ايان ويلسون إلى أن جيردهام توقف بعد أن قابل حالة مسز سميث. وربما كتب دراسة في العلاج النفسي لمسز سميث. وربما قوبلت مزاعمه باهتمام جاد، أنه يعلم كما يعلم أي شخص آخر أن التناسخ الجماعي، وكل ما سبق من حيوات في أشخاص من الكلت أو الرومان (لا نريد أن تذكر مياه حياة جيردهام السابقة كيوناني في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وهي ما جاء وصفها في كتاب الجزيرة). كل ذلك يجعل قصصه غير مقبولة كلية لمعظم القراء، وربما يحتج بجرأة شديدة مثلما فعل السير وليام كروكس فيقول: «أنا لم أقل إن ذلك ممكن بل قلت إن ذلك حقيقي».

أما رأي الأب كريهان في هذه الحالة فهو أن جيردهام ومسز سميث وكلارا ميلز والباقين كلهم إنما هي حالات تخاطرية، وأنها قد تجمعت بصورة ما في خيالاتهم ومن نتائج قراءاتهم. فقد حكي جيردهام عن علاقته مع مسز سميث ما يجعل ذلك ممكناً، فكانت تكتب مذكرات تفصيلية عن المتطهرين قبل أن يقابلها جيردهام بنحو ثمانية عشر عاماً. ولذا أصبح أمامنا إمكانية وجود إجابتين هما إما أن جيردهام يخدع نفسه كنوع من البطولة، أو أن مفهوم التناسخ الجماعي مفهوم صحيح أساساً.

لحسن الحظ أن أثر صحة ذلك من عدمه ليس له أهمية مباشرة في هذا النقاش. ويبدو أن الصورةالتي تظهر من حالات التناسخ التاريخية واضحة وثابتة، وأنها تتناسب مع النموذج العام لمناقشة موضوع البقاء بعد الموت دون أي تناقضات. فلقد لاحظنا مثلاً أن ماري روف كانت تعرف محاولات والديها الاتصال بها عن طريق وسيط، وأمكنها اقتباس كلمات سبق أن كتبتها في الجلسة، وتبدو الوساطة في الواقع وكأنها نتيجة استحواذ مؤقت. إذ كان واضحاً أن ماري ولورانس فينوم قد اتفقا على استحواذ لورانس فينوم للجسم لمدة شهور قليلة وبعدها ينتهي الأمر وتأتي ماري بصورة دورية.

وما يتكشف من ذلك هو وجود كائنات غير مجسدة تستطيع في ظل الظروف المواتية أن تدخل إلى جسم الإنسان أو تخرج منه تماماً مثلما يدخل السائق إلى السيارة أو يخرج منها. وفي حالة جاسبير لاجات يبدو وكأن سوبارام قد وجد السيارة العظيمة ومحركها ما زال ساخناً فتسلل إلى مقعده السابق... فكرة تبدو مفاجئة للعقل، ولكن هناك من الدليل ما يؤيدها.

على العموم، تبدو الحقائق كما تظهر في الحالات المتعددة مؤيدة لرأي شتاينر عن التناسخ كتجربة تطورية، وذلك ما ورد في كتاب علاقات الكارما بأجزائه الثمانية. وهناك نقطة رئيسية واحدة فيها تعارض، إذ يبدو أن شتاينر شعر بأن عملية تناسخ الروح تقع في مدى يتراوح بين مائة وألف سنة، ولكن رأي شتاينر الفعلي هو أنها تستغرق مدى سنوات محدودة، وهناك اختلاف جذري بين ما جاء في كتاب الثيوصوفي (١٩٠٤) وكتاب «خلاصة علوم الباطن» الذي ظهر بعده بست سنوات. ولم يزعم شتاينر أبداً أنه معصوم من الخطأ، فهو مثل غيره من الصوفيين قام بمحاولة وصف ما يلمحه كما يتلقاه تماماً.

وترجع أهمية شتاينر إلى تمسكه بتعاليمه، وإصراره على أن من الخطأ محاولة أخذ الروحانية بصورة حرفية للغاية. «فالروحانيون هم أولاً وقبل كل شيء أعظم الماديين». ولم يتوانَ في التأكيد على أن «عالم الروح منسوخ من مادة يتكون منها الفكر الإنساني»، ويبدو أنه يريد القول بأن الإنسان خاطىء في زعمه أنه محبوس في عالم مادي، وأن ذلك يسمح بأن ينتهي إلى سلبية من نوع معين تجاه حياته الخاصة. ويجب أن يؤكد على ضخامة القوى الخلاّقة الكامنة في العقل البشري. لذلك، فرغم أن اتجاهه نحو الروحانية غالباً ما ظهر فيه العداء إلا أنه أساساً يؤكد ما قاله مايرز في كتابه «الشخصية الإنسانية»، وما قالته كاترين كرومن قبله من أن الكائنات البشرية تمتلك من القوى الضخمة الكامنة ما لا يمكن أن نتوقعه. وتبرز هذه النقطة من الفقرة التالية التي تعبر عن جوهر فكرة شتاينر:

> إن ما يحيط بك حالياً هو بصورة ما من خلقك، حيث أنك غير متحرر منه عقلياً لأن أعصابك وإحساساتك تبعث إليك بمفهومك عن الحياة، فإذا كنت قادراً على أن تعكس ذاتك أو وعيك اليومي من خلال عقلك الأعمق، أو باختصار إذا ما دربت نفسك على أن تدخل في مركب فكري يغيب منه الشكل الذي تنقله الحواس، فإن العالم المادي سوف يختفي.

حقاً إن الكلمات ليست كلمات رودلف شتاينر إنما هي من النص الذي كتبه مايرز ونشرته جيرالدين كومينز تحت عنوان «الطريق إلى الخلود»، ولكنها تؤكد ما كرر شتاينر من تأكيدات عن أن من الخطأ أن تأخذ الحقائق أخذاً حرفياً، فإننا إذا فعلنا ذلك فإننا نخرج من حسابنا البعد الخامس الذي يعطي لتلك الحقائق معناها.

بيد أن اكتشاف بنفيلد يقدم لنا أرضية التشكك في حالات مثل حالة إدوارد

رال. فلقد برر ايان ويلسون تشككه بوصف حالة متميزة حققت فيها جمعية البحوث النفسانية عام ١٩٠٦. بدأت امرأة (تدعى آنسة س) تتذكر تحت تأثير التنويم المغناطيسي تفاصيل حياة سيدة تسمى بلانس بوينتجر، صديقة الكونتيسة مود كونتيسة سالزبوري. وبدا بوضوح أن معرفتها بالكونتيسة كانت معرفة دقيقة. ولكن على حد علمه لم تكن الآنسة س قد قرأت أي قصص تاريخي يجعلها تحكي منها التفاصيل. وفي يوم من الأيام حينما كان باحث جمعية البحوث النفسانية يتناول الشاي مع الآنسة س بدأ الحديث عن البلانشيطة أو لوحة الكتابة التلقائية. ووافقت الآنسة س على أن تقوم بمحاولة الاتصال مع بلانش بوينتجر باستخدام البلانشيطة، وسرعان ما دخلت بلانش والآنسة س في حديث حي كانت فيه بلانش تحاول إطالة مدة الاتصال. ولكن حينما سألوها عن الطريقة التي يدرسون بها حكايتها أجابتهم: «اسألوا مستر أ. هولت» وتبين أن هولت هذا هو اميلي هولت مؤلف رواية الكونتيسة مود، كانت الآنسة س قد قرأتها في طفولتها ونسيتها بمضي الزمن، وثبت أن رواية الكونتيسة مود تحتوي كل التفاصيل عن الكونتيسة سالزبوري التي قدمتها الآنسة س وهي تحت تأثير التنويم المغناطيسي.

ظهر أن ذلك التأكيد لعبة وضعت خصيصاً لتخدم رأي المتشككين في أمر التناسخ، ولكن هناك حالة ترجع إلى الخمسينيات تصور لنا خطوة المبالغة في عمل حساب للشك. فلقد اكتشف موري برنستاين أحد رجال الأعمال في بويبلو بولاية كولورادو انه منوم مغناطيسي مطبوع، وأغرى زوجة أحد العاملين بإحدى شركات التأمين وتدعى فرجينيا تاي لتسمح له بأن يجري معها التنويم النكوصي، وثبت أن فرجينيا أداة تنويمية عميقة. وحينما أرجعها برنستاين إلى ما قبل مولدها بدأت تتكلم بلهجة ايرلندية، وقدمت نفسها على أنها بريدي مورفي التي ولدت قرب مدينة كورك في إيرلندا عام ١٧٩٨، وعلى مدى ست جلسات مسجلة قصت تفاصيل دقيقة عن حياتها بصفتها بريدي زوجة المحامي الذي يحاضر في جامعة كوين في بلفاست، وماتت بريدي في خريف عام ١٨٦٤.

كتب برنستاين كتاباً عن هذه الحالة تحت عنوان «البحث عن بريدي مورفي» بعد أن نشر في حلقات بجريدة أخبار شيكاغو اليومية (ديلي نيوز). ولكي ترد جريدة ديلي نيوز على انتقادات الجريدة المنافسة لها حول هذا الموضوع أرسلت أحد مراسليها

إلى بلفاست لتتبع أصل بريدي مورفي، ولكنه واجه صعوبات جمة، منها أن سجلات المواليد والوفيات بدأت في إيرلندا بعد وفاة بريدي بسنتين فقط، ولكن وجد بعض عناصر أخرى مؤكدة لوجودها، فهناك بقّالان أشارت إليهما مسز تاي وجدا اسميهما مسجّلين في دليل مدينة بلفاست عام ١٨٦٥، ووجدت أيضاً قطعة عملة من ذات البنسين كانت بريدي قد أشارت إلى استخدامها في ذلك الوقت أثناء حياتها. وقد أوقف صكها بعد ولادتها كما أوقف استخدامها قبل وفاتها بإثني عشر عاماً. وكانت بريدي قد ذكرت أنها ولدت في ميدوز قرب بلفاست، وتبين من خريطة قديمة لبلفاست ترجع إلى عام ١٨٠١ وجود مدينة تسمى ماردبك ميندوز. وفشل الصحفي في تتبع أشياء أخرى مثل الطريق الموصل بين دولي وبلفاست، وكنيسة سانت تريزا. ولكن ذلك لم يؤدِّ إلى منع الجمهور الأمريكي من تقبل الموضوع وأصبح كتاب «البحث عن بريدي مورفي» من أكثر الكتب انتشاراً في السوق عام ١٩٥٦.

عند هذه النقطة نشرت الجريدة المنافسة نتائج تحقيقاتها فكشفت عن هوية فرجينيا تاي (كان برنستاين يستخدم أسماء مستعارة) وتبين أنها كانت تعيش في شيكاغو، وحسب ما ذكرت جريدة شيكاغو أميريكان كان لمسز تاي عمة اسمها ماري بورزنز وصفتها بأنها «إيرلندية مثل بحيرات كيلاري»، أي أنها من أعماق إيرلندا، وكانت تقص عليها في طفولتها حكايات عن إيرلندا، وبالإضافة إلى ذلك كانت فرجينيا في طفولتها تسكن أمام سيدة إيرلندية اسمها بريدي كوركيل وكان اسمها قبل الزواج بريدي مورفي، وكانت خلفيتها الإيرلندية حسب ما ذكرت جريدة شيكاغو أميريكان قد راقت للفتاة، كما أن فرجينيا كانت تحاول تصيّد جون الذي هو ابن كوركيل.

خمدت الضجة التي أثارتها مسز بريدي مورفي فجأة مثلما بدأت فجأة، ورفع الكتاب من قائمة الكتب المشهورة، ولكن أحد كتاب مجلة دنيفر عاد فحقق في الأمر واكتشف أن القصة كلها غير حقيقية. وتبين أن العمة مسز ماري بورنز التي قيل إنها إيرلندية مثل بحيرات كيلاري مولودة في نيويورك، وأنها لم تقابل فرجينيا إلا بعد أن بلغت الثامنة عشرة من عمرها. وأن كلاً من فرجينيا والعمة أنكرا وجود أي قصص إيرلندي. ولقد تبين أن مسز كوركيل تراوغ وتحاول التهرب من المقابلات التي يلقي فيها الصحفيون أسئلتهم ولذا لم يستطع المراسل الصحفي أن يعرف ما إذا كانت

تحمل قبل زواجها لقب مورفي أم لا. ولكي يكشف عن ذلك اتجه إلى ابنها جون الذي افترض أن فرجينيا كانت تغريه، وكان يعمل محرراً لطبعة السبت من جريدة شيكاغو أميريكان وهي الجريدة التي فشلت في الاحتفاظ بحق نشر حلقات كتاب برنشتاين. وأصرت فرجينيا على قولها بأنها لم تتخاطب مع مسز كوركيل، وأنها لم تكن تغري ابنها جون لأنه كان يكبرها بثماني سنوات وكان متزوّجاً.

فشل كل ذلك في إثبات أن حالة تناسخ بريدي في فرجينيا تاي كان أقرب إلى الحقيقة من حالة تناسخ بلانش بوينتج في الآنسة س. وتثبت هذه الحالة أن من الأسهل رفض الزعم كله بدلاً من القيام بتحقيقات جادة، إذ أن معظم الذين كتبوا عن الحالة مثل مارتين جاردنر في كتابه «بدع وتفاهات باسم العلم»، قد اكتفوا بنشر الفضائح المتعلّقة بالموضوع دون أن يشيروا إلى صحيفة دنيفربوست التي كشفت الحقائق، لأن التحمّس للعجائب والغرائب يمكن أن يؤدّي إلى قدر من خداع النفس يماثل تماماً عدم الرغبة في الاقتناع والإيمان.

ولقد كان لحالة بريدي مورفي أثرها في توجيه اهتمام العديد من المشتغلين بالتنويم المغناطيسي نحو الاسترجاع. فقام طبيب انجليزي يدعى أرنال بلوكسهام Arnall Bloxham كان يسكن في كارديف بإرجاع فتاة تسمى آن أوكندون، فتذكرت حياتها السابقة كرجل عاش في أرض يسير فيه الناس عريا ويلبسون أسنان حيوانات، فاستخلص دكتور بلوكسهام أنها كانت تتحدث عن عصور ما قبل التاريخ، ولكن من الواضح أن ليس هناك أي وسيلة لبحث هذه النوعية من التناسخ. ولقد أثبتت الحالات التي أتت فيما بعد أن هذه الطريقة أكثر فائدة. فقد كان المنتج التليفزيوني جيفري ايفرسون Jeffry Iverson شديد الإعجاب ببرنامج بلوكسهام وخروجه بنفسه لفحص الحالات، فنشر كتاباً بعنوان «هل هناك أكثر من حياة واحدة؟» ضمنه نتائج أبحاثه. وكان هناك مدرب سباحة يسمى جراهام هكستيبول Graham Huxtable الذي أصبح فيما بعد بحاراً في القرن الثامن عشر على سفينة تسمى آجي رويال دخل في معركة مع سفينة فرنسية وأبلى بلاء حسناً ثم صاح صيحات الرعب حينما جرحت ساقه. وحضر إيرل مونتياتن الباحث في التاريخ الحديث إلى أوليفروارنر ليحاول التحقّق من صحة التسجيلات التي عملها هكستيبول، ورغم أنه لم يستطع تعقب أي أثر للسفينة أو المعركة إلا أن وارنر انتهى إلى أنه مقتنع تماماً بصحة الواقعة، فيبدو أن

هكستيبول البحار كان يعرف عن سفن العصر أكثر بكثير مما نجده في الروايات التاريخية.

ولكن الحالة الأكثر إقناعاً من ذلك عند إيفرسون هي حالة امرأة كانت تفضُل أن تعرف باسم جين إيفانز، وتتذكر سبع حيوات سابقة: ربة بيت رومانية كانت تعيش في انجلترا، ويهودية قتلت في مذبحة وقعت في يورل، ومومس فرنسية، وخادمة لتاجر فرنسي، وخياطة في عهد الملكة آن، ووصيفة لابنة أمير إسباني، وراهبة أمريكية من دير مواتزقي ايوا. ولقد أظهرت ربة البيت الرومانية «ليفونا» معلومات جيدة عن عصرها مما يدل على خبرتها بالتاريخ الروماني في انجلترا، وأصرت مسز إيفانز على أن معارفها التاريخية تقتصر على ما تلقته في المدرسة الابتدائية. وذهب إيفرسون إلى وادي نهر اللوار ليتحقق من أمر تناسخ شخصية السون خادمة خال كوبر مستشار شارل السابع ملك فرنسا فيها. ولم يكن جين إيفانز قد ذهبت إلى وادي اللوار إطلاقاً، ولا يعرف شيئاً عن التاريخ الفرنسي، ولكن تحقيقات إيفرسون مع المؤرخين الفرنسيين أظهرت مبلغ علم أليسون بتاريخ فرنسا في العصور الوسطى.

وأكثر هذه التناسخات عجباً هو تناسخ ربيكا اليهودية التي عاشت في يورل خلال القرن الثاني عشر قبل أن يخرج ريتشارد قلب الأسد للحرب الصليبية الثالثة عام ١١٨٩ م، فقد حدث في لندن شغب ضد اليهود وثار الإنجليز ضد الخونة الخارجين عن الدين، وكان اليهود آنذاك يعاملون كمعاملة الإنجليز للمسلمين، وحدثت في يورل مصادمات عام ١١٩٠، ولجأ اليهود إلى القلعة، وقام معظمهم بقتل أسرهم ثم قتل أنفسهم تجنباً لنقمة الثائرين. وهربت ربيكا مع أسرتها من المذبحة واتجهوا إلى الممر السري في إحدى الكنائس المسيحية، ولكنهم قبل أن يصلوا إلى الباب الخارجي عثر عليهم الثائرون وقتلوهم.

قرر إيفرسون أن يستفتي أحد الخبراء عن هذه المذبحة وهو البروفسور باري دوبسون الأستاذ في جامعة يورك. ودهش الدكتور دوبسون لدقة وصف المذبحة وبخاصة رأي جين إيفانز التي اعترفت بأنها تجهل كل شيء، وقرر أن الكنيسة التي ينطبق عليها وصفها هي كنيسة قلعة سانت ماري. ولم تكن هناك سوى مشكلة واحدة هي عدم وجود ممر سري، ولكن بعد ستة أشهر اكتشف أحد العمال الذين كانوا

يعملون في أعمال تجديدات الكنيسة آثار شيء يبدو أشبه ما يكون بالممر السري: حجرة ذات أقبية دائرية موجودة تحت المذبح.

وبينما يعترف ابان ويلسون بأن هذا الاسترجاع مدهش إلا أن له بعض أوجه النقد بشأنه. فهو يشير إلى أن هناك نحو أربعين كنيسة في مدينة يورك، فكيف تأكد البروفسور دوبسون أن كنيسة سانت ماري هي الكنيسة المقصودة؟ ووصفت ربيكا قتل يهودي عجوز في شارع كوني، ولكن اسم الشارع منذ القرن الثاني عشر كان شارع كوننجا (أي شارع الملك)، وتذكر ربيكا بوابة يورك النحاسية الكبيرة بينما الحقيقة أن كوبرجيت (أي البوابة النحاسية) كان اسماً لشارع من الشوارع: فقدت كل هذه الاعتراضات قوتها حينما رد عليها البروفسور دوبسون، فالشارع الذي قتل فيه اليهودي العجوز كان يسمى شارع كوننجا، وربما كان ينطبق آنذاك كونين حيث عادة الإنجليز أن يحرفوا نطق الكلمات الأجنبية، (في بلدتي ليشستر نجد أن شارع بولفوار ينطق شارع بيفر) أما الشارع الذي يسمى كوبرجيت فقد كان موجوداً فعلاً في يورك عام ١١٩٠، وفي نهايته كانت تقع إحدى البوابات المؤدية إلى القلعة، وليس من شك في أن معظم أهالي يورل اعتقدوا أن كوبرجيت (البوابة النحاسية) يشير إلى تلك البوابة.

يرد كل ذلك على الاعتراض الثالث: كيف استطاع البروفسور دوبسون أن يحدد الكنيسة بينما يوجد تسع وثلاثون كنيسة أخرى؟ إن ربيكا قد وصفتها وصفاً دقيقاً كما لو أنها كانت خارج البوابات الكبرى، وهو أمر معقول لأنها تذكر أنها هربت من القلعة.

لعل النقد الذي وجهه إيان ويلسون يوضح لنا أن الرأي المضاد لفكرة التناسخ هو أساساً نفس الرأي الذي يعادي فكرة «اتصال الروح» عن طريق وسطاء. هذا، ويمكن تفسير أي شيء في ضوء فكرة الذاكرة المدفونة والتخاطر، وإلا لأصبح الخداع أمراً غير مدعم بالدليل. فإذا ما ثبت لدينا اتصال الروح فعلينا إذن أن نفترض أن الروح قد توصل لنا شيئاً غير معلوم للوسيط أو لأي شخص من الحاضرين، وتؤيد هذا المعيار كثير من حالات الاتصال المتدخل، فإذا ما أردنا إثبات التناسخ فعلينا تطبيق نفس هذا المعيار. فلا بد أن نبين في العرض أن الشخص المتناسخ أو الذي حلت روحه في الشخص الآخر يعرف أشياء لا تعرف إلا أثناء تواجد سابق له، ومن

ثم فليس هناك خلاف في أن المؤرخ البحري وجد أن الرواية مقنعة تماماً، بينما نريد أن نعرف بما لا يدع مجالاً للشك أن هكستيبول لم يشاهد أي فيلم أو يقرأ أي كتاب يكون متضمناً للمادة التي تعرض منظر المعركة.

بيد أنه في حالة جان إيفانز غالباً ما يستحيل رؤية كيف يمكن تطبيق هذا النوع من التفسير. فلو صح أنها ليست قارئة واسعة الاطلاع وأن معلوماتها تقتصر فقط على التاريخ الذي تلقته في المدرسة الإبتدائية فإن ذلك يدل على أنها لم تعرف شيئاً عن حياة وصيفة رومانية أو يهودية كانت تعيش في يورك. على أن التناسخات فيها تفتقر في نفس الوقت إلى عنصر هام هو إثبات أن ليفوتيا وربيكا وغيرهما من الشخصيات كانت موجودة بالفعل، وبدون مثل هذا الدليل لن نتأكد من أنهم لا يخرجون عن كونهم من الإبداعات التي أثارها العقل الذاتي.

ولقد تخصص في موضوع الاسترجاع منوم مغناطيسي آخر هو جو كيتون Joe Keeton الذي يقيم في ويرال. فلقد كوّن مجموعة جعلت هدفها الحصول على أدلة وثائقية عن وجود حياة سابقة. كان كيتون لا يؤمن إطلاقاً بأنه يتعامل مع حالات تناسخ، وكان يفضل الاعتقاد في أنه يتعامل مع قدرات عقلية خالصة ممزوجة بشكل غير معروف من الدخول في نشاط ذاكرة الجنس البشري، وهي شيء يشبه اللاوعي الجماعي عند جونج.

قابلت جو كيتون لأول مرة سنة ١٩٧٨ حينما حضر إلى دار تليفزيون ويست وارد في بلايموث ليقوم بعملية استرجاع لممرضة تسمى بولين ماكاي جاءت أيضاً من مدينة ويرال. تحولت بولين إلى خادمة من بلاد المغرب اسمها كيتي جاي، وقالت إنها انتحرت قرب مدينة شاجفورد في أواخر القرن الثامن عشر. وكتب جو إلى أمين مكتبة إكستر يسأله عما إذا كان يعرف كيتي جاي، والغريب أنه تلقى رداً مفاده أن مقبرة جاي موجودة في أطراف دارتمور، وأنها شنقت نفسها في مزرعة كانا، ولأنها ماتت منتحرة لم يسمح بدفنها في الجبانة.

ولقد قام جو كيتون بتنويم بولين ماكاي أمام عدسات التليفزيون، وأرجعها إلى حياتها السابقة ثم أخيراً إلى حياتها حينما كانت كيتي جاي، فوصفت كيف أنها ذهبت للعمل في مزرعة فورد في ماناتون كخادمة وسمحت لنفسها بأن يغتصبها رجل يدعى روب كان يعمل في مزرعة كانا المجاورة. ورغم أن بولين لم يسبق لها أن زارت الريف

الغربي إلا أنه كان واضحاً أنها تعرف المنطقة، وذكرت اسم الجسر الذي كانت تقف عليه كيتي وروب أثناء نزهاتهما، وحكت كيف أن روب هجرها، وأخذت تصف انتحارها، وعند وصولها إلى هذه النقطة بدت عليها علامات الأسى العميق حتى أنها كانت تتنفس بصعوبة. كان العرض مثيراً، ومع ذلك كان واضحاً أن ذلك يفسر على أنه من الذاكرة المدفونة، فربما سبق لبولين أن قرأت حكاية كيتي في أحد الكتب الكبيرة عن الأشباح مثل كتاب بيتر اندروود Peter Underwood «سجلات تاريخية للأشباح البريطانية».

وظل كيتون منذ ذلك اللقاء على اتصال دائم بي يخبرني بالحالات الجديدة التي تعرض عليه، وكان بعضها مثيراً للغاية، وحتى سنة ١٩٨٣ لم تعتبر أي من تلك الحالات كحالة تناسخ بالمعنى الدقيق للكلمة، أو ذاكرة عرفية، ولكن استطاع إثنان من الباحثين أخيراً، وهما أندرو ومرجريتا سالبي، أن يقدِّما براهين موثقة عن وجود تناسخ أو حلول روح سابقة في شخص ما.

كان الشخص الذي وضع موضع الاسترجاع صحفيًّا يدعى راي بريانت يعمل كاتب تحقيقات لجريدة ايفننج بوست طلب إليه عام ١٩٨٠ أن يكتب جلسات مسلسلة عن الاسترجاع بالتنويم المغناطيسي، فاشتد اهتمامه بالموضوع، وتبين له أن محاولاته الشخصية للاسترجاع غير كافية، ومع ذلك انضم عضواً في مجموعة كانت تجتمع في لندن وبذلك حافظ على كيانه. وفي خلال الجلسة الثانية عشرة من حلقات التنويم المغناطيسي التي يحضرها سمع نفسه يصف مرضا أصابه وهو في محطة السكة الحديدية (كان راي برانت يصف إحساساته أثناء تلك الجلسات بأنها أشبه ما تكون بمشاهدة برنامج التليفزيون وهو يؤدي دوره فيها)، وظهر تدريجياً أنه عامل مزرعة اسمه روبرت سويار الذي يقطن في أونجار بمقاطعة اسكس في بدايات القرن العشرين (ولد راي سنة ١٩٣٨)، وفي الجلسات التالية وصف حياته كعامل زراعي وألقى عليه جميع أعضاء الجماعة أسئلتهم، ثم قرر جو كيتون أن الوقت قد حان ليذهب به في الماضي إلى ما هو أبعد. . إلى ما قبل ولادة روبرت سواير. فأصبح جندياً يدعى روبين، وحينما سأله عن اسمه الثاني لم يستطع أن يذكر إلا الحروف الأولى منه وهي «س،ت. . .». كان من الواضح أن حياة روبين كانت أكثر حيوية من حياته كروبرت سواير، إذ أنه كان رقيباً في فرقة لانكشاير السابعة والأربعين، وأنه

خرج في حرب القرم حيث رأى فلورانس تايتنجيل، وربما مـات في لندن منتحـراً عام ١٨٧٩ وهو في السابعة والخمسين من عمره.

ثم ظهرت تفاصيل أخرى؛ أنه جرح في معركة الكواريس وهي معركة لم يسمع عنها أي من أفراد المجموعة، ولكن تبين من البحث في المراجـع أنها وقعت بالفعـل في يونية ١٨٥٥ (رغم أنها كانت من أكثر معارك الحرب أثناء حصار سيباستيول غموضاً، وقـد فشلت في بحثي الشخصي في ستة كتب أن أجد لهـا ذكراً)، وتـرك الجيش بعـد خدمة دامت واحداً وعشرين عاماً.

٧
الأفول والبعث الجديد

كان لويلات الحرب العالمية الأولى أثرها في اعتناق الآلاف للروحانية، وعلى العكس أيضاً اقتنع المزيد من الناس أكثر من ذي قبل بأن الروحانية هراء. ويعتبر السير أوليفرلودج هو المسئول عن كل هذه الاتجاهات المتناقضة.

في نوفمبر عام ١٩١٦ ظهر كتاب من تأليف لودج بعنوان «رايموند أو الحياة بعد الموت» فتسبب في ضجة مباشرة ولكنها لم تكن من ذلك النوع الذي يأمله لودج له. فمنذ سنة ١٩٠٩ حينما أصدر لودج كتابه المسمى «بقاء الإنسان» والذي يعترف فيه بإيمانه بالحياة بعد الموت بدأ العلماء يشعرون أنه قد ترك جانب العلم، ولئن كان قد ناقش هذا الكتاب على الأقل أدلة تجريبية، وتمسك بالتزامه العلمي الشديد إلا أنه خصّص أربعمائة صفحة من كتابه الثاني لمناقشة أن ابنه قد رجع من عالم الموتى مما يبدو بوضوح أشبه بإقحام النفس في العواطف. وأصبح رايموند هدفاً للمعلقين المعادين وبخاصة الفقرة التي يشرح فيها رايموند أن «العالم الآخر» لا يختلف كثيراً عن أرضنا، وقال إن معظم الناس يلبسون الثياب البيضاء رغم أن الكثير منهم ربما يفضلون لبس الحلل ذوات السترات. وهم يأكلون كيفما يريدون بل ولديهم السيجار والويسكي والصودا. وهناك معامل تصنع فيها كل أنواع السلع». يبدو أنها كلمات فيها سفه، ذلك أن أحد علماء النفس ويسمى تشارلز ميرسييه ضرب رقماً قياسياً في سرعة إصدار كتاب مضاد له على طول الخط بعنوان «الروحانية والسير أوليفرلودج». بيد أن معظم العلماء شعروا ببساطة أن لودج قد تحطم وأن الشيء الوحيد البسيط ربما كان إهمالهم له.

ولقد لقي السير آرثر كونان دويلي Arther Conan Doyle نفس العداوة حينما اعترف في عام ١٩١٨ باعتناقه للروحانية في كتاب أسماه «الوحي الجديد». كانت أسرة

دويلي خلال الحرب ترعى سيدة شابة تعاني من المرض اسمها ليلي لودرسيموندس، زعمت وهي في فراش المرض أنها تمارس الكتابة التلقائية، واقتنعت أسرة دويلي بأن الأمر ببساطة لا يخرج عن كونه كلاماً صادراً من عقلها الباطن ثم حدث في يوم من الأيام أن أتت الرسالة التالية: «فظيع . . . فظيع! سيكون لذلك تأثير على الحرب». وفي ذلك اليوم حدث أن غواصة ألمانية أغرقت سفينة الركاب لوسيتانيا وغرق نحو ألف راكب أكثرهم من الأمريكيين. أدى هذا الحادث إلى تمهيد الطريق لاستعداد أمريكا لدخول الحرب. ومنذ ذلك الوقت أخذت أسرة دويلي أمر الكتابة التلقائية بشيء من الجدية. وفي أبريل سنة ١٩١٥ مات مالكولم ليكي شقيق زوجة كانون دويلي في مدينة مونز. وفي ذات يوم بينما كان دويلي جالساً بجوار ليلي لودرسيموندس وهي في فراشها يراقبها وهي تكتب كتابة تلقائية، دهش حينما تعرف على خط مالكولم ليكي، وبدأ دويلي يطرح أسئلة يجيب عليها ليكي، سأله ديولي سؤالاً صعباً للغاية عن محادثة شخصية كانت قد مرت بينهما قبل الحرب، وكانت الإجابة بالتحديد هي بالفعل ما ناقشه مع ليكي، ولم يكن ديولي قد ذكر عنها شيئاً حتى لزوجته. ومنذ ذلك الوقت أصبح لا يشك في حقيقة الحياة بعد الموت.

سبب اعتناقه للروحانية غضباً أكثر من الغضب الذي سببه اعتناق السير أوليفرلودج. فأصدقاؤه المحترمون مثل لويد جورج وونستون تشرشل والملك جورج الخامس وغيرهم شعروا بأن ذلك مظهر من مظاهر السذاجة الطفولية، وطرح عليه الكثيرون سؤالاً ساخراً: «ماذا قال شرلوك هولمز؟» وفي الحقيقة أن آخر مجلد روايات شرلوك هولمز: «الحالة» ظهر عام ١٩٢٧ وقوبل ببرود لم يسبق له مثيل، إذ أن جماهير الطبقة المتوسطة شعرت بأن أوهامه انكشفت. وكانت الرواية السابقة عن البروفسور شالنجر وعنوانها «أرض الضباب» قد قوبلت بسخرية واسعة النطاق. ويذكر كاتب سيرة ديولي أن اعتناقه للروحانية أدى إلى منع وضع اسمه ضمن قائمة النبلاء[١].

ومن أكثر الحكايات عن التعصّب ضد الروحانية مأساوية حكاية المهندس المعماري فردريك بلاي بوند Fredrick Bligh Bond، فقد حدث عام ١٩٠٧ أن اشترت الدولة أطلال دير جلاستونبري وعين بلاي بوند مسئولاً عن الحفائر فيها. وكان بوند من المؤمنين بكتاب «الجانب الليلي من الطبيعة» تأليف كاترين كرو، وقرر

(١) Charles Highans, The Adventures of Canon Doyle. P. 261.

أن عمله قد يصبح بسيطاً للغاية إذا ما استطاع أن يتصل برهبان الدير الذين ماتوا منذ زمن طويل ليسألهم عن الأماكن التي يحفر فيها، واستطاع صديق له اسمه جون آلان بارتليت أن يقوم بالكتابة التلقائية. وفي نوفمبر عام ١٩٠٧ جلس بوند وبارتليت على جانبي مائدة، وأخذ بارتليت قلماً في يده، ويد بوند تلمس يده من فوقها بخفة. وأخذ بوند يطرح الأسئلة، ويد بارليت تتحرك بكتابة الإجابات. وحينما سأل بوند عن موقع الكنيسة الصغيرة المفقودة تحركت وأخذت ترسم مخططاً لدير وعليه موقع الكنيسة الصغيرة. وكان المتصل يسمي نفسه جوليلموس موتاسيوس يعني وليام الراهب. وحينما قام الفريق الذي يعمل مع بوند بالحفر في الموقع المحدد عثر بوند على الكنيسة وسعدت هيئة كنيسة انجلترا التي استخدمته بهذا الكشف. وكان سرورهم يزداد كلما عثر بوند على شيء بعد آخر بما في ذلك كنيسة أخرى عثر عليها فيما بعد. وحرص بوند على ألا يخبر أحداً بأن معظم معلوماته أتت من وليام الراهب وعدد آخر غيره من المتصلين الذين سموا أنفسهم «مراقبين»، وأخيراً في عام ١٩١٧ أدرك أن نجاحه قد بلغ حداً بعيداً وقرر أن يحكي كل قصته في كتاب سماه «بوابة التذكر». أصيبت الكنيسة بالفزع وفصل بوند من عمله بل ولم يسمح له بالتواجد في دائرة الدير، ومنعت مكتبة الدير من بيع الدليل الذي وضعه بوند لمنطقة جلادستونبري.

هناك هامش محزن لحكايته. في عام ١٩٣٦ قرر كوزمولانج كبير أساقفة كنتربري أن الوقت قد حان لكي تقرر الكنيسة ما تراه بشأن الروحانية، وكوَّن لجنة لبحث الموضوع وتقرير ما إذا كانت الروحانية متفقة مع المسيحية أم لا، واستغرقت اجتماعات اللجنة ثلاث سنوات، وظهرت النتيجة بأن الروحانية لا تتعارض مع المسيحية فالمسيحيون أولاً وقبل كل شيء يعتقدون في الحياة بعد الموت. وفضلاً عن ذلك فإن دلائل البقاء بعد الموت قوية للغاية، ويبدو أن كبير الأساقفة غضب غضباً شديداً من هذه النتيجة لدرجة أنه وضع التقرير في درج مكتبه حيث ظل منسياً لمدة تزيد عن ثلاثين عاماً. ونشر أخيراً في أواسط السبعينات.

لاحظنا فعلاً أن هناك ظاهرة واضحة تتمثل في الشعور بأن هناك شيئاً وبائياً مرضياً بالنسبة للانشغال بموضوع الحياة بعد الموت، هو رد فعل معقول فالعقلاء من الناس يشعرون طبعاً بأنه يلزم أن نوجه اهتمامنا إلى مسائل الحياة الهامة وللعالم الطبيعي أكثر من اهتمامنا بمسائل الموت. ومع ذلك فقد رأينا أن مثل هذا النقد الموجه

غير مناسب من وجهة نظر لودج ودويلي. فربما كان دويلي ساذجاً في عدم تأثره حينما أخبرته الكتابات التلقائية عن أشياء لم تكن معروفة لأي من الأحياء، وقد يكون لودج من العلماء الضعاف إذا لم ينجح في التعرف على أن الصورة الفوتوغرافية لمجموعة رايموند[1] تمثل في أول وهلة دليلاً قوياً على أن ابنه بقي بعد الموت. ومن المهم أن نتذكر أن لودج ودويلي كانا عضوين في جمعية البحوث النفسانية لمدة تزيد عن عشرين عاماً قبل أن يقتنعا بفكرة البقاء بعد الموت. ونفس الشيء ينطبق أيضاً على جيمس هايسلوب وسير وليام باريت، حتى كروكس نفسه لم يقبل فكرة البقاء بعد الموت إلا في عام ١٩١٧ بعد جلسة اقتنع فيها بأن زوجته الراحلة كانت تتحدث إليه. اقتنع هؤلاء جميعاً بالدليل وليس بفكر راغب في الاعتقاد.

يدلنا هذا على أن الروحانية فشلت في إقناع الجماهير، فإذا كان الأمر قد استغرق عشرين عاماً للتغلب على شكوك من كانوا يهتمون بالمشكلة يصبح من الواضح أمامنا أنها سوف تستغرق قروناً لإقناع من لا يهتمون بها.

علينا أن نسلم أيضاً بأن ملاحظة ريموند لودج عن السيجار والصودا، ناهيك بذكر الأردية البيضاء- ربما أساءت للروحانية أكثر مما أساء إليها اكتشاف عشرات الأفاقين من الوسطاء. ولقد استمرت المشكلة موضع إثارة بصور مختلفة منذ ظهورها، فهناك لمحة بسيطة لعدم قبول فكرة الحياة بعد الموت بصفة عامة هو المسحة اللاعقلانية التي استغلها هـ. ج ويلز في كتابه «الشبح الساذج» ونويل كاورد Nowel Coward في كتابه «الروح المرحة». فشلت جميع الكتب التي تناولت موضوع الحياة بعد الموت في أن تتجنب هذه المسحة غير العقلانية. ففي عام ١٩٢٨ روى الأسقف تشارلز درايتون توماس في كتابه «حياة بعد الموت بالدليل» حكايات عن اتصالاته مع والده الراحل وشقيقه عن طريق الوسطاء؛ ولكن حينما بدأ والده يصف العالم الذي يعيش فيه كان هناك تأثير من المبالغات الشديدة تتبين في النص التالي:

لدينا طرق ولكن سطحها يختلف عن سطح طرق انكلترا المرصوفة بالحجارة والإسفلت... فمظهرها أشبه ما يكون بالتربة الطبيعية ولكن دون أن يغطيها الطين أو أي شيء غير مريح.

لدينا لندن، ولكنها ليست لندن التي لديكم... هناك بعض التشابه في الحدائق والمباني الجميلة، ولكنها بالنسبة لنا أجمل بكثير. ليس لدينا ثعابين أو ضوار هنا... ولدينا خيول وكلاب وقطط وقليل من القردة.

---

(١) أنظر ص ١٤١/١٤٢ في الفصل الثالث.

بعد كل ذلك يصبح من الصعب أن نلتمس التعاطف المناسب حينما يصف الأب والأخت حديثهما مع السيد المسيح الذي لا بد أن تتنبأ بأنه يشع «جلالاً وعظمة مع حلاوة فائقة وتواضع».

ولقد ظهرت في الثلاثينات وسيطة تسمى جين شيروود، بدأت تمارس الكتابة التلقائية وتتلقى مراسلات طويلة من كائن يدعى ج. ف سكوت يصف لها ما بعد الحياة. ونشرت تلك الرسائل تحت عنوان «الجسر النفساني وبلاد العالم الآخر». ثم كشف سكوت هذا فيها بعد عن شخصيته الحقيقية وهي شخصية ب. أ. لورانس، وأملى كتاباً آخر عن تجاربه الشخصية في الحياة بعد الموت. وقامت روح أخرى تسمى ميشيل أخذت على عاتقها دور الموجه للورانس، فأخبرته بأنه قد عاش كراهب وأن عليه أن يذهب ويمر بكل التجارب والخبرات التي افتقدها وهو على الأرض. مثال ذلك مخالطة النساء فقال له: «لتذهب وتنغمس في ملذاتها»، وأخذ لورانس إلى بيت يشبه بيوت الدعارة «هؤلاء الفتيات غير مومسات... إنهن نساء لم ينلن حظهن من التجارب الجنسية في الحياة الأرضية ويردن تعويض هذا النقص قبل تقدمهن في السن...». أما لورانس الذي كانت لديه ميول للشذوذ الجنسي وهو على الأرض فقد تفجرت منه عبارات خطابية: «كل منا تجول سعيداً في أراض ساحرة يرتاد ملذات الصحبة التي يجللها تاج الاتحاد».

وإذا ما اتضح لنا أن جين شيروود ودرايتون توماس قد خدعا عن طريق العقل الباطن أو الأرواح في محاولة لجر أرجلهما، تصبح هذه العبارات غير محيرة بتلك الدرجة. لكن كتاب «بلاد العالم الآخر» لجين شيروود، يعتبر كما وصفه راينور جونسون مصدراً رئيسياً للباطنية، ويعد «كواحد من أحسن المحاولات التي توصل إلينا المشاعر الحقيقية للأحوال التي سوف نلاقيها في يوم من الأيام حينما تنتهي أجسامنا الطبيعية». أما كتاب درايتون توماس فإنه من أكثر الكتب التي نشرت عن موضوع البقاء أثراً، فقد كان باستطاعة أبيه أن يتنبأ بدقة عن أشياء نجدها في الصحف في اليوم التالي.. أشياء أو موضوعات (كالتحقيقات التي تنشر) دون أن يكون في الحسبان حتى ساعة طباعة الصحيفة.

يبدو أن هذه النقائص البالغة أساسية في طبيعة الروحانية، ولا ينظر إليها التلاميذ الذين يدرسون خوارق العادات إلا على أنهم عشاق شعر وأوجدوا فيها مثل

أشعار «وردز ورث» الكثيرة المستغرقة في العاطفية. وتعد تلك النقائص ببساطة من عناصر قانون جيمس، ولكنها بالنسبة لمن كانوا مستعدين لاعتناق الروحانية فيما بين الحربين أصبحت معوقاً للاعتقاد لا يمكن تجاوزه، فالمعامل وبيوت الدعارة التي توجد في السماء قد لا تؤخذ بجدية.

هذا، وهناك أسباب أخرى متعددة لتدهور مذهب الروحانية خلال العشرينيات والثلاثينيات. فمن الواضح أن أيام الوسطاء العظام مثل دونجلاس هوم وأيوسانيا بالادينو وليونور بايبر قد انتهت. حقاً بقي بعض الوسطاء مثل مسز ليونارد والأختين، شنايدر وهيلين دانكان. ولكن إنجازاتهم لم تكن على قدر كبير من البروز. ففي إطار الشك والتحرر من الوهم الذي خلفته الحرب كثر كشف الفضائح والاتهامات بالغش والخداع ولقيت هذه دعاية أكثر بكثير مما لقيته التجارب الناجحة التي قام بها الوسطاء. ولقد استطاع الساحر هاري هوديني أن يتكسب كثيراً من مهاجمته للروحانية خلال العشرينيات، ففي كتابه «ساحر بين الأرواح» وصف الوسطاء بأنهم نسور بشرية ضارية، وفي أثناء التحقيق مع الوسيطة الأمريكية مارجري كراندون كان خداع هوديني واضحاً حينما أخفى في دولاب مصمم تصميماً خاصاً، ولذا لم يمكن اتهامهما بأنهما استخدماها لدق الجرس. (اعترف مساعد هوديني فيما بعد بأنه أخفى المسطرة في الدولاب بناء على تعليمات هوديني وأضاف قائلاً: «إن الحق عند المستر هوديني هو فقط الشيء الذي يريده هو») وفي الحقيقة كان المحققون الجادون يتجاوزون الحدود في الوقوف في جانب الشك، فبعد سلسلة من التجارب مع الوسيط النمساوي رودي شنايدر اتهمه هاري برايس على صفحات جريدة الأحد بدلاً من أن يقدم تقريراً ضده إلى جمعية البحوث النفسانية (اتضح فيما بعد أن غرضه كان انتقامياً لأن شنايدر وافق على أن يعمل مع محققين آخرين مناقشين له). وحينما اتهمت هيلين دانكان بالغش، وغُرِّمت عشرة جنيهات، كتب برايس كتاباً يهاجمها فيه، وبعد فترة قصيرة كان برايس نفسه متهماً بالغش في أعظم تحقيقاته شهرة وهو التحقيق في مسألة تلبس بورلي ريكتوري بالأرواح...

وأصبح المتشككون من أعضاء جمعية البحوث النفسانية معروفين بأنهم بعيدون عن الأحداث. ففي العشرينيات كان من أكثر أعضاء الجمعية تأثراً مسئول البحوث دينجوال E.J. Dingwall وأمين المكتبة تيودور بسترمان وأصبحوا مبعدين عن الواقع،

بينما لم تكن هناك فرصة للأعضاء العاملين أو الغارقين في النشاط. وذهب دنجوال إلى أمريكا للتحقيق في حالة مارجري كراندون، ويبدو أنه اقتنع تماماً بأصالتها حيث أخرجت أثناء الجلسة من بين فخذيها كميات كبيرةمن مادة الأكتوبلازم وصلت إلى دينجويل ولمسته كما تلمسه يد تماماً. ولكن حينما كتب تقريراً عن تحقيقاته بعد ستة شهور كان قد غير رأيه وصرح بوضوح بأنه يعتقد أنها مخادعة. وكانت نتائج تلك التناقضات انقسام الجمعية في داخلها إلى فرق متعارضة، وتوقفت عن ممارسة المهمة التي نشأت من أجلها، وكان من نتيجة ذلك ما حدث حينما قدمت التقارير عن الوسيط البرازيلي العجيب كارلوس ميرابيللي الذي طار في الهواء بصورة درامية ثم ظهر في حجرة أخرى، وجعل بعض الأموات يظهرون مجسدين في وضح النهار. ولما وصلت هذه التقارير إلى الجمعية عام ١٩٢٧ حدثت ضجة كبرى حول إرسال محقق كفء، فلم تثبت ظواهر ميرابيللي ابداً، ذلك أن الأيام التي كانت الجمعية فيها مستعدة لإرسال رجل مثل ريتشارد هودجسون إلى الجانب الآخر من العام قد انقضت من زمن طويل.

كان هناك اقتحام واحد رئيسي في مجال البحوث النفسانية، أو ما أصبح يسمى الآن بحوث خوارق العادات، وحدث ذلك خلال الثلاثينيات، إذ دخل أحد المغامرين إلى مكتب الدكتور جوزيف بانكس راين في جامعة ديوك عام ١٩٣٤ وأخبر الدكتور راين أن لديه قدرة التأثير على سقوط زهر النرد. وحينما تبارى الاثنان لاحت للدكتور راين أن هذه ربما كانت إحدى الطرق لإثبات وجود التسلط الروحي أو «سيطرة العقل على المادة» في المعمل. وقام بإجراء ثماني عشرة سلسلة من الاختبارات الإحصائية على مدى ثماني سنوات كشفت كلها عن نتيجة واحدة ذات قيمة: حينما يكون الناس في حالة انتعاش فإنهم يستطيعون التأثير على سقوط زهر النرد، أما إذا ما وصلوا إلى العملية وبلغوا معها حد التعب والملل فإن النتائج تكون أسوأ. ربما كانت الطريقة التي اتبعها راين طريقة عقيمة بالنسبة لتجارب كروكس التي أجراها على دونجلاس هوم، أو تلك التي أجراها ريتشت Richet مع أيوسوبيا بالادينو، ولكنه أثبت بنجاح في داخل المعمل أن للعقل الإنساني قوى خارقة للعادة.

ليس من شك في أن هذا العمل كان خطوة متقدمة للأمام، إذ أوضحت صحة الزعم الرئيسي لكل من كاترين كرو وفردريك مايرز بأن قوى العقل الإنساني

أعظم بكثير مما نقدر، ومع ذلك فلم يؤدِّ ذلك إلى الاقتراب من الإجابة على السؤال المطروح والذي تكونت جمعية البحوث النفسانية للإجابة عليه، وهو: هل هناك حياة بعد الموت؟ ثم أجريت في أواخر الثلاثينيات سلسلة أخرى من التجارب الإحصائية قربت الأمر مرحلة أخرى.

كان دكتور صمويل جورج سوال من رجال الرياضيات في جامعة لندن، ولم تعجبه النتائج التي توصل إليها راين. وفي عام ١٩٣٦ دخل على مكتبه مصور مشهور يدعى بازيل شاكلتون وأعلن «أنني لم أحضر هنا لكن أخضع لاختبار ولكن لكي أعرض ظاهرة التخاطر» زاعماً أنه يستطيع أن يخمن ترتيب مجموعة كاملة من ورق اللعب ويذكر معظمها صحيحة. فاختبره سوال، ولكن خاب أمله لأن نتيجة الاختبار الأول لشاكلتون كانت عشرة من خمس وعشرين، وبعد ذلك ساءت نتيجة التخمين تدريجياً حتى وصل إلى المرة السابعة فكانت حصيلة الاختبار ثلاثة أوراق صحيحة من ٢٥ ورقة. وطلب له شاكلتون شراباً كي يستعيد قواه، ولكن حتى بعد الشراب ظلت النتيجة منخفضة.

في عام ١٩٣٩ جرت مناقشة مع باحث آخر هو هواتلي كاينجتون الذي أعطى سوال فكرة جديدة؛ كان كاينجتون منشغلاً بسلسلة من تجارب تخمين الصور، ولاحظ ظاهرة غريبة هي أن معظم وسطائه يخمنون الصورة التالية للصورة المعروضة، وعاد سوال يراجع بعض نتائج تجاربه السابقة فنظر أولاً في نتائج اختباراته لربة بيت من لندن اسمها جلوريا ستيوارت ووجد أنها تكرر تخمينها للورقة التالية. وواصل دكتور سوال نظراته إلى النتائج التي توصلت إليها في موضوعات أخرى، ولكنه لم يجد شيئاً ذا أهمية. ثم تصادف أن وقعت في يده نتائج اختبارات بازيل شاكلتون فوجد فيها أن نسبة الترحيل للورقة التالية نسبة أعلى بكثير منها في حالة اختبارات جلوريا ستيوارت، ثم بالمراجعة وجد أن شاكلتون كان يخمن إما الورقة السابقة أو الورقة التالية للورقة التي يطلب منه سوال أن يركز عليها، ولذا طلب من شاكلتون أن يشترك في سلسلة أخرى من التجارب استمرت لمدة سنتين تبين منها بلا أدنى شك أن شاكلتون كان قادراً على تخمين الورقة التالية التي لم يرها سوال نفسه بعد. وهكذا تبين أن الأمر ليس تخاطراً، إنما هو معرفة مسبقة وهي الموهبة التي ظهرت بوضوح لدى والد درايتون توماس حينما استطاع أن يتنبأ بما قد تأتي به صحف اليوم التالي.

حقاً إن المعرفة المسبقة لا تثبت وجود حياة بعد الموت، ولكنها ظاهرة موجودة بالفعل، وتثبت أن مفهومنا خطأ من حيث نظرتنا المادية للعالم. وقد نجد مكاناً للتخاطر والتسلط الروحي في الصورة العلمية للواقع، ولكن المستقبل لم يحدث بعد، وبالتالي فلا توجد أي طريقة علمية ممكنة للقفز إلى تفسير من نوع جديد. مثال ذلك وجود بعد رابع أو بعد خامس من النوع الذي طرحه هواتلي كاينجتون في كتابه نظرية البقاء الميكانيكي أو الألي. وحينما عرض سوال المعرفة المسبقة اتخذ بذلك أهم خطوة نحو إثبات الحياة بعد الموت منذ بداية تكوين جمعية البحوث النفسانية.

وفي عام ١٩٢٤ توصلت الباحثة الأمريكية الدكتورة جرترود شميدلر Gertrude Schmeidler الأستاذة بكلية رادكليف إلى نتيجة تعتبر أهم النتائج جميعها، حيث كانت تقوم باختبار الحاسة الإدراكية الفائقة، وقبل التجارب سألت عمن يؤمن بوجود هذه الحاسة الإدراكية الفائقة، وأعطت الذين يؤمنون بها علامة الأغنام والذين لا يؤمنون بها علامة الماعز. وحينما فحصت نتائج تخمين ورق اللعب اكتشفت أن الأغنام حصلوا على نتائج أعلى من المعتاد بكثير، ولكن الأهم من ذلك هو أن الماعز حصلوا على نتائج أقل من المعتاد، إذ كانوا يغشون أو يخادعون دون أن يشعروا ليؤيدوا فكرة عدم وجود إدراك فائق للحواس، وبهذا يكشفون عن إدراك فائق للحواس يماثل ذلك الذي عند الأغنام، ولكن بالاستخدام السلبي له. ولقد ظل الوسطاء وأصحاب الحالات النفسانية مدى سنين طويلة يفسرون فشل قواهم بوجود موجة التشكك القائمة، ويذكرون أن المتشككين يتخذون منهم وسيلة للسخرية، وأوضحت جيرترود شميدلر أن التشكك ليس بالضرورة ظاهرة علمية وأنه لا يستحق كل ما يبدو أنه يؤديه من خدمة علمية.

أخذ العالم البحاثة هلموت شميث الذي كان يشتغل في معمل بوينخ في ستيل هذه النتائج بجدية بالغة، فإذا كان الناس على استعداد لأن يكشفوا عن إدراك متجاوز للحواس في جو من الأخوة والثقة فربما يكون لذلك فائدة كبيرة إذا ما استطاع العلماء أن يعملوا تجاربهم بطريقة لا يمكن فيها الغش. ويستطيع الفرد أن يسترخي وأن يتناول الموضوع في جو صالح للإدراك الفائق للحواس، وأخذ شميث على عاتقه هذا التحدي بأن ابتكر آلة تستخدم مادة مشعة متضائلة الإشعاع لإنارة مصابيح عديدة وإطفائها، ولا يعلم أي أحد شيئاً عن الزمن اللازم لتضاؤل الذرة المشعة

التـالية بحيث تـطلق بريقـاً شـديـد السرعة. وكـان على الأفـراد الذين يجـري عليهم شـميث البحوث أن يخمنوا أي المصـابيح سيـأتي عليها الـدور وتنطفيء، ويـدوس على الزرار ثم تسجل الآلة تلقائياً نقطة صحيحة أو خاطئة.

وسرعان ما اكتشف شميث أن عدداً من هؤلاء الأفراد الذين حصلوا على نقاط أعلى من المعتاد كانوا دائماً هم الذين يحلمون بالمستقبل، وقدم سميث عرضاً صحيحاً لفرضية جيرترود شميدلر عن الأغنام والماعز فحصلت إحدى الفتيات الأمريكيات على نتـائج فـوق المتوسط، ولكن فتـاة من أمريكـا اللاتينيـة حصلت على نتـائـج أقـل من المتوسط كانت متميـزة للغايـة بقدراتهـا النفسانيـة الفائقـة، ولكنها استخـدمت الاتجاه السلبي. كانت هاتان الشخصيتان أيضاً قادرتين على إظهار التسلط الروحي أو سيطرة العقل على المادة بأن وجُهنا إثارة المصبـاح وانطفـاءه وفق الإرادة، وكان هلمـوت شميث هو أول عالم يعرض حقيقة الحاسة الإدراكية الفائقة والتسلط الروحي في المعمل.

كـان هـذا التقـدم العلمي مثـار الإعجـاب، ولكن لم يعـترف أي ممن اهتمـوا بالبحوث النفسانية خلال الستينيات والسبعينيـات بأن الملل أصبـح يغلب عليه، فمن يخمنـون ورق اللعب ومن يكتشفون الأرقـام العشوائيـة قد يقـدمون دليـلاً مقنعـاً عن حقيقة الحاسة الإدراكية الفائقة أو المعـرفة المسبقـة، ولكن من الصعب بالنسبـة لمعظم الناس أن يعملوا بأنفسهم في حالة تـوتر من المـوضوع فـلا يوجـد بالضبط مـا كان في ذهن مايرز أو سير جويك عن السير في الليل. على أن هناك على الأقـل باحثاً واحداً ظل يعمل بالأسلوب القديم هو دكتور كـارليس أوازيس المولـود بمدينـة ريجافي لاتفيـا عـام ١٩١٧ واشتغل مـع راين في جامعـة ديوك في دراسـة الحاسـة الإدراكية الفـائقـة والمعرفة المسبقة، وذلك قبل أن يصبح مـديراً لمؤسسـة علم نفس الخوارق في نيـويورك فلقد أعجب أوازيس بنوعية الرؤيا في فراش الموسن التي قررها السير وليام باريت مثل حالة مسز «ب» التـي رأت أباها وأختها في الحجـرة وهي تلفظ أنفاسهـا الأخيرة رغم أنها لم تكن تعلم بمـوت أختها. ووصف تلك الحـالة بـأنها «قمة في حـالات داريـوس». من الشطر الأخير من قصيـدة كيتس السونونيـة، وفي ذلـك النوع من الـرهبة والجـلال. وجـاءته فكـرة متعقلة بتـوزيـع استبيـان عـلى الأطبـاء والممـرضـات يسـألهم فيـه عن مـلاحظاتهم عـلى المرضى الـذين يعانـون سكرات المـوت. وعاد إليـه ستمائـة وأربعون

استبياناً تغطي أكثر من خمسة وثلاثين ألف حالة. وفي عام ١٩٦١ نشر أوازيس ملاحظاته في كتاب «ملاحظات الأطباء والممرضين عن سكرات الموت».

ومن أهم ما اكتشفه أوازيس أن الخوف شعور غير شائع عند سكرات الموت، فعدم الإرتياح والألم أكثر شيوعاً من الخوف، ولكن المدهش أن عدداً كبيراً من الموتى الذين كانوا يرتفعون وقت الوفاة كانوا يصلون إلى حد السمو وبلوغ البصيرة. وبلغت نسبة هذه الحالات واحداً من بين كل عشرين حالة. وكانت البصيرة هنا هي رؤية السماوات ومشاهدة مدن جميلة أو أراض موعودة أو مأمولة. وهناك طفل في السادسة من عمره كان يعاني من شلل الأطفال رأى زهوراً وطيوراً مغردة في لحظات موته. وكان معظم هؤلاء المرضى في كامل يقظتهم ووعيهم في درجة حرارة عادية يستعيدون ذكرى الحياة وإبداء مشاعر تعبر عن أشياء كما لو أنهم يقولون «أريد أن أعود إلى ما كنت فيه». ويتذكر أحد الأطباء تجربتين شخصيتين شهدهما بنفسه لحالات من الهلوسة قرب الموت. ويذكر أن ذلك قد يرجع إلى حاجة المخ الملحة للأكسجين، فقد كان أقرب ما يكون إلى الموت غرقاً، كما تعرض كذلك لنقص الأكسجين حينما خمد جهاز تنفسه وهو بالطائرة. وفي كلتا الحالتين شهد صوراً جميلة وشعر بسعادة عميقة، وكان يرفض العودة للحياة من الغرق. بيد أن بعض خبراء الطب الآخرين لم يوافقوه على ذلك، وأشار أوازيس إلى أن الرؤى غالباً ما تحدث للمريض الكامل الوعي قبل أن ينحدر إلى غيبوبة الموت بمدة طويلة.

يحافظ أوازيس في تلخيص نتائجه على الحرص الشديد، فيذكر أن باريت أخطأ في الاعتقاد بأن رؤية الإنسان للأقارب وهو في سكرات الموت تشتمل فقط على رؤية الأقارب الموتى، فقد تبين أن ٥٢٪ من حالات الرؤية كانت لأقارب موتى و ٢٨٪ لأقارب أحياء والعشرين في المائة الباقية رؤية لشخصيات دينية. بيد أن احصائية حالات الهلوسة التي قامت بها جمعية البحوث النفسانية أظهرت أن هناك أناساً رأوا في حالتهم الصحية المعتادة بعض أقاربهم الأحياء بنسبة تصل إلى ضعف رؤية أقاربهم الموتى، ولذا يبدو أن غلبة هلوسة الأصوات، هي الظاهرة الحقيقية في حالات نهاية الحياة. وكرد على النقد القائل بأن المرضى وهم في فراش الموت يكونون تحت تأثير حالات الحمى يذكر أن معظم رؤى الأقارب الموتى تحدث للمرضى غير المتأثرين بحالة الحمى والذين لا يعانون من حالات مرضية ترجع إلى الهلوسة، والذين يكونون في

يقظة تامة قادرين على الإجابة الذكية على الأسئلة. لـذلك ففي الخلاصة العـامة التي وردت في كتاب «ملاحظات الأطباء والممرضي عن المرضى عـلى فراش الموت» تؤيِّد مـا توصل إليـه باريت من نتـائج في كتـابه «رؤى فـراش الموت» وهي أن الـذين يعانـون سكرات الموت عادة لا يشعرون بأي خوف وأنهم غالباً ما يعتقدون أنهم سوف يلاقون أقاربهم الموتى.

ويصل أوازيس من دراسته هذه إلى خلاصة يذكر فيها أن ملاحظاتـه في حاجـة إلى تحقيق منهـا في ضـوء دراسـات تتم في إطـار ثقـافـات أخـرى. ولقـد أخـذ زميله إيرلاندور هـارالدسـون Erlandur Haraldson بهذه المـلاحظة وقـام بدراسـة مماثلة في الهند. وربما كان من المعقول أن نتوقع في ثقافة أخـرى لا تركـز كثيراً عـلى الحياة بعـد الموت أن نجد الـرؤى في سكرات المـوت من نوع مختلف ولكن اكتشـافات هـارلدسـون كانت مغايرة لذلك، فرؤى سكرات الموت عند الهنود مشابهة لحد كبير لـرؤى سكرات الموت عند الأميريكيين.

عالج كل من هارالدسون وأوازيس مشكلة الموت بطريقة مخالفـة تمامـاً ومستقلة عما كانت تأخذ به تحقيقات جمعيـة البحوث النفسـانية. وتمت الـدراسة الثـانية خـلال الستينيـات بروح الالـتزام العميق. فقد زارت الـدكتورة اليـزابيت كـوبلر روس Elizabeth Kobler - Ross معسكـر الإعـدام في ميـدنيـك Maidnek في أواخـر الحـرب العـالمية الثـانية، وأقـامت معسكراً لـلاجئين عـلى نهر فيستا في بـولنـدا، وهي الآن في أمريكا متزوجة من أستاذ الأعصاب في جامعة شيكاغو. دهشت كثيراً لميل الأمـريكيين إلى تجـاهل المـوت، والتظاهـر بأنـه أمر لا وجـود له. وغـالباً مـا وجـدت أن الأطبـاء يرفضون إدخال من هم في المراحـل المتأخـرة من المرض إلى عنـابرهم. ولقيت غضبـاً عاماً حينما دعت فتاة في العشرين من عمرها على أهبة الموت بسرطان الدم إلى فصولها في جامعة شيكاغو. ونشرت مجلة لايف مقالاً عن تجربتها. فلقد أكد موت الفتاة عام ١٩٧٠ شعـور الـدكتـورة كـوبلر روس بـأن مجتمعنـا الـذي يستنكـر المـوت يحتـاج إلى تغيير في وجهة نظره.

كانت نظرتها لفكرة الحياة بعد الموت في البداية نظرة شك، وكان كـل اهتمامهـا بالمشاكل النفسية المتعلقة بتقبل الموت، وأدت دراستها التي أجـرتها عـلى الذين يمـوتون إلى إقناعها تـدريجياً بـأن البقاء والتنـاسخ حقيقتـان ثابتتـان، كما تبـين من ملاحـظاتها

للرؤى المصاحبة لسكرات الموت لدى الذين يموتون غالباً ما تكون رؤية أقاربهم الموتى. لاحظت مثلاً أن الأطفال وهم يموتون يأملون أن يكونوا مع آبائهم وأمهاتهم ويميلون في الحقيقة في لحظة موتهم إلى الأجداد الراحلين.

أما عن نتائج دراستها التي ضمنتها في كتب مثل كتاب عن الموت ولحظات الموت، وكتاب أسئلة وأجوبة عن الموت ولحظات الموت فلم يعرض فيها بطريقة نستية مثل عرض أورازيس أو هارلدسون لنتائج لدراستهما، ولكن الإطار العام عندها كان واضحاً بما فيه الكفاية، فهي تعتقد أن كل شخص يعلم وقت وفاته، وأن كل من يمر بلحظات الموت سيقابله أقاربه الراحلون أو آخرون ممن يحبهم، كما أنها توصلت إلى قبول أن لحظات الموت هي قمة الحياة، وربما كانت أجمل خبرات الحياة. وهي مقتنعة تماماً بأن لكل إنسان أدلاء يراقبونه بصفة مستمرة، يمكن رؤيتهم في لحظات الضغوط النفسانية. أما بالنسبة لعالم ما وراء الموت فقد قبلت نقطتين رئيسيتين تكرر ذكرهما في كتب الروحانيات: إن الزمان في العالم الآخر يختلف عن الزمان الذي نعرفه، وأن هناك محاسبة للميت فهو يحاسب ويعاقب نفسه.

أدت العاطفية الواضحة التي ميزت اليزابيت كوبلر روس في تناولها للموضوع إلى اتهامها بأنها سمحت لمعتقداتها أن تفرض نفسها على مشاعرها. ربما كان ذلك صحيحاً، ولكن الواضح أيضاً أن النتائج التي توصلت إليها تعتمد على دراسة مئات الحالات وأنها أساساً متفقة مع آراء كل من باريت وأوازيس وهارالدسون.

لكن موضوع تجارب الاقتراب من الموت قد بدأت في أواخر الستينات تجتذب أنظار عدد كبير من الباحثين الجادين، ومن بينهم إثنان هما راسل نويس Russel Noyes وراي كليتي Ray Kletti اللذان عثرا على عمل قديم مهمل لأستاذ جيولوجيا من زيوريخ هو ألبرت هايم Albert Heim الذي مرت به تجربة اقتراب الموت حينما كان يقود المجموعة التي تتسلق جبال الألب عام ١٨٧١ وأدت هبة ريح شديدة إلى خلع قبعته فحاول الإمساك بها ولكنه سقط سبعين قدماً على كتف جبل مغطى بالجليد، ولم يستغرق سقوطه أكثر من ثوان قليلة، ولكنه شعر أثناءها بأنها تمتد إلى ما هو أكثر من ذلك بكثير:

أصبح نشاطي العقلي ضخماً للغاية، زادت سرعته مئات المرات... رأيت كل حياتي السابقة في صور كثيرة كما لو كانت على مسرح بعيد عني... تحول كل شيء إلى صور كأنها مضيئة بضوء

سماوي دون أي دهشة أو ألم. كانت ذكريات التجارب المحزنة الأليمة التي مرَّت بي واضحة ولكنها لم تكن محزنة. لم أشعر بوجود أي صراع أو كراهيات، فالصراع تحوَّل إلى حب وسادني فكر متسام متوازن وسادت صور الاتحاد الفردي وتسللت خلال روحي موسيقى رائعة مقدسة هادئة، وأصبحت محاطاً بسماوات زرقاء بهيجة مع بعض سحابات بنفسجية ووردية رقيقة، انغمست فيها بنعومة وبلا ألم ورأيت كأنني الآن أسقط حراً من خلال الهواء وأن من تحتي حقلاً من الجليد مفروشاً لاستقبالي.

اصطدم هايم فاقد الوعي في سقطته ولكنه لم يمت. وجعلته تجربة ذلك النوع من الشعور بالسلام الفائق إلى البدء في تجميع ملاحظات الناس في حوادث التسلق، وزعم أنه اكتشف بعد بحث دام عشرين عاماً أن ٩٥٪ من الضحايا قد مروا بشعور مثل شعوره، وكانت الخلاصة التي توصل إليها هايم أن من ماتوا نتيجة السقوط من الجبال مروا بنفس شعور الأمن والتسليم في النهاية.

نشر نويز وكليتي ترجمة لملاحظات هايم، وأضافا إليها أبحاثهما، وعلى خلاف أليزابيت كوبلر روس لم يستطيعا قبول الفكرة القائلة بأن مثل هذه التجربة تقدم دليلاً على البقاء بعد الموت. وكان كل ما توصلا إليه هو أن الرجل واجه الموت، وأن تجربة فقدان الشخصية التي تعتبر نوعاً من الدفاع السيكولوجي ضد الموت قد مرت به، وكانت النتيجة نوعاً من غشية الموت التي تهدف إلى تسهيل الموت ذاته. أما عن الشعور برؤية كل حياة الإنسان فيبدو أنها ظاهرة مشتركة في كل تلك التجارب، ويقتبس ليال واتسون Layall Watson ما ذكره سباح هوائي سقط من ارتفاع ثلاثة آلاف قدم[1]: «كل حياتي السابقة ظهرت أمام عيني في ومضة سريعة... رأيت وجه أمي وكل البيوت التي سكنتها والأكاديمية العسكرية التي التحقت بها، ووجوه الأصدقاء وكل شيء». والحقيقة أنه هبط هادئاً وأصيب فقط بجدع في أنفه. ويتضح من كل هذه التجارب عن الذكريات أثناء التواجد في الأعالي اشتراكها جميعاً في نوعية التداعيات التي اكتشفها وايلور بنفيلر حينما لمس الغشاء المخي بمختبر كهربائي أثناء عملية جراحية لشخص مصاب بالصراع فأخرجت ذكريات الطفولة.

وحينما كانت اليزابيت كوبلر في بداية بحوثها حول تجارب الموت خلال الستينيات كان هناك شاب من طلاب الفلسفة في جامعة فرجينيا يدعى رايموند مودي يبدأ هو الآخر جمع حكايات عن تجارب لحظات الموت، وكان من بين من أثاروا

(١) The Romeo Error, P. 63.

اهتمامه بالموضوع الدكتور جورج ريتشي من فرجينيا أيضاً، يبدو أنه مات وهو جندي صغير وعاد إلى الحياة. ففي ديسمبر سنة ١٩٤٣ كان ريتشي في مستشفى تكساس يعالج من إصابة في جهازه التنفسي، وأخذ ينزف الدماء حتى فقد الوعي. وحينما استيقظ رأى جسمه مستلقياً على الفراش. ورأى في الممر ابنه يمر عليه، وربت على كتف رجل أهمله ومضى. ثم مر ريتشي بشيء يشبه الوحي الديني؛ ازداد الضياء في الحجرة كما لو أن ألف مصباح قد أضيء ورأى شكلاً نظر إليه وتعرف على أنه هو المسيح، وبعد جولة في مدينة كبيرة رأى فيها نتائج الخطايا استيقظ ريتشي في داخل جسده مقتنعاً تماماً أنه مات. وأصر كغيره ممن ظنوا أنهم كانوا على حافة الموت أن الأمر لم يكن حلماً بل بدا وكأنه حقيقة واقعة.

واستمر مودي يجمع خبرات عن لحظات الموت لمدى احد عشر عاماً وهو لا يعلم أن غيره يقوم بالعمل نفسه، ولم يكن آنذاك قد سمع عن مسز اليزابيت كوبلر روس. وقد اقتنع أثناء تدريسه الفلسفة لمدة ثلاثة أعوام أن باستطاعته أن يكون طبيباً. وحصل على درجة علمية في الطب، وجمع خلال السنين نحو مائة وخمسين حالة من حالات لحظات الموت، وأدهشه التشابه الأساسي بينها، وكتب كتاباً قصيراً عن ذلك أسماه «الحياة بعد الموت»، وحينما أرسل الناشر المسودّات إلى اليزابيت كوبلر روس علّقت عليه قائلة بأنها ربما كتبت هي نفسها نفس هذا الكتاب. وظهر كتاب «الحياة بعد الموت» عام ١٩٧٧ وأصبح من أكثر الكتب انتشاراً.

من المؤكد أن التشابه واضح، فهناك أولاً الشعور بالأمان والسعادة التي وصفها هايم والقس برتراند وكثيرون غيرهما. وهناك تجربة أخرى تكرر ظهورها مرة بعد أخرى وهي الشعور بالتحرك في داخل نفق مظلم يكون النور عادة في آخره: «كنت أتحرك من خلال ذلك المكان المظلم الطويل، قد تظن أن في ذلك تكهّناً، وكان يبدو كأنه ماسورة صرف كبيرة «وما شابه ذلك». «كان يبدو اسطواني الشكل...»، «ودخلت برأسي أولاً في ممر ضيق مظلم للغاية...»، «فجأة وجدت نفسي داخل واد عميق غاية في الإظلام».

وفي حالة بعد حالة من تلك يخرج الشخص من النفق ليجد نفسه ينظر إلى جسده (هناك حالات كثيرة بدأت التجربة فيها بالتواجد خارج الجسد) والشاب الذي كاد يغرق تماماً رأى جسده «في الماء على بعد ثلاثة أو أربعة أقدام يرتفع متماوجاً وينخفض».

«رأيت جسدي من الخلف مائلاً قليلاً إلى الجانب الأيمن»، وامرأة ماتت باضطراب في القلب شعرت بنفسها كما قالت:

أنزلق إلى أسفل بين الحشيات، والقضيب الذي على جانب الفراش، في الواقع كنت كأنني أخرج من خلال القضيب إلى أسفل إلى الأرض، ثم بدأت أرتفع إلى أعلى ببطء، وفي طريقي إلى أعلى رأيت كثيراً من الممرضات يدخلن الحجرة، ثم توقفت معلقة في الهواء تحت السقف أنظر إلى اسفل.

لتقارن هذا بالحالة التي وصفتها كوبر بوس وفيها وصلت امرأة في غرفة العناية المركزة إلى مرحلة حرجة، واندفعت الممرضة إلى خارج الحجرة تطلب العون.

وآنذاك شعرت تلك المرأة بأنها معلّقة في الهواء خارج جسدها. وفي الواقع قالت إنها استطاعت أن تنظر إلى أسفل فترى مقدار شحوب وجهها، ولكنها في نفس الوقت كانت تشعر بشعور رائع للغاية، كانت مليئة بشعور عظيم من الأمان والارتياح.

الشيء نفسه تكّرر وصفه في موضوعات مودي عن التواجد خارج الجسد المصحوب بالإحساس بنعيم اللازمان. وهناك ظاهرة أخرى متكررة هي إدراك الجسد الجديد» الذي يتخذ نفس شكل الجسد الطبيعي الذي هجره الإنسان، فغالباً ما يدرك المرضى وجود هذا الجسد الجديد حينما يتحققون من أنهم خرجوا من الجسم القديم، وغالباً ما يكون ذلك بمحاولة الاتصال بأناس آخرين، «حاولت أن أتكلم معهم، ولكن لم يسمعني أحد، ولم يصغ أحد لحديثي، «. . . قد يمشون مروراً بي»، «وتتسامى الحواس الطبيعية في أغلب الأحيان»، ولذا فإن السمع والبصر يصبحان أقوى وأحدّ من السمع والبصر في الجسد الطبيعي، ولكن الاستماع للأصوات إنما يكون شكلاً من أشكال التخاطر، أو انتقال الأفكار (وهذه أيضاً ظاهرة قد نجدها في السجلات التي تتضمن تجارب سكرات الموت أو ما بعد الموت منذ بداية البحوث النفسانية، فالاتصالات كلها تصبح تخاطرية)، وغالباً ما يكون هناك شعور بوحشة الوحدة، ولكن يحدث ذلك عادة حينما يصبح الشخص الميت أحياناً مدركاً لآخرين مثله من أناس ماتوا سواء أقارب أو أصدقاء، وأحياناً يكون كياناً أو روحاً يعتقد أنها من الملائكة الحراس. ولقد تحدث أحد الرجال بواسطة روح من تلك الأرواح: «إنني ساعدتك أثناء هذه المرحلة من مراحل وجودك، ولكنني الآن سأسلمك لآخرين».
ومن أكثر التجارب شيوعاً رؤية الأنوار الساطعة التي تشبه آلاف المصابيح المضيئة كما وصفها جورج رينشي، والتي يبدو أنها تشع إحساساً بالحب والدفء، والمفهوم أن

المسيحيين يميلون إلى اعتبار ذلك المسيح. وهنـاك شعور مباشر بالاتصـال التخاطـري دون استخدام لغة: «كما لو أنني كنت أتكلم مع شخص آخر، ولكن ذلـك الشخص غير موجود»، وقد يوجه النور اسئلة للتعرف بها على أفعـال الشخص في حياتـه، ولقد وجد مودي أن هذه الأسئلة غالباً ما تعقبها «تداعيات» أو سيل من الذكريات يسترجع فيها الشخص ما مضى من حياته.

وغالباً ما يكون هنـاك شعور بنـوع من الحدود أو القيـود التي تتكون من المـاء: ساحل بعيد أو ضباب كثيف أو أي شيء آخر من هذا القبيـل. ويحس الشخص الميت باقتناع بأنه إذا مـا مر من تلك الحـدود فإنـه يموت مـوتاً دائمـاً. وإلى أن يمر الإنسـان يكـون له الخيـار في أن يعود إلى الجسـد، وحيث أن كل من استجـوبهم مودي قـد عادوا من تجربة سكرةالموت فقد استمع إلى كثير من الصيغ التي تعبر عن كيفية العـودة إلى الجسد، منها: «سقطت مباشرة عـائداً إلى جسـدي، والشيء الذي أدركتـه من فوري بعد ذلك هو أنني في جسدي مـرة أخرى». . . «كـانت أشبه مـا تكون بشفـطة بطيئـة فـأحسست وكأنني مشـدود نحو مكـان ضيق في شيء أشبه مـا يكون بـالقمع عـلى مـا أظن». . . ولكن غالبية الناس يفيقون فيجدون أنفسهم وقد عادوا إلى الحياة.

وفي كتاب ظهر بعد ذلك عن بحوث أخرى (انطباعـات عن الحياة بعـد الموت) ذكر مودي ملاحظاته عن بعض العوامل الهامـة الأخرى لتجـربة سكـرة الموت، حيث كـان هناك الكثير من اللمحات عن عالم سماوي وعبارات مثل «مدينة من نور» تتكرر كثيراً وهناك تجربة سماها مـودي «رؤية المعـرفة» وهي ومضـة من البصيرة البـاطنية التي تتعمّق في طبيعة الكون:

لمدى لحظة واحدة عرفت كل أسرار العصور، كـل معاني الكـون، النجوم والقمـر وكل شيء، كل تلك المعارف القوية تفتحت أمامي، وظهر الأمر وكأنني أتلقى الخبر بأنني سوف أبقى مريضـاً لمدة قصيرة وأنني أتلقى نداءات قريبة متعددة وفعلاً سمعت نداءات عديدة من قريب بعـد ذلك. قيـل لي إن بعضها سوف يمحو كل المعـارف التي عرفتهـا من قبل. . . وأنني قـد مُنحت أسرار الكون وأن من واجبي أن أستغرق وقتاً لنسيان تلك المعلومات، ولكني أذكر أنني كنت تلك المرة أعلم كل شيء.

وبسؤال الـرجل عن كيفيـة تقديم تلك المعلومـات لـه، تلقى مـودي الإجـابـة التالية: «كانت كلها في شكل اتصالات ومناظر وأصوات وأفكار، كما لو لم يكن هنـاك شيء غـير معروف. كـانت المعلومات كلهـا موجـودة، لم تقتصر على مجـال واحـد بـل اشتملت على كل شيء» وسأله مودي قائـلاً: «هناك مـا يدهشني، قضيت عمـري كله

أطلب العلم وأتعلم، فإذا كان هناك هذا النوع من المعرفة إذن فلا معنى لما أفعله!»
وكانت إجابة الرجل:

لا! ستحتاج إلى طلب العلم حتى بعد أن تعود إلى هنا، وأنا شخصياً ما زلت أطلب العلم، من الغباء أن تحاول الحصول على الإجابة هنا. لقد غمرني نوع من الشعور كأن ذلك كان جزءاً من هدفنا، ولكن لم يكن الأمر خاصاً بشخص واحد، إنما كان لاستخدامه لكل البشر، فإننا دائماً نحاول أن نقدم العون للآخرين بما نتعلم».

دهش مودي من هذا الاتجاه نحو نسيان هذه المعارف العالمية قبل العودة للحياة، وتذكر حكاية أفلاطون التي وردت في كتاب «الجمهورية» عن جندي اسمه «أير» سمح له بأن يعود إلى الحياة بعد الموت. ويصف أير كيف أن الأرواح التي سمح لها بالعودة إلى الأرض كان عليها أولاً وقبل كل شيء أن تشرب من مياه نهر النسيان، ومن لم ينفذ منها «طوعاً» شرب أكثر. وموضوع أير هذا مشابه لكثير من موضوعات مودي الأخرى. فلم يكن لدى أير أي فكرة عن كيفية العودة إلى الأرض. فهو ببساطة استيقظ أو أفاق فوجد نفسه ملقى في المكان الذي حرقت فيه جثته. ومن الواضح أن ما استرعى اهتمام مودي من كل ذلك هو مسألة حد النسيان الذي يبدو أنه يفصل بين عالمنا الحاضر والعالم الآخر، وبالتالي كان اهتمامه بمسألة كيفية هروب بعض الناس من النسيان الكلي.

ومن الموضوعات الأخرى التي تناولها مودي بالوصف أيضاً «الخبرات المعرفية للإنسان» وهي تشبه المدرسة وفي ذلك يقول «. . . كانت حقيقية، كانت مثل المدرسة، ولم يكن هناك أحد فيها ومع ذلك فقد تواجد الكثير من الناس فيها. وقد تشعر بذلك وتدرك وجود آخرين من حولك». وقارن مودي هذا مع تعليقات رجل آخر خبر تجربة سكرات الموت حيث شعر بأنه تواجد في داخل ما أسماه «مكتبات» و«معاهد للتعليم العالي»، ويتفق هذا تماماً مع ذلك حيث يقول:

هذا هو المكان الذي توجد به المعلومات. . إنه أشبه ما يكون بتركيز كل العقل على شيء واحد في المدرسة، وتكبيره فتتدفق المعارف عليك من ذلك المكان تلقائياً، إنه تماماً كما لو كنت تتم الدراسات بسرعة أكثر من السرعة المعتادة بعشرات المرات».

وقالت له امرأة أخرى «كنت وكأنني أعرف الأشياء كلها، اعتقدت أن كل ما أريد معرفته أستطيع تحصيله».

لكل ذلك أهميته لأنه كما يبدو يرد على اعتراض أساسي على فكرة البقاء بعد الموت ممثّلة في التفاهات الظاهرة التي تمثّل الشغل الشاغل للمتصلين. فلو أننا استيقظنا في العالم الآخر بنفس الوعي الذي كان لنا في هذا العالم فسيتضح لنا أن الأمر لا يستحق أن نموت، فمعظمنا يدرك إدراكاً غائماً أنه لا بأس بنوعية وعينا بالحياة اليومية، إذ أن الوعي يدخلنا في مشكلات ومسائل نعلم أنها غير ذات أهمية، ومع ذلك فإنها تثبت في أذهاننا مثل النغم المقلق. وإذا ما جربنا فترة تتصاعد السعادة أو تزداد حيوية فإن كل المشاكل سوف تذهب أدراج الرياح. لذلك إذا ما كان الموت حسب إجماع رأي معظم الروحانيين، نوعاً من التطور، إذ يكون لدينا نوع من التوقعات الغامضة بأنه يتضمن نوعاً من الحيوية المتسامية «بنظرة شمولية من عل» على كل ما تهدف إليه الحياة كلها، وهو تحقيق حرية أعظم. ويبدو أن جو الجلسات كان بمثابة التفاهات المقلقة «إنسانية، إنسانية للغاية». وحتى لو زعم المتصلون أنهم موسيقيون أو كتاب كبار - كما في حالة المصابة النفسانية روز ماري براون - فإن ما يقدمونه لنا يبدو أقل بكثير من المستوى المطلوب. وهو الشيء الذي قد ينتهي إلى سلال المهملات على الأرض.

ويبدو أن شخصيات مودي التي مارست «مشاهدة المعلومات» قد وصلوا بنا إلى نقطة هامة، وهي أن الحياة بعد الموت ليست استمراراً للحياة الأرضية بنفس مستواها. بل إن مودي يؤكد أنهم غالباً ما كانوا يقولون في وصفها مثل «من المستحيل وصفها» أو يقولون «إن الكلمات التي استخدمها مختلفة لأنها ليست بالكلمات المعبرة. . .» وقد تكون تلك الشخصيات بمثابة رد على اعتراضات رودلف شتاينر «بأن الروحانيين هم أكثر الماديين مادية». هذا، وتؤدي بنا ملاحظات كوبلرزوس ومودي وغيرهما إلى إدراك حقيقة أننا لو درسنا حكايات الحياة بعد الموت فسوف نذكر أنفسنا دوماً بالفاصل اللغوي» أو بالأحرى بمشكلة محاولة ترجمة وتفسير الإدراكات الجديدة بكلمات مرتبطة في عقولنا بمعان محددة. ويكون مفهوم الحقيقة عندنا مغلقاً ومحدداً في نطاق اللغة. وتبدو معظم حكايات الحياة بعد الموت متفقة على أن اللغة أصبحت غير ضرورية للتعبير.

في الحقيقة كان لكتاب مودي تأثيره في خلق صناعة أكاديمية جديدة تدرس تجارب سكرة الموت. ولقد قام البروفسور كينيث رينج Kenneth Ring أستاذ علم

النفس في جامعة كونكتيكت بمحاولة حصر أكثر نسقية في هدفها مما قام به مودي. إذ لاحظ أن مودي لا يحاول تقديم الأدلة العلمية عن تجارب سكرات الموت، فما بالنا بموضوع الحياة بعد الموت. وفي سنة ١٩٧٧ ظهر كتاب «الحياة فيما بعد الموت» حيث بدأ آرينج يعالج هذه الظاهرة الغريبة الحدوث بمتابعة وسؤال مجموعات من الناس الذين اقتربوا من حافة الموت، ودراسة نتائجها دراسة إحصائية. جاء ما توصل إليه رينج بكل أبعاده مؤكداً لما توصل إليه مودي، ونفس الشيء فعله باحثون آخرون مثل ميشيل سابوم Michell Sabom، وأديث فروري Edith Frore وموريس رولينجر Maurice Raulinger ومارجوت جراي Margot Grey. فقامت أديث فروري (في كتابها «كنت هنا من قبل») بتلخيص حكايات أكثر من مائة حالة من تجارب سكرات الموت، وتعطيك قراءة هذه الكتب انطباعاً محيراً بأنك تقرأ نفس الشيء متكرراً في كل منها، ولكن هذا التكرار يعيدنا إلى أن حالات مودي لم تكن في الحقيقة عيِّنة عشوائية ولكن تم اختيارها لأنها متفقة مع ما يفضله عاطفياً. وتتكرر بصفة مستمرة اكتشافات النفس في حالة «التجرد من الجسد» والمرور من خلال شيء يشبه النفق في نهايته نور، وشعورنا بالاتصال بكائن أو كائنات خيِّرة، ثم قام بنوع من المراجعة أو الاسترجاع، أو تجربة الحد الفاصل بين الحياة والموت، وأخيراً تجربة العودة إلى الحياة (وهي ما يعتبرها مودي «قلب التجربة»).

ولقد تكررت الإشارة إلى أن هذا كله لا يثبت شيئاً، ويعبر جيمس ألكوك James Alkoch على اعتراضه في كتابه «المحقق المتشكِّك»[1] بقوله:

أنا لا أجادل في فلسفة الناس أو دراساتهم اللاهوتية، ولكن المقلق حقاً هو حاجة هؤلاء الناس إلى الشعور بمحاولة تقديم أدلة موضوعية لتأييد عقائدهم، ومحاولتهم خداع عامة الناس بمزاعمهم. إنهم يتوخون الدقة العلمية البالغة، فتعتمد بحوث البقاء بعد الموت على الاعتقاد في البيانات التي يبحثونها أكثر من اعتماد تلك البحوث على الاستمساك بتفسيرها. وهكذا فهي تعبير فردي وجماعي عن الجزع من الموت.

---

(١) Spring 1979, Ouated by William R. Corlies; The Unfathomed Mind, A Handlook of unusual Mental phenomena, 1938, P. 584.

ويعتبر هذا اعتراضاً معقولاً، ولكن يبدو ايضاً أنه تجاوز الحقيقة «بأن العلم يعتمد على ملاحظة تكرار الظاهرة، وتجاهل شيئاً يكرره آلاف الملاحظين. وقد يكون في هذا تناقض مع الاتجاه العلمي. ولقد كان كل من كوبلرروس ومودي ورينج وغيرهما أوّل من سلّموا بأن ملاحظات تجارب سكرات الموت لا تؤكّد شيئاً قاطعاً عن الحياة بعد الموت. ونظراً لأن هؤلاء الباحثين لا يهتمون بالدلائل الأخرى على البقاء. وهو نوع الدليل الذي نحاول حصره في هذا الكتاب ـ فلم يحاولوا مناقشة الجانب المنطقي لحالة الحياة بعد الموت، ولكن رينج في الفصل الأخير من كتابه تشجع «وخلع معطف المختبر الأبيض ووصف معتقداتي بما تستحق»، وبعد أن أكد أن خبرات سكرات الموت لا تثبت شيئاً عن البقاء، واصل حديثه قائلاً:

أعتقد اعتقاداً جازماً، ولكن ليس على أساس بياناتي أو بيانات غيري عن تجارب سكرة الموت، بأننا سوف نستمر في الوعي بالوجود بعد الموت الطبيعي وأن لب التجربة ليس هو بدايتها، بل هو لمحة عن الأشياء التي سوف تأتي. ويواصل كلامه قائلاً:

إن فهمي الخاص لتجارب سكرة الموت تؤدي بي إلى اعتبار تلك التجارب بمثابة «تعليمات». فهي كما تبدو تجارب إلهامية، ومن الواضح أنها تعني وجود شيء أكثر من ذلك. شيء متجاوز للعالم الطبيعي للحواس. . . كل من يحاول بذل أي جهد لتعريف نفسه بطبيعة ونتائج التجارب الباطنية الأصلية والتجارب الدينية سرعان ما يصبح مقتنعاً بأن لب التجربة هو بذاته جزء من ذلك المجموع الكبير. لماذا تحدث مثل هذه التجارب؟ لديّ تصور واحد بإجابة أقدمها، وإن كنت أعترف بأنها قد لا تبدو فقط خرافية بل وواهية على طول الخط أيضاً. تولت إلى الاعتراف بأن هناك طرقاً عديدة لعبور وسائل الكون، فهو من ناحية يريد لنا أن نستيقظ حتى نصبح واعين بالأبعاد الكونية للدراما التي نعتبر جزءاً منها. وتمثل تجارب سكرة الموت إحدى وسائل الكون لإيقاظنا على ذلك الواقع.

ويمكننا إبراز النقطة التي يتناولها رينج باقتباس فقرة من كتاب عن البحوث الحديثة في التجارب الباطنية، وهو كتاب «اتصال النعمة» تأليف نونا كوكسهد Nona Coxhead. فهي تذكر حالة إحصائية العلاج النفسي ويندي روزنبل التي وقعت لها التجربة بينما كانت تشتغل في حديقة منزلها في أحد أيام الخريف.

في ذلك اليوم بالذات شعرت بأنني عبارة عن إطار عقلي من التأمل الشديد، وأذكر أنني أصبحت شديدة الوعي بكل ما حولي من أصوات الطيور المغردة وحفيف أوراق الشجر والنسيم يداعب بشرتي وعبير الزهور والحشائش. وأصابتني دفعة شديدة جعلتني أسقط مستلقية على وجهي فوق الحشائش وما أن فعلت ذلك حتى شعرت وكأنّ طاقة تنساب في داخلي وكما لو أنني أصبحت جزءاً من الأرض التي من تحتي، وبدا لي وكأن الحدود بين ذاتي الطبيعية وما يحيط بي من أشياء قد تلاشى تماماً، وتلاشى معه شعوري بالانفصال. وبصورة غريبة شعرت بذوباني في وحدة شاملة مع الأرض

كما لو أنني صنعت من مادتي. كنت أدرك وريقات الحشائش في كفّي وبين أصابعي وكانت تلمس وجهي، وغمرتني قوة معينة يبدو أنها تغلغلت في كل خيط من نسيج وجودي.

ثم شعرت كأنني فجأة أصبحت أحيا لأول مرة. كما لو أنني استيقظت من نوم طويل في العالم الحقيقي، وأذكر أنني شعرت بأن الحجاب قد انزاح عن عيني وأصبح كل شيء في بؤرة نظري... تحققت من أنني كنت محاطة بقوة حب بهيجة، وأن كل شيء حي أو غير حي مترابط برباط معقد لا ينفصم يتكون من الوعي الذي لا أستطيع أن أصفه بالكلمات.

ورغم أن هذه التجربة لم تستمر لأكثر من بضع دقائق فقد بدت وكأنها نهاية، كما لو أنني في نوع من توقف الزمن في حالة سرمدية من الفهم.

هكذا نجد أن العبارة تلو العبارة تردد صدى ما قاله رينج عن تجربة سكرة الموت: شعور باليقظة لأول مرة، وإحساس بالاتحاد مع الأرض والكون، وطاقة مليئة بالحب، وانطباع بتعطيل الزمان.

ويمكننا أن نلاحظ أن ما شرحناه إلى حد ما هو «تجارب الشطر الأيمن من المخ». إن استحواذ الشطر الأيسر على الحاضر وعلى الوجود يجعلنا محصورين في عالم من الأشياء المباشرة والتافهة كما لو أننا محاطون بحائط رقيق من الزجاج العازل للصوت، وبينما نسترخي في داخل الشطر الأيمن من المخ تتزحزح الحوائط الزجاجية بصمت ونجد أنفسنا فجأة على اتصال بالعالم الحقيقي، وتختفي عادة التسارع اليومي. وتتوقف الساعة عن الدق المستمر، ويحل محلها شعور بالطواف اللازماني.

وهناك نقطة أخرى هامة تجب ملاحظتها. ففي الوعي المعادي نرى أنفسنا كمتفرجين على العالم من حولنا كما لو أننا نشاهد فيلماً. وفي خبرة الشطر الأيمن من المخ ما زال هناك مشاهد، ولكننا نتوقف عن تشبيه أنفسنا له. ويكون شعورنا بأن المشاهد ليس هو الذات، والذات العميقة فيك تشعر بالاسترخاء والحياة الكاملة. لذلك فهناك شعور بأنك شخصان في وقت واحد، أو كما قال راي برانت عن تجربته التنويمية التراجعية كمشاهد برنامج تليفزيوني تؤدي فيه دورك في نفس الوقت.

بيد أن الإدراك الرئيسي من هذه التجارب هو أنها كانت إلى حد ما أكثر واقعية من كونها تجارب عادية، فنحن في حقيقة الأمر نرقب العالم بشيء أقرب ما يكون شبهاً «بكل كياننا» بدلاً من أن يكون جزءاً صغيراً منه، لذلك فمحاولة رفض التجربة الباطنية من جانب واحد كما فعل برتراند راسل في الغيبيات والمنطق يعتبر من الناحية العلمية أمراً مفتقراً إلى الدقة. ومن الناحية السيكولوجية نجد أن تجارب الشطر الأيمن

من المخ أكمل من تجارب الشطر الأيسر. إن ما يراه الشاعر في لحظات بصيرته هو بأدق تعبير وأكثره علمية أكثر صدقاً مما يراه حينما يجري ليلحق بالحافلة أو حينما يحلق ذقنه، تماماً كما تكون الرؤية بالعينين أصدق من الرؤية بعين واحدة فقط.

كنتيجة طبيعية يستلزم ذلك أن تكون البصيرة في عمق التجربة أيضاً أصدق أو أقرب إلى الواقع من عالم الإدراك العادي. ويتضمن نقد جيمس الكوك James Alcock لدراسات سكرات الموت أن هذه الدراسات بنيت على تفكير راغب غائم، وتتعارض الشهادات التي أدلى بها من خبروا تجربة سكرة الموت مع هذا، فهم يصرون على أن التجربة ليست مثل الحلم بل هي أكثر واقعية من خبرات الحياة اليومية. وما زال ممكناً بالطبع الزعم بأن تجارب سكرات الموت هي نوع من وهم المخ أو خداعه، ولكن إذا أخذناها من ناحية صلتها بالدلائل الأخرى للبقاء فسيبدو غالباً أنها لمحات أصيلة من نوع الوعي المنفصل عن الجسد.

ويرى مارجوت جراي مؤسس الجمعية الدولية لدراسات سكرات الموت في بريطانيا أن هناك صلة وثيقة بين تجارب سكرة الموت والبصيرة الباطنية. وورد ذلك في فقرة من كتاب «الصلة بالنعيم» تصف كيف أن اهتمامها بتجارب سكرات الموت بدأت ببصيرة شخصية عام ١٩٧٦، كانت في الهند وأصيبت بحمى استمرت ثلاثة أسابيع وبلغت حافة الموت.

عند مرحلة معينة من عملية الدخول في الوعي والخروج منه أصبحت أدرك أن لو دفعت نفسي لارتفعت عن جسدي ولبقيت في حالة من التسامي عند السقف في ركن الحجرة.

وفي وقت من الأوقات بدا الأمر طبيعياً جداً وأحسست باستمتاع بالغ وحرية كاملة. وأذكر أنني نظرت إلى جسمي مستلقياً على الفراش، ولم أكن قلقة لكوني في سبيلي إلى الموت في بلد غريب... ولكني كنت أعتقد بأن ذلك غير ذي أهمية حيث تركت جسمي الذي شعر بأنه خدمني كذلك مثل معطف قديم عزيز عليّ انتهى عمره أخيراً ولا أريد أن أتخلص منه.

وتصف شعور الطواف في ظلمة كاملة، وشعور التواجد في مكان لانهائي فتقول:

فيما بعد بدا الأمر وكأنني مسافرة في داخل نفق لا نهاية له، أرى في نهايته بصيصاً من ضوء، وكأنني أتحرك في داخل هذا النفق... وأذكر أنني كنت أعرف تماماً أنني بالفعل في داخل النفق وأنني سوف أخرج منه إلى الضوء الذي كان أشبه ما يكون بضوء نجم... إحساس بالتسامي مصحوب بشعور، بالاقتراب الشديد من مصدر الحياة والحب الذي بدا لي شيئاً واحداً.

كانت نتيجة هذه التجربة «إعادة ميلاد عقلي». «فقواي العقلية بدت ممتدة وقد صفيت وامتلأت بوعي جديد، وقررت أن أدرس هذه الظاهرة التي مرت بي كي أحاول التعرف على ما جرّبه أناس آخرون حينما كانوا على أهبة الموت». كانت دراسات كل من رينج ومودي تحت يدها وبدأت بحوثها الخاصة عن تجارب حافة الموت وهي في انجلترا. وحينما قرأ رينج مسودة كتابها «العودة من الموت» شعر كما شعرت اليزابيث كوبلر روس وكأنه يقرأ في كتاب مودي عن «الحياة بعد الحياة» دون أن يدرك حقيقة أنهما كتبا نفس الموضوع»[1] وقد وصل كل منهما مستقلاً عن الآخر إلى نفس النتائج، وهي أن الأهمية الحقيقية لتجربة حافة الموت هي تأثيرها على من وقعت له فيما بعد. وفي تعليقها على كتابها كتبت مارجوت جراي تقول:

بدت الرؤية الغامضة لطبيعة الكون وكأنها تمنحنا أفضل أساس لتفهم تجارب حافة الموت، بيد أن الاتفاق العام بين كل من علقوا على هذه الفكرة هو أن الأمر سيستغرق وقتاً مثل أن يبدأ شعورهم بالراحة على درجة من الواقعية أكثر مما في مظهريات العالم، ويبدو في التحليل النهائي أن ما أكدته الغيبيات لمدى آلاف السنين ـ حينما ذكرت أن مدخل الاتصال بواقع الأرواح يصبح ممكناً حينما يتحرر الوعي من الجسد الذي يتحبس فيه. وما دام الشخص مرتبطاً بجسده وإدراكاته الحسية فلا يمكن للواقع الروحاني أبداً حتى في أحسن حالاته أن يكون أكثر من بناء عقلي، لأن ذلك لا يحدث إلا إذا اتصل الإنسان بعالم ما وراء الموت الذي قد يلمسه الإنسان مباشرة.

وقد يكون من الخطأ الزعم بأن ما تقوله مارجوت جراي هو ما يمكن أن نستحسنه من الموت. وهي توضح في الجزء الأخير من كتابها أنها تشعر بالأهمية الحقيقية لتأثير تجربة حافة الموت على من مروا بها. فذات مرة قالت مدام بلافسكي إنه رغم أن واقعيتنا الأرضية هي أصلب وأصعب العوالم كلها وهي تهيّىء لنا أيضاً فرصاً أكثر. وهذا أيضاً خيط يمتدّ خلال عالم الغيبيات. قالت: إن النظرة إلى الحياة الطبيعية على الأرض ليست نوعاً من مكان التطهير الذي نحتمله بصبر حتى نهرب منه إلى عالم أسمى، وهي نوع من الفرصة التي تتاح مرة واحدة. إن المشكلة الرئيسية للبشر هي «الحياة في حدود الحاضر» التي تبقينا في حالة مرتبطة بالنوم أو الغشية التنويمية التي لا يتحقق بها أي شيء كان لعدم وجود أي فكرة عما يجب أن نفعله. ويبدو أن كلا من التجربة الغيبية وتجربة اللب تأتيان إلى البصيرة بلمحة عن موضوعها، وتلك هي

---

(١) أشكر مارجوت جراي لإعارتي بعض فصول مسودات كتابها ومقدمة كينيث رينج التي وضعها للكتاب.

البصيرة التي تتكون بوضوح لدى معظم من يكتبون عن تجربة حافة الموت والتي يذكرها مارجوت جراي بشيء من التركيز الذي تفوّق به على الآخرين.

ويمكن القول إذن بأن دراسة تجارب حافة الموت هي أهم تعمق في البحوث النفسانية منذ إنشاء جمعية البحوث النفسانية منذ زمن مضى. أما بالنسبة للاعتراض بعدم وجود علاقة بين تجربة حافة الموت والبحوث النفسانية فيمكن الرد على ذلك بأنه يبدو أن هناك علاقة كبيرة بينهما، فإن جمعية البحوث النفسانية ترجع أصلها إلى فكرة طرأت في ذهن مايرز وهو يتمشى مع سير جويك فسأله:

عما إذا كان يعتقد في حالة فشل التقاليد والحدس والميتافيزيقا في حل لغز الكون فهل ما زالت هناك فرصة من خلال أي ظاهرة قابلة للملاحظة من أشباح وأرواح أو أي شيء من هذا القبيل أن نصل إلى معلومات مقبولة عن العالم غير المرئي.

قامت جمعية البحوث النفسانية في مثابرة مدهشة بعمل ملفات عن الهلوسة والصور الذهنية للأحياء والهلوسة البصرية للأموات، وتجارب التواجد خارج الجسد، والمعرفة المسبقة، وظواهر جلسات التنويم. وتحول بعض المتشككين مثل هايسلوب ولودج وباريت وكونان دويلي بالتدريج إلى الاعتقاد في البقاء بعد الحياة، ومع ذلك فلم تكن هناك أي حالة مقنعة تماماً بحيث يمكن استخدامها لمواجهة المتشككين. ويبدو أن حالة الهلوسة البصرية التي حدثت لصمويل بول هي أحسن حالة يمكن الأخذ بها، إلا أنها حدثت قبل أن تظهر الجمعية. وتعتبر المراسلات المتداخلة حالة ثابتة من حالات البقاء، ولكنها طويلة ومعقدة لدرجة جعلت المتشككين لا يضيعون وقتهم في بحثها. وقد أدى كتاب «الحياة فيما وراء الموت» من تأليف درايتون توماس إلى اقناع القراء غير المتعصبين ضد الفكرة بأن والده وشقيقه اتصلا به بعد الموت. ولكن وصف «العالم الآخر» بقي عقبة كأداء يصعب الاقتناع الكامل به، ولذلك فإن جمعية البحوث النفسانية تعتبر فاشلة في حل لغز الكون، فإنها قدمت كميات ضخمة من البيانات ولكنها لم تستطع أن تقدم التصورات.

ولقد غيرت دراسة تجارب حافة الموت من كل ذلك، فمن وجهة النظر العلمية ربما يكون من غير المناسب أن يصبح كتاب «الحياة بعد الحياة» هو أكثر الكتب انتشاراً. بيد أن ذلك يعني أن شكلاً من أشكال البحوث النفسانية قد أدى إلى خلق ذلك النوع

من التأثير العام الواسع الانتشار الذي كان يحلم به مؤسسو جمعية البحوث النفسانية. فضلاً عن ذلك فإن تجارب حافة الموت ليست بالتجارب النادرة مثلها في ذلك مثل ظواهر الأشباح المزعجة، وهي ليست بموضوع التخصص الذي يمكن أن يدرس وحده كاختبار حالة، لأن معظم الناس لهم أقارب ممن مروا بتجربة حافة الموت واستطاعوا التأكد من عنصر رئيسي من جوهر التجربة. ففي اليوم الذي بدأت فيه تحرير الكتاب قابلت زوجة أحد أصدقائي أثناء نزهة بعد الظهر، وذكرت لها أنني أكتب كتاباً عن الحياة بعد الموت. فأخبرتني من فورها عن تجربتها الشخصية وهي على حافة الموت، وكأني بها قد أتت مباشرة من كتابات مودي. اشتد عليها المرض في منتصف الليل حيث شعرت بألم داخلي شديد، فنزلت إلى الطابق السفلي وجلست في مقعد وثير مليئة بالإحساس بالمرض والوهن، وارتفعت درجة حرارتها، وأحسّت وكأنها تسقط إلى داخل نفق في آخره نور، وشعرت آنذاك باسترخاء كامل وارتياح وأمن، واختفت كل مخاوفها من الموت، ثم فجأة راعها الموقف أن يكتشف زوجها وابنها جسدها ميتاً على المقعد في الصباح، لذلك جاهدت كي تعود إلى جسدها، ثم وجدت نفسها بعد ذلك في المقعد وقد عادت حرارتها إلى حالتها الطبيعية، أقنعتها هذه التجربة بألا تخشى الموت، وذكرت أن ذلك قد أعطاها الشجاعة أن تموت كما تحيا. كما ذكر آخر من سكان المنطقة كيف أنه بعد أن أصيب بنوبة قلبية شديدة، ترك جسده ووجد الحجرة مليئة بستائر ليخيم عليها الظلام، وسمع صوتاً يسأله: «هل تريد أن تعيش؟» وحينها أجابه بالإيجاب، فتح عينيه فرأى أن أمه بجوار فراشه وكان مقتنعاً تماماً بأنه مات.

ولقد وصفت تجربة حافة الموت التي مرت بوالدتي في مكان آخر(١) فقد كانت تعالج في المستشفى من التهاب بالغشاء البريتوني، فدخلت في مرحلة استرخاء وسعادة إزاء الموت المتوقع، ثم ظنت أن رجلاً يلبس ثياباً بيضاء له شخصية مقدسة يقف إلى جوار فراشها يقرأ لها من صفحات ملفوفة، ثم أنهى قراءته بأن أخبرها أنها لم تمت لأن هناك من يحتاج إليها هنا. (ثبت صحة ذلك، فقد كان عليها أن تتولى تمريض أبي خلال السنين التي كان يعاني فيها من السرطان). وأصرت والدتي على أن هذه التجربة ليست شيئاً يشبه الحلم بحال من الأحوال.

فهل تقدّم لنا دلائل تجارب «حافة الموت» معلومات صحيحة عن العالم غير

(١) في كتابي «خفايا الحياة».

المرئي الذي كان يأمل كلّ من مايرز وسيدجويك كشف الستار عنه؟ الإجابة مع الأسف بالنفي، حقاً إنه أمر مقنع لي شخصياً، فهو يأتي للفرد بإحساس غامر بنفاذ البصيرة في لغز الكون، ولكنه لا قيمة له كدليل لوجود حياة بعد الموت. حقاً هناك آلاف من الناس من كل الجنسيات وكل الأديان شهدوا بواقع التجربة المحورية، ولكن ما زالت هذه أيضاً تعد نوعاً من الدفاع الميكانيكي الذي يقوم به العقل حينما يواجه الموت. وربما كان نوعاً من إفرازات انكيفالين (Enkephaline) وهو إحدى المواد الطبيعية المخدرة الموجودة بالمخ.

والأن هناك كما لاحظنا أحد الاعتراضات الأساسية لفكرة البقاء بأكملها. فالمتشككون يصرون دائماً على أنها مجرد دفاع ضد الخوف من المجهول. وهذا أمر معترف به من جانب كل أعضاء جمعية البحوث النفسانية. فبينما رفضوا فكرة الغش أو خطأ الملاحظة أخذوا يتساءلون عما إذا كان تفسير الظاهرة ممكناً في ضوء التخاطر أو الاستشفاف أو أنشطة العقل الناقص أو ما دون الواعي، حيث شرح تومسون جاي هدسون بطريقة عملية كل الظواهر الخارقة للعادة على أنها نشاط للعقل الناقص. كما رأينا في الحقيقة أن هناك عدداً من الحالات وبخاصة المراسلات المتقاطعة أو حالة الإرادة الرافضة، وحالة الندبة الحمراء، وحالة البيجاما الحمراء، وحالة درايتون توماس، وربما عشرات الحالات الأخرى، كانت تفسيراتها مرفوضة. وتؤيدها الآلاف من الحالات الأخرى المسجلة التي ما زالت، رغم دقتها، تدلنا بقوة على تجاوز الشخصية إلى ما وراء الموت. فأي شخص ليس لديه تعصب يريد أن يعتبرها من الدلائل سيكون ملتزماً بالاعتراف بأنها تدلنا على حقيقة البقاء حتى لو كانت غير مقبولة منطقياً.

إذا ما قبلنا هذا النوع من البرهان، إذن سيبدو أمامنا أن ليس هناك سبب وجيه لرفض الدليل على وجود تجارب حافة الموت، لأن كليهما يؤدي إلى نفس الرأي المستخلص بأن الجسم الطبيعي يسكنه جسم من نوع آخر يبقى بعد الموت. وتجربة حافة الموت لا تؤكد شيئاً في حد ذاتها ولكنها تدعم بشهادات البحوث النفسانية فتصبح برهاناً قوياً يدعم الرأي.

ومن المهم أن نميز بين الأدلة الأولية والأدلة المساعدة. فالفشل في أن نرى ذلك التمييز أدى إلى كثير من العداء ضد البحوث النفسانية، فحينما أوصل سويدنبرج إلى

ملكة السويد رسالة من أخيها الراحل، أو حينها أخبر زوجة السفير الهولندي عن سر الدرج الذي يحتوي الإيصال، فإن ذلك يعتبر دليلاً أولياً، أي دليلاً على أنه ليس مجرد نزوة دينية نتيجة بعض الهذيان. ولئن كان سويدنبرج قد أصر على أن كتاباته على اللوح دليل قوي يؤكد نفاذ بصيرته الروحية إلا أن بقية الناس قد لا يوافقون على ذلك. وباستطاعتنا أن نرفض جدله الروحاني دون أن نرفض الاعتقاد في قواه النفسانية، وقد نذهب إلى أبعد من ذلك فنعتقد مع ويلسون فان ديوس أن نفاذ بصيرته إلى عالم الأرواح كان صحيحاً، أو قد نفعل مثلما فعل شتاينر فنشعر بأنه رغم امتلاكه لقوى وساطة أصيلة فإنه يفرض نظرته العلمية الصارمة إلى حد كبير على إدراكاته الروحانية ثم أفسدها بأن أقحمها فهبط بها إلى المستوى المادي، وهي صيغة يصفها هوايتهير بأنها «خدعة دقيقة في غير موضعها» أو باختصار ليس علينا أن نقبل من ظواهر سويدنبرج أي شيء» والمعقول هنا هو قبول البرهان الأول ثم نقرر بعد ذلك عن طريق ما هو مقبول عقلاً مقدار الأدلة المساعدة المقبولة.

كان كتاب مايرز عن الشخصية الإنسانية محاولة لتقديم أدلة أولية لعدد من القدرات الخارقة للعادة، فالمراسلات المتداخلة تقدم بعض الأدلة على أن مايرز قد بقي بعد الموت، ولكننا نشعر أو لا نشعر بأن هذا يؤيد الجدل الذي يوجد في كتاب الشخصية الإنسانية، ولو أننا قررنا أن المراسلات المتقاطعة دليل أولي على البقاء فربما نظل نشعر بأن مايرز الذي يظهر في كتابات جيرالدين كومينز دجال، أو أن ذلك مجرد استعراض لعقلها الباطن. ونقرر أيضاً مقدار ما نقبله كدليل مساعد. يمكن للروحاني المقتنع بالروحانية أن يبتلع كل ذلك بما فيه ما ذكره رايموند لودج عن المعامل السماوية التي تصنع الويسكي والسيجار. ولسنا مضطرين إلى ذلك، ولكن إذا كان ذهننا منفتحاً فسوف نوافق على أن ذلك الكم الهائل من الأدلة الأولية لا يجعل الأمر كتفكير فيما هو مرغوب فيه، لأن ذلك يوصلنا إلى نوع الأدلة التي يطلبها العلماء حينما يتحققون من قوانين الطبيعة. فمثلها مثل الأدلة التي يحاولون جمعها من المراصد أو المعامل تميل إلى أن تكون بمثابة نمط أساسي. وتكون المهمة التالية هي دراسة النمط وفحصه في ضوء الأدلة المساعدة المتجمعة ثم نقرر مدى تلاؤمها مع بعضها مثل لعبة تركيب الصورة المجزأة. هذه مسألة اختيار شخصي، قد تقبله أو ترفضه حسبما تستشعر من ميل، ولكن الذين يرفضونه كدليل أولي يعرضون أنفسهم للاتهام بتعمد إغماض العين أو الكسل العقلي.

فما هي العناصر الأساسية لهذا النموذج الشامل؟

هناك افتراض أساسي أن الإنسان ليس كالروبوت أو الكمبيوتر الذي يعمل فقط بتيارات تسري فيه من البيئة، وفي كتاب «جينات الأنانية» (يعني خلايا وراثة الأنانية) يشرح البيولوجي ريتشارد دوكينز Richard Dawkins الطريقة التي فكر بها في بدء الحياة، فأولاً أدى تأثير ضوء الشمس على مختلف الغازات إلى خلق الكتل البنيوية الأساسية للحياة وهي الأحماض الأمينية، وكانت النتيجة تكوين السائل الأولي الذي كان بالطبع ميتاً، ثم عند نقطة تحول معينة حدثت تفاعلات كيميائية وطبيعية معينة أدت إلى تكوين جزء الخلية الرائع، ذلك الجزء المتكرر على صورته والذي يستطيع أن يتكاثر بذاته، وهو يسلم بأن ذلك لا يحدث إلا صدفة مثل الرجل الذي يكسب الجائزة الأولى من يانصيب كرة القدم. ولكن إذا عاش الإنسان لمدى ملايين السنين فربما يكسب عدة جوائز، هذا ما قاله دوكينز عن نشأة النسخة الأصلية من الخلية التي تكرَّرت. ولقد أصبح العالم في النهاية مليئاً بأشكال مماثلة، ولكن عملية التشكيل لا تكون دائماً مضبوطة إذ تحدث فيها أخطاء، ونتيجة لذلك فإن بعض النسخ المكررة تصبح أقل استقراراً من الأخرى، وكذلك أقل خصوبة، ويصبح بعضها أكثر استقراراً وخصوبة.

هنا يسأل دوكينز «هل نسمي النسخة الأولى من جزء الخلية المنقسمة «حياً»؟ من الذي يهتم بذلك؟ . . . «وهكذا يبدو أنه يحاول الخداع بطريقة خفة اليد، فإن نظرية تكوين الجزء المتكرر على صورته بالصدفة تبدو نظرية مريبة تماماً مثل أعمال شكسبير التي تكتبها قردة وأدينجتون التي تكتب بأصابعها على الآلة الكاتب عشوائياً. إن ما يأتي بعد ذلك هو الزعم بأن هذا الاستنساخ الذاتي أو التكاثر الذاتي للجزء حي بعض الشيء، لذا فهو كفيل بالتطور، وهو زعم يبدو واضحاً أنه محاولة للعب السريع بألفاظ غير دقيقة.

إن اقتناعي العميق والمبني على الحدس هو أن هناك اختلافاً أساسياً بين المادة الحية والميتة لذلك فإن خبراء الكمبيوتر سوف يظلون يحاولون إلى الأبد إقناعي بأننا في يوم من الأيام قد نصنع كمبيوتراً معقداً لدرجة تجعله حياً بالفعل، وسوف أظل متشككاً في ذلك. وربما يسارعون فيحاولون إقناعي بأنني في الحقيقة غير حي.

إن ما أنا مستعد لقبوله هو أن كتل البنية الأساسية المكونة من مادة عضوية قد

خلقت بالصدفة بتأثير أشعة الشمس أو بتأثير شحنات كهربية على الأمونيا والكربون، وأنه حينها حصل التأثير إلى منتصفه استفادت لقوة التي نسميها الحياة من الوضع لكي تقحم نفسها بطريقة ما في المادة. يبدو أن ذلك متفق مع حدسي الخاص عن طبيعة الحياة، ذلك الحدس الذي هو في حالتي صراع متواصل للجزء الحي مني بوسع حدود الجزء الميت أو الجزء الحركي أو الميكانيكي الذي يبدو أنه متمسك بجعلي محبوساً في حدود «هنا والآن».

والآن إذا كانت هذه الفكرة صحيحة، وكان دوكينز مخطئاً في اعتقاده أن الحياة مجرد نتيجة من نواتج المادة، فسيستتبع ذلك أن للحياة وعيها وإحساسها المستقل بالغرض. . . وفي خلال سنة ١٨٦٠ وما بعدها كتب الفيلسوف إدوارد هارمان كتاباً موسعاً عن «فلسفة اللاوعي» خصصه على نطاق واسع لبحث تجليات الغريزة في الطبيعة وتبدو كلها مليئة بالغرض، وكلها بلا وعي إطلاقاً. وتوصل إلى نتيجة محزنة بأن الحياة مليئة بالنضال الأعمى، وهو لا يبدأ بالعمى، فالرجل الذي يضطر إلى أن يمشي ميلاً كاملاً في الظلام بلا أي نور قد لا يكون بالضرورة تائهاً أو قد لا يكون سائراً بلا هدف. ربما ينظر في خريطة قبل أن يبدأ السير، ويعرف تماماً عدد الياردات التي يقطعها كي يصل إلى مفترق الطرق التالي. إن التعقيد المدهش في الطبيعة بدءاً من الأميبا إلى الحبار الضخم تؤكد بوضوح أنه رغم أن الحياة حينها دخلت إلى المادة كانت في عماء فقد كان لها إحساس واضح بالاتجاه قبل أن تبدأ السير في الظلام.

ينطبق نفس الكلام على الصورة الداروينية للتطور بالانتخاب الطبيعي، فيختلف دارون عن دوكينز إذ يعترف بأن الحياة تواجدت بصورة ما منفصلة عن المادة، ولكنه ظل ينظر إلى الحياة من منظور سلبي، فلا حول لها ولا قوة في التغيرات التي حدثت بالصدفة أو في البقاء للأصلح. فالزرافة الأولية ربما رغبت في أن يكون لها عنق أطول، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً يحقق لها تلك الرغبة. وقد تمر آلاف السنين قبل أن يتحقق لنسلها رقبة أطول، ويحدث ذلك بالصدفة المجردة. وإذا كان دوكينز مخطئاً فإن فكرة الفرصة أو الصدفة التي قال بها داروين أيضاً خاطئة. فقد لا تكون الحياة قادرة على خلق التغير (وإن كان ذلك غير مؤكد)، ولكنها قد تكون قادرة على تحقيق أغراضها الخاصة تماماً مثل الرجل الذي يختار كتلاً من حطام الصخور التي توجد في ركام متساقط كي يبني بها بيته، ولكنه إذا استطاع أن يختار الصخور من

الركام المتساقط فمن الواضح أنه لا يوجد سبب منطقي يدفعه إلى عمل الآجر بنفسه. لو أن دراسة خوارق العادات قد علمتنا شيئاً فذلك الشيء هو أن القوى البشرية غالباً ما تبدو قادرة على اختراق قوانين الطبيعة. فمثلاً في عام ١٨٩٩ ذهب أحد قضاة نيوزيلندا هو كولونيل جادجتون مع جماعة من أصدقائه لمشاهدة مراسيم المشي على النار عند قبائل الماوري فأصابهم الإرتباك حينما رفع الشامان (الكاهن) يده ليدعو جادجتون وأصدقاءه للانضمام إليهم وهو يقول: «أنا أخلع عليكم سحري»، والمدهش أن جادجتون لم يشعر بحرارة الاختراق، وأحس فقط بوخز خفيف ممتع، ولم يشعر أي منهم بلسع النار. من الواضح أن هذا يمثل شكلاً من أشكال تأثير العقل على المادة، شكلاً قد يكون مستحيلاً في ضوء رأي دوكينز عن التطور.

إذن فلنعتبر الرأي الخاص بخوارق العادات افتراضاً مسبقاً بأن الحياة (كيفما كان شكلها) تستطيع أن تتواجد منفصلة عن المادة، فيكون لها وعيها وإحساسها الخاص بالغرض، وفي هذه الحالة قد نزعم بأن الحياة حينما تنفصل عن المادة عند الموت قد تتحول إلى حالة أخرى من الوعي، بما في ذلك وجود قدر عال من التحرر. وعندئذ نتساءل لماذا تنزل إلى المادة أولاً؟ يبدو أن ذلك لكي تفرض سيطرتها على عالم المادة كما فعلت من قبل مع عوالم أخرى تتكون من مواد أكثر رقة، وعندئذ تبسط سيطرتها على مادة ذات درجة أعلى من الذبذبات.

هذا الرأي القائل بأن الحياة تحاول السيطرة على المادة هو ما يسمى بمذهب الحياتية، وداعيته الرئيسي خلال القرن العشرين هو الفيلسوف هنري برجسون والبيولوجي هانز دريتش Hans Dritsch. من الواضح أن كلاً من برجسون ودريتش قد انضما إلى جمعية البحوث النفسانية واعتلى كل منهما منصب رئاستها. وفي خطبة انتخاب دريتش رئيساً للجمعية عام ١٩٢٦ عبر عن فكرته الأساسية عن الحياتية بأن تطور الكائن الحي «موجّه بواسطة شيء مادي يشبه العقل يتولى عملية التوحيد.. هو المبدأ المنظم الذي لا يضيف إلى ما هو قائم أي طاقة أو مادة، وربما يتواجد هذا المبدأ خارج الزمان والمكان»[1]. ولقد تعرض دريتش لهجوم شديد من جانب زملائه العلماء بسبب اهتمامه بالبحوث النفسانية على اعتبار أن ذلك إهدار ظاهر لكرامة رجل العلم،

---

(1) Renée Haynes, The Society for Peychical Research, A History 1882 - 1982; P. 203.

ومع ذلك كان هناك رأي يقول بإمكانية قبول البراهين الأولية على البقاء وبذا فهناك خطوة قصيرة للغاية تفصل بين الحياتية والروحانية.

كانت المشكلة أمام دريتش كما كانت بالنسبة لكل باحث نفساني في القرن الماضي هي أن المجالات الفلسفية السليمة لم تستطع هي الأخرى تحقيق الاحترام لخوارق العادات. ربما نجحت تلك المجالات في جعل بحوث خوارق العادات تقصر نفسها على التحقيق في مجال قدرات العقل البشري التي لم يسبق ارتيادها مثل الاستشفاف والتسلط الروحي والتخاطر والقياس النفسي وغيرها، ولكن ذلك مستحيل، ففي اللحظة التي يطرح فيها المحقق أو الباحث سؤالاً عما إذا كان الوسيط أصيلاً أم لا، فإنه يطرح بذلك سؤالاً عما إذا كانت المراسلات تأتي من الأموات أم لا. وقد يقرر الباحث أن الوساطة في الحقيقة اسم آخر للشخصية المتعددة، وأن المراسلات مبنية على التخاطر والاستشفاف، ولكنه إذا ما كان أميناً مع نفسه فربما يسلم بأن هناك حالات لا تغطي فيها أي منها الحقائق المطلوبة، ويكون الاعتراف بإمكانية البقاء معناه أيضاً اعترافاً بإمكانية وجود الأرواح. وعند هذه النقطة نجد أن معظم الباحثين المحدثين الذين يقحمون أنفسهم فيها يشعرون وكأنهم قد استدرجوا إلى الوراء نحو خرافات عصور الظلام.

كانت تلك هي المشكلة التي واجهناها في بداية كتابة هذا الكتاب. ذلك أن آدم كارتبري معالج نفساني ومهمته شفاء من لديه مشكلة نفسية من الناس. ومن وجهة نظره لا تختلف المشكلة عن كونها ترجع إلى الكبت حسب رأي فرويد أو إلى تعدد الشخصية أو استحواذ الشياطين على الشخص، ولكن من المؤكد أن موقفه في المجتمع العلمي كان الأفضل له أن يرفض الفرضية الأخيرة وأن يفكر على أساس اسلوب العلاج النفسي التقليدي، وهذا ما يرتبط بميوله الخاصة. فقد وصف لنا كيف أنه حينما كان طالباً يدرس اللاهوت في منيسوتا وقع في يده كتيب اسمه الشيطان المنصرف تأليف القس كارل فوجول Rev. Carl Vogal وفيه وصف لحالة وقعت في وينستون في العشرينيات لفتاة تدعى آن ايكلوند بدأ المرض يظهر عليها في صورة رغبة ملحة لارتكاب أعمال جنسية لا يمكن الإفصاح عنها، وتصرفات إلحادية. وحينما بدأت تظهر عليها علامات قديمة من الاستحواذ قرر الراهب الكابوتشي الأب تيوفيلوس رايزنجر عضو جماعة سانت انتوني أن يعمل لها رقى وتعاويذ، وضعت آن في وضع

الاسترخاء على الفراش وبدأت مراسيم الرقي. وفي ثلاث دقائق طارت آن من فوق الفراش وتحركت ووقفت عند الحائط فوق الباب حيث اصطدمت بالحائط وهي تتحرك، وسقطت بقوة الجاذبية. واستمرت مراسم الرقي وهي تصيح صيحات عالية وأنّات مرتفعة لدرجة أن الناس جاءوا من كل صوب في مدينة ماراتون ليشهدوا ما يحدث. واستمرت الرقى في اليوم التالي ثم لعدة أيام أخر وخرجت من آن أصوات تتحدَّث بلغات مختلفة رغم أن شفتيها كانتا مغلقتين تماماً. وكان رأسها يتمدَّد فيصل إلى حجم إبريق الماء كما لو كان جسمها يتورم وينتفخ كالبالون. وكانت تشنجاتها قوية لدرجة أن حديد الفراش إلتوى إلى الأرض. وتحدثت الكثير من الكيانات التي كانت تسمي نفسها شياطين وأرواحاً شريرة إلى طاردي الأرواح وأظهرت معرفتها الوثيقة بالخطايا التي ارتكبتها في صغرها، وأخيراً تواجد كيان أبيها الراحل واعترف بأنه كان يحاول دائماً ارتكاب الإثم معها، وأنه لعنها واستحث الشياطين أن تستحوذ عليها. وظهرت أيضاً العشيقة السابقة لوالدها واعترفت بأنها قتلت العديد من أطفالهاالحديثي الولادة. وخلال كل ذلك الوقت كانت آن نائمة نوماً عميقاً أو في غشية أو غيبوبة كاملة، وفي النهاية انطلق جسدها من فوق الفراش واقفة وكعوبها فقط مستقرة فوقه. وبينما كان القسيس يواصل تعويذاته سمع صوت أنين غريب، ثم أخذ الأنين يخبو شيئاً فشيئاً حتى اختفى كأنه صوت مبتعد. وأخيراً فتحت الفتاة عينيها وأخذت تبكي وانتهى بذلك الاستحواذ.

كان الراهب الذي ترجم الكتاب عن الألمانية ينتمي إلى نفس الدير الذي ينتمي إليه كاربتري، وتحقق من تفاصيل القصة. كان كاربتري يعلم أن ذلك الراهب مستقيم الفكر مرح الشخصية، ومع ذلك فقد نظر كاربتري إلى تلك القصة التي رواها الراهب على أنها منافية للعقل.

قرر كاربتري بعد فترة وجيزة أن حياة الرهبنة لا تناسبه، فدخل قسم العلاج النفسي عام ١٩٦٩.

توصّلت لمعالجة نفسي بسرعة إلى قبول الواقع الذي يجعل الظواهر الخارقة للعادة مثيرة للدهشة، وبخاصة تجارب التخاطر والاستشفاف، وأصبح واضحاً أمامي أن هاتين الظاهرتين لا يمكن انكارهما نتيجة لوجود دلائل كثيرة تأتت من علاجي بصورة تلقائية من حدس فعال من أحلام المرضى بخاصة. ولكني كنت في تلك الأيام المبكرة متردداً في التمادي إلى ما وراء الحد الأدنى من القبول(١).

---

(١) رسائل إلى المحرر، أول يناير ١٩٨٥ منقولة بتصريح من دكتور كاربتري.

ولم يستطع كاربتري أن يشاهد ظاهرة الاستحواذ حتى عام ١٩٧٦ حينما تحدث إليه أحد زملائه الذي يبدو أنه كان خاضعاً لنوع من الاستحواذ. وظل يفكر أخذ الأمر بجدية، ولكنه بدأ في السنة التالية يقابل حالات من الاستحواذ أثناء ممارسته العمل، كما جاء في الفصل الأول من هذا الكتاب، وقرَّر من وجهة نظر نفعية صرف أن يعالجهم على أنهم مصابون بالاستحواذ.

ويصر كاربتري بصفته معالجاً نفسياً على أن يقتصر على تسجيل الظواهر أو بمعنى آخر لا يقرر أن أياً من الحالات حالة استحواذ، ولكن يقول يبدو أن هذا المريض أو ذاك فيه علامات الاستحواذ. وربما كان علاج أي حالة على أنها حالة استحواذ هو أبسط طريقة مؤثرة على الشفاء. بيد أنه عضو في جمعية البحوث النفسانية، وكتابه يوضح لنا أنه على استعداد لأن يعطي لنظريات الاستحواذ أهمية كبيرة.

وهناك معالج نفساني آخر هو الدكتور رالف أليسون Ralf Allison الذي يمارس الطب النفسي في سانتا كروز في كاليفورنيا، وقد كتب كتاباً عن تعدد الشخصية[١]. وأتت للدكتور أليسون في عام ١٩٧٢ حالة من حالات تعدّد الشخصية هي فتاة تدعى كاري في سن المراهقة وكانت ضحية لعصابة من عصابات اغتصاب الفتيات. وبعد الحادثة بدأت تمر بتجربة حلول شخصية أخرى فيها أثناء هبوط الظلام. حاول أليسون ببساطة أن يتخذ وسيلة علاجية خاصة هي محاولة طرد الأرواح تحت تأثير التنويم، ونجحت المحاولة، ولكن اليسون اعتبر أن ذلك يرجع ببساطة إلى الصدفة، ولكنه في السنوات التالية واجه حالات من تعدد الشخصية استطاع أمامها أن يقبل أن الأنفس أو الأرواح الأخرى كانت ذواتاً حقيقية تأتي بالتبادل. «فالشخصية البديلة تؤدي غرضاً فعلياً ومحدداً - وهذا يعني أنه يتعامل مع عواطف أو مواقف لا يستطيع المريض أن يتولاها بنفسه، ولكن تبين في مزيد من الحالات أن الأمر خلاف ذلك: جاءته فتاة تسمى أليس تعاني من تعدد الشخصية فوضعها تحت تأثير التنويم فظهرت فيها بديلة لشخص يسمي نفسه دينيس، يبدو أنه لم يكن له أي غرض معين، وأصر على أنه مستحوذ على أليس فقط لأنه كان يهتم

---

(١) Minds in Many Pieces.

جنسياً بشخصية أخرى بديلة هي فتاة تسمى شاتون، تلبست في أليس بعد فقدان طفلها، وحينما سأل دينيس عن الكيفية التي يريد أن يمارس بها الجنس مع شاتون «شرح دينيس أنه يدخل في أجسام رجال يمارسون الجنس معها، ووجد الدكتور أليسون في ذلك مفهوماً مثيراً للاهتمام إذ أنه أصبح واضحاً أن جسد أليس هو نفس جسد شاتون، ولكن دينيس لم يكن يهتم بهذا الجسد حينما تكون أليس بداخله.

وحينما سأل أليسون شاتون أكدت له أن كل ما قاله دينيس صحيح، فدهش أليسون من فكرة الذات البديلة التي تدخل في جسم شخص آخر (رغم أنه لو قرأ كتب كارديك أو بعض الروحانيين الأخرين لتبين له أن ذلك أمر مألوف)، ولكن الشخصيات الأخرى التي تتلبس في جسد أليس أصرت على أنها تتلبسه بالفعل. ذلك أن دينيس ذاته ادعى أنه كان ذات مرة سمسار أوراق مالية قتل أثناء حادثة سطو، وزعم أن أليس لم تكن هي الشخصية الأولى التي سكنها، وشرح أيضاً أنه لو استقرت شاتون مع عاشق واحد لسره أن يسكن في جسد ذلك الرجل بصفة دائمة، ولكنها تتجول وتتنقل كثيراً. ويعترف أليسون «رغم كل مجهوداتي لم أستطع أن أجد تفسيراً أكثر قبولاً للعقل عن تواجده سوى نظرية الروح».

وظهرت ذات أخرى تحت تأثير التنويم لفتاة تسمى ميشيلا، ذكرت بإصرار أنها تشبه دينيس، لم تكن شخصية بديلة أو ثانوية بل روحاً، وزعمت أيضاً وجود روح ثالثة مرتبطة بها. وبعد مضي أيام، عانت أثناءها أليس من تشنجات قوية قام أحد الشخصيات الثانوية الأخرى بإبلاغ أليسون أن هناك ثلاثاً من الأرواح المتلبسة قد غادرتها الآن، وكان أليسون لا يميل إلى قبول ذلك: «لا يوجد في الكتابات السيكولوجية أي شيء يمكن أن تكون له صلة بما رأيت»، وبعد زمن قامت إحدى الشخصيات البديلة باختيار أليسون بأن شاتون كانت روحاً متلبسة في ذاتها وهي روح طفل أليس الذي مات. وأكدت شاتون نفسها ذلك، وأخبرت أليسون بأنها مستعدة لمغادرة الجسد، وأفاقت أليس من الجلسة وهي في حالة وهل أو فقدان ذاكرة، ولكن شاتون لم تظهر فيها بعد ذلك.

تناول أليسون حالة أخرى من حالات تعدد الشخصية لفتاة تسمى صوفيا. ونجح أليسون في إخراج كل الذوات البديلة منها تحت تأثير التنويم، ولكن بقيت شخصيتان بديلتان لسيدتين هما ماري وماريا. فحينما كانت صوفيا تحت تأثير التنويم

علم أليسون أن ماري وماريا كانتا توأمين لصوفيا وأن الطبيب الذي كان يولِّد أمها، وكان عشيقها أيضاً، قتل التوأمين ولم يستطع قتل صوفيا بسبب حضور جارة لها منعته من ذلك. وقالت صوفيا إن روحي التوأمين كانتا منتظرتين لتدخل فيها بعد الولادة فدعتهما صوفيا ليشاركاها جسدها كي لا تصبح وحيدة. نجح أليسون حقيقة في تعقب ماري وماريا لتتركا جسد صوفيا أثناء جلسات التنويم، ولكن بعد ذلك فشلت محاولاته في إعادتهما تحت تأثير التنويم.

يبدو أن قصص أليسون غير مقبولة عقلاً، ومع ذلك فإن من يقرأ بقية الكتاب سيحس بأن فيها أصالة. وكان الخط الموضوعي الذي استمر على مدى البحوث النفسانية منذ أيام جوينج ستيلنج وكاترين كرو هو أن الكائنات البشرية تتكون من أجسام تسكنها أرواح، هي بالمعنى المقصود شخصيات تكونت بالفعل، وأن الأرواح تبقى بعد الموت. ولقد مررنا في الفصل السادس ببعض حالات تحركت فيها الروح بشكل واضح من جسم لآخر. هكذا تحولت لورانس فينوم إلى ماري روف، وتحولت ميحارام جاسبيرلال جان. ربما تقرر أن مثل هذه الحالات لا تعتبر براهين على التناسخ أو الاستحواذ ولكن لا بد لنا على الأقل من أن نعترف باستمرارية الخط الموضوعي الذي لا يعتبر الشخصية انعكاساً للبدن فحسب بل هي تجميع في السلوك لإسهامات مختلفة من وحدات تحكُم متنوعة موجودة بالعقل. لكن هناك كياناً مستقلاً يتحكم في الجسم وقد يكون قادراً على أن يمارس التحكم بصورة أبعد أثراً، إذا ما أدرك هذا الكيان وضعه.

إن هذا الاعتراف هو الذي يغلف هذا الكتاب الذي بين أيدينا وليس الهدف الذي أرمي إليه هو أن أحاول إقناع أي شخص بحقيقة الحياة بعد الموت، ولكن غرضي أن ألفت الأنظار إلى التواصل الداخلي العجيب للأدلة التي لا تستدعي أن يشعر أي أحد بالخجل من قبول فكرة أن شخصية الإنسان تبقى بعد الموت الجسدي.

٨
الخاتمة

ذهبت في عام ١٩٦٨ إلى كمبريدج لأجري حديثاً مع الفيلسوف برود C.D.Broad لأضعه في ملحق صحفي خاص بالألوان. كان برود المعروف بأنه إنسان عطوف رقيق الروح آنذاك في شدة الضيق لأن كليته، كلية ترينيتي أو التثليث، قد حولته إلى خادم في المطبخ وهو في الثمانين من عمره، وكان يتطلع بصبر وأناة لإنهاء عمله الحالي والعودة إلى وطنه الجميل في اسكندنافيا.

وبعد أن تحدثنا عن أفكاره الفلسفية وآرائه عن الأجيال المقبلة تحولنا إلى الحديث عن البحوث النفسانية. وكان برود قد انضم إلى جمعية البحوث النفسانية عام ١٩٢٠ وانتخب رئيساً لها مرتين. علق تعليقاً مهماً إذ قال: «لو كانت البحوث النفسانية صادقة حقاً لاتضحت أهميتها الكبيرة، فهي من الناحية الفعلية تبدل كل شيء». أعدت إلى ذاكرته ما سبق أن أورده في سيرته الشخصية[١]: «أقول بكل قوة أن ليست لي رغبة حقيقية في أن أبقى بعد موت جسدي الحالي، وسوف أكون مرتاحاً للغاية إذا استطعت أن أحس بصورة أكثر تأكيداً مما أحسه الآن بأن أي نوع من البقاء مستحيل».

ولكن برود يصر على عدم وجود أي تعارض بين ذلك القول وبين قوله التالي: كنت محظوظاً للغاية في هذه الحياة. فكل شيء سار على ما يرام، وأنجزت كل نجاح أردته، وربما حصلت على أكثر مما أستحق، لذلك فإنني لا أحب فكرة أخذ فرصة في عالم آخر، والأفضل أن أصل إلى النهاية.

أراد برود بذلك أن يظهر نقطة معينة سبق أن عرضنا لها مرات عديدة في هذا الكتاب. علمنا بأن وجود حياة بعد الموت قد يغير كل شيء، ومع ذلك لا يغير شيئاً.

---

(١) فلسفة س. د. برود ١٩٥٩.

فالطفل يفتح عينيه على عالم معقد ومحير بل ومخيف، ولكنه سرعان ما ينمو حينما يقتنع بأن الكبار يعلمون كل الإجابات عن الأسئلة المحيرة. وكان الأحرى به ألا يواصل حياته إلى النضج ليكتشف أن ذلك غير صحيح، وحول ذلك كتب كيركجارد Kirk Gaard يقول:

أين أنا؟ من أنا؟ كيف جئت إلى هنا؟ ما هذا الشيء الذي يسمى عالماً؟... كيف جئت إلى العالم؟ لماذا لم يؤخذ رأيي؟.. وأنا مضطر لأن أشارك فيه، أين مديره؟ أريد أن أراه.

إذا قلنا لا يهمك شيء، فهناك حياة بعد الموت. ليست هذه هي الإجابات المطلوبة، حقاً لو أن الموت كان نهاية الفرد فإن ذلك سوف يعمق الشعور بعدم الجدوى والإحساس بالتفاهة. ولكن إذا ما أخبرونا بأننا سنواصل حياتنا في عالم آخر فسوف تواجه نفس التساؤل الذي عبر عنه وليام جيمس بقوله: ما سبب الوجود أو بالأحرى لماذا لم يكن عدم وجود؟ للإجابة على هذا التساؤل قد يبدو أننا بحاجة إلى الخروج عن نطاق الوجود، ومن الواضح أن ذلك أمر مستحيل.

هذا يفسر السبب في أن الروحانية لم يكن لها تأثير أكبر على العالم الحديث، فحينما نشأت الحركة الروحانية في روشستر عام ١٨٥٠ كان أتباعها لا يشكون في أنهم يساعدون في تأسيس دين جديد، ولكن الدين محاولة لتفسير مكانة الإنسان من الكون، ولم تكن الروحانية مبنية على بصيرة غيبية نافذة عن علاقة الإنسان بالله، بل كانت مبنية على تأكيد أن الموتى من البشر في واقع الأمر لا يموتون إطلاقاً ولكنهم يواصلون الحياة في عالم مختلف عن عالمنا الحاضر. ويظل السؤال عن مكانة الإنسان في العالم أو عن أين كان من قبل سؤالاً مطروحاً. ولا عجب أن رجال اللاهوت الكاثوليك انضموا إلى العلماء اللاإراديين في الدفع بأن ذلك على أنه شيء ممل وسطحي وغير صحيح.

اضطررت إلى إعادة هذه الاقتراحات إلى الذهن قبل كتابة هذا الكتاب ببضعة أشهر، فجاءتني رسالة تخبرني بأنني علمت آنذاك عن وجود أحد مشاهير الوسطاء في كل العصور. وأشير هنا إلى مارتا التي قالت: «قيل إن واسطتي هذه واسطة مجسدة، وأنها في أثناء جلساتها يظهر من الهواء الخفيف أناس مجسدون يمشون في الحجرة، وقد يتصرفون مثلما يتصرف الناس العاديون، ويجيبون على الأسئلة ويسمحون بلمسهم

ويجلسون بجوار أفراد من المشاهدين، وباختصـار لم تكن هناك غيبيـات بل كـان الأمر تماماً مثل حفل شاي».

كتبت عن فوري إلى مارتا وشرحت لها أنني عـلى وشك كتـابة كتـاب عن الحياة بعد الموت وسألتها عما إذا كان بـاستطاعتي الحضـور إلى إحدى جلسـاتها فتلقيت رداً أخوياً تقول فيه إنها ترحب بي في أي وقت.

ولم يمض وقت طويل إلا وكنت في المدينة التي كانت تقيم فيها مارتا، وخـاطبتها بالهاتف لأسألها عما إذا كان حضوري ممكناً، فشرحت لي أن ذلك غير ممكن آنذاك لأن أحد أصدقائها الذين تقيم جلساتهـا في منزلـه متغيب في إجازة، ولكنهـا دعتني للشاي بمنزلها.

كانت مارتا سيدة جميلة في الثلاثينيات من عمرها. قـدمتني لزوجهـا بيل وابنهـا وصديقته وأخبروني بأشياء بدت كلها رائعة. كانت مارتـا ممثلة ولكنها منـذ أن تزوجت بيـل المهنـدس اعـتزلت المسرح (مـا زال ابنهـا يعمـل في المسرح كمهنـدس إضـاءة)، واكتشف ما لها من قـوى بالصـدفة ذات يـوم حينما كـانوا يتنـاقشون فلمست منضـدة صغـيرة فانـطلقت المنضدة طـائرة عـبر الحجره. وحينـما وضعت يدهـا عليهـا أخـذت المنضـدة تهتز من جـانب إلى جانب ثم أجـابت المنضدة عـلى أسئلتها بـواسطة الـرموز العادية. ودهش الجميع لذلك وظلوا يقضون ليـاليهم يسألـون المنضدة (أكـدت مارتـا أنها لم تكن قبل ذلك تهتم بمثل هذه الأمور لأنها كاثـوليكية حقـاً). وفي يوم من الأيـام راحت في غشيـة وتكلمت الأرواح من خـلال فمهـا، وحينـما استيقـظت أو أفـاقت اعتذرت بسبب ذهابها في النوم ولم تكن تـذكر شيئاً مما حـدث. وفي جلسات أخـرى تجسدت لها الأرواح.

وسرعـان ما ظهرت سيدة تتكلم بلهجـة اسكتلنـديـة اسمهـا الـواسـطة هيلين دانكان وأصبحت مارتا مسيطرة عـلى هيلين. وذات يوم ظهـر من خلالهـا صبي صغير اسمه جيرمي ـ وصف كيف مات منذ بضعة سنوات في حادث، وأعطى اسمـه وعنوانـه وأخبرهم بأن أبـاه في تلك اللحظة جـالس وحده بـالمنزل لأن أمـه ذهبت لقضاء الليلة خارج المنزل . وقال جيرمي: إن فوق أبيه فراشة حمراء كبيرة في السقف

كان الوقت متأخراً . في الليل، ولكنهم قرروا التأكد من صحة حكايـة جيرمي، وبحثوا عن رقم الهاتف ورد عليهم الرجل فقال له بيـل: «سأسـألك سؤالاً قـد يكون

سخيفاً، هل توجد فراشة حمراء كبيرة على السقف في حجرتك؟» فأجاب الرجل بدهشة شديدة: «يا إلهي. . أجل توجد فراشة، ولكن كيف عرفت ذلك؟ فقال بيل «لأن ابنك أخبرني بذلك من فوره. وأكد الأب أن كان له ابن اسمه جيرمي وأخبرهم بحكاية موته. . وفي اليوم التالي وصل الوالدان وفي عيونهما دموع الفرح فاحتضنا ولدهما وقبّلاه. . .

حكاية مؤثرة حقاً جعلت مارتا وبيل يقتنعان تماماً. كانا زوجين رقيقين يتصرّفان بطبيعتهما في تواضع، وإذا ما أمكن التأكد من حكايتهما فلن يتطرق شك في أن مارتا أقدر وسيط منذ عهد دانييل دونجلاس هوم. وإني أشك كثيراً في إمكانية تأكيد القصة خاصة وأنهما أكدا لي أن بإمكاني التحدث إلى جيرمي ودانكان بل ولمسهما أيضاً.

سارعت في أول فرصة أتيحت بعد ذلك إلى الضاحية التي يسكنها بيل ومارتا، ولسبب ما لم تعقد الجلسة في منزل الأسرة الصديقة، ولكنها عرضت تنظيم الجلسة في حجرة الاستقبال بمنزلها. ودعيت للحضور مبكراً لتناول الشاي، ولكنها كانت في الحقيقة وليمة كبيرة فيها النقانق الساخنة وأنواع عديدة من الفطائر والكعك. وفي أثناء الطعام أخبراني عن اتصالاتهما بالعالم الآخر. ويبدو أن مارتا كانت تواجه بعض المشكلات مع العديد من المتشككين من ذوي العقول الجامدة حتى أن أحدهم اتهمها بالخداع على صفحات إحدى صحف الروحانيين الشهيرة. . . وتعجبت لكل ذلك، فلو أن مارتا كانت تصف مقتنعة بما ظهر في كلامهم لكان من الصعب أن نتفهم السبب في أن البعض يريدون اتهامها.

بدأت الجلسة بعد ساعتين تقريباً، ولشدة دهشتي وجدت بيل وولدها دونالد أخذا يغطيان النوافذ بملاءات بلاستيكية سميكة، وفسرا ذلك بأن أقل شعاع من ضوء قد يسبب الأذى للوسيط. وجلست مارتا على مقعد وثير، وجلست أنا على الأريكة مع دونالد وصديقته وجلس بيل في مواجهة مارتا ثم أدير جهاز تسجيل لإذاعة موسيقى كلاسيكية عادية، وأطفئت الأنوار وأصبحنا في ظلام كامل. قالوا لي إن الموسيقى تساعد على خلق الجو المناسب. وما لبثنا أن سمعنا دقات عالية على المائدة، شرح لي بيل أنها تعني حضور ثلاثة عشر روحاً، ثم سمعنا صوت صبي صغير، وحضر جيرمي فقدموني له وسألت عن إمكاني تسجيل الصوت فأذنوا لي بذلك، فأدرت جهاز تسجيل أحضرته معي، ثم بدأنا نتكلم جميعاً كما لو كان الأمر عادياً كجلسة بجوار

المدفأة نثرثر. كان بصوت جيرمي بحّة عالية كأن فمه ملفوف بشيء حوله، وبعد دقائق قليلة سأل جيرمي: «هل تسمعون لورا؟» وكانت الموسيقى قد أديرت مرة ثانية على شريط يغني فيه بلاسيد دومنجو إحدى أغنياته وهي أغنية «لن أكون معك» لذلك لم أستطع أن أميز صوت الشخصية التي حضرت.. ولكن بيل حياها وقدمني مرة أخرى. فأخذت لورا يدي بين يديها فأحسست كأنها إنسان عادي، وأخذت تغني مع الموسيقى بصوت جميل ولكن فيه شيء غريب، يمكنني أن أصفه بأنه «رعشة خفيفة». وحينئذ ظهرت بطارية بغطاء أحمر اللون ولذا لم يكن ضوؤها يظهر شيئاً حتى في هذا الظلام الكامل، ولكنها وضعت بجوار قدمي لورا العاريتين، فرأيتهما من خلال الظلام فوق السجادة.

وفجأة سمعنا صوتاً له نبرة اسكتلندية يقول: «هالو.. جميل أن أراكم جميعاً الليلة...» ورد عليها بيل التحية «هالو يا هيلين.. فقالت: «كنت أتوقع يا كولين، هل فاجأتك؟» وطلبت من بيل أن يوقف الموسيقى وقالت: «نحن نريد الموسيقى لأن مارتا تخشى الظلام، ولكن للحد الذي يكفي ليسمع عقلها الباطن» وواصلت تقديم نفسها لي، ورحبت بي من كل أعماقها وذكرت أنها سمعت بأني صاحب كلام كثير وأنها هي أيضاً صاحبة كلام كثير.

وبعد دقائق قليلة أخرى جاء وقت الاستراحة، وأديرت الموسيقى مرة أخرى وأضيئت الأنوار، وكانت مارتا جالسة على مقعدها في حلتها الرياضية تستفيق تدريجياً وتسأل: «هل حدث شيء؟» فأكدنا لها ما حدث.

وانقضت استراحة تتراوح بين خمس وعشر دقائق بدأت بعدها الجلسة مرة أخرى، وثرثر جيري أكثر بكثير، ثم عرضت هيلين أن تقدم تجربة. أخذت البطارية لتريني قدميها وركبتيها، ومرة أخرى كان من المستحيل في الواقع رؤية أي شيء سوى وميض خافت من اللحم في الضوء الأحمر المعتم.

كانت هيلين كما قالت امرأة صاحبة كلام كثير، تثرثر كثيراً، وقاطعتها عند نقطة لأسألها عما إذا كانت تتذكر أحداً من أصدقائي واسمه ليونارد بوتشر الذي كان يحضر جلساتها أثناء حياتها، فأجابتني بالإيجاب، ثم سألتني عن «لين» وما حدث له فقلت له إنه في زيمبابوا، فسألت بدهشة هل هو في زيمبابوا، طبعاً كان علينا أن نذكر ما أن

زيمبابوا كانت فيما مضى روديسيا، وطلبت مني أن أتحدث مع ليونارد لأذكره بأيام بورتشاوث.

بعد حديث طويل سألتها عما إذا كان باستطاعتها أن تخبرني بأي شيء عن طبيعة الأشباح المزعجة، فأجابت هيلين بشيء من الكبرياء: «سأشرح لك» ولكنها لم تشرح شيئاً، وبدلاً من ذلك أخبرتنا بأن «الأشباح المزعجة لم تؤذ أي إنسان أبداً. ولا يوجد ما يدعو إلى الخوف منها. . .» وظلت لمدى ربع ساعة تقريباً تهذي ولا تقول شيئاً محدداً عن طبيعة الأشباح المزعجة، فأصبح واضحاً أنها لا تعلم شيئاً عنها أو أنها تستقي المعلومات لنفسها. ولم يؤسفني أن بيل أعلن الاستراحة الثانية، وكان شريط التسجيل قد انتهى.

أخبرني بيل أن رايموند ابن السير أوليفر لودج يظهر عادة في جلساتهم، ولذا سألته عما إذا كان بإمكاني مقابلته. وفي الواقع أنني كنت قد استمعت إلى تسجيل قديم له. وبالفعل بعد طول مناقشة وصل رايموند وقدم نفسه لي، وعند هذه النقطة بدأت شكوكي الغامضة تصبح ملحة، فإن صوت رايموند هذا لا يمت إلى صوته الأصلي الذي سبق أن سمعته في التسجيل بأي صلة. كان يتكلم بصوت يغلب فيه البطء بنبرة الطبقة الراقية وبنغمة تميل إلى الأنوثة مثل صوت أبلاشيلدر في شخصية برلينجتون برتي.

سألته عما إذا كانت الأرواح حقاً ترى في الظلام، فأكد لي صحة ذلك، والحقيقة أنه أخبرني بأن أحد الأصدقاء من جمعية البحوث النفسانية حضر جلسات مارتا وأنه دهش عندما تعرف على عدد الأصابع التي يظهرها من يده، وذكر أيضاً أن الحجرة كانت مليئة بالأسلاك وأن الأرواح أثبتت أنها قادرة على تجنب تلك الأسلاك.

بدأ ذلك كدعوة من رايموند لأختبره، ولذا سألته عما إذا كان ممكناً أن يعرف التعبير الذي على وجهي، وقد جعلت وجهي يعبر تعبير الرعب بتقطيب جبيني ومط شفتي إلى الأمام. وإذا برايموند يسأل وهو متردد: «أتعني أنك تفتح فمك أو شيئاً من هذا القبيل؟ وفجأة علمت بما لا يدع مجالاً للشك أن رايموند لم يستطع الرؤية في الظلام، فقلت له: «أجل هذا بالضبط ما قصدته»، فأجاب رايموند بسرعة «أنا لا أفعل ذلك الآن»، فسألته: «ولمَ لا؟»، فذكر لي أن ذلك لا يقنع أحداً، فقلت له: «ولكنه ربما يقنعني أنا، فإذا ما استطعت إخباري بعدد الأصابع التي أبرزها من يدي

الآن فأخبرني»، ورفعت إصبعين فرد عليّ رايموند متضايقاً «لم أعد أفعل ذلك»، سألته «لماذا؟ ألا تريد أن تقنعني؟»، ففسر رايموند موقفه بأنني لو تركت المنزل ونشرت أن رايموند استطاع أن يعرف عدد الأصابع التي أرفعها فلن يقبل أحد بذلك. وسوف يتهمون مارتا بأنها تستخدم الأشعة تحت الحمراء، أو أي شيء من هذا القبيل. فشرحت له أن المسألة ليست مسألة إقناع الآخرين بل إقناعي أنا شخصياً، ولو استطاع أن يخبرني بعدد الأصابع التي أرفعها فربما أقبله كروح، وإذا لم يفعل فلن أصدق أنه روح.

عند هذا الحد زمجر رايموند بغضب وقال إنهم قدموا لي بالفعل كل الأدلة التي طلبتها، وسمحوا لي أن ألمس الأرواح وأن أراهم في ضوء البطارية، فذكرت له أن ضوء البطارية لم يظهر شيئاً يمكن اعتباره دليلاً، حتى لو كانت مارتا جالسة على مقعدها أم لا. حقاً لقد أمسكت بيدي وسمحت لي أن ألمس ذراعها، ولكني لا أستطيع أن أجزم بأنها لم تكن مارتا نفسها.

أصبح واضحاً أن سبعين سنة في عالم الأرواح لم تغير أبداً من الصفات البشرية لرايموند، بحيث أنك لا تستطيع ضبط انفعالاته. وأصر على أنهم قدموا لي الدليل، وأن في ذلك ما يكفي. وتمسكت بأنه لو ذكر لي عدد الأصابع التي أرفعها لزال عني الشك. وبينما يقول لي وهو غاضب «لم نعد نفعل ذلك الآن» لاحظت أن الصوت الغاضب أصبح صوتاً أنثوياً.

وأصبح لا محل للاستمرار، قلت ذلك، وأديرت الموسيقى وأضيئت الأنوار وكانت لحظة حرجة. كنت متأكداً ومع الحق أن رايموند خدعة، وتبعاً لذلك بدت لي الجلسة كلها خداعاً. واستفاقت مارتا متكاسلة وسألت: «ما الذي حدث؟» فشرح لها بيل أن خلافاً حدث بيني وبين رايموند، وشكرتهم وغادرت مسرعاً كي أتجنب المزيد من الإحباطات.

وبمجرد أن وصلت إلى منزلي كتبت إلى ليونارد بوتشر في زيمبابوا أسأله عما إذا كانت هيلين دانكان تبادله باسم «لين» وعما إذا كان يراها في بورتشاوث. جاء رده كما توقعت تماماً، كانت علاقتها رسمية لا يستخدمان الاسم الأول (وعلى أي حال لم أسمع أي أحد يناديه باسم لين) وكذلك لم يقابلها في بورتشاوث ولكن في اسكتلندا..

غضب المراسل الذي أخبرني عن مارتا غضباً شديداً حينما أرسلت له تقريري عن الجلسة، لم يكن يشك في أصالتها، وإن كنت لم أوافق على ذلك فإن ذلك لأني ممن يعمدون إلى إغماض العين. وشرحت له أنني لست متأكداً أن مارتا مخادعة، ولكني متأكد مائة في المائة أن رايموند كان خدعه، ولم يخفف هذا من حدة غضبه، ولم يقتنع أبداً بأنني أنضم إلى الأعداء.

تخدمنا كل هذه الأحداث المترابطة فقط في إبراز ما قد عرفناه من أن الاتصال بالأرواح المزعومة ربما لا يضيف إلى علمنا شيئاً عن طبيعة الواقع، وأن المهمة الرئيسية للإنسان هي أن يعلم عن الطبيعة الحقيقية للأرواح. وحتى لو أن رايموند استطاع أن يذكر عدد أصابعي المرفوعة ويقرأ تعبيرات وجهي أو حتى يتعرف على ما في ذهني فربما لم يختلف الأمر كثيراً. قد يؤكد ذلك فقط ما أعتقد أنه صحيح فعلاً وهو أن تلك الأشياء كلها ممكنة الحدوث، ولكن حينما استمع إلى شريط الدقات أثناء الجلسة فإنني أصبح فريسة لرغبة ملحة أن أصرخ وأقول مقتنعاً بأن الأرواح حتى الأصيلة منها ليس لديها ما تقدمه للعقل البشري أكثر من ذلك.

فما هو الذي أعتقد فيه إذن مما يمكن تعلمه من براهين البحوث النفسانية؟

في رأيي أن أحد أهم عناصر نفاذ البصيرة هو ما يتعلق بالشخصية، فكلنا يأخذ الشخصية على علاقتها، فأنا هو أنا وهذا كل ما يتعلق بها، وتكشف لنا حالات تعدد الشخصية بأن الحقيقة في الأمر أعقد من ذلك بكثير، فلو أنني سمحت بأن تهزمني الحياة فإنني أقيم شخصية ثانوية أو بديلة تستطيع أن تجابه مشاكلها.

كانت كريستين بوشامب (كلارا فولر) متجهمة ومخيفة، ولذا كانت سالي المرحة الخليعة تحل محلها، وكان لويس فيفي سلبياً متبلد الشعور، ولذا تلبسته شخصية بيلي مليجان العدواني الذي يؤكد ذاته بالقوة، وكان ميلي مليجان على وشك الانتحار بالقفز فوق سقف المدرسة حينما أزاحته شخصية أخرى فرعية وحلت محله. الاستنتاج الواضح من هذا هو أننا نحتوي في داخلنا كثيراً من الشخصيات المتاحة، أو بمعنى آخر تنتظر بأجنحة ممتدّة نحن مستعدون لتحرّكها إلى داخلنا. لكن في حالة الإنسان العادي الصحيح السوي تمتزج بكليتنا مع الشخصية الأساسية دون أن نخل بها. قد نقابل شخصاً لم نره منذ سنين فتتبين أنه قد أصبح شخصاً آخر أكثر ثقة في نفسه وأكثر كفاءة فلا نشعر بأن شخصية أخرى قد تلبسته أو حلت فيه ولكنه أصبح ذاته إنما

بصورة أخرى أفضل. وقد ذكرت في مكان آخر[1] أن كل إنسان يحتوي هيكلاً كاملاً مكوناً من أنفس متدرجة، ففي قاعدة الهيكل يوجد الوليد الذي يفتح عينيه على عالم غريب، ثم الطفل الذي يبدأ في تكوين عقله وهو في سن الثالثة تقريباً، ثم تأتي أول شخصية متكاملة في سن السابعة ثم المراهقة والبلوغ الذي تتكون فيه القدرات العاطفية والجنسية، ثم الشاب الناضج الذي تتكامل فيه كل المستويات السابقة. ولكن ذلك ليس نهاية التطور، فبإمكاننا أن يتابع الرجل العظيم تطوير نفسه في مستويات جديدة. ولذلك نتكلّم مثلاً عن المراحل المختلفة لحياة شكسبير أو بتهوفن، ولكننا نرى أيضاً بوضوح أن شكسبير وبتهوفن لم يكونا إنسانين متكاملين، فإذا ما عاشا عمراً أطول وظلا يكافحان فربما ظلا يطوران ويضيفان إلى المستويات العليا من الشخصية.

يفسر لنا هذا سبب رفضنا للرأي القائل بأن الشخصية تبقى بعد موت الجسد، وبإمكاننا أن نرى الشخصية تنمو وتتطور مثل الجسم مما يدفعنا إلى القول بأنها تموت أيضاً كما يموت الجسد. ومع ذلك ففي حالات تعدد الشخصية نستطيع أيضاً أن نلمس وجود نفس أساسية هي التي تكون أساس الشخصية. ويبدو أن الوجد الباطني يذيب الشخصية حتى أن بعض الباطنية قارنوا بين هذه الحاسة وهي حاسة الهروب من فرديتهم وبين روح ترتفع من الجسد الفاني، ومع ذلك ما زالوا أحياء يعون ما حولهم، فإذا كان هنالك ما سيبقى بعد الموت فهي الطبقة التحتية الأساسية من الشخصية. وإذا كان التناسخ حقيقة واقعة فإن هذه الطبقة التحتية من الشخصية هي التي تحل في الوليد الجديد.

ربما كان في استخدام لفظ الطبقة التحتية شيء من الخطأ. ففي كتاب «خفايا الحياة» افترضت أن هيكل الأنفس أو درج الأنفس ليس درجاً عادياً ذا جوانب متوازية ولكنه يشبه حرف «V» المقلوبة. فكلما صعدنا إلى أعلى كلما صغرت العتبات، وكلما احتجنا إلى مزيد من الجهد إذا أردنا التحرك من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى (من جهة أخرى من الأسهل الهبوط على الدرج كما يحدث في حالة الانهيار العصبي). وربما كان موقع ذروة النفس في قمة الدرج.

---

(١) مقدمة كتاب «خفايا الحياة».

بدأت في هذا الكتاب بشرح عن آدم كاربتري لأن بعض حالاته تصور لنا أن ميكانيكية هذا التطور تبدو أيضاً وكأنها تترك مكاناً لما تعارفنا على تسميته الاستحواذ. وطبقاً لما ذكره كارديك تستطيع الأرواح أن تتجوَّل إلى الداخل والخارج حسبما تريد (ربما نقدم حالة دينيس التي أوردها رالف أليسون كمثال يؤيد هذه الفكرة). فهم قادرون إلى حد معين أن يؤثروا في أفكارنا، ولكنهم لا يستطيعون في الظروف الطبيعية أن يبادروا بالسيطرة أو حتى ممارسة أي تأثير فعلي على تصرفاتنا. يبدو أن ذلك أشبه ما يكون بأكبر أنواع خرافات العصور الوسطى، ولكن براهين البحوث النفسانية تقول بأن من واجبنا على الأقل أن نقبلها كنظرية قائمة.

ولعل أكثر العوامل أهمية في البحوث النفسانية هو الاعتراف بأننا نمتلك كل أنواع القوى التي لا ندركها بوعينا بدءاً من التخاطر والتسلط الروحي وانتهاء بالظهور النوراني والمعرفة المسبقة بالمستقبل. ومع ذلك فإنني أعتقد أن هذه القوى أقل أهمية مما يمكن أن نزعم. ولقد اعترفت كل الأديان بأنها من نتاج التطور الروحاني، ويقول الهندوس إن اليوجي الذي يغامر بالمشي على الماء ما زال يعيش في المراحل الأولى من التطور.

أما البديل، وهو التفاني في سبيل الله أو في سبيل الحقيقة العليا، وإنما هو ببساطة السبب في أننا نعطي للكلمة معناها الخاطىء، فيصر عالم النفسي الفرنسي بيير جانيت على أن معايير الصحة العقلية هي خاصية يسميها «حقيقة الوظيفة» ولم يكن يتحدث في ذلك عن بعض الواقع الغيبي فقط بل عن الواقع اليومي الذي يحيط بنا. فالكبت والبؤس والخطايا، وقبلها جميعاً المخاوف والشكوك فيما هو مناف للعقل كلها تمنعنا من التجاوب المباشر الصحيح مع هذا الواقع.

وتعتبر الكائنات البشرية هي المخلوقات الوحيدة التي تقضي ٩٠٪ من وقتها في أحلام عن عالمنا تراودها داخل رؤوسها. فنحن ذاتيون للغاية ومشكلتنا الرئيسية هي أن نتعلم بطريقة موضوعية كيف نحقق ما قد يسمى «الوعي الموضوعي».

وفي الحقيقة أن الوعي الموضوعي أقل قدرة مما قد يبدو لنا، فما علينا إلا أن نمشي في الهواء الطلق خارج الجدران صباح يوم مشمس لنجرب الشعور المفاجىء بأن الحياة بهيجة وممتعة بلا حدود. وإذا ما استطعنا أن نحافظ على هذا الشعور طول

الوقت فسيصبح العالم نوعاً من الجنة، يخلو من الحروب ويخلو من الجريمة، ويخلو من الحقارات والدناءات والأشياء المعجوجة. وتصبح مشكلتنا هي أن تنفذ بصيرتنا إلى بعيد بسهولة. فالإرهاق يضعف من حدّة الإدراك وتزداد المخاوف من الأشياء الصغيرة والقلق مما يأتي متدافعاً من جديد إلى عقولنا مثل الفئران في مواسير الصرف الصحي. ولا بد أن كلاً منا قد لاحظ أنه إذا أسلم نفسه للضغوط الطبيعية فسيصل إلى نقطة تزداد فيها حدة البؤس والقلق (هناك طريقة سهلة لاختبار هذه الظاهرة هي أن تهرول في مشيك وتحفر في الحديقة بجهد أكثر من العادي). إن كل ما هو مكبوت كبتاً خفيفاً من عدم الثقة في الحياة سرعان ما يظهر بصورة صارخة من هامش الوعي (لا من اللاوعي وهامش الوعي هذا هو ذلك المجال الذي يقع في طرق الوعي العادي) والطريقة الوحيدة لتغيير ذلك هو العمل فقط على طرد الفئران من المواسير، أو بمعنى آخر إخضاع المخاوف والقلق لرقابة العقل الواعي وللسببية، فنستطيع بذلك أن نعيد برمجة هامش الوعي بحيث لا يصبح خطراً يهدد الصحة.

نحن في الحقيقة نقترب من مشكلة مذهب الحياتية الذي ناقشناه في الفصل السابق من زاوية أخرى، فالحياتية كما رأينا اعتقاد في أن الحياة تدخل في صراع لتغزو المادة بأن تدخل إليها «مزيداً من الحرية»، ولذا فكما ذكر هولم T.E. Hulm يمكن اعتبار الأميبا ارتشاحاً ضئيلاً من الحرية والأسماك ارتشاحاً أكبر أيضاً، أما الإنسان فهو الارتشاح الأكبر (على الأقل على هذا الكوكب). ومهمتنا بناء على مذهب الحياتية هو أن نبذل جهداً مدروساً واعياً لزيادة حجم هذا الارتشاح.

وسواء كنا مؤمنين بمذهب الحياتية أو غير مؤمنين به، فكلنا نعترف بأن جوهر الحقيقة يكمن في هذا الرأي. فحينما يقود الإنسان سيارة بسرعة تسعين ميلاً في الساعة يشعر بأنه أكثر حيوية، وحينما ينفعل وهو يشاهد مباراة كرة القدم يشعر بأنه أكثر حيوية. ولكن هذه طرق بدائية للشعور بحيوية أكثر. وحينما يصبح القارىء مندمجاً تماماً في عالم الخيال وهو يقرأ رواية، وحينما يستغرق محب الموسيقى وهو يسمع سيمفونية، فإنهم يشعرون بتجربة اتساع داخلي معين في الوعي يبدو مختلفاً تماماً عن الإثارة الطبيعية. فمشجع الكرة يعلم تماماً أن استثارته تعتمد على المباراة ذاتها، ولكن الشخص الذي تستهويه الإثارات الخيالية فيشعر بأن هذه التجربة خاضعة إلى حد ما لتحكم الشخص فيها، بمعنى أنه يستطيع أن يستحضرها مرة أخرى بفعل الخيال.

ويبدو واضحاً للذين لديهم قابلية الاستثارة العقلية أو الخيالية أن هذا هو مفتاح «تزايد الإرتشاح» المتروي للحرية.

كان شوبنهاور أحد أوائل الفلاسفة الذين فكروا في إطار «قوة الحياة»، وتبعه في ذلك إدوارد فون هاتمان، ثم جاء بعدهما شو وبرجسون ودريتش، وجميعهم فكروا في الحياة كشيء أعمى أو قوة غريزية تشق طريقها وهي متجمعة تجمعاً أقرب إلى التعبير عن نفسه. لكننا علمنا أن برجسون ودريتش قد غيرا رأيهما فيما بعد لسببين رئيسيين، أولهما أنه إذا كانت قوى مثل التخاطر والاستشفاف موجودة فلا بد وأن لقوى الحياة من السيطرة على المادة ما هو أكثر بكثير مما نفترض. ويبدو أن هذه السيطرة تتحدد بواسطة عدم قدرتنا على مسايرة نغم هذه القوى أو ميلنا إلى مقاومتها بالفعل. (فغالباً ما كانت أوامر روزاليند هايوود تضعها في الموقف الذي لا يستعمل عقله، ولذا كانت طاعتها للأوامر تأتي بالنتائج المرجوة منها). ويبقى أن القوى غير المرئية تبدو أولاً كأنها تسلك مسلك الذي له غرض معين أو كأنها فوق الوعي العادي. وثانياً أن الحياة بعد الموت حقيقة، ولذا يبدو العالم الآخر موجوداً في مستوى محسوس من المادة أقل تجسماً مما نحن فيه. وربما كان المستوى الذي تتواجد فيه الحياة بعد الموت ذا ذبذبات أعلى درجة، وهذا يوحي بأن الحياة قد غزت ذلك المستوى بالفعل وأنها تستخدمه كقاعدة للقيام بغزو أماكن أكثر صعوبة وعدوانية. ولقد قال جورددييف Gurdjief مرة إن الأرض هي النظير الكوني لسيبيريا الخارجية، وربما كانت المقارنة الأفضل أن تكون الأرض بمثابة «الغرب الموحش» أو مجاهل إفريقيا وهي في انتظار الاستعمار والغزو».

لكن كما سبق أن عرفنا تتمثل المشكلة الكبرى في أن الحياة تفقد ذاكرتها حينما تترك إلى المادة، ويمكن مقارنة ذلك بالطفل الذي يرسل في مهمة معينة، ولكنه ينسى التعليمات التي أعطيت له وهو في منتصف الطريق فيؤدي هذا النسيان بالنسبة للإنسان إلى الشعور بأنه قد وقع في أسر عالم بشع من المادة. وبالنسبة لفهم سارتر للموضوع: «لا معنى لأن نعيش ولا معنى لأن نموت».

وفي ظل الظروف يبدو واضحاً أن أساس مشكلة قوة الحياة هي كيف نمنع أنفسنا من نسيان التعليمات والاضطرار إلى العودة للمنزل دون إنجاز المطلوب، أو كحالة هتلر أو جاك أو ريبر Ripper الذين تركوا العالم أسوأ بكثير مما وجدناه عليه.

ولننظر إلى هذه المشكلة كما لو أننا ننتمي إلى ذكاء الكائنات العليا أو الملائكة

الـذين يجلسـون في السمـوات ينظرون إلى أسفـل إلى البشر ويحارون في إيجاد العـلاج الدائم لهذه المشكلة، مشكلة النسيان.

والشيء الذي نجمع عليه جميعاً عن الغرض من الحياة هو زيادة سيطرتها على المادة لتحقيق تزايد ارتشاح الحرية، وبذلك يكون آخـر ما نـريده هـو جنس من المخلوقات يشعر بأن الحياة تافهة لا معنى لها وأن زيادة سرعة الهـروب من هذا الـظلام ومن ذلك العناء هو الأفضل. مثالياً نحن نريد مخلوقات لها شهية بالغة للواقعية.

والمشكلة مع هؤلاء البشر أنهم جميعاً يبدأون بشعور يمـلأهم بأن الحيـاة ستكون بهيجة رائعة وأن للعالم نظيراً موازياً له في النور السـماوي، وسيهزم السـأم والملل وينتهي غموض العالم. ومما يجعل الأمر أكثر مضايقة هـو أنهم الآن أقرب مـا يكونـون لتحقيق أهدافهم. فعلى مدى مئات الآلاف من السنين ناضلوا ببسالة ومثابرة ضد البرد وضـد الجوع وضد الضواري، ومرة تلو المرة نجوا من الفناء بعضات أسنانهم ثم بدأوا أبعـد من ذلك يستخدمون ذكاءهم في صنع أسلحة ليصـطادوا بها طعـامهم، وبنوا مـأواهم الـذي يحميهم من الجو. ومنـذ ذلك الـوقت بدأت الحيـاة تتحسن تـدريجيـاً التي رغم محصلاتها السيئة من حرب وجريمة رفضوا أن يعوقهم شيء في إقامتها، وبدأوا تدريجيـاً يتعلمون جعل الحياة أحق بالحياة. بعد ذلـك خطوا أهم خـطوة نحو الأمـام وأبدعـوا الفن والأدب، وكانت هي الخطوة الأولى نحو غزو عالم العقل، وأخيراً أخذوا ينظرون إلى تحقيق غرضهم الأساسي وهم يقتربون من اختراق رأس الجسر المنيع لعالم المادة.

ثم انبثقت بعد ذلك مشكلة جديدة غير متوقعة، إذ بدأوا يضيفـون إلى الحضارة التي أنشـأها أسـلافهم بجهد وعمـل شاق. وكـانت المشكلة طبعـاً هي أن كـل ذلـك حدث بسرعة كبيرة، إذ أنهم قضوا ملايين السنين يصارعون من أجل البقاء ثم بعدهـا حققوا أمن الحضارة مباشرة مما تركهم حائرين مرتبكـين، وبدلاً من الصراع من أجـل مـزيد من الـوعي أخذوا يختـارون الطريق الأقـل مقاومـة ويضيعون حيـاتهم بحثاً عن الكفاية المباشرة.

في ذلـك المـاضي السحيق كـان الـذكـاء العلوي عـلى اتصـال مستمر بـالجنس البشري من خلال أفراد معينـين ممن لديهم حسـاسية شـديدة لتلقي الـرسالات. وهـم الذين يسمون الأنبياء والرسل الذين استطاعوا أن يطلعوا عـلى الغرض من الحيـاة من

خلال وحي غيبي، ثم استخدموا قواهم الفائقة لمحاولة إقناع كل شخص أن يعيش كما لو أن هدف الحياة هو الحصول على جواز سفر إلى السماوات. ظل منهاج منع البشر نسيان المهمة المبعوثين من أجلها ناجحاً نجاحاً باهراً لآلاف السنين، وحافظت الأديان على الإبقاء على الإنسان عاملاً في سبيل ذلك الغرض الرئيسي وهو زيادة تفاؤل الإنسان ونمو ذكائه، (هذا هو ما تتوصل إليه أبسط التحليلات)، ولكن تسبب عن نمو الذكاء أن الإنسان أصبح متجاوزاً بنموه نطاق دينه، وأدت تعقيدات الحضارة إلى خلق المزيد والمزيد من المتسربين، وهم أناس سلموا بأن الحياة لا معنى لها إطلاقاً وأنها فترة سجن يعقبها العفو. وفي واقع الأمر وصلنا في القرن التاسع عشر إلى المرحلة التي ازدادات فيها معارف الإنسان بشكل واضح وأدت إلى أن يصل الإنسان إلى استخلاص فكرة أن المادة هي الحقيقة الوحيدة.

عند هذه المرحلة قررت اللجنة الفرعية للملائكة أن تحاول تجربة فكرة أخرى للاتصال بطريقة أكثر استهدافاً لإقناع الناس بأن هناك حياة بعد الموت. وبدأت تلك التجربة في العقد الخامس من القرن الماضي في شكل حركة دينية تسمى الروحانية انتشرت في كل أنحاء العالم، ومع الأسف اتجهت إلى اجتذاب النوع الخاطىء من الأشخاص وهم ذوو النزعة العاطفية والعقول السطحية. وظلَّ العلماء والفلاسفة بمعزل عنها. بعد ذلك اقترحت لجنة أخرى من الملائكة زيادة استخدامهم تجارب حافة الموت كمنهاج للتعليم، ونجحت هذه التجربة أيضاً، ولكنه كان نجاحاً محدوداً لدرجة أنه لم يؤت بثمار جيدة. وبالإضافة إلى ذلك تعرض كل مشروع الروحانية لمؤامرات من جانب الذين اخذوا يتدخلون تدخلاً مستمراً من أرواح عابثة مرتبطة بالأرض. . أرواح المجرمين والمشاغبين والمنحرفين من العالم الآخر فنجحوا في خلق بلبلة انتشرت في كل الأنحاء. وعلى العموم فإن تجربة الروحانية لم ينظر إليها من جانب أصحاب الذكاء العلوي على أنها إحدى مظاهر نجاحهم الكبير.

يتركنا هذا بالطبع مع التساؤل الأصلي: كيف يمكن للكائنات البشرية أن تمنع نسيان التعليمات التي صدرت إليها وتضيع بذلك حياتها؟ نحن نعترف بغريزتنا بأن هذا هو السؤال المحوري عن الوجود البشري، هو سؤال عن الحياة، وهذا هو الاعتراف الغريزي الذي يشرح لنا السبب في أن براهين الروحانية قد أدت إلى مثل ذلك التأثير البسيط على الجنس البشري، وقد نتوقع أن تستثير المسألة اهتمام كل فرد

من أبنـاء البشرية. وحـول ذلك كتب دوستـوفسكي في يوميـات كاتب: «هنـاك فكرة رفيعة واحدة على الأرض هي مفهوم خلود روح الإنسـان، وكل مـا عداهـا من أفكار عميقة يعيش بها الإنسان مجرد امتداد لهذا المفهوم». غير أن الروحانية لم تحقق تقدمـاً ملحوظاً خلال القرن والنصف الذي تواجدت فيه واقتصر أمرهـا على أنها من مميـزات العصر فقط، ويعتبر هذا السؤال أقل أهمية من السؤال عن الحياة.

هناك شيء واضح هو أن موضوع السؤال عن الحياة لم يعد من المسائل التي تهم فقط الذكاء العلوي وحده، فمنذ أكثر من قرن كان البشر يستخدمون ذكاءهم لمحاولة حل لغزها (كما رأينا بدأت جمعية البحوث النفسـانية حينـما طرح اثنـان من الفلاسفـة سؤالاً عما إذا أمكن لبراهين خوارق العادات أن تحل لغز الكون)، وقد طرح الكثيرون مثل كير كجارد وتولستوي وديستوفسكي ونيتشه وشو وجاسبرز وكـامو وغيرهـم سؤال الحياة الذي كان محور التساؤلات (حتى أنا أيضاً قد أضفت شيئاً صغيراً للموضوع).

وبالتدريج بدأ إطار الإجابة على السؤال يظهر، وهـو أن البشر لديهم مشكلة في الحفـاظ على الفـرض لحد كبـير حينما يـواجهـون المفـاجـآت والصعـوبـات التي تهـدد وجودهم. وإذا ما حدث ذلك فـإننا نصبـح واعين بميكـانيكية زيـادة ارتشـاح الحـرية. وحينما أواجه بعض التحديات المفاجئة والأخطار فإن أثرها الأول هو تقويض حيويتي، حيث يتدفق الأدرينالين إلى مجاري الدم وتنخفض ثقتي عدة درجات، ثم أسرق نفسي لأواجه المشكلة، ويصبح عندي في الحقيقة ارتشـاح زائد. وإذا مـا استطعت أن أقضي حياتي كلها في مواجهة التحديات الهـامة فـإن ضبط النفس والحريـة سيزداد عـلى طول الخط، وبالنسبة للذكاء العلوي فقد أقوم بعملية مـرضية لـدرجة تكفي لتـوسيع رأس الجسر إليه.

وفي كتابي «تاريخ الجريمة البشرية» تحـدّثت عن الاستجابة الأساسيـة للتحديـات وهي تـدفق الإدرينالـين باعتبـاره قوة تبعث التـوتـر ويـرمـز لهـا بحـرف «ت»، وتـأتي الاستجـابة للتحـدّي وهي التحكّم ويـرمـز لهـا بـالحـرف «ك»، ويمثّـل هـذان القضيـة المحورية للوجود البشري، ويصبح جوهر سؤال الحيـاة هو زيـادة ك للتغلب على «ت» (أي زيادة التحكم للتغلب على التوتر). وهذه هي الطريقة التي يزيـد بها الارتشـاح، وهو ما يفسر بالطبع السبب في أن معظم دوافعنا البشرية الأسـاسية هي أن نبحث عن التحديات. فحينما كنا نسكن الكهـوف أو في أدغال إفـريقيا لم تـظهر مشكلة لأنـنـا كـنـا

نواجه ما يكفي من تحديات تبقينا في الوضع الطبيعي، وهذا هو السبب في أن الإنسان أصبح أكثر الكائنات نجاحاً على الأرض. ولكن حينما بدأ الإنسان يقيم المدن بدأ يواجه المشكلة التي أصبحت عقبة كبرى أمام تقدمه «تحدي المجاعة»، واستجاب لها بابتكار الحرب التي تجعل قلبه يدق بصورة أسرع. وخلال الستة آلاف والسبعة آلاف سنة التالية أصبح الانسان أكثر المخلوقات عدوانية وقتالاً، حتى بمقارنته بالديناصورات آكلات اللحوم، والنمور ذات الأنياب. وطوّر الإنسان أيضاً الكثير من الوسائل الأقل إيذاء لمواجهة تحدي المجاعة، مثل تسلق الجبال ورحلات الاستكشاف وارتياد المجهول وغزو الطبيعة. لكن كان لهذا الاستثهار أثره الذي حاول الإنسان تجنبه وهو أن يجعل الحياة أقل تحدياً له. وحينما فقدت الحياة تحدياتها فقدت أيضاً طعمها وبدأنا نشعر بالضيق والاختناق. وكان رد الفعل الغريزي في الأطفال والكبار على حدٌ سواء هو أن ننظر إلى ما حولنا لنبحث عن أحزان ننغمس فيها. فالضيق يدعو إلى انطلاقة الدوافع الهدامة، وذلك هو السبب في أن إحدى المشاكل الرئيسية للحضارة الغربية في الربع الأخير من القرن العشرين هو الجريمة التي لا دافع لها بدءاً من سباق التسلح إلى فرق كرة القدم إلى القتل الجماعي.

على ذلك حينما نستخدم الذكاء في حل المشاكل فإن الإجابة تكون كافية تماماً. إنها قوة العادة التي تجعلنا نكتسب دافعاً طبيعياً، فأنا أركز وأبدأ في إثارة القوى الكامنة ثم أبدأ في تنظيم تلك القوى، ولكن لا يوجد في الحقيقة ما يوقفني عن إثارة القوة «ت» بنفس جهد التركيز والإرادة، ثم بعد ذلك أبدأ في السيطرة عليها. وفي الحقيقة أن النساك والزهاد كانوا دائماً على علم بهذه الخدعة، فأوجدوا تحدياتهم الخاصة مثل الصيام والتأمّل وتعذيب الجسد من أجل تقوية الإرادة. ويبدو أن مثل هذه التدريبات تبقى إرادية حتى نعرف الغرض منها وهو إثارة القوة «ت» ثم إخضاعها للقوة «ك» (أي إثارة التوتر ثم إخضاعه لضبط النفس وكبته أو التحكم فيه) وبذلك يزداد الإحساس بالحرية ويتوسع نطاق الوعي.

يقابل معظمنا مناهج التساؤل على أنها كريهة وبدائية ومؤلمة، ويرجع ذلك في جانب منه إلى أننا نحس بأنها بالضرورة غير عنيفة. وفي خلال القرنين أو الثلاثة الأخيرة تطورت القوة التي اعتادها أسلافنا. وألفوها إلفة سطحية وهي الخيال. أما الإنسان الحديث فإنه يعتبرها أمراً مسلماً به لأنه يمارسها منذ طفولته: بقراءة الكتب

الفكاهية والذهاب إلى السينما ومشاهدة التليفزيون. ولئن كان من الصعب علينا غالباً أن نعرف صورة الحياة التي كان عليها إنسان القرن الخامس عشر، فإنه من اللحظة الذي يفتح فيها عينيه في الصباح كان عقله كله يركز على العالم الواقعي، وبالمقارنة بينه وبين الإنسان الحديث كانت قوة الخيال عنده ضعيفة مثل يد الطفل إذا قورنت بيد الرجل الكبير، لم يكن لديه غالباً حياة عقلية. وفي ضوء هذا يكون الإنسان قد زاد من حريته لدرجة كبيرة خلال قرون معدودة (كان ابتكار الرواية في القرن الثامن عشر أكثر الأحداث أثراً في تاريخ البشرية) والآن أصبح أغلب الأطفال يألفون «تجربة الاندماج الكامل في القصّة لحدّ أن الطفل قد يحسّ وكأنه يعيش في افريقيا وهو يقرأ كتاباً مثل كنوز الملك سليمان، أو في فرنسا حينما يقرأ الفرسان الثلاثة. وحينما نجرب نفس النوع من الاندماج فإننا نعلم أن ذلك هو الحل الأساسي لسؤال لغز الحياة. فالخيال الذي يوجه توجيهاً سليماً ويخضع للتحكم يعتبر وسيلة لاستثارة القوة «ت» والقوة «ك» بصورة أفضل كثيراً من حرمان النفس لدى القديس أو اختيار المتاعب مثل البحار الذي يدور حول العالم.

سوف يشعر معظم الناس بالشك إزاء هذا القول. وذلك لأننا نميل إلى التفكير في الخيال على أنه مرادف لأحلام اليقظة أو الخيال غير الواقعي. أو بمعنى آخر الكذب على النفس، وهذا خطأ، فالخيال في واقع الأمر أساساً هو قوة الهروب من اللحظة الحاضرة. ربما يبدو كأنه نشاط مريب حتى تضيف إليه بعض التفكير، فالمشكلة المحورية للجنس البشري هي أنهم أسارى اللحظة الحاضرة، أفقهم محدود بالانغلاقات. فحينما يصل الطفل إلى درجة الضجر الشديد فإنه يشعر بأن اللحظة الحاضرة ثابتة لا تتغير إلى حد كبير، وأنها سوف تستمر إلى الأبد. ورغم أن المفروض أن يكون الكبار على علم أفضل فإنهم يقعون في نفس الوهم الغريب. فالمفروض أنهم تعلموا من التجارب أنهم أقوى من المادة التي تحيط بهم كما ذكر ديكنز: «إذا لم تحب حياتك فيمكنك أن تغيرها»، ومع ذلك ففي اللحظة التي يصيبهم فيها الضجر يصبحون عرضة للإحساس المألوف بالأسرة كالذبابة التي تلتصق بورقة صيد الذباب. هم يعلمون أن ذلك غير مقبول عقلاً، وأن المستقبل سوف يأتي بكل أنواع التغيرات، ومع ذلك يستمرون في السماح لأنفسهم بأن يكونوا محدودين ومعوقين وفي حالة من السلبية بواسطة فورية اللحظة الحالية، مثل المراهق الذي يبلغ طوله ستة أقدام ويستسلم لمن هو في نصف حجمه لأنه اعتاد ذلك.

الحقيقة أننا دائماً نلمح قوانا الحقيقية المسيطرة على الحاضر، فقد أكون متورطاً في عمل مسبب للضجر، بينما تزحف نغمات موسيقية متفرقة إلى رأسي فينبعث فينا شعور غريب بأنباء سارة، وربما تؤدي رائحة رغيف يخرج من الفرن أو رائحة بنّ يحمص على النار إلى استثارة طفولتي وإحياء شعوري بالسرور البالغ. إن مثل تلك اللحظات هي التي خصص لها بروست Proust رواية مكونة من اثني عشر جزءاً، وهي لحظات يصعب تفسيرها حتى نستطيع أن نلمس مدى استغراقنا في أسر اللحظة الحالية. إنها تعتصرنا وتخنقنا، ولا بد أن نعتاد تماماً الشعور بأننا سوف نعتبرها شيئاً عادياً كجزء من حالة إنسانية. إن ما تفعله فينا المقطوعة الموسيقية أو الرائحة النفاذة هو أنها تذكرنا بأن الماضي رغم انقضائه منذ زمن طويل، واقع مستبد بنا كالحاضر تماماً، وما تخبرنا به هذه اللحظات هو «أنك أكثر حرية وأقوى مما تظن، وبذلك يغمرنا إحساس عامر بالارتياح الخالص».

وحينما نفكر فيه يمكننا أن نرى أن ما نسميه السعادة لا يخرج عن هذا الشعور بأننا أسارى اللحظة الحالية. وذلك هو السبب في أننا نستمتع بالإجازات وبالمفاجآت وبالروايات الرومانسية تماماً كما استمتع ركاب البالونات الأوائل بتواجدهم بعيداً عن سطح الأرض يرون العالم كرؤية الطير له. إن المفاجآت تعطينا نظرة شمولية على الحياة نفسها ويبدو أن فيها تحييد القوة الجاذبة الغريبة التي تحكم التصاقنا بالحاضر.

حقاً إن هذا هو الغرض الواقعي من التخيل، فهو ليس لخلق الصور الخيالية الجامحة بل لجعلنا ندرك أزمنة أخرى وأماكن أخرى. وحينما يحدث ذلك بالفعل ندرك أنه كله خيال في خيال لا يناسب إطلاقاً هذه القدرة التي تستطيع أن ترفعنا أو تسمو بنا عن اللحظة الحاضرة مثلما يرفع الصاروخ القمر الصناعي، ويجعلنا ذلك مدركين بصورة من الصور أننا مواطنون خالدون. إن هذا هو السبب الذي جعلني في مكان آخر استخدم مصطلح الخاصية «س» لتدل على القدرة على رؤية الحقيقة عن أماكن وأزمنة أخرى[1].

والآن نجد أن هذه الخاصية لا تعمل بانتظام، فإنها تعمل بكفاءة إذا شعرت بالرغبة. ومع ذلك فحينما تعمل بسهولة وفورية مثل إضاءة النور، وفي لحظة

---

(١) أنظر كتاب «خفايا الحياة» الفصل الثاني.

من اللحظات يصبح الماضي واقعاً كاملاً، تماماً مثل واقع الحاضر. ونتأكد من أنه واقع كالحاضر، بل لعل الحاضر يفتقر إلى بعض المميزات الخاصة بالواقع السامي لأنه ببساطة يحدث الآن وهنا، ومقصدنا هو أن نصبح سادة الزمن لا عبيداً له.

إن السهولة التي تعمل بها هذه الخاصية توحي بأنها متأصلة في خلايا الوراثة (الجينات) فينا تماماً مثل سيرنا بقامة معتدلة أو مثل قدرة الطير على الطيران. ولهذا السبب فإن الخاصية «س» تزودنا بالشعور بالأنباء السارة الغريبة، وهي التي تجعلنا نتحقق من أننا نملكها بالفعل.

عند هذه النقطة ربما نستعيد في الذهن المبحث الرئيسي عن الشخصية الإنسانية وبقائها بعد الموت الجسدي، ونذكر أن هناك دلائل قوية للغاية على أن البشر يملكون كل أنواع الخصائص غير العادية التي لا يدرك أغلبنا كنهها من قوى خارقة كقوى العمليات الحسابية الضخمة، وأصحاب الذاكرة المصورة (الذين يحفظون الصفحة من مجرد نظرة واحدة ويعيدونها عن ظهر قلب) والتخاطر والاستشفاف، والانعكاسات النورانية. وربما تكون هذه القوى قريبة الصلة بالخاصية س. مثال ذلك القوة الغريبة لعكس صورة نظير الشخص بحيث يراه الآخرون من مسافة بعيدة (كما في حالة القس مونتفورد الذي رأينا قدرته على عكس صورة حصان وعربة). ويعتبر كتاب مايرز دعوة إلى شكل جديد من علم النفس يبحث في تلك القوى المجهولة، فحينما رأى البروفسور هايم كل حياته تمر وامضة أمام عينيه حينما سقط من الشق الصخري اكتشف شيئاً عن عقله لم يظن في وجوده أبداً. وينطبق نفس القول على القس برتراند حينما استلقى وهو متجمد من الصقيع على حافة الجرف وتابع تقدم تلاميذه في صعودهم نحو القمة، وحينما رأت سارة هول نظيرتها واقفة على جانب المائدة، وحينما انقسمت روزاليند هايوود إلى الأنا القرمزية والأنا البيضاء. فكل هذه الحالات كانت تواجه عنصراً من عناصر الشخصية الإنسانية التي ما زالت حتى وقتنا الحاضر غير معروفة للعلم. وحينما اكتشف جوزيف رودس بيوكانان أن هناك أناساً معينين يستطيعون قراءة تاريخ الشيء بمجرّد إمساكهم به بأيديهم، كان يستعرض أن العقل الباطن له منافذ توصله إلى المعلومات الخفية، وحينما وضع ألفريد راسيل والاس أحد تلاميذه تحت تأثير التنويم ثم جعله يتذوق الأشياء بوضعها في فمه هو ليثبت بذلك أن اللاوعي له منفذ أو مدخل إلى عقول الآخرين.

وربما كان الأكثر أهمية من ذلك اكتشاف البحوث النفسانية بأننا قادرون على تطوير وتنمية تلك القوى ببساطة عن طريق الرغبة في ذلك. ولقد توصل عالم النفس ابراهام ماسلو إلى اكتشاف يشبه ذلك وهو تجربة القمة، أو لحظة مفاجأة السعادة الغامرة، فاكتشف أنه حينما كان يتكلم مع تلاميذه عن تجربة القمة لم يقتصر أمرهم على تذكر الكثير من تجارب القمة النصف منسية بل بدأوا أيضاً يمرون بتجربة القمة بصورة متكررة أكثر مما مضى، وأدى التفكير الحديث عن تجربة القمة إلى إعادة برمجة العقل دون الواعي ليقوم العقل الواعي ببقية المهمة. ولعل مما يوحي بأن المشكلة الرئيسية التي يواجهها الجنس البشري ليست هي المخاوف من الخطيئة الأولية، ولا بعض الإزعاجات العميقة والمبررة عن مكاننا في الكون، ولا إدراك أوجه الضعف والعجز الأساسية فينا، بل إنها ببساطة مشكلة البرمجة السيئة لما دون الوعي. فمعظمنا قد سمح للعقل الباطن أن يصبح حائراً وغير مرتب مثل حجرة لعب غير مستعملة تحولت إلى مستودع للمهملات القديمة قد تظهر رائحتها كريهة لوجود بقايا مأكولات قديمة سكبت فوقها بقايا المشروبات، في كل مرّة ننظر إليها نرى تلك النفايات من خلال الباب نصف المفتوح فنسرع لنبتعد عنها. ومع ذلك ربما قد لا يحتاج الأمر لأكثر من نصف ساعة لتنظيفها بالمقشة والممسحة فتتحول إلى واحدة من أجمل الحجرات في المنزل.

كان كل تاريخ البحوث النفسانية عبارة عن استعراضات لقوى تبدو غريبة يتميز بها العقل البشري. كانت دائماً في نظر العلماء وفي أحسن الحالات موضوعات معقدة وفي أسوأ الحالات فضائح. ومنذ أكثر من ثلاثة قرون مضت كان ديكارت قد وضع المنهج للعلوم الحديثة وسماه «الشك الجذري أو الشك الثوري» فيقول ديكارت إن على الفيلسوف أن يجلس في مقعده الوثير ويتأمل الكون كله من حوله، ثم عليه بعد ذلك أن يتجه إلى الشك في كل شيء يثير الشك، هل الشمس تدور فعلاً حول الأرض كما تبدو لنا؟ إذا سألنا هذا السؤال قد نصل إلى الحقيقة. وبالنسبة لسؤال عن كيف تثبت وجودك؟ أجاب ديكارت: «أنا أفكر إذن أنا موجود»، وبإقامة هذا الأساس الذي لا يهتز كما يبدو لنا استطاع أن يشعر بالاسترخاء في مقعده ويوجه منظاره المقرب لينظر إلى الكون من خلال نافذته.

لم يكن لدى الباحث في خوارق العادات أي شك في مبدأ «أنا أفكر إذن أنا موجود». ولكنه كان يميل إلى أن يضيف إليه سؤالاً مربكاً: «ماذا أنت؟» الواقع إن

ديكارت تغاضى عن طرح سؤال: «من أنا بالتحديد؟». وبالطبع كان يزعم أن ذكر رينيه ديكارت فيه الكفاية، وهو ما جاء في شهادة ميلاده، ولكن في كل غموض تجربة طموحة للتحقق من أنه ليس الشخص الذي يعتقد أنه هو. وفي لحظات الرؤية المكثفة تذوب هويته ويصبح مدركاً أنه لا يخرج عن كونه قناعاً، وينظر بدلاً من ذلك إلى أعماق عالم داخلي يتميز بتشابه كبير مع العالم الخارجي، ويصبح بالإمكان الإجابة على السؤال: «من أنا؟» بأن يوجه المنظار المعظم نحو ذاته.

في تلك اللحظة سوف يتحقق من أن الحدود الظاهرية لقواه ترجع إلى الحدود التي تحيط بصورة نفسه، ويصبح عليه أن يوسع أفق معلوماته عن نفسه، وما عليه إلا أن يغير اتجاه المنظار المعظم والتلسكوب إلى الجهة الأخرى.

الفهرس

تنفيذ مطبعة دار الكتب ـ بناية العازارية ـ شارع سوريا

تلفون: ٢٧٠٠٧٣ ـ ٨١١٥٧١ ـ ص.ب: ١١٣٥٤٩ ـ بيروت ـ لبنان

من مؤلفات كولن ولسون

- اللامنتمي
  ترجمة أنيس زكي حسن
- ما بعد اللامنتمي
  ترجمة يوسف شرورو وسمير كناب
- القفص الزجاجي
  ترجمة سامي خشبة
- طقوس في الظلام
  ترجمة فاروق محمد يوسف
- سقوط الحضارة
  ترجمة أنيس زكي حسن
- رحلة نحو البداية
  ترجمة سامي خشبة
- ضياع في سوهو
  ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق
- الحالم
  ترجمة سامي خشبة
- الإنسان وقواه الخفية
  ترجمة سامي خشبة
- الشك
  ترجمة يوسف شرورو
- خفايا الحياة
  ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد
- البرج ـ عالم العناكب
  ترجمة فكري بكر
- البرج ـ الجزء الثاني
  ترجمة فكري بكر



دار الآداب
هاتف ٨٠٢٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت